University Center of Barika

منتخبات من التاريخ السياسى والعسكر ى للبحر الابيض المتوسط فى العصر الوسيط والحديث

إشراف
د.فيصل مبرك

University Center of Barika, Algeria

منتخبات من التاريخ السياسي والعسكري للبحر الأبيض المتوسط في العصرين الوسيط والحديث

إشراف عام وتنسيق: الدكتور فيصل مبرك

اشراف عام وتنسيق: د. فيصل مبرك

اسم الكتاب: منتخبات من التاريخ السياسي والعسكري للبحر الأبيض المتوسط في العصرين الوسيط والحديث

الهيئة العلمية للانتقاء والمراجعة والتدقيق:

د. فيصل مبرك، المركز الجـــــامعي بريكة.
د. فاروق جياب، المركز الجـــــامعي بريكة.
د. خميسي سعدي، المركز الجـــامعي بريكة.
د. كريبي خالد، المركز الجـــــامعي بريكة.

تنسيق داخلي وإخراج فنّي: بلال سبع

تصميم الغلاف: دليلة حسناوي

الطبعة الأولى: 2024

الردمك: 978 -9969- 515- 10- 7

دار العكاظية للنشر والتوزيع

الهاتف: 0658908590

الايميل: marwa.25 cben@gmail.com

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

الأعمال الواردة في هذا الكتاب تعبر حصرا عن رأي أصحابها، وتحت مسؤوليتهم وليست معنية على كل حال بتوجيهات وآراء هيئات ولجان الملتقى.

منتخبـــات من التاريخ السيـاسي والعسكري للبحر الأبيض المتوسط في العصرين الوسيـط والحديـــث

مجموعة من المقالات المقدمة للملتقى الدولي:

البحر الأبيض المتوسط مجال التنافس بين المسيحية والإسلام

عبر التاريخ المنظم من طرف قسم:

العلوم الإنسانية، بالمركز الجامعي- سي الحواس- بريكة/ الجزائر

والمنعقد يومي 21- 22 فيفري 2023 حضوريا وبتقنية التحاضر

عن بعد عبر Meet Google

العكاظية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتوى:

الرقم	اسم الباحث	مؤسسة الانتماء	عنوان المداخلة	الصفحة
01	د. بلقاسم مرزوقي	المركز الجامعي- بريكة	الكلمة الافتتاحية للسيد مدير معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية .	9
02	د. فيصل مبرك	المركز الجامعي- بريكة	كلمة رئيس الملتقى: جدل الحرب والسلام؛ قراءة في المشهد السياسي والعسكري للبحر المتوسط وتحديات اليوم -من حرب أوكرانيا إلى طوفان الأقصى-	11
03	د. مسعودة بوجلال	جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي/ الجزائر	انتقال الريادة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي في القرن السادس عشر من خلال وجهة نظر فرناند بروديل	20
04	أ.د منذر الحايك	متقاعد من جامعة حمص/ سوريا	جزيرة قبرص، بؤرة الصراع الإسلامي المسيحي في العصور الوسطى	48
05	د.خديجة خيري عبد الكريم خيري	جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم/ السودان	التواصل الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي (جزيرة صقلية خلال الحكم النورماني نموذجاً)	64
06	أمين قارة	المركز الجامعي- بريكة/ الجزائر	معركة ليبانت 1571م الصراع الإسلامي المسيحي من خلال كتابات المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل	74
07	ناصر بوشليق	المركز الجامعي- بريكة/ الجزائر	شتات مسلمي الأندلس على سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التفتيش والترحيل النصراني (1492 - 1609م)	85
08	د. بن داود بن جارة	جامعة تلمسان/ الجزائر	جزر البحر الأبيض المتوسط والصراع بين الشرق والغرب جزيرتي صقلية وكريت -أنموذجا	97
09	د. كريبي خالد	المركز الجامعي- بريكة/ الجزائر	الفتح العثماني لجزيرة رودس " الأبعاد الدينية والسياسية	112

10	د. حسين عبد الحسين عباس الزهيري	كليـــة الامـــام الكاظم/ جمهورية العراق	المحاولات العسكرية الروسية للوصول الى البحر المتوسط خلال القرن التاسع عشر	121
11	أ.د درعي فاطمة	جامعـة مصـطفى اســـــطمبولي- معسكر/ الجزائر	" فرسان مالطا والصراع العثماني الإسباني على طرابلس الغرب خلال القرن 16م"	134
12	سالم جوامع	جامعـــة أبـــوبكر بلقايـد-تلمسـان/ الجزائر	الحصار العثماني لجزيرة مالطا 1565م، أسبابه ونتائجه	147
13	موسى العاشوري	كليـــــة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعـة سوسـة/ تونس	قـراءة فـي الأسـباب والانعكاسـات للصـراع الإسـلامي المسـيحي في الحـوض الغربي للبحـر الأبيض المتوسط	166
14	د. خميسي سعدي	المركـز الجـامعي- بريكة/ الجزائر	الحملـة البحريـة الإنجليزيـة الأولى على الجزائـر 1620م والعلاقات معها	178
15	د. كمال مايدي	المركـز الجـامعي الشريف بوشوشة أفلـو- الأغـواط/ الجزائر	التقاطع في العلاقات بين الإسلام والمسيحية؛ ثنائية الصراع بين الدولة العثمانية والتحالف المسيحي من معركة ليبانت 1571م إلى ضم تونس 1574م	183
16	د. شريف عبد القادر	جامعة الجزائر2/ الجزائر	ظاهرة القرصنة البحرية في الحوض الغربي للمتوسط بضفتيه (الأوروبية والمغاربية) في العصـر الوسـيط وانعكاسـاتها المختلفـة (7_9هـ/13_15م)	202
17	د. عبد النور غرينة د. مليكة قليل	جامعـة عبـاس لغـرور خنشـلة/ الجزائر جامعـة عبـاس لغـرور خنشـلة/	محـاكم التفتـيش؛ صـورة للصـراع المسـيحي الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط	217

			الجزائر	
18	د. فاروق جياب	المركز الجامعي- بريكة/ الجزائر	دور الجزائر في مواجهة المد الصليبي الأوربي في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين 16 و17م -مقاربة سياسية عسكرية-	232
19	د. سمير مشوشة	جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2-	جدلية تجاذب الأعمال القرصانية بين ضفتي البحر المتوسط خلال العهد العثماني - دراسة في الأبعاد الدينية والتاريخية للقرصنة المتوسطية-	252
20	د. عمار عطية الباحث: سعيد رقاب	جامعة عمار ثليجي الأغواط/ الجزائر	ثيمة القرصنة في الحوض الغربي للمتوسط بين الاسطوغرافيا المسيحية والإسلامية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادي	273

الكلمة الافتتاحية للسيد مدير معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

الدكتور: بلقاسم مرزوقي
University Center of Barika, Algeria
belkacem.merzougui@cu-barika.dz

باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد:

السادة الأفاضل، السيدات الفضليات، أصالة عن نفسي ونيابة عن مديرة المركز الجامعي بريكة/ الجزائر الأستاذة الدكتورة شهيرة بولحية، أرحب بكل الأساتذة الحاضرين والمشاركين معنا في هذا الملتقى الدولي العامر من مختلف جامعات الوطن، كما أرحب شديد الترحاب بالأساتذة والباحثين الضيوف من مختلف الجامعات في العالم العربي الذين ساهموا معنا في هذه التظاهرة العلمية الناجحة بإذن الله تعالى.

كما لا يفوتني أن أشيد بالمجهودات التي قام بها الأساتذة المنظمون لهذا الملتقى وعلى رأسهم الدكتور فيصل مبرك رئيس الملتقى والدكتور فاروق جياب رئيس اللجنة العلمية، والدكتور خميسي سعدي رئيس اللجنة التنظيمية والشكر موصول لكل أعضاء اللجنتين العلمية والتنظيمية، و لا أنسى طلبتنا الكرام في مختلف المستويات ليسانس وماستر ودكتوراه لحضورهم معنا واهتمامهم الشديد وحرصهم على العلم ومنابعه، والشكر موصول لكل الحاضرين بدون استثناء.

في البداية أحب أن أركز على أهمية الأبحاث التاريخية التي تقدمها وحدة بحث التكوين الجامعي PRFU الموسومة بـ: التاريخ السياسي والعسكري لحوض البحر الأبيض المتوسط في القرنين 16 و 17م، لأنها تطرح مواضيع غاية في الأهمية، فعالم البحر الأبيض المتوسط يمكن أن يختزل التاريخ الكلاسيكي والتاريخ المعاصر معا، ولا شك أن لهذا البحر أحداثه التاريخية الغزيرة فملتقى الحضارات ومجمع الثقافات ومنشأ الديانات، ولهذا فقضية الإسلام والمسيحية يجب أن تناقش علميا داخل الإطار المتوسطي باعتباره مجالا من مجالات التنافس الحضاري بين الديانة المسيحية الممتدة ودين الإسلام.

أما الإسلام وإن كان قد انطلق من مكة في بلاد الحجاز فإنه قد وصل في ظرف وجيز إلى أطراف البحر الأبيض المتوسط كالقاهرة ودمشق وبيت المقدس والقيروان وقرطبة وصقلية، فمنذ سنوات الفتح الأولى تطلع هذا الدين إلى الوصول للبحر الأبيض المتوسط من خلال فتحه لبلاد الشام وفلسطين ومصر وخوضه أولى الحروب البحرية "معركة ذات الصواري"، واقترابه من البحر يعني أنه اصبح يطمح فعليا في الريادة والسيطرة، وتجدر الإشارة إلى أن النظرة الأوروبية هذه؛ ليست وليدة القرن العشرين بل ترجع إلى أقدم من ذلك بكثير فلا غرو أن تكون منطقة المتوسط منطقة صراع تفرض منطق القوة والغلبة، ولا سيما أن أوروبا في العصر الوسيط كانت تسمي البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأوروبي كما كان المسلمون أيضا حينها يسمونه بحر الروم أو البحر الرومي، لتؤكد الأحداث التاريخية منذ العصر الحديث تسمية البحر الأوروبي المسيحي، لهذا اعتبر المتوسط ساحة قتال مقدس تقاطعت فيه المصالح الإمبراطوريات التوسعية والاقتصادية مع المصالح الكنسية.

ولد رأى المسلمون في هذا البحر مجال جهاد وفتح إسلامي، فاعتبروا السيطرة على المتوسط تساوي السيطرة على كل العالم، فأهمية الموضوع في تكمن كونه يعنى بالبحث والدراسة لثلاثة مجالات بحثية مهمة، الإسلام، المسيحية والبحر الأبيض المتوسط، ولا أريد أن أطيل كثيرا فإن في جعبة السادة المتدخلين الكثير من الأفكار والقضايا التاريخية التي تعالج مختلف محاور الملتقى، ختاما، أردد شكري مرة أخرى لكم، وباسمكم جميعا أعلن عن الافتتاح الرسمي للملتقى الدولي الموسوم ب: البحر الأبيض المتوسط مجال التنافس بين المسيحية والإسلام عبر التاريخ، متمنيا نجاحه وكل التوفيق والسداد للأساتذة الأكارم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

جدل الحرب والسلام؛ قراءة في المشهد السياسي والعسكري للبحر المتوسط وتحديات اليوم -من حرب أوكرانيا إلى طوفان الأقصى-

د. فيصل مبرك، المركـز الجــامعي سي الحواس بريكة
رئيس الملتقى الدولي: البحـــر الأبيض المتوسط مجال التنافس بين المسيحية والإسلام عبر التاريخ.
University Center of Barika, Algeria
Fayssal.mabrak@cu-barika.dz

مقدمة:

في البداية؛ وكرئيس للملتقى الدولي الموسوم بـ: البحر الأبيض المتوسط مجال التنافس بين المسيحية والإسلام عبر التاريخ، أحب أن أعبر عن كل مشاعر المودة والشكر لقسم العلوم الإنسانية بالمركز الجامعي بريكة/ الجزائر، وكل المساهمين في إنجاح هذا الملتقى وعلى رأسهم السادة أعضاء اللجنتين العلمية والتنظيمية، كما أشكر كل المشاركين في الملتقى من مختلف الجامعات الوطنية وكذا الجامعات والمراكز العلمية في الوطن العربي، وكلي أمل أن يؤدي هذه التظاهرة العلمية إلى المقصود وتفي بالغرض المأمول.

لم تكن هذه الأوراق نفسها المداخلة الأصلية التي شاركت بها ضمن الملتقى الدولي الأول الموسوم بـ: **الإسلام والمسيحية في البحر الأبيض المتوسط عبر التاريخ**، وإنما كانت مداخلتي الأصلية بعنوان: **جدل الحرب والسلام؛ قراءة في التاريخ السياسي والعسكري للبحر المتوسط في القرنين 16- 17م**، غير أن الأحداث الأخيرة التي شهدها العالم العربي والإسلامي قد أملت علي أن أقدم قراءتي المتواضعة للمشهد السياسي في الحوض المتوسطي انطلاقا من الأحداث التي يشهدها العالم (حرب روسيا وأوكرانيا)، وكذا الشرق الأوسط عموما وفلسطين المحتلة بالخصوص (عملية طوفان الأقصى)، كتكملة لموضوع الجدل بين الحرب والسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط في القرنين 16 و17م، وعلى الرغم من أن الظاهر في هذه الأحداث لا يشير إلى وطيد العلاقة بينها وبين البحر الأبيض المتوسط؛ فإن تحليل الأحداث وإعادة تركيبها يمكن أن ينبئ عن إمكانية قراءة مغايرة وجديدة لجيوبوليتيكا للبحر الأبيض المتوسط، كأهم

مجال حيوي واستراتيجي قد تجتمع فيه القوى الكبرى لتملي التاريخ بطريقتها، أو لتأخذ ما يمليه التاريخ عليها!!

في أهمية البحر الأبيض المتوسط للدول الكبرى:

لقد أنتجت الحرب بين الدول العربية وإسرائيل العديد من التغييرات الدبلوماسية في حوض البحر المتوسط وكذا الشرق الأوسط، وكان من أهمها فتح الطريق لتجديد العلاقات الأمريكية مع مصر ودول الخليج، ولكن فيما يتعلق بالشؤون العربية فإن أبرز السمات كانت عودة مصر إلى الظهور كدولة رائدة في العالم العربي والأهمية المكتسبة حديثًا للمملكة العربية السعودية، إضافة إلى تركيا وإيران، ويمكن للمرء أن يتابع التحليل إلى أبعد من ذلك ويقول إن التغييرات يمكن اختزالها في ظهور شخصيات تلخص دور الأمم والدول والشعوب في تصرفات فردية ديكتاتورية متحكمة في الاقتصاد والجيش والدبلوماسية والشؤون الخارجية كشخصيات بديلة عن الزعماء في فترة الستينات والسبعينات[1] وأقصد بالشخصيات الجديدة: عبد الفتاح السيسي ومحمد بن سلمان وبشار الأسد رجب طيب أردوغان وأمثالهم، أما الشارع العربي والإسلامي فإنه لا يتورع أحيانا في وصف هؤلاء بأوصاف عجيبة كعملاء وجواسيس وخونة وغير ذلك من الأوصاف العديدة التي تعبر عن آمال الشعوب وطموحاتها لا عن رؤية واقعية منطقية متوازنة، ولكن لا شك أن هذه الشخصيات مع شعوبها قد اجتمعت في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط مصطدمة مع أحداث دامية وعنيفة وحرب إبادة في مشهد العدوان الإسرائيلي على غزة.

ليس هذا فحسب؛ بل أن أهمية البحر الأبيض المتوسط تظهر جليا على التوجهات السياسية للدول العظمى في العالم، فالصين والهند وروسيا واليابان على خطى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية كلها تبدي اهتماما بالغا بالشؤون السياسية والاقتصادية المتوسطية، ورغم تباين المصالح وتضارب الأهداف في منطقة المتوسط؛ إلا أن مسعى السلام يبقى الهدف الأول لكل تلك القوى، إذ أن التجربة التاريخية تؤكد أن الإخلال

---

[1] H. M. BURRELL CURT W. GASTEYGER, ALVIN J. COTTRELL HFRNARD LEWIS, S.W.B. MENAUL, STANFORD RESEARCH, GREAT POWER INTERESTS AND CONFLICTING OBJECTIVES IN THE MEDITERRANEAN-MIDDLE EAST-PERSIAN GULF REGION, INSTITUTE Menlo Park, California 94025 • U.S.A, 1980, p01.

بأمن البحر المتوسط سيؤدي بالعالم إلى حرب عالمية، أو قد يؤدي إلى حرب إقليمية ممتدة لها تأثيرها على كل العالم، ولها آثار اقتصادية مدمرة [1].

الحرب في أوكرانيا وخطر إزاحة أوروبا:

لم يكن أحد من الخبراء يتوقع إعلان فلادمير بوتين 24 فبراير 2022، رغم كل ما سبق الحملة العسكرية من تحركات على الأرض وحشد الجيوش والآليات وتصعيد الخطاب وتزايد القلق الدولي بشأن ذلك، إلا أنه وبعد نشوب الحرب تهاطلت التحليلات السياسية والاستراتيجية والعسكرية وتسابقت إلى إعطاء الحرب صورة الحرب العالمية التي تحطم أوروبا باعتبارها واجهة وخطا أماميا أمام روسيا، ونحن في هذا الصدد لا تهمنا حرب أوكرانيا بقدر ما يهمنا البحر الأبيض المتوسط كمجال استراتيجي لن تغفل عنه روسيا ولا الدول الغربية، ذلك أن معظم الخبراء والمحللين العسكريين وإن لم يعرفوا نطاق هذه الحرب ولا منتهاها؛ إلا أنهم يعون جيدا أن نهاية النظام الأمني الأوروبي قد أصبح على المحك، وأن مواثيق مؤتمرات منظمة الأمن والتعاون في أوروبا قد داستها تلك الحرب بالنعال.

غير أن ما نؤكد عليه أن هذا المشهد الذي تُظهِرُه أوروبا وأمريكا ليس كاملا، وإنما تجدر الإشارة إلى أن الرئيس بوتين كان يطالب بالعودة إلى نظام يالطا القائم على تقاسم العالم بين الكتل المتعارضة والاعتراف بمناطق نفوذ القوى الكبرى ومبدأ السيادة المحدودة للدول التابعة، وفقاً لمبدأ بريجنيف، وكان بوتين يدعو روسيا إلى استعادة مكانة روسيا كقوة عظمى كوريث للاتحاد السوفييتي المنهار، وفي هذا الصدد لا يمكن أن تتحقق هذه الآمال إلا باقتحام البحر الأبيض المتوسط وبسط السيطرة عليه لتطويق أوروبا، ولربما كانت له الفرصة للتقرب أكثر من الدول المتوسطية على الضفة الجنوبية.

ويبدو أن هه الفكرة تبدو مجنونة ومتهورة إلى حد بعيد، ولكن لا شك أنها تراود الروس منذ التغيرات التي شهدتها دول الشرق الأوسط فيما عرف في التاريخ باسم الربيع العربي، فقد لاحظنا أن روسيا قد أعلنت التدخل العسكري في سوريا بشكل صريح، وضاعفت قواتها في أربع قواعد عسكرية بدلا من قاعدة حميميم اليتيمة التي

---

[1] H. M. BURRELL CURT W. GASTEYGER, ALVIN J. COTTRELL HFRNARD LEWIS, S.W.B. MENAUL, STANFORD RESEARCH , OP.CIT, p01.

استغلت منذ 2015م، ليس ذلك فحسب؛ بل وصول ميليشيات فاغنر المقاتلة نيابة عن روسيا؛ وصولها إلى ليبيا لحراسة منابع النفط وموارد دول الساحل قد طرح الكثير من التساؤلات حول النية التي يخفيها فلادمير بوتين في جدوى إرسال قوات متحالفة معه وراء البحر الأبيض المتوسط في وقت مازال لم يكمل حربه مع أوكرانيا بعد.

لا شك أن هذا يبين لنا واضحا وجليا أن البحر الأبيض المتوسط ليس مسطحا مائيا أو معبرا لسفن تجارية وعددا من الجزر والمضائق فحسب؛ بل بات من الضروري اعتبار البحر المتوسط مجالا حيويا واستراتيجيا لما وراءه في شكل حدود أمنية واستراتيجية للكل من أوروبا وأمريكا وروسيا والدول العربية والكيان الصهيوني!!

وفي مقال نشره عدد من الباحثين[1] المنتمين إلى مشروع مكتب روما للمجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية بالشراكة مع المجلس الأطلسي وبدعم من وزارة الخارجية الإيطالية سنة 2022؛ أكد المقال أن منطقة البحر الأبيض المتوسط الموسع هي المكان المحتمل لاستكمال السياسة الاقتصادية التي يتم تعريفها على أنها نتيجة حتمية لعملية العولمة، وإذا نظرنا إلى العواقب المباشرة للحرب في أوكرانيا، فإننا نلاحظ أن العديد من الدول الأوروبية تحاول استبدال الغاز الطبيعي الروسي بالغاز من مصادر أخرى، وخاصة من شمال إفريقيا، مما يوفر إمكانية تجديد الشراكات مع الجزائر ومصر... وهذه الظاهرة تضع المنطقة في دائرة الضوء في السياسات الأوروبية، بعيدا عن الاستراتيجية الأمريكية التي لها رؤية مختلفة تماما.

البحر الأبيض المتوسط والنظام الدولي متعدد القطبية:

من خلال تتبعنا لأحداث الشرق الأوسط بعد 1989 وهي لحظة تاريخية مفصلية في الشرق الأوسط والعالم، لحظة انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب بين العراق وإيران، وبداية الهيمنة الأمريكية لعالم أحادي القطب، فتتبعنا لتلك الأحداث يمكن أن نلحظ أن هذا النظام الدولي يتطور نحو نظام متعدد الأقطاب بوتيرة أسرع، حيث من المتوقع أن تتفوق الصين على الولايات المتحدة بحلول عام 2050، وأن هناك انتقال تدريجي للنشاط العسكري للصين وروسيا في البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا، كلها

(1) Lorena Martini, Alessia Melcangi, Karim Mezran, Alissa Pavia. Arturo Varvelli. Crises in the Mediterranean. The Italian pivot: a new strategy for European and US engagement in the MENA region, 2022.

أمور واضحة تؤكد على أن هذا التوجه يقترب بسرعة، وإن كان مع معسكرين مختلفين بشكل واضح.

ففي إطار سعي الولايات المتحدة الأمريكية للدفاع عن المبادئ الغربية الليبرالية والديمقراطية، ضد المعسكر الآخر الذي تمثله الاستبدادية في الصين وروسيا وأفغانستان والعراق وإيران ودول الخليج، في الوقت نفسه خاطرت بكل تلك المبادئ لتتبنى عملية السلام بعدد من الحروب فيما سيضعها أمام الحرج الأكبر بطرح السؤال: هل كانت بالعفل تلك المبادئ هي الهدف الأسمى؟ أم كانت ذرائع مخترعة كتلك التي ادعتها الدول الاستعمارية الكبرى في القرن التاسع عشر لاحتلال العالم العربي وشرق آسيا ومعظم إفريقيا؟

ومن الواضح أن الحرب المقدسة!! التي انتهت بغزو العراق، حسب ما يصفها جورج وولكر بوش ومحافظوه الجدد في عام 2003، قد أكدت للعالم أنها زعزعة للاستقرار الدولي والإقليمي في منطقة الشرق الأوسط ككل، ولم نجن من السلام المفترض إلا وبال الحرب والخسائر، وفي تعبير Senén Florensa رئيس المعهد الأوروبي للبحر الأبيض المتوسط قوله: « ... لقد خلق لنا عش الدبابير الذي تنطلق منه جميع أنواع الهجمات ضد الولايات المتحدة... وتم تعزيز الجماعات الجهادية، وفي مقدمتها تنظيم القاعدة وتنظيم داعش خلال الحرب الأهلية السورية القاسية، ثم بدأت بالتحرك تدريجيا نحو ليبيا ودول الساحل...»[1]،

الكيان الصهيوني قاعدة خلفية للغرب في البحر الأبيض المتوسط:

شهدت نهاية العام 2023 حدثا مهما في الشرق الأوسط، وأقصد هنا أحداث السابع من أكتوبر التي أنبأت على الكثير من الأفكار التي كانت مستبعدة ومنسية، والتي كان لها الأثر البالغ على الشعوب في كل العالم وكذا الحكومات، ففي وقت هرولت فيه العديد من الدول العربية إلى التطبيع والانطلاق في مشاريع اقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية ضخمة؛ دعما لموقف التطبيع المشار إليه؛ حدث ما لم يكن يتوقعه أحد من السياسيين أو صناع القرار في منطقة شرق المتوسط، وهو الإعلان عن قيام الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة التي حملها الجانب الإسرائيلي مسؤولية أحداث السابع من أكتوبر 2023، في وقت تبنت فيه حركة حماس المسؤولية الكاملة على تلك

(1) Senén Florensa, The Big Powers, the Mediterranean and the Impact of the War in Ukraine (US, EU, Russia, China), 2022, pp01, 02.

الأحداث، لا شك أن العالم هنا وقف على عتبة التغير التام في التوجهات والرؤى ليكون البحر الأبيض المتوسط شاهدا على ردود الأفعال الأولية لأحداث الحرب.

في هذا الصدد؛ لا تعنينا الأرقام الهائلة التي شهدها الاقتصاد الإسرائيلي ولا الخسائر المسجلة في أسواق العملات والنفط وما إلى ذلك ولكن ما هو أهم تلك الحركة السريعة من الولايات المتحدة الأمريكية لتعزيز القوة العسكرية في البحر الأبيض المتوسط تحسبا لأي طارئ يهدد أمن إسرائيل، أو يهدد وجود إسرائيل، غير أن هذا ليس بالجديد على دولة بعيدة النظر كالولايات المتحدة، والتي وإن كانت قد دعت لتخفيض قواتها في الشرق الأوسط والعراق والقواعد العسكرية في الخليج في زمن الرئيس باراك أوباما؛ فإنه هو نفسه كان معارضا لفكرة سحب القوة العسكرية البحرية من البحر الأبيض المتوسط لأهمية المهام الميدانية التي تقوم بها تلك القوات، وأهمية الهدف الأول هو حماية القاعدة الخلفية للولايات المتحدة الأمريكية وأقصد هنا "الكيان الصهيوني"، أما التحرك الملحمي لحاملتي الطائرات يو أس أس جيرالد فورد والمجموعة المقاتلة معها، ودوايت دي إيزنهاور وأيضا يو إس إس ماونت ويتني، فلم تكن هناك حاجة واقعية لذلك، وإنما كان ذلك إيضاحا للصورة وتنبيها لأي متهور قد يتدخل في عدوان إسرائيل على غزة، كما له دلالة أخرى تفيد بخطورة النشاط البحري للسفن الصينية في بحر عمان والخليج العربي.

وفي مقال كتبه الدكتور عبد النور بن عنتر بعنوان: ما هو الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في البحر الأبيض المتوسط؟ أكد أن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت إلى مسرح البحر الأبيض المتوسط في وقت مبكر ولم تنقطع مشاركتها منذ ذلك الحين (الأسطول السادس) .ويشير هذا الحضور القوي والمستمر إلى اهتمام بالغ بالمنطقة، غير أنها لم تكن تملك استراتيجية متوسطية ثابتة، وذلك لأنها لا تعتبر البحر الأبيض المتوسط متعلقا بجغرافية مصالحها مباشرة كما تفعل الدول الأوروبية، فالأميركيون فلا يفكرون في منطقة البحر الأبيض المتوسط، بل في منطقة الشرق الأوسط، وهي منطقة تتغير حدودها بحسب الأحداث والاستراتيجيات التي تتطور في واشنطن، فضلاً عن ذلك فإن البحر الأبيض المتوسط يشكل منطقة تنافس مع أوروبا، فالبحر الأبيض

المتوسط بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو أوروبا والشرق الأوسط[1]، أما إسرائيل فهي بالنسبة للولايات المتحدة أوروبا والشرق الأوسط والبحر المتوسط نفسه.

إسرائيل في قلب الحرب الروسية الأوكرانية:

يشير **Christopher M. Blanchard** وهو الباحث والكاتب المهتم بشؤون الشرق الأوسط أن القادة في إسرائيل أولوا العناية البالغة بالحرب الروسية الأوكرانية، وفي هذا الصدد قال رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في مقابلة مع شبكة **CNN** في يناير 2023 إنه على الرغم من ذلك معارضة إسرائيل للغزو الروسي لأوكرانيا، فإنها تسعى إلى التنسيق مع روسيا لاحتواء الخطر الروسي الذي تمثله القوة الروسية والإيرانية في سوريا، هذا الوجود الذي أن يؤثر على قدرة إسرائيل على شن غارات جوية هناك، لكن بالمقابل فإن التواجد الروسي على الأرض السورية لا يعني بالضرورة الدفاع عن سوريا في حال ما إذا لقت هجوما جويا من قبل إسرائيل، فالظاهر أن روسيا ذاتها تسعى لعدم التصادم مع إسرائيل في أية مناسبة[2].

وفي الجانب المقابل نجد إسرائيل قد استهدفت بانتظام الأفراد والمعدات الإيرانية في سوريا، بما في ذلك تلك المتعلقة بنقل الذخائر أو تكنولوجيا الأسلحة الدقيقة الامر نفسه بالنسبة إلى حزب الله في لبنان، وفي مايو 2022؛ ورد أن نظام دفاع جوي روسي الأصل من طراز **S-300** في سوريا أطلق النار على طائرات إسرائيلية لأول مرة، مما يثير تساؤلات حول حالة منع التصادم في المجال الجوي بين روسيا وإسرائيل. وعلى الرغم من مناشدات المسؤولين الأمريكيين والأوكرانيين، أظهرت إسرائيل ترددًا في تقديم مساعدات عسكرية ناجعة لأوكرانيا. وبدءًا من تاريخ مايو 2022؛ نجد إسرائيل ترسل بعض معدات الحماية إلى أوكرانيا وكذا قوات إنقاذ وقوات التدخل المندني، وبمجرد أن بدأت روسيا في استخدام طائرات بدون طيار إيرانية الصنع في أوكرانيا خلال النصف الثاني من عام 2022، عرضت إسرائيل مساعدة أوكرانيا على تطوير نظام إنذار مبكر

---

[1] Abdennour Benantar, What Role Does the USA Play in the Mediterranean?, Keys Med. 2009 .
https://www.iemed.org/publication/what-role-does-the-usa-play-in-the-mediterranean/?lang=fr

[2] Christopher M. Blanchard, Middle East and North Africa: Implications of the Russia-Ukraine War, Congressional Research Service, June 2, 2023, p04.

لمدنييها، وبدأت أيضًا في تبادل المعلومات الاستخبارية الأساسية مع أوكرانيا، وتتصدى قواتها لهجمات الطائرات بدون طيار. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 2022، أفادت إحدى وسائل الإعلام أن إسرائيل مولت شراء "مواد استراتيجية" لفائدة الحلف الأطلسي[1].

ذكرت تقارير كثيرة ووسائل إعلام ومحللون عسكريون أن الولايات المتحدة الأمريكية في عامي 2022 و2023 سحبت 300000 قذيفة مدفعية عيار 155مم من المخزون الاحتياطي للحلفاء كانت لدى إسرائيل وتم إرسالها إلى أوكرانيا. ووفقًا لتقارير متعددة، وافق المسؤولون الإسرائيليون على طلب البنتاغون هذا رغم التحفظ الشديد، وذلك لتجنب المواجهة مع الولايات المتحدة، كما أن الذخيرة المعنية تعتبر بالفعل ملكا للولايات المتحدة الأمريكية، وأنه لا يوجد احتياج لإسرائيل لكل تلك الذخيرة، وفي أوائل عام 2023؛ دخلت إسرائيل مجال التصدير والبيع لأنظمة التشويش المضادة للطائرات بدون طيار التي يمكن أن تساعد أوكرانيا في إسقاط طائرات بدون طيار.

غير أن هذه الخطوات كلها كانت حذرة ويتم التبرير لها بشكل أو بآخر على أنها ليست عملا عدائيا ضد روسيا، لأن الأنظمة الدفاعية ولا تستهدف الجنود الروس، بل ستكون أنظمة وقائية تمنع سقوط المزيد من المدنيين!!

وفي هذا الصد يمكننا أن نقول أن مجال "شرقي البحر الأبيض المتوسط" مجال صراع يستلزم منطق القوة أو توازن القوى، وأن البحر الأبيض المتوسط تتحكم فيه عوامل استراتيجية يمكن أن نختزلها في أربع قوى رئيسة، أوروبا، الولايات المتحدة الأمريكية، إسرائيل، على الرغم من أنها اتجاهات تبدوا وكأنها كتلة واحدة منسجمة إلى حد ما، وكذلك لا يمكن أن نغفل مصر ودول الشرق الأوسط المنظمة للبريكس، غير أن هذه البلدان لا تمثل قوى حقيقية ذات وزن، وهو ما جعل الرئيس الأمريكي جو بايدن ووزيره أنتوني بلينكن يستخدمون مصطلح ملأ الفراغ، في تعبيرهم على أن الولايات المتحدة لن تترك الفراغ لتملأه الصين!! فالهدف ليس مصلحة تلك الدول بقدر ما هو تقدير القوى الرئيسة للمجال الاستراتيجي لقناة السويس ومشروع قناة بن قوريون المزعومة ومشروع نيوم المعلن عنه قبل قرابة عقد من الزمان، والمضايق البحرية المعروفة في الشرق الأوسط.

---

[1] Christopher M. Blanchard, OP.CIT, p04.

بعد عملية طوفان الأقصى:

لا شك أن ما كانت بعض النخب العربية تشير إليه في وجود علاقة مشبوهة بين إسرائيل والأنظمة العربية تحت الرعاية الأمريكية في جو يشوبه الغموض والتستر قد أصبح معلنا وصريحا أمام الرأي العام العربي والدولي بعد أحداث 07 أكتوبر 2023، فإن إسرائيل التي تظهر نفسها دوما على أنها ذلك الكيان المعزول في البحر الأبيض المتوسط والمحاط بالأعداء والكراهية والعنصرية؛ هي الطريق الوحيد إلى الديمقراطية وإلى الانفتاح الأوروبي وإلى القوة العسكرية الأمريكية بل وإلى الموارد والأموال الخليجية أيضا، لنقل أن إسرائيل تريد أن تكون محورا أساسيا في البحر الأبيض المتوسط، غير أن ما سمته حركة حماس بعملية طوفان الأقصى قد كان صادما لها بشكل كبير، وغير كل الطموحات والأحلام والأماني التي كادت إسرائيل أن تصدقها.

إن عنصر المفاجأة والتخطيط والتنفيذ المحكم الذي نلمسه في أحداث 07 أكتوبر في غلاف غزة، يؤكد من جهة أخرى هشاشة المنظومة الأمنية الدفاعية الإسرائيلية، تلك المنظومة التي يروج لها على أنها الأقوى في المنطقة المتوسطية والشرق- أوسطية كلها، وهو ما يفسر ردود الأفعال المجنونة التي قامت بها إسرائيل من حرب إبادة وجرائم ضد الإنسانية وانتهاك للقانون الدولي واستهداف المدنيين والأطفال والنساء، ليس هذا فحسب بل يعجز جيش الدفاع الإسرائيلي اليوم على تحقيق أي من النتائج التي وعد بها في أولى أيام الحرب؛ وهو ما سينعكس على سمعة الحكومة الحالية لإسرائيل وكذا جيش الدفاع الإسرائيلي.

لقد بدأ العالم اليوم يفهم أنه حان الوقت لإعادة قراءة الأحداث كما هي عليه في أرض الواقع لا كما يملي الإعلام الغربي للتغطية على جرائمه المعتادة، وأن البروباغاندا التي تلوح دائما بعبارات لم تعد تقنع أحدا مثل مكافحة الإرهاب والتطرف والإسلام السياسي وغيرها كلها مصطلحات تغليط بشر بها جيل صمويل هنتغتون من أجل أن يغطي بها على جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية والإبادة والتصفية والفصل العنصري، فالحرب على الإرهاب معناها حرب بلا قيود ولا حدود... إنها حرب الخير على الشر، حرب تحميها الهيئات الدولية والمنظمات الإنسانية، حيث تنعدم الإنسانية وتداس كل القيم والأعراف الدولية، هذه المصطلحات حديقة خلفية يمارس فيها الرجل الأبيض كل الهواجس والأمراض الحضارية والتاريخية، وتنفذها قوات الاحتلال في أول فرصة تسمح.

انتقال الريادة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي في القرن السادس عشر من خلال وجهة نظر فرناند بروديل

د. مسعودة بوجلال
جامعة العربي بن مهيدي
أم البواقي/ الجزائر
Histo.messaouda@yahoo.com

مقدمة:

يكتسي حوض البحر الأبيض المتوسط أهمية حضارية، واستراتيجية بالغة، كما أنه يمثل مركزاً للتجارة العالمية، وحلقة وصل بين مختلف شعوب العالم، خاصة بين ضفتيه الشمالية والجنوبية. هذا ما جعله ميداناً للتأثير، والتأثر بين الشعوب، التي عاشت على ضفافه، وبين الدول التي ظهرت على مر العصور، خاصة تلك التي قامت خلال الفترة الحديثة.

وأمام التغيرات التي شهدها العالم منذ اكتشاف العالم الجديد، وكذا اكتشاف طريق جديد للهند، تحولت التجارة الدولية وتغير طريقها، وبدأ البحر المتوسط يفقد أهميته ومعه العالم الإسلامي. ولم تعد تلك القوافل من السفن التجارية تجوبه نظًرا لأهميته، فقد أصبح مساحة شاسعة للحروب والصراعات بين البحارة المسلمين والفرسان المسيحيين، وتارة أخرى بعمل منظم من قبل الأمم الأوروبية، فقد ساهمت العديد من العوامل في خلق الصراع في حوض المتوسط خلال أكثر من ثلاثة قرون، كان العامل الديني أقواها ومحركها الأساسي، إلى جانب المنافسات التجارية واكتشاف أهمية الطرق البحرية ذات الأبعاد الإستراتيجية.

وخلال مطلع القرن السادس عشر بدأ المحيط الأطلسي يكتسب التفوق شيئاً فشيئاً. في إطار الصراع القائم بين الشرق الإسلامي المتمثل في الدولة العثمانية والإيالات التابعة لها، والغرب المسيحي الممثل في الامبراطورية الإسبانية.

1-فرنان بروديل (Fernand Braudel):

ولد المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل[1] في عام 1902م في منطقة الميز (la Meuse) شمال شرق فرنسا، قرب الحدود البلجيكية، وتوفى عام 1985م، وصل في دراسته الجامعية إلى مرحلة الإعداد للدكتوراه تعرضت فرنسا بين 1939 و 1944م في مواجهة ألمانيا النازية وسعير الحرب العالمية الثانية للهزيمة والاحتلال النازي، ووقع في الأسر وظل في معسكر الأسرى في لوبيك شمال ألمانيا سنوات عديدة تعلم أثنائها اللغة الألمانية وعكف في رسالة الدكتوراه فأتمها وكان موضوعها تاريخ "البحر الأبيض وعالمه في عصر فيليب الثاني"، وهي رسالة ضخمة وضع فيها أساس فلسفته ومنهاجه، وتخطيط مدرسته في التاريخ. فلما انتهت الحرب عاد إلى فرنسا ونال بها درجة الدكتوراه في عام 1947م ثم نشرها كتاباً في عام 1949م تعددت طبعاته وحظى باهتمام العلماء لأنه تضمن أساسيات مفاهيمه الفلسفية ومناهجه البحثية وتوجهاته الفكرية علاوة على أهمية الموضوع في حد ذاته[2].

والجدير بالذكر أن بروديل كان وثيق الصلة بأستاذين من كبار أساتذة التاريخ هما مارك بلوك (Marc Bloch) ولوسيان فيفر (Lucien Febvre) مؤسسي المجلة العلمية المرموقة"الحولياتAnnales"اختصار "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" التي ظل بروديل يكتب فيها من عام 1946م حتى وفاته.

عمل أستاذا في "الكوليج دي فرانس College de France" من عام 1949م إلى عام 1956م، ثم تولى عمادة القسم السادس من "مدرسة الدراسات العليا Ecole Pratique des Hautes Études"، وفي عام 1962م شغل منصب مدير "دار علوم الانسان Maison des Sciences de l'Homme". واختير في عام 1984م قبيل وفاته عضواً في "الأكاديمية الفرنسية" تقديراً لريادته في مجال البحوث التاريخية الحديثة.

---

[1] وهناك من يكتبه فرناند برودل أو برودال

[2] فرنان برودل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، تر: مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سلسلة ميراث الترجمة، ع 1873، 2013م، ج1 (الحياة اليومية وبنياتها: الممكن والمستحيل) ص 5.

أعد رسالة دكتوراه حول "البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني" ونشرت في كتاب عام 1949م. وقد خطى هذا الكتاب باهتمام العلماء لأنه تضمن أساسيات مفاهيمه البحثية وتوجهاته الفكرية[1].

ويعتبر بروديل من أبرز المؤرخين الفرنسيين المعاصرين، وصاحب مدرسة في التاريخ، اتسم منهاجه بسمة واضحة، يمكن وصفها بالتكاملية، تسعى إلى النظر إلى التاريخ نظرة شاملة تجمع شتات الحياة في العصور التي يتناولها، وكأنما أراد للتاريخ أن يبدأ من البداية الحقيقية؛ فيكون تاريخ بشر بقدر ما يكون تاريخ دول. وهو يعتمد على العلوم التي يمكن أن ينتفع منها هذا الفهم الواسع للتاريخ، فيعتمد على الجغرافيا وعلى الاقتصاد خاصة، ويضم إليه التاريخ المتخصص، وبخاصة تاريخ الفنون وتاريخ التقنية وتاريخ الطب وغيرها.

وقد بدأ بروديل حياته العلمية مؤمنا بضرورة الأخذ بالموضوعية في التاريخ، وسعى إلى تحقيق هذه الموضوعية، ولكنه ما لبث أن أدرك ان الموضوعية تنتهي في علم التاريخ عند حد بعينه، تبدأ عنده الذاتية، فالمؤرخ لا يجمع معلومات وبيانات ويعرضها كما يعرضها علماء الرياضيات أرقامهم؛ بل هو يفسر ويشرح ويحكم ويقيم، وهكذا يجد المؤرخ نفسه بين مجالين؛ مجال الموضوعية أولا، ومجال الذاتية بعد ذلك، وعليه الا يخلط بينهما، وأن يوفي كلا منهما حقه[2].

2- البحر المتوسط كمؤثر جغرافي وحضاري واقتصادي في العلاقات بين ضفافه:

أ- جغرافيته:

البحر الأبيض المتوسط، بحر داخلي يربط بين أهم ثلاث قارات في العالم؛ وهي أوروبا إفريقيا وآسيا، ويمثل حوضاً يجمع عدداً لا متناهياً من القوميات، واللغات، والثقافات، المطلة على ضفتيه الشمالية والجنوبية، يتصل المتوسط بالمحيط الأطلسي

[1] المرجع نفسه، ص 809.

[2] فرنان برودل، المرجع السابق، ص ص 6-7. وللاستزادة أكثر حول حياة فرناند بروديل ومنهجه في كتابة التاريخ، ينظر: مسعودة بوجلال، العلاقات العثمانية- الإسبانية على ضوء كتابات برودال، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجيلالي ليابس-سيدي بلعباس، 2014-2015م.

عبر مضيق جبل طارق، في الحوض الغربي منه، ويمثل مسطحاً مائياً مهماً جغرافياً وحضارياً، لا يضاهيه في ذلك أي بحر داخلي على الإطلاق[1].

ويعرف بروديل المتوسط بقوله:"... هذا البحر الداخلي، ذو الشخصية المعقدة والمركبة والفريدة، ليس بحراً واحداً، بل مجموعة مركبة من البحار التي تعترضها الجزر وتقطعها أشباه الجزر وتحيط بها السواحل المتشعبة. لقد امتزجت حياة البحر باليابسة... إنه بحر الزيتون وكروم العنب، بقدر ما هو بحر المراكب والسفن والتجارة[2]. وفي تحديده لجغرافية هذا البحر يقول:"... يمتد هذا البحر من جبل طارق إلى السويس فالبحر الأحمر. تحيط به الجبال وتجعله رواقاً مائياً ينقسم إلى بحار فرعية: الأسود، إيجة، الأدرياتيك، والتيراني. وعلى صورة هذا التقسيم البحري ينقسم الحبر المتوسطي إلى خمس أشباه جزر أو قارات لكلٍ منها خصوصيتها: البلقان، آسيا الصغرى، إيطاليا، إيبيريا، وشمال إفريقيا. وتتشابه تضاريس هذه القارات، فكل منها يحتوي قسماً جبلياً ضخماً وبعض السهول وتلالاً قليلة وهضاباً واسعة[3].

والبحر المتوسط مكان مميز منذ العصور القديمة، والوسطى، مكانته مميزة على سائر البحار، فعلى ضفافه قامت أهم الحضارات، والإمبراطوريات، فكان هذا البحر في العصور السابقة الأولى؛ الأهم بين سائر البحار كلها[4]. وقد تغير اسم البحر المتوسط حسب علاقته بالأرض، وبالشعوب التي عاشت على ضفافه، فالمصريون القدامى نظراً للموقع الذي كان يحتله سموه البحر الأعلى[5]، وفي الإنجيل أطلقت عليه أسماء مختلفة،

---

[1] محمد إبراهيم, حسن, دراسة في جغرافية أوروبا وحوض البحر المتوسط, الإسكندرية, مركز الإسكندرية للكتاب, 1999م, ص- ص 28-50.

[2] فرنان, بروديل, المتوسط والعالم المتوسطي,(تر: مروان أبي سمرا), ط1, بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, 1993م, ص19.

[3] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص25.

[4] اللجنة المغاربية للتاريخ الإسلامي, الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي, ندوة دولية, المغرب, سلا, ماي, جوان, 1997 م, ص22.

[5] مختار, السويفي, أم الحضارات: ملامح عامة لأول حضارة صنعها الإنسان, (تق: جاب الله علي جاب الله), القاهرة, الدار المصرية اللبنانية,(د, ت), ص19.

فهو البحر الفلسطيني، والبحر الكبير، هيرودوت[1] الذي جاب مياهه" البحر الكبير" أما أفلاطون ومؤرخين من الإغريق ذكروه باسم البحر الهيليني، والبحر الداخلي، أما التسمية اللاتينية فقد اصطلح عليه بحر الروم، وأطلقه العرب كذلك كإبن خلدون في مقدمته[2] والإدريسي في مؤلفاته، وأطلق عليه الرومان بحرنا (MARI NOSTRA)، وهكذا حتى أصبح يُعرف بالبحر الأبيض المتوسط[3].

وقبل الفتح العربي لبلاد الشام ومصر، كان المتوسط يعرف ببحر الروم، وأصبحت دولة الروم، وهو الاسم الذي أطلقه العرب على الدولة البيزنطية، وريثة الإمبراطورية الرومانية التي سقطت على أيدي البرابرة، في صراع عسكري دائم مع الإمبراطورية الفارسية، وهو ما زاد من حدة الصراع على المتوسط[4].

ب-الأهمية الحضارية والجغرافية:

البحر المتوسط غني عن التعريف به، وبأهميته منذ القدم، ويكفي قول ابن خلدون:"... الساكنون بسيف هذا البحر وعدوتيه[5] يعانون من أحواله، مالا تعانيه أمة من أمم البحار..."[6]، ولما نتكلم عن الأهمية القصوى التي يكتسبها هذا البحر، في الصراعات الجغرافية الإستراتيجية، قديماً و حديثاً. نشير إلى أن المتوسط يتحكم عبر مداخله في خطوط الملاحة البحرية الداخلية إلى الحوض عامة، سواء تلك القادمة من

---

[1] هيرودوتس: مؤرخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد(484 ق.م/ حوالي 425 ق.م), عرف بأبو التاريخ, معروف بفضل كتابه" تاريخ هيرودوتس" الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي لاقاها في ترحاله, حول حوض البحر الأبيض المتوسط . ينظر: حسين, مؤنس, التاريخ والمؤرخون...المرجع السابق, ص89.

[2] إبن خلدون, عبد الرحمن, المقدمة, (مر: سهيل زكار), بيروت, دار الفكر الطباعة وللنشر والتوزيع, ج1, 2001 م, ص - ص 68 -102.

[3] حسونة, مصباحي, البحر المتوسط حسب بريدراج ماتفيجيفيتش, مجلة العرب الثقافية, جويلية, 2008م, ص9.

[4] لويس, آرشيبالد, القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط, (تر: محمد أحمد عيسى, وتق: محمد شفيق غربال), القاهرة, مكتبة النهضة المصرية,1981م, ص 51.

[5] عدوته الجنوبية (كما فسرها ابن خلدون بنفسه) بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الإسكندرية, إلى الشام, وعدوتيه الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجة والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضاً.

[6] ابن خلدون, المصدر السابق, ج2, ص311.

العالم الجديد وإفريقيا الغربية، والشرقية أو الشرق الأدنى والأوسط، أو المتجهة نحو الشرق الأقصى عبر قناة السويس[1]. وهكذا أصبح البحر المتوسط يشكل، تاريخ شعوب وحضارات، قامت على ضفتيه وأسست أهم حضارات التاريخ الإنساني.

وأصبح البحر المتوسط، أحد أهم حلقات التاريخ القديم والحديث، وارتبط تاريخه بتاريخ بقية البحار، وفي هذه الأهمية يقول بروديل:" لا يمكن معرفة تاريخ العالم والبحار الداخلية، دون معرفة تاريخ البحر المتوسط ..."[2]، ومما زاد خصوصية هذه المنطقة وأهميتها، وفرة الموانئ والمرافق والمخابئ المنتشرة على طول سواحلها, وكما لا يخفى أن الموانئ التي انتشرت على ضفتي البحر المتوسط، شكات مركزاً هاماً للتجارة، والتبادل الاقتصادي بين شعوب أغلبها غربية.

ويضيف بروديل في حديثه عن المتوسط قائلاً:" المتوسط حيز متحرك لا تقتصر دائرته على حدوده الجغرافية، الأمر الذي يحملنا على استبعاد تحديد الجغرافيين والجيولوجيين الشائع عند الحديث عن المتوسط التاريخي الذي تصل حدوده إلى البحر الأحمر والخليج الفارسي. معتمدين في ذلك على المناخ وحده، رغم أهميته. أما المتوسط الذي نعمل على تحديده، متوسط التاريخ والبشر، الذي يمتد دورياً إلى أبعد من شواطئ البحر وفي الاتجاهات كلها... لذا ينبغي الحديث عن عشرات الحدود في آن معاً: الحدود التي ترسمها السياسة والحضارة والاقتصاد والتاريخ... أي الحدود المتحركة التي يرسمها انتقال البشر والمنتجات المادية وغير المادية[3].

شكل البحر المتوسط منطقة صراع ديني كذلك، بين الإسلام والنصرانية، وكان هذا العامل محرك أساسي لهذا الصراع، فقد أظهرت الكنيسة تأثيرها المعنوي والمادي في توجيه موازين القوى، إلى جانب المنافسات التجارية، واكتشاف أهمية الطرق البحرية ذات الأبعاد الإستراتيجية؛ فقد اكتسب البحر المتوسط أهمية كونه منطقة حضارية،

---

[1] رجاء العودي, عدوني, الجهاد البحري المشترك بين إفريقيا والمغرب الأقصى بين القرن الثالث عشر والسادس عشر ميلادي, مجلة اللجنة المغربية للتاريخ البحري, المغرب, سلا, ماي, جوان, 1997م, ص109.

[2]Fernand, Braudel, La Méditerranée et le monde Méditerranéen à L'époque de Philippe II, tome 2, 2,éd, Librairie Armande Colin, Paris,1966, T2, pp.24-60.

[3] فرنان, بروديل, المتوسط...، المصدر السابق, ص50.

وفي كونه أيضاً طريقاً عالمياً للتجارة والعبور الدوليين، بين أجزاء العالم في العصر القديم والوسيط، وبين العالم في العصر الحديث والجديد[1].

كما عرف هذا البحر صراعاً كبيراً بين أمم الضفتين الجنوبية والشمالية، وكذا بين حوضيه الشرقي والغربي، خاصة بعد ازدياد نشاط البحرية العثمانية، في الحوض الغربي للمتوسط[2] واصطدامها بإسبانيا أكبر قوة بحرية آنذاك، حيث كان هذا سبباً في أغلب المواجهات، التي قامت بين الدول المجاورة للحوض الغربي للمتوسط[3]، خاصة بعد قدوم الإخوة بربروسة[4] إلى الحوض الغربي للمتوسط، وخوضهم لحرب ضد الصليبيين، اشتملت على ثلاثة محاور أساسية: الأولى في البحر، والثانية لإنقاذ أهل الأندلس، والثالثة لمنع الإسبان من احتلال شمال إفريقيا، والهيمنة على المتوسط، وهذا ما جعل الصراع بين الضفتين يأخذ منحى تصاعدياً، بفعل المشكل الأندلسي[5].

ومما زاد في حدة هذا الصراع على المتوسط؛ منع الملك جيمس الأول (James I) أعمال القرصنة والغارات في البحار في القرن الخامس عشر الميلادي، فغير القراصنة الأوروبيون موانئهم في إنجلترا وايرلندا، واتجه كثير منهم نحو سواحل شمال إفريقيا، كما

---

[1] Héré, Coutau Bigarie, L'Emergence d'une pensée Naval en Europe au XVI et au début du XVII e Siècle, Éd, Le mère, Paris, 2000,p.205.

[2] وليام, بل فريدرك, الصراع البحري والقرصنة العالمية,(تر: السيد فؤاد), ط1, القاهرة, مطبوعات الجامعة, 1977م, ج1, ص- ص65-90.

[3] Fernand, Braudel, La Méditerranée...,Op.cit,T2 ,p.122.

[4] المقصود بهم الأخوة, عروج وخير الدين, إلياس, وإسحاق, أصلهم من إحدى الجزر اليونانية مبيلين, أبوهم يعقوب بن يوسف الذي كان متزوج بسيدة أندلسية ولدت له أولاده إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس. ونشأ أبناء يعقوب تنشئة إسلامية صلبة وترعرعوا في حجر الجهاد الإسلامي برًا وبحرًا ضد المسيحيين, أطلق عليهم لقب باربروسة, وهي تعني ذا اللحية الشقراء, وهذه الكلمة تطلق فقط على خير الدين وليس على أخيه عروج. ينظر:

- De Grammont Henri. D, Histoire D'Alger Sous La Domination Turque(1515-1830), Ernest Leroux, éditeur, Paris,1887,p.29.

- Sander, Rang, Denis, Ferdinand, Fondation de La Régence d'Alger-Histoire des Barberousse, Librairie de L'Evêché Orientale, Tome1et 2,1837, p.3.

[5] Emmanuelli ,René, Gènes et L'Espagne dons La Guerre de Course(1559-1569), Éd, Société, Médiévales, Méditerranéenne, Paris,1964,pp.20-23.

قام قراصنة هولندا والإنجليز؛ بالإبحار نحو المتوسط ووصلوا حتى جبل طارق، وتوغلوا في مدن المتوسط حيث تعاملوا تجارياً مع سكانها[1].

وبوصول إنجلترا إلى الحوض الغربي للمتوسط، وتوغلها في المنطقة، أصبحت تشكل تهديداً على القوى الأوروبية، والمغاربية الإسلامية، واحتدم الصراع بين هذه القوى, وأصبحت كل قوة بحرية في الحوض الغربي للمتوسط تسعى للتسيُد، وممارسة السلطة على مياهه، ولم يتوقف الصراع في الحوض الغربي للمتوسط، طيلة ثلاثة قرون كاملة في الفترة الحديثة بين أمم أوروبا فيما بين بعضها البعض تارة، وبينها وبين الأمم الإسلامية في شمال إفريقيا تارة أخرى، وساهم في هذا الصراع عدة عوامل، أهمها: الدين، ثانيها القرصنة المتوسطية وثالثها التجارة والمال، وعوامل أخرى[2].

ج-أهميته الاقتصادية:

يعرف هذا الموضوع إحجاماً كبيراً من طرف الباحثين العرب، للخوض فيه ودراسة أهم جوانبه، مما جعل المعلومات المتعلقة بالتجارة البحرية؛ مستمدة أساساً من وثائق الأرشيفات الأوروبية، لا سيما أرشيفات إيطاليا وإسبانيا، التي كانت في هذه الحقبة من التاريخ، على علاقة وطيدة بالشعوب المتوسطية، وهي تقدم لنا وللباحثين فائدة كبيرة[3].

قبل أن نوضح الأهمية الاقتصادية للمتوسط، يتوجب علينا أولاً أن نشير إلى أمر مهم؛ وهو أن حركة السفن التجارية في مياه المتوسط، تبدو واضحة رغم تغير الأنظمة السياسية، وتبدل القوى المسيطرة عليه، فانتقال حكم المغرب من دولة لدولة، لم يؤثر على هذه الحركة التجارية، إلا بقدر ما تفرضه الدولة من نظم وقوانين تجارية، ومدى قدرتها على التحكم في هذه الحركة، وما توفر لها من مناخ وحماية.

---

[1] إبراهيم, سعيود, القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة (القرصنة الإيطالية نموذجاً), مجلة الواحات للبحوث والدراسات, العدد 11, غرداية, الجزائر, المطبعة العربية, جوان,2011م, ص145.

[2] Heers, Jacques, Les Barbaresque, La Course et La Guerre en Méditerranée, XIVe- XVIe Siècles, Perrin, Paris, 2001,p.256.

[3] Jobel .G, Les Génois en Méditerranée Occidentale fin10^{e} - début 14^{e} Siècle, Paris, pp.111-115.

وفي ذلك يقول بروديل:"... إن تاريخ البحر المتوسط، لعب فيه الاقتصاد دوراً حاسماً، في أغلب الأحيان؛ في الثروات التي يأتي بها البحر، كمسطح للنقل؛ وسيد هذه الثروات، هو من سيطر على البحر، ولم يكن هذا البحر على سعته يقبل بسيد واحد في وقت واحد، وليس من الضروري أن يكون هذا السيد سياسياً كروما كما يظهر لنا للوهلة الأولى، وإنما سيد المبادلات، التفاوت، وفروق المستويات في الحياة التجارية[1].

كما أنه يمكن القول أن العلاقات التجارية لحوض البحر الأبيض المتوسط عموماً، لم تنقطع عبر العصور التاريخية، لتبلغ درجات التطور في القرنين السادس، والثامن الهجري/ الثاني عشر والرابع عشر الميلادي، ولتصبح أكثر تعقيداً بعد القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، نتيجة كونها أصبحت محكومة بمعاهدات واتفاقيات تجارية.

إن الأهمية الجغرافية والحضارية والاقتصادية، لحوض البحر الأبيض المتوسط، حتمت على شعوبه العيش بلا استقرار؛ نتيجة كثرة الصراع بين شعوبه، للسيطرة على أهم مناطقه، والتي من بينها منطقة المغرب الإسلامي التي عانت من تبعات هذا الصراع ما عانت، وتأثرت أقطارها أيما تأثُر، وهذا ما يجعلنا نردف أهمية موقع البحر المتوسط بأهمية موقع المغرب الإسلامي، كون أن هذه المنطقة كانت محل صراع بين عالم مسيحي مجسد في كل من الإسبان والبرتغال وعالم إسلامي تمثله الدولة العثمانية والإيالات التابعة لها في حوض البحر المتوسط.

إن هذه المميزات والخصائص الهامة التي يمتاز بها البحر الأبيض المتوسط جعلت كلاً من الإمبراطورية العثمانية والإسبانية تطمح في الاستيلاء عليه، وفي هذا يقول بروديل:" إن الدولة الحديثة كانت عدوة النبلاء والإقطاعيين"[2]. وقد كان الإسبان يعتبرونه بحيرة إسبانية ليس لأحد غيرهم الحق فيها، ولكي ندلل على هذا الرأي نورد هذا النص لكاتب أوروبي مشهور هو" لودفيغ"(Loudfige) في كتابه" البحر الأبيض المتوسط":" وقد اشتعلت جميع هذه المعارك لنيل السلطة في الحقيقة فكانت سجالاً،

[1] Fernand, Braudel, La Méditerranée...,Op.cit,T2,p.133.

[2] Fernand, Braudel, La Méditerranée ..., Op. Cit ,T2,p.54.

وقد أوقدت باسم التعاليم الدينية على العموم فكان يقصي السبب الديني في بعض الأحيان..."[1].

3-العلاقات الدولية بين ضفتي المتوسط أواخر القرن السادس عشر:

لقد كان طرفا الصّراع؛ الدّولة العثمانيّة في الحوض الشرقي للمتوسط والإمبراطورية الإسبانيّة في الحوض الغربي منه، وولادتهما في مطلع القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، مأساة للبحر الأبيض المتوسّط لأنّهما كانا في أغلب المواجهات التي عرفتها البلدان المحيطة بهذا الحوض طيلة قرن ونصف، ويضاف إلى هذا محاولة كلّ منهما احتواء قضيّة الموريسكيين الأندلسيين[2]. هذه القضية التي يمكن اعتبارها وجه من وجوه الصراع الديني الحضاري بين المسيحية والإسلام[3]. قوة تحاول السيطرة على شمال إفريقيا وقوة تدافع عن وجودها.

في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية العثمانية في أعلى مراحل قوتها، وكانت في عهد الفتوحات وبسط النفوذ حيث استطاعت فتح سورية ومصر وفارس وغيرها من الدول الأوروبية. كانت إسبانيا هي الأخرى في قمة مجدها، وكانت قد فرضت سيطرتها على أمريكا ومعظم بلدان أوروبا، فوجهت أنظارها إلى الشواطئ الجنوبية والشرقية والغربية في محاولات لبسط نفوذها[4]. وقامت بغزو الموانئ والمدن الساحلية والسيطرة عليها واحدة بعد الأخرى، وفق مشروع استعماري واسع يهدف إلى استعمار المغرب العربي كله ممهدين له بحركة جوسسة واسعة، بغية جمع معلمات لتسهيل عملية إعداد خطة الغزو[5]. فكان من الطبيعي أن يلتقي هذان التوسعان وجهًا لوجه، ويحدث بينهما صدام حاد ومرير، حيث أن شارلكان لم يكن يُعد للحرب عن طموح أو مزاج،

---

[1] حكمت, ياسين," الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر أسبابه, مراحله, نتائجه", مجلة الأصالة, الجزائر, مطبعة البعث, العدد(14 و15), 1973م, ص 243.

[2] Fernand ,Braudel ,La Méditerranée ..., Op. Cit ,T2,p.122.

[3] فرنان, بروديل, المتوسط...، المصدر السابق, ص139.

[4] حكمت, ياسين, المرجع السابق, ص243.

[5] يحي, بوعزيز, الموجز في تاريخ الجزائر, الجزائر, الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية, 1999م,ج2, ص252. وينظر أيضا: نبيل عبد الحي, رضوان, جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس في مطلع العصر الحديث, ط1, مكتبة الطالب الجامعي, 1988م, ص211.

ولكنه كان يقاتل بضراوة كل من حاول أن ينزع منه ما كان خاصًا به وما ورثه عن والده، فكان يعتبر البحر المتوسط ملكًا خاصًا به، بينما كان السلطان التركي سليمان القانوني[1] يطمح لتوسيع البلاد فكان قد فتح فارس وسورية ومصر[2].

وفي الوقت الذي اشتدت فيه الهجمات الاسبانية على سواحل المغرب الإسلامي، والسواحل الجزائرية بصفة خاصة ضمن مشروع استعماري يهدف إلى استعمار المنطقة كلها[3]. برز الإخوة بربروسة، الذين بفضلهم دخلت الدولة العثمانية رسميًا في الحرب ضد إسبانيا بعد أن أصبحت إحدى إيالاتها[4] في شمال إفريقيا، وتمكنوا خلال القرن السادس عشر من أن يُحولوا نشاطاتهم البحرية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إلى السواحل الغربية منه[5].

وفي الأخير يمكن القول أن صعود الإمبراطوريات في المتوسط يتلخص بصعود العثمانيين في الشرق وصعود الإسبان في الغرب، لكن القرن السابع عشر أظهر على نحوٍ جلي تراجع هاتين الإمبراطوريتين. ويرى بروديل أنه وعلى الرغم من الاختلاف في نمط الحكم والإدارة، هناك تشابه كبير بين الإمبراطوريتين. ويعطي مثالاً على ذلك بالقول أن الموظفين في كلا الإمبراطوريتين أغلبهم يتم سلخهم عن بيئاتهم الأصلية، ففي تركيا كان غالبية الموظفين من الإنكشارية الذين جلبوا صغاراً من عائلاتهم المسيحية في البلقان،

---

[1] من أشهر السلاطين العثمانيين, ولد في 27 أفريل 1495م, تولى الحكم سنة 1520م خلفاً لأبيه السلطان سليم الأول, يعد من أبرز شخصيات القرن السادس عشر ميلادي, عاصر شارلكان وملك فرنسا فرانسوا الأول, بقي على رأس الدولة العثمانية حتى وفاته سنة 1566م. ينظر: محمد, فريد بك المحامي, تاريخ الدولة العلية العثمانية,(تح: إحسان حقي), ط5, بيروت, دار النفائس,1986م, ص251.

[2] حكمت, ياسين, المرجع السابق, ص243.

[3] أبو القاسم, سعد الله, تاريخ الجزائر الثقافي, بيروت, دار الغرب الإسلامي, 1998م,ج1, ص136.

[4] إيالة اصطلاح إداري من العصر العثماني قبل إلغاء الإنكشارية, يقصد به الولاية, والولاية بحسب قانون نامة, وحدة إدارية يرأسها الباشا أو الوالي أو من رتبة الوزير, والولاية بدورها كانت مقسمة إلى عدة صناجق, والصنجق الواحد إلى قائمة تأمين والقائمين إلى عدد من النوالي, ينظر: عبد الكريم, الخطيب, معجم المصطلحات والألقاب التاريخية, بيروت, مؤسسة الرسالة, 1996م, ص- ص57 -58.

[5] Digo, de Haedo, Histoire des Roi D'Alger, Traduit et annotée par: De Grammont H. d, Éd, Grand- Alger Livres, Alger ,2004,p.14.

والأمر نفسه يحدث في الإمبراطورية الإسبانية، حيث كان الموظفون ينقلون من مكان إلى آخر في أرجاء الإمبراطورية الواسعة، فيقطعون عن أصولهم المحلية[1].

كما ساهمت الرشوة وعمليات النهب الكبيرة التي كان يقوم بها الجهاز الإداري من قمته إلى قاعدته في كلا الإمبراطوريتين، بانحلال الإمبراطورية الإسبانية بعد موت فيليب الثاني، وانحلال الإمبراطورية العثمانية بعد موت السلطان سليمان القانوني في 5 سبتمبر 1566م، بما أن العرش قد آل إلى رجلٍ ضعيف، هو سليم الثاني المتذوق لنبيذ قبرص[2]. أضف إلى ذلك تبذير الأموال في كلا الدولتين في البذخ والترف من طرف الطبقة الحاكمة، على نحو ما كان يحدث على أيام السلطان مراد الرابع. هذا في حين كانت المجاعات والحروب الانفصالية الاستقلالية تضرب الأطراف لا سيما في المناطق البعيدة والنائية في كلا الإمبراطوريتين، كالبرتغال وغرناطة في الإمبراطورية الإسبانية، والأمراء المحليين في إماراتهم البعيدة عن إسطنبول (عاصمة الدولة العثمانية)[3]. كما لا ننسى النظام الضريبي الذي كان قائماً في كلا الدولتين، والذي نظراً لعدم وجود مؤسسات فعلية قائمة عليه كالخزينة أو المصرف، كان هو الأخر عرضة للنهب والاختلاس من طرف القائمين على التجارة الذين وجهوه لخدمة مصالحهم[4].

وفي الأخير ومن خلال ما سبق يمكن القول أنه ومع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بدأ الضعف والانحلال يدب في جسم كلا الإمبراطوريتين، هذه الأخيرة التي إذا نظرنا إليها من الخارج بدت قوية ومزدهرة، لكن المؤسف أن القوة والازدهار هذين كانا لا يتخطيان حدود العاصمتين الإمبراطوريتين (مدريد واسطمبول). وهكذا كان تراجع الدول الكبرى فرصة فسحت المجال لظهور دول صغيرة ستتزعم العالم،كفرنسا في عهد هنري الرابع، وإنجلترا (إليزابيث)، وهولندا، وألمانيا[5].

---

[1] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص - ص126- 127.

[2] Fernand ,Braudel ,La Méditerranée... ,Op. Cit, T,2,p.350.

[3] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص127.

[4] المرجع نفسه, ص ص 126- 127.

[5] نفسه, ص128.

4- مظاهر الصراع ووجوهه في البحر المتوسط:

لقد وصف بروديل الصراع القائم في حوض البحر المتوسط بين العالمين الإسلامي في الشرق والمسيحي في الغرب بقوله:" إن الغرب والإسلام هما كالهر والكلب، يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس. إنهما عدوان متكاملان، الأول ابتكر الصليبية وعاشها، فيما ابتكر الثاني الجهاد وعاشه[1].

ويبدو بروديل، وهو يُفكّك الزمن التاريخي في متوسطه إلى أزمنة ثلاثة: زمن جغرافي ثابت، وزمن اجتماعي- ثقافي بطيء التغير، وزمن حدَثي سريع التقلب، قد أولى المستوى الثاني في فهم الصراعات أهميةً خاصة، وأعطاه دوراً أساسياً في فهم الصراع[2].

ففي فصل بعنوان:" الحضارات" يقول:" تبدو الحضارات في آمادها الطويلة كناية عن واقعات تاريخية منغرسة بصلابة في حدودها الجغرافية، لكنها في مدى تاريخي نسبياً تعيش صراعات عنيفة بعضها ضد البعض الآخر. وها هو ذا المتوسط في القرن السادس عشر، حافلٌ بمثل هذه الصراعات، الإسلام المتمثّل بالإمبراطورية العثمانية سيطر على بلاد البلقان المسيحية الأرثوذكسية. وإسبانيا الملوك الكاثوليك اجتاحت غرناطة، آخر معاقل الإسلام في إسبانيا. وفي المشرق البلقاني، ظلت السيطرة التركية " خارجية" على نحو سيطرة الإنجليز على الهند في الأمس القريب. وفي إسبانيا أيضاً قام (الحكم الإسباني) بسحق المسلمين من دون رحمة "[3].

يكمل بروديل تحليليه لهذه الفكرة وتوسيعها، دامجاً بين العنصرين الديني والحضاري في تعبير واحد. فهو يرى أن الديانات هي أكثر ما في الحضارات تفردّاً ومقاومة[4]. ويشرح بروديل وجهة نظره، عبر نص مكثف، عدد فيه مظاهر الصراع ووجوهه، متخذاً كلاً من القضية الموريسكية والقرصنة البحرية واعتبارها مظهراً من

---

[1] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص136.

[2] وجيه, كوثراني, الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل, دراسات في البحث والبحث التاريخي، ط1، بيروت, لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر،2000م, ص 28.

[3] فرنان, بروديل, المتوسط...., المصدر السابق, ص 138.

[4] وجيه, كوثراني, الذاكرة والتاريخ...., المرجع السابق, ص 28.

مظاهر الصراع ووجوهه، بين العالمين الإسلامي الممثّل بالإمبراطورية العثمانية، والعالم المسيحي الغربي الممثّل في الإمبراطورية الإسبانية.

إنّ ما توقف، إذن في سنة 1574م، في المتوسط هو الحروب الكبرى، (حرب الأرمادات) أي حروب كلّ من الدول والحضارات، التي ما إن انتهت حتّى توجه محاربوها وتجّارها ورجالها وأحيانًا سفنها، توجهوا جميعا إلى الحروب الصغرى (حرب المغامرات) التي شكّلت القرصنة وجهه الأبرز[1]. وفي هذا الشأن يذكر بروديل قوله:" كانت القرصنة البحرية تستهلك الجهاد الإسلامي والصليبية المسيحية، في حقبة لم يعد يهتم فيها بهما غير المجانين والقديسين. ولن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط في نهاية الحروب التي كانت قد اندلعت في كلٍ من الشمال والأطلسي، في نهاية القرن السادس. لن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط، لأنه لم يعد قادرًا على تحمل أعبائها ونفقاتها"[2].

لقد امتدت مناطق الصراع العثماني الصليبي إلى ميادين بحرية بعيدة عن مركز الدولة، ولكن البحر المتوسط ظل الميدان الأهم باعتباره المركز الأول والميدان الأساسي لهذا الصراع، خاصة في أواسط القرن السادس عشر، حيث حقق العثمانيون نجاحاً كبيراً في تأسيس مراكز بحرية في الجزر الواقعة في شرقي البحر المتوسط إلى أن هزم الأسطول العثماني في معركة ليبانت البحرية في عام (979هـ/1571م) فكانت آخر المعارك البحرية المهمة التي خاضها الأسطول العثماني في هذه الفترة. واقتصرت فعالياته على ما يقوم به (رياس البحر), واعتمدت الدولة في هذه الأعمال على أساطيل شمال إفريقيا[3].

كانت السياسة العثمانية قد ارتكزت على إضعاف إسبانيا باعتبارها القوة الصليبية الرئيسية في أوروبا. ولقد ظهرت آثار هذه السياسة في استهداف السفن الإسبانية أينما وجدت، ولكن ظهور إنجلترا وهولندا في أوائل القرن (11هـ/17م) كقوتين بحريتين معاديتين لإسبانيا أدى إلى حدوث تطورات في موازين القوى والتحالفات السياسية وفي الوقت الذي عمدت فرنسا إلى التحالف مع إسبانيا لمواجهة الحركة

---

[1] فرنان, بروديل, المتوسط...., المصدر السابق, ص- ص 153-154.

[2] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص154.

[3] يلماز, أوزتونا, تاريخ الدولة العثمانية,(تر: عدنان محمود سلمان, مر: محمود الأنصاري), ط1, استانبول, مؤسسة فيصل للتمويل، 1988م, مج1, ص 375.

البروتستانتية، وشعرت الدولة العثمانية بأن التحالف الفرنسي أصبح قليل الفاعلية، عمدت إلى تكوين حلف مع إنجلترا إحدى أركان الحركة البروتستانتية في أوروبا وذلك في عهد الملكة إليزابيث (1558-1603م) والتي عرفت بعدائها الشديد لإسبانيا[1].

كما يمكن القول أن انتصار الطرف المسيحي في معركة ليبانت هو من وجهة نظر بروديل وبعض المؤرخين الغربيين، نصر لم تؤدِ نتائجه إلى شيء يُذكر ولم يحقق أهداف إستراتيجية، بل أدى وفقط إلى رسم آمال عريضة لمواصلة تحقيق انتصارات أخرى على الدولة العثمانية دون أن يتم الوصول إلى هذا الهدف, كون أنه وبالرغم من هذا الفوز لم يكن بالإمكان القضاء على الجذور العثمانية التي كانت ذات امتداد عميق في الداخل القاري. وبالتالي يمكن اعتبار هذا النصر هو وفقط بمثابة انقضاء فترة طويلة من الاضطهاد ونهاية لعقدة النقص لدى المسيحيين[2]. ويدعم بروديل فكرته هذه بالقول أن إسبانيا مثلاً قد استغلت فرصة السلام القائم في الغرب المسيحي آنذاك لضرب الشرق الإسلامي في البحر المتوسط, إلا أنها وبالرغم من كل هذا لم تكن قادرة على تجميع كل قواها لتوجيه ضربة شاملة للقضاء على خصمها، بل اكتفت وفقط بشن هجمات متناثرة هنا وهناك, تلك الهجمات التي كانت مدفوعة بالظروف أكثر منها بالرغبات، وهذا ما يفسر انتصارها الذي لم يؤدِ إلى نتيجة ولم يحمل أية ثمار[3]. وكأنه هنا يود القول أن الفضل فيما أحرزته اسبانيا أو فيما تقوم به يعود للظروف التي جاءت مواتية آنذاك وليس لرغبتها وإرادتها.

وعليه فإن هذا التصادم الكبير الذي حدث بين الطرفين في معركة ليبانت لم يكن بالنسبة إلى الإسبان إلا انتصاراً مفرداً، لأنه كان يهدف إلى إعادة توازن يُهدده التقدم العثماني. حيث أن العثمانيين قد توجهوا نحو المحيط الهندي، والإسبان نحو المحيط الأطلسي ونحو الشمال.[4] وإن هذه المعركة هي حدث فريد لعدة اعتبارات، ولكنها في

---

[1] سمية, محمد حمودة, حركة الفتح العثماني في القرن(11هـ/17م) دراسة تاريخية حضارية, رسالة ماجستير غير منشورة, جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية, 2006م, ص55.

[2] Fernand ,Braudel ,La Méditerranée...,Op.cit,T3, pp.251-253.

[3] IBIDEM, pp.252-254.

[4] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص- ص 124- 125. وينظر أيضا: جاك, لوغوف, التاريخ الجديد, (تر و تق: محمد الطاهر المنصوري, مر: عبد الحميد هنية), ط1, بيروت: المنظمة العربية للترجمة, مركز دراسات الوحدة العربية, 2007م, ص217.

الوقت نفسه تمثل واحدة من سلسلة المعارك التي تواجه فيها الإسبان والأتراك. هذه السلسلة من المعارك التي يمكن أن تكشف لنا عن وجود شكلين من أشكال الاقتصاد، وبوجود مجتمعين وحضارتين وسياستين توسعيتين كان لا بد لهما من التصادم. وهو ما حدث في العديد من المرات، ولم تتصادما حيثما كانا، وإنما في خطوط التماس بين حوضي البحر المتوسط في مستوى حدودهما التقريبية، وهذه الأحداث تعبّر عن انهيار التوازن وإعادة بنائه[1].

وهكذا كانت الإمبراطوريتان تبتعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها، في الوقت الذي كانت تدق في قلب المتوسط ساعة تراجع الإمبراطوريات[2]، ومع نهاية سنة 1574م، انتهى الصراع الذي احتدم منذ بداية القرن السادس عشر بين الدولة العثمانيّة التي رفعت راية الجهاد الإسلامي وحامية الأقطار الإسلامية من جهة، والإمبراطوريّة الإسبانيّة التي رفعت لواء الحروب الصليبية لمواصلة احتلال ما تبقى من أراضي المسلمين من جهة أخرى[3]

ومن هنا يمكن اعتبار نهاية القرن السادس عشر نهاية للحروب الكبرى في المتوسط باتجاه الشمال والأطلسي، وفي هذا السياق يذكر بروديل قوله:"... لن تعود الحروب إلى المتوسط، لأنه لم يعد قادرًا على تحمل أعبائها ونفقاتها. فالحروب الكبرى اتجهت، بعد معركة ليبانت، نحو الشمال والأطلسي، في نهاية القرن السادس عشر، لتقبع طيلة قرون فيها، حيث راح يخفق قلب العالم. هكذا بدأت في العام 1618م حرب الثلاثين سنة بعيدًا عن البحر الداخلي (المتوسط) الذي لم يعد يخفق بعنف، لأنه فقد موقعه القديم كقلب للعالم كله"[4]؛ فالعثمانيون توجهوا أيضاً نحو المحيط الهندي، والإسبان نحو المحيط الأطلسي ونحو الشمال، وهكذا كانت الإمبراطوريتان تتباعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها، وبهذا كانت ساعة تراجع الإمبراطوريات تدق في قلب المتوسط[5].

---

[1] جاك، لوغوف، المرجع السابق، ص217-218.

[2] فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص125.

[3] Fernand, Braudel, Les Espagnols..., Op. Cit, p.401.

[4] فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص154.

[5] جاك، لوغوف، المرجع السابق، ص217. وينظر أيضا: فرنان، بروديل، المتوسط...، المرجع السابق، ص125.

لقد كلّفت الحروب كلا المعسكرين خسائر باهظة من الرّجال والعتاد, فكانت مسؤولة إلى حدٍ كبير على الإفلاس المالي الذي أصاب كلا الإمبراطوريتين (الإسبانية والعثمانية)[1]. وقد أرجع بروديل فترة الأمن والسلم اللذين عرفهما البحر الأبيض المتوسط ما بين عامي 1545م و1550م إلى انعدام التمويل، وكذا نتيجةً لتراجع واختفاء بعض كبار متصارعي النصف الأول من القرن السادس عشر, الواحد تلو الآخر[2].

وفي هذا السياق يقول المؤرّخ الجزائري المنور مروش:"...إنّ الجهود الهائلة التي تطلبتها رغبتهما الجامحة في فتح أقاليم واسعة كانت في نظرهما مظهرًا للعظمة والمجد الإمبريالي، هذه الجهود أنهكت القوى وغرست بذور التدهور والانحطاط في هذا الجسم المتضخم"[3]. وعليه كانت هذه الحروب شكلاً يائساً من أشكال بحث الإسلام عن الاتصال بالغرب، ولو عن طريق القوة, ذلك لأنه كان يبحث عن المشاركة في التقنيات المتقدمة للبلدان المسيحية، التي لولاها لما تمكن من القيام بالدور نفسه مع الفرس في إيران[4].

ويمكن القول أن الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط، في الوقت الذي كانا فيه يسعيان إلى الاتصال، كانا من وجهً آخر منفصلين ومنغلقين. ويبرز هذا الأمر على نحوٍ جلي في القرن السادس الذي اتجهت فيه الإمبراطورية الإسبانية، مستندة إلى مرتكزاتها الإمبريالية، نحو السيطرة على الحوض الغربي من المتوسط سيطرة كاملة، ليصبح بحراً إسبانياً لا يمتلك المسلمون منه غير جهته الجنوبية التي ما لبثت اسبانيا أن سعت إلى اختراقها في تونس عام 1535م، وفي الجزائر عام 1541م. هذا بينما كان الحوض الغربي، بحراً عثمانياً بامتياز، خاصة بعد أن وجدت الإمبراطورية العثمانية نفسها وجهاً لوجه أمام ضرورة السيطرة على هذا الجزء بسبب اتساع رقعتها إلى كل من سوريا ومصر[5].

---

[1] فرنان, بروديل, المتوسط...، المرجع السابق, ص 148.

[2] Fernand ,Braudel ,La Méditerranée... ,Op. Cit, T2,p.226.

[3] المنور, مروش, دراسات عن الجزائر في العهد العثماني(القرصنة الأساطير والواقع),الجزائر: دار القصبة للنشر,2009م,ج2, ص 193.

[4] فرنان, بروديل, المتوسط...، المرجع السابق, ص151.

[5] المرجع نفسه, ص 42.

وقد تحدث بروديل عن الاختلاف السياسي والثقافي والاقتصادي بين العالمين الإسلامي في الشرق والمسيحي في الغرب, بقوله:" لقد وقعت معارك بين الإمبراطوريتين على حدود الحوضين في كل من تونس، طرابلس الغرب، مالطة، ليبانت ... والسياسة في حياة هذين البحرين- العالميين كانت تعكس واقعاً تحتياً عميقاً جوهره اختلافهما الثقافي والاقتصادي، فضلاً عن اختلافهما الفيزيائي-الطبيعي ... ظهر الاختلاف جلياً أثناء القرن السادس عشر، إذ أن الشرق، منذ القرن الثالث عشر، لم يتوقف عن خسارة عوامل تفوقه على الغرب واحداً تلو الآخر, لتكتمل في القرن السادس عشر هزيمته على نحوٍ مأساوي ساحق (ليبانت) خصوصاً على المستوى الاقتصادي. فانفتاح المحيط الهادي أنهى امتياز المشرق وامتلاكه لثروات الهند (الكشوفات الجغرافية). الأمر الذي آل يوماً بعد يوم، إلى اتساع الهوة القائمة بين عالمين: اجتاح تقدم الصناعة التقني الغرب الذي استفاد من مناجم ذهب أمريكا، بينما تقهقر الشرق وتراجع. لكن هذا التفاوت لا يخفي الوحدة الاقتصادية للمتوسط على الرغم من الحواجز السياسية التي تعيقها. فالشرق بحاجة لمشاركة الغرب في تفوقه التقني، والصناعة الغربية المزدهرة بحاجة إلى أسواق الشرق. كأن هذه الإنقطاعات والتبادلات هي التي تقيم التوازن في المتوسط وتحرك كل شيء فيه[1].

في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر بدأ الانحلال يضرب أجسام الدول الكبرى (الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية)، واتضح على نحو جلي تراجع هاتين الإمبراطوريتين. كأن مأساة المتوسط كانت سياسية في الدرجة الأولى، ابتداء من القرن السادس عشر. فليس صحيحاً أن الصدفة كانت وراء اكتشاف أمريكا وثورة الأسعار وولادة الإمبراطوريات[2]. وفي نهاية القرن أيضاً بدأ الغربيون يحلمون بتقاسم الإمبراطورية العثمانية التي عصفت فيها الثورات واجتاحتها العصابات. لكن لحظة تحقق هذه الأحلام لم تكن قد حانت بعد, لأن الرجل المريض لم يكن قد شارف على الموت فوق فراش الاحتضار الذي رقد عليه طويلاً دون أن يتمكن من استعادة قوته.

[1] فرنان, بروديل, المتوسط...، المرجع السابق, ص43.

[2] المرجع نفسه, ص 126.

وهكذا تراجعت الدول الكبرى مفسحة المجال لبروز الدول الصغيرة: كفرنسا، إنجلترا، هولندا، ألمانيا[1].

5- انتقال الريادة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي والنتائج المترتبة عن ذلك:

أمام التغيرات التي شهدها العالم منذ اكتشاف العالم الجديد، وكذا اكتشاف طريق جديد للهند، وبعد أن تمكن الأوروبيون من اكتشاف أواسط إفريقيا وسواحلها بمساعدة البحارة المسلمين[2] وخرائطهم[3]، تحولت التجارة الدولية وتغير طريقها، وبدأ البحر المتوسط يفقد أهميته ومعه العالم الإسلامي. ولم تعد تلك القوافل من السفن التجارية تجوبه نظرًا لأهميته، فقد أصبح مساحة شاسعة للحروب والصراعات بين البحارة المسلمين والفرسان المسيحيين، وتارة أخرى بعمل منظم من قبل الأمم الأوروبية، فقد ساهمت العديد من العوامل في خلق الصراع في حوض المتوسط خلال أكثر من ثلاثة قرون[4]، كان العامل الديني أقواها ومحركها الأساسي. فقد أظهرت الكنيسة تأثيرها المعنوي والمادي في توجيه موازين القوى، إلى جانب المنافسات التجارية واكتشاف أهمية الطرق البحرية ذات أبعاد إستراتيجية. فقد اكتسب البحر المتوسط أهمية في كونه منطقة حضارية وفي كونه أيضا طريقًا عالميًا للتجارة والعبور الدوليين بين أجزاء العالم القديم في العصر القديم والوسيط وبين العالم الجديد في العصر الحديث.

وكما نعرف أن البحر المتوسط قد ظل حلقة وصل بين أجزاء العالم من خلال طرقه ومصادر ثروته وبرزت على ضفافه عدة قوى سياسية تركزت أساسًا في جنوب غرب أوروبا وشمال إفريقيا وشرق المتوسط، وكانت العلاقة الرابطة بينهم علاقة صراع

---

[1] نفسه, ص- ص 127 -128.

[2] ساهم ماجد الملاح في هذه الكشوف الجغرافية من خلال كتابه الفوائد في أصول علم البحر والقواعد.

[3] إسماعيل, العربي, تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر, الجزائر, المؤسسة الوطنية للكتاب, 1984م, ص147-148.

[4] Heers, Jacques, Les Barbaresque La Course et La Guerre en Méditerranée, Coll. Perrin, Paris,2001,p.256.

خاصة بين الإسبان والبرتغاليين ضد المسلمين الفارين من الأندلس أو مسلمي بلدان المغرب الإسلامي، والدول المغربية ضد الممالك الأوروبية وأساطيل قراصنتها في غرب أوروبا وجنوبها، وحتى بين الدول الأوروبية فيما بينها لاسيما فرنسا وإسبانيا في عهد فرنسوا الأول وشارل الخامس وادعى كل منهما بحماية الكاثوليكية، ويقابل ذلك كله الوجود العثماني ضد هذه القوى والإمارات المسيحية وأساطيل قراصنتها في شرق وغرب البحر المتوسط[1].

ومن هنا يمكن القول أنه في مطلع القرن السادس عشر بدأ المحيط الأطلسي يكتسب التفوق شيئاً فشيئاً. في إطار الصراع القائم بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وبتعبير آخر بين جهتين: واحدة تحاول الاحتفاظ لها بمصدر الثروة، والثانية تحاول الاستحواذ عليه، وذلك من خلال تجارة البهارات، وخاصة تجارة الفلفل[2]. وبعد حوالي نصف قرن تقريبا فقد البحر الأبيض المتوسط إشعاعه الاقتصادي منذ ما قبل 1621م، وأصبح من جديد على إثر الكشوفات الجغرافية مجالا ثانويا زمنا طويلا[3].

والنقطة التي يجب التشديد عليها هي أن الطرق الجديدة ليست هي التي أزاحت المتوسطيين عن مواقع سيطرتهم ونقلت مركز الثقل التجاري إلى الشمال، بل إن اختراق الإنجليز والهولنديين وحدوث ثورة تجارية هما ما آذنا بأفول نجم المتوسط الذي لم تنضب ثروته، بل هي انتقلت إلى أيدٍ غير أيدي أهله[4].

وهذا الانحطاط والتراجع الذي عرفه البحر المتوسط بعد اكتشاف العالم الجديد بحوالي قرن يفسره بروديل في قوله:"... إن العالم المتوسطي، ابتداء من العام 1570، كان منهكاً، مصدوماً، منهوباً من قِبل سفن وتجار أهل الشمال، وأن هؤلاء التجار لم يكوّنوا ثرواتهم الأولى بفضل شركات الهند ولا بفضل المغامرات التي قاموا بها في بحار العالم السبع. لقد انقضّوا على الثروات الموجودة في البحر (الداخلي) واستحوذوا عليها

---

[1] Herré Couteau, Bigarie, L'Emergence d' une pensée Naval en Europe au XVI et au début du XVII Siècle, Éditions, Le mère, Paris,2000,p.205.

[2] جاك, لوغوف, المرجع السابق, ص 216.

[3] فرنان بروديل، ديناميكية الرأسمالية، تر: شفيق محسن، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، 2008م، ص ص 73-74.

[4] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص121.

بكل الوسائل المتاحة، أفضلها وأسواها. لقد أغرقوا البحر المتوسط بالبضائع الرخيصة الثمن، وهي غالبا ما تكون بضائع رديئة... زينوها بالأختام التي تعود على البندقية والمعروفة عالمياً بغية بيعها، لدى جمهور البندقية... تبعاً لذلك فقدت الصناعة المتوسطية زبائنها وسمعتها..."[1].

ويضيف قائلا:" لقد برز المحيط الأطلسي في ثمانينات القرن السادس عشر، كمركز للكرة الأرضية في أعقاب ازدياد حجم المعادن الأمريكية الثمينة المتدفقة إلى العالم كله[2]. ويضيف بقوله:" لم يقتصر الدخول الشمالي إلى المتوسط على الإنجليز فقط، ففي نهاية الثمانينات من القرن السادس عشر دخل الهولنديون إليه. ووصلوا عام 1579م إلى المشرق وحصلوا على امتيازات تجارية من العثمانيين في عام 1612م، بعد أن كانوا يقومون بأعمالهم التجارية تحت راية الفرنسيين. وقد تميز الهولنديون بوحشيتهم واحترافهم القرصنة البحرية بهدف انتزاع السيطرة على المتوسط وتثبيتها بشتى الطرق والوسائل[3]. وقد حضر الهولنديون أنفسهم لدخول المتوسط عن طريق تشكيل شبكة للتجسس التجاري، فضلاً عن قيامهم برحلاتهم التجارية تحت رايات مزورة، فقد شاعت تسمية سفنهم بـ "السفن المقنعة"[4].

علينا الإقرار بأن المتوسط قد سيطر لمدة طويلة على جاره الشاسع (المحيط الأطلسي)، وبأن انحطاطه لم يحصل إلا حين فقد سيطرته على المحيط. وما يمكن قوله أن المتوسط قد كانت له حصته من الثروات التجارية الجديدة التي عبرت الأطلسي خلال القرن السادس عشر. هذا فضلاً عن أن المتوسط نفسه هو الذي كان يهيئ لنهضة الأطلسي ويضفي على العالم الجديد صوره. أما التدهور الكبير الذي أصاب المتوسط فلم يبدأ إلا في أواسط القرن السادس عشر، حين بدأت السفن الشمالية تسيطر على المواصلات بين بحر الشمال والبرتغال والأندلس في سنة 1550م[5].

---

[1] فرنان بروديل، ديناميكية الرأسمالية ... المرجع السابق، ص ص 74-75.

[2] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص124.

[3] المرجع نفسه, ص 120.

[4] نفسه, ص 121.

[5] المرجع نفسه, ص 61. وللإطلاع أكثر على موضوع خروج السفن الشمالية من المتوسط والآثار المترتبة عن ذلك, ينظر: فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص ص119- 120.

لتتمكن تلك السيطرة الشمالية (الهولندية) من الولوج إلى قلب المتوسط بعد حوالي عشرين سنة من ذلك التاريخ، أي أثناء الأزمة الإسبانية والإنجليزية ما بين عامي (1568 -1569م)[1]. وهي الأزمة التي دفعت الأيبيريين على التخلي عن رحلات الشمال الذي بدأت سفنه تدخل إلى قلب المتوسط. مما أدى إلى خسارة هذا الأخير، إلا أن البلاد المتوسطية لم تُصب بالكارثة إلا بعد دوران السفن الهولندية حول رأس الرجاء الصالح، ذهاباً وإياباً ما بين (1596-1598م)[2].

وقد ترتب عن كل تلك الأحداث التي سبق ذكرها، حدوث انقلاب في تاريخ الملاحة العالمي في القرن السادس عشر، أدى إلى تفوق حربي وتجاري شمالي (إنجليزي- هولندي) على المتوسط، وهذا بسبب التقدم التقني الذي شهدته السفن الشراعية الشمالية السريعة التي كانت حمولتها تتراوح ما بين 100 و 200 طن وذات تسليح وتجهيز عالي. وهذا ما دفع الهولنديين والإنجليز إلى الاستهزاء بالسفن البرتغالية ونعتها بـ "الدجاج المبلول"، بسبب بطئ سرعتها[3].

وقد رأى بروديل أن أسباب نجاح اجتياح الشمال للمتوسط، ليس مثلما يراها جّل المؤرخين الذين يحصرونها في سبب واحد ووحيد وهو عجز شبه الجزيرة الأيبيرية - أمام التقدم التقني الشمالي- عن حماية بوابته الغربية في مضيق جبل طارق، بل كانت هناك أسباب أخرى. فبالإضافة إلى الاستخدام الجيد للطرق البحرية الجديدة، كان هناك القوة والتزوير سبيلاً شمالياً ناجحاً لاختراق المتوسط وفتحه[4].

وهذا يمكن القول أنه ومع بداية القرن السادس عشر لم تكن الآثار الحاسمة والخطيرة التي ترتبت على الاكتشافين الكبيرين: الدوران حول رأس الرجاء الصالح (1497م)، واكتشاف أمريكا (1492 - 1498م)، قد ظهرت بعد. ذلك أنه لابد من انتظار

---

[1] وللإطلاع أكثر على أسباب هذه الأزمة وآثارها لاسيما على إسبانيا, ينظر: فرنان بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص- ص 102 -103.

[2] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص62. وللإطلاع أكثر على الموضوع, ينظر: المرجع نفسه, ص- ص 121- 122.

[3] المرجع نفسه, ص121.

[4] نفسه, ص 121. وفيما يخص موضوع التزوير الذي انتهجته إنجلترا وهولندا لدخول المتوسط, ينظر: المرجع نفسه, ص 122.

زمن طويل نسبياً حتى تجري التحولات ويتبيّن بعد أكثر من قرن, أن قلب العالم انتقل من المتوسط (قلب العالم القديم) إلى الأطلسي (قلب العالم الجديد)[1]. ويرجع بروديل أسباب تأخر ظهور الآثار الحاسمة والخطيرة على البلاد المتوسطية - جراء انتقال قلب العالم إلى المحيط الأطلسي- حتى نهاية القرن السادس عشر، إلى بقاء الأسواق العالمية مفتوحة بوجه السلع الإيطالية، فضلاً عن بقاء التمويل الإمبراطوري الإسباني في يد التجار الجنويين الإيطاليين[2].

وعليه كانت ثمة حركة التفاف بحرية على المتوسط وعالمه الإسباني والمغاربي والإيطالي والتركي والمشرقي- العربي، ستُطلق بدورها حركة تجارية ناشطة بين أوروبا الغربية ومُدنها من جهة وبين أسواق القارات الكبرى: الأمريكيتان، سواحل إفريقيا الغربية والشرقية والقارة الهندية. وثمة تراكم هائل من الأموال والثروات المعدنية (خاصة الذهب)، سيتركّز في المدن (أمستردام، لندن...)، مكوناً قاعدة الرأسمالية الصناعية، ولكن أيضاً منطلقاً للسيطرة على الأسواق وممراتها[3].

إن هذا الانتصار الذي حققه المسلك العابر للمحيط (انتصار المحيط على الأطلسي)، وهو انتصار محتوم، لم يتحقق في لحظة واحدة، بل دام الصراع بين المسلكين المتنافسين طيلة قرن من الزمن مع وجود بعض الهزّات تارة، وبعض الانتعاش تارة أخرى بالنسبة إلى كل منهما، كل ذلك ممثلاً في تعاقب الأزمات وتحسن الأوضاع"[4].

وفي هذا السياق التاريخي، ستنشأ العلاقة اللامتكافئة بين العالم الجديد ممثَّلاً بشكل أساسي بأوروبا الغربية وامتدادها الأمريكي، وبين الشرق، ولا سيما الشرق العربي والتركي والإيراني، الذي كان يرتكز في نشوء دوله وازدهار حضارته على سيادة المتوسط ودوره كحلقة وصل ما بين الممرات وطُرق التجارة القديمة (الخليج، البحر الأحمر، مصر، السودان....)[5].

---

[1] وجيه, كوثراني, الذاكرة والتاريخ..., المرجع السابق, ص30.

[2] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص62.

[3] وجيه, كوثراني, الذاكرة والتاريخ..., المرجع السابق, ص30.

[4] جاك, لوغوف, المصدر السابق, ص 216.

[5] وللمزيد حول الموضوع, ينظر: وجيه, كوثراني, الفقيه والسلطان, دراسة في تجربتين تاريخيتين(العثمانية والصفوية - والقاجارية), القاهرة: المركز الدولي للترجمة, 1990م.

ومن مها يمكن القول أن القرن السادس عشر قد جاء وهو يحمل معه رياح تفوق الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي، هذا الأخير، ومنذ القرن الثالث عشر، لم يتوقف عن خسارة عوامل تفوقه على الغرب واحداً تلو الآخر. لتكتمل في القرن السادس عشر هزيمته على نحوٍ ساحق، خصوصاً على المستوي الاقتصادي[1]. وفي الوقت الذي كانت أوروبا تلهث وراء التجارة والأرباح في المحيط الأطلسي لاستغلال ثروات العالم الجديد في إطار الكشوف الجغرافية، هذه الأخيرة التي سجلت غياب العثمانيين عنها[2]، وبالتالي غياب كل العالم الإسلامي الذي كان واقع تحت سيطرتها وحرمانه من الاستفادة من الثروات التي تم جنيها والتي بقيت حكراً على العالم الغربي المسيحي. وبانفتاح العالم على المحيط الهادي انتهى امتياز المشرق وامتلاكه لثروات الهند. الأمر الذي أدى شيئاً فشيئاً إلى اتساع الفجوة القائمة بين العالمين.[3] وفي الوقت الذي شهد فيه الغرب تقدم الصناعة التقني الذي استفاد من مناجم ذهب أمريكا، كانت الدولة العثمانية بحاجة إلى حرفيين وبحارة وأخصائيين في بناء السفن وصناعة المدافع، مما أدى إلى تراجع الشرق وتقهقره[4].

وقد رأى بروديل أن الدولة العثمانية ولكي تغطي هذا النقص في البحارة والمختصين وغيرهم ولتتمكن من مواكبة التقدم الذي يشهده العالم الغربي خاصة خلال القرن السادس عشر، كانت تعتمد على العناصر الأجنبية الآتية من البلاد المسيحية كالموريسك واليهود، دون أن يمكنها ذلك من إحراز تقدم يجعلها تتفوق على العالم الغربي. ويشرح بروديل وجهة نظره هذه عبر نص مكثف، يمكن القول أنه من المفيد اقتباسه في هذا السياق حيث يقول، معدّداً بعض نقاط الاختلاف بين الدولتين (العثمانية والإسبانية) مع التأكيد على أن التفوق كان لحساب العالم الغربي:" لقد شهد التاريخ حركة انتقال كبرى للمسيحيين (الغرب) باتجاه العالم الإسلامي (الشرق)، مع عدم حدوث حركة عكسية مماثلة (من الغرب إلى الشرق)، ذلك أنه في الوقت الذي كان الأتراك يفتحون أبواب إمبراطوريتهم للغرباء... كان المسيحيون يغلقون أبواب بلادهم، فاللاتسامح المسيحي، ابن الكثافة السكانية، كان يدفع البشر خارجاً... لذا كان

---

[1] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص43.

[2] المرجع نفسه, ص, ص125, 140-141.

[3] نفسه, ص43.

[4] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص141.

المطرودون من اليهود عام 1492م، والموريسك خلال القرن السادس عشر، يتجهون إلى دار الإسلام، وبهؤلاء المطرودين كانت تركيا تستكمل ميلها إلى الأخذ بعناصر التربية الغربية، لكنها ما أن كانت تمتلك واحداً من عوامل التفوق الغربي حتى يستجد عامل آخر. هذا فضلاً على أن النقل الثقافي لا يحالفه النجاح دائماً[1]. ويمكن القول أن هذان السلوكان (فتح المشرق لأبوابه في وجه القادمين إليه، في مقابل اللاتسامح في الغرب) قد أخضعهما بروديل للشروط الديموغرافية، الكثافة السكانية في البلاد المسيحية[2]، والفقر الديموغرافي في الإمبراطورية العثمانية[3].

لم يقتصر الدخول في الإسلام على الأسرى الأوروبيين فقط، بل نجد مسيحيين أحرار جاؤوا من مختلف دول أوروبا عن طواعية للجزائر. فقد كانت السفن تأتي محملة من سردينيا، و كلابر، وجنوة، والبندقية، واسبانيا، والبرتغال. ومن جميع مناطق المتوسط، بمسيحيين اختاروا اعتناق الإسلام[4]. ويقول بروديل معلقاً على هذه الظاهرة بأن المسلمين فتحوا الأبواب للنصارى، في حين أن أوروبا النصرانية أغلقت أبوابها، وهذا لعدم وجود التسامح الذي كان يطرد الأشخاص. فكل من كانوا يطردونهم من اليهود والأندلسيين بالإضافة إلى المسيحيين، الذين فضلوا بلاد الإسلام فالكل وجد مكانه، ووجد الكسب والربح[5]، ليعود ويقول أنه ومنذ نهاية القرن السادس عشر بدأت الدول الأوروبية تحلم بتقاسم الإمبراطورية العثمانية، هذه الأخيرة التي بدأت تعصف بها الثورات الداخلية (الحركات الانفصالية)، إلا أن الرجل المريض صمد في وجه الغرب، وسبب ذلك الصمود كان انقسامات الغرب[6]. ويقصد بانقسامات الغرب، الحروب التي كانت تحدث خاصة بين الإسبان وبلاد الشمال البروتستانتي من أجل السيطرة على

---

[1] المرجع نفسه, ص141-142.

[2] وكأن بروديل هنا يبرر عدم رغبة العالم الغربي المسيحي في استقبال أو في احتواء عناصر إسلامية سواء أكانت هذه العناصر متجهة من الشرق إلى الغرب (والتاريخ لم يسجل مثل هذه الحالة إلا نادراً) أو داخل أراضيه (الغرب المسيحي), وهذا ما حدث مع الموريسكيين في إسبانيا, والذي حاول تبريره بالزيادة السكانية في الإمبراطورية الإسبانية آنذاك. لكن الدراسات التاريخية حول القضية الموريسكية تبين حقائق أخرى غير هذه. والتي من بينها الحقد الديني الصليبي على الإسلام والمسلمين.

[3] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص138.

[4] Braudel, La Méditerranée...,Op.cit,T2,p.133.

[5] Braudel, La Méditerranée...,Op.cit,T2, pp.133-134.

[6] فرنان, بروديل, المتوسط...., المرجع السابق, ص128.

ثروات المحيط الأطلسي الذي أصبح مركز الكرة الأرضية في ثمانينات القرن السادس عشر ميلادي، وكذا بين الكاثوليكية والبروتستانتية[1].

ويمكن أن نعطي مثال مدى استفادة الغرب المسيحي من الكشوفات من خلال ما أحصاه بروديل على كمية الأموال التي كانت تدخل إلى المتوسط قبل وبعد اكتشاف أمريكا، حيث وجد أن قيمة النقد التي كانت متداولة في أوروبا والمتوسط معاً، قبل اكتشاف أمريكا، تُقدر بخمسة آلاف طن من الذهب وستين ألف طن من الفضة، لتصل مع بداية القرن16م وخلال النصف الأول من القرن 17م إلى 16 ألف طن من الذهب و 180 ألف طن من الفضة. كلها وصلت من أمريكا إلى المتوسط[2].

وهكذا يمكن القول أن بروديل يرى أن العالم الإسلامي سيصبح مسيراً من طرف أوروبا المنتصرة، فيما بعد. لا سيما بالنظر إلى نقاط الضعف التي كانت تعتري ذلك الجسم الإسلامي الضخم،كالحاجة الدائمة إلى البشر، عدم اكتمال الوسائل التقنية، الصراعات الداخلية التي كان الدين سببها، صعوبة السيطرة على الصحراء الباردة، وأخيراً ذلك الضعف الناجم عن وقوع العالم الإسلامي أسير نجاحاته السهلة وأسير إحساسه بأنه في مركز العالم وبأنه وجد حلولاً لكل شيء، دون أن يجتهد وراء ابتكار غيرها. والدليل على ذلك ما وصل إليه البحارة العرب من معارف حول إفريقيا الأطلسية والهندية وغيرها، لكنهم لم يهتموا باستكمالها وتوظيفها في عمليات الملاحة البحرية[3].

لكن بالرغم من كل نقاط التفاوت التي تم ذكرها بين العالمين الشرقي الإسلامي والغرب المسيحي لا سيما على مستوى البحر المتوسط، لا يمكن أن نخفي الوحدة الاقتصادية على الرغم من الحواجز السياسية التي تعيقها. فبقدر ما هو التفاوت كبير بقدر ما هي تيارات التبادل والتكامل ضرورية، فالمشرق بحاجة لمشاركة الغرب في تفوقه التقني، والصناعة الغربية المتطورة بحاجة إلى أسواق الشرق[4].

وفي الأخير يمكن القول أنه لابد من استدراك ذلك التجريد الذي يذهب إليه المؤرِّخ الكبير بروديل، في رؤيته للحضارات ودينامية استمرارها وصراعها، لنضيف أن

---

[1] المرجع نفسه, ص124.

[2] نفسه, ص99.

[3] نفسه, ص55.

[4] فرنان, بروديل, المتوسط...، المرجع السابق, ص43.

حيّز الحروب فيما بين الدول والإمبراطوريات والقوى الاجتماعية والسياسية، لا يقع حكماً وبشكل حتمي في المنطق الصراعي للحضارات والأديان المرتبطة أو المندمجة بها[1]. فالمؤرّخون الاقتصاديون ودارسوا الجغرافية وطرق المواصلات والتجارة والأسواق وتطوّر أنماط الإنتاج والتقنيات المعرفية والعسكرية- وفيرناند بروديل يأتي في مقدمتهم- لا يلبثون أن يكتشفوا أن عوامل الصراع لا يقدّمها منطق الحضارات أو فلسفتها أو أفكارها، بقدر ما تهيئ لها – أي لعوامل الصراع – جملة من المصالح الكبرى والصغرى التي تختبئ أو تحتجب وراء تعبئة دينية أو حضارية[2].

وهذا واقع لن يلبث بروديل أن يشدّد عليه عندما يُلاحظ انكفاء المتوسط في أواخر القرن السادس بسبب تغيّر جغرافية الأسواق والتجارة ليقول:" إن ما توقف إذن، في سنة 1574م في المتوسط هو الحروب الكبرى، أي حروب كل من الدول والحضارات، التي ما انتهت حتى توجه محاربوها وتجارها وسفنها إلى الحروب الصغيرة التي شكلت القرصنة وجهها الأبرز... لن تعود الحروب إلى المتوسط، لأنه لم يعد قادرًا على تحمل أعبائها ونفقاتها. فالحروب الكبرى اتجهت، بعد معركة ليبانت، نحو الشمال والأطلسي، في نهاية القرن السادس عشر، لتقبع طيلة قرون فيها، حيث راح يخفق قلب العالم. هكذا بدأت في العام 1618م حرب الثلاثين سنة بعيدًا عن البحر الداخلي (المتوسط) الذي لم يعد يخفق بعنف، لأنه فقد موقعه القديم كقلب للعالم كله"[3].

خاتمة:

إن الوضع الدولي الذي ساد منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، كان سبباً مباشراً في حدوث ذلك الاحتكاك بين الطرفين (العثماني والإسباني)، فتولد عنه تلك العلاقات بين الدولة العثمانية في شرق المتوسط وإسبانيا في غربه؛ حيث كان هذا البحر ولمدة طويلة من الزمن حلبة صراع إسلامي مسيحي مرير خاصة خلال الفترة الحديثة.

---

[1] وجيه, كوثراني, الذاكرة والتاريخ...، المرجع السابق, ص29.

[2] فرنان, بروديل, المتوسط...، المرجع السابق, ص 29.

[3] المرجع نفسه, ص ص153-154.

وهكذا أرجع بروديل انكفاء المتوسط في أواخر القرن السادس لتغيّر جغرافية الأسواق والتجارة العالمية آنذاك ضف إلى ذلك وبعد حوالي نصف قرن تقريبا فقد البحر الأبيض المتوسط إشعاعه الاقتصادي منذ ما قبل 1621م، وأصبح من جديد على إثر الكشوفات الجغرافية مجالا ثانويا زمنا طويلا.

والنقطة التي يجب التشديد عليها هي أن الطرق الجديدة ليست وفقط هي التي أزاحت المتوسطيين عن مواقع سيطرتهم ونقلت مركز الثقل التجاري إلى الشمال, بل إن اختراق الإنجليز والهولنديين وحدوث ثورة تجارية هما ما آذنا بأفول نجم المتوسط الذي لم تنضب ثروته, بل هي انتقلت إلى أيدٍ غير أيدي أهله.

جزيرة قبرص، بؤرة الصراع الإسلامي المسيحي في العصور الوسطى

أ.د منذر الحايك
متقاعد من جامعة حمص/ سوريا.
Monzer.hayek@gmail.com

مقدمة:

ربما كان أشهر ما في الصراعات الدولية على مر العصور هو ما سُميّ الصراع بين الشرق والغرب، وقد بدأت هذه القضية في وقت مبكر من التاريخ، ففي القرن الخامس قبل الميلاد انشقت أوروبا الهلينية عن آسيا الكنعانية الفارسية، فظهرت تلك القضية من خلال إثارة مشكلة الحدود بين الفرس واليونان أو بين آسيا وأوروبا. وكان كل هم الدول المتعاقبة في كلا الضفتين أن تحاول حل هذه المشكلة كل منها على طريقتها الخاصة، عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل[1].

تعد الحروب الميدية بين الفرس والإغريق بداية الصراع بين الشرق والغرب، فقد بدأت بهجوم الفرس على بلاد اليونان، بتصور فارسي لحل شرقي للقضية. لكنها انتهت بهجوم الإسكندر المكدوني واحتلاله لمعظم بلاد الشرق، فارضاً الحل الغربي بالقوة، ولما ظهرت قوة الرومان وتوسعوا في أوروبا وآسيا، فإنهم بذلك لم يرثوا دول وحضارة الإغريق فقط بل ورثوا حلهم لقضية الصراع مع الشرق[2].

وحتى هذه المرحلة من الزمن بقي الصراع بين الشرق والغرب صراعاً عسكرياً وسياسياً ولم يحمل أي صبغة دينية. لكن بعد اعتناق أوروبا للمسيحية، بإعلان قسطنطين المسيحية ديناً للدولة الرومانية، بدأ الصراع بين الشرق والغرب يأخذ شكله الديني، وقد انفجر هذا الصراع أيام الملك الساساني شاهبور الذي هاجم إقليم سوريا الروماني، وأسر الإمبراطور فاليريان، واحتل أقسام واسعة من سوريا، وتابع الملك خسرو عام 614م محاولة إمضاء الحل الشرقي، فهاجم سوريا من جديد واستولى على القدس، وأخذ منها خشبة الصليب المقدس. لكن الرد الغربي لم يتأخر فقد قام الإمبراطور

[1] - منذر الحايك، العلاقات الدولية، 1/ 34

[2] - فيليب سميث، الحضارة الرومانية، 361

الروماني هرقل عام 7 هـ 628م بهزيمة الفرس، واسترد خشبة الصليب وفرض الحل الغربي المسيحي[1].

وهنا أيضاً لم يتأخر الرد الشرقي طويلاً فقد أُعلِن الحل الإسلامي لقضية الصراع بإقامة إمبراطورية آسيوية واسعة، ثم الهجوم على أوروبا من محورين، القسطنطينية وجنوب فرنسا بعد احتلال الأندلس. ومنذ ذلك التاريخ انقسم العالم إلى شرق مسلم وغرب مسيحي، ومع أن العداء بين الشرق والغرب عداء تقليدي وقديم، لكن زاده حدة هذا الانقسام الديني، فالحروب الدينية تكون عادة من أقسى الحروب، لاعتقاد كل فريق بأنه ينفذ إرادة الإله على الأرض، ويؤدي واجباً مقدساً. وربما تكون دوافع الحرب في الأصل دينية، ولكن لا يلبث الناس أن ينسوا الدين، وتصبح أهداف الحرب السيطرة والاستغلال واستعباد الآخرين[2].

وعلى هذا الأساس الديني جاء الحل الغربي في العصور الوسطى لقضية الصراع بين المسلمين والمسيحيين بما عرف باسم الحروب الصليبية، التي تمتاز بأنها حرب جامعة قام بها الغرب المسيحي ضد الشرق المسلم[3]. وعلى الدوام كان الحل بالعنف يولد رد فعل عنيف.

ويعد الصراع الإسلامي المسيحي في العصور الوسطى ضمن الحوض الشرقي للبحر المتوسط جزءاً مهماً من ذلك الصراع الأزلي بين الشرق والغرب، وقد حازت جزيرة قبرص[4] التي تقع في الزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط، مكان الصدارة في هذا الصراع الذي اشتبك بين أطراف كادت أن تكون عالمية. فموقعها الاستراتيجي كمدخل بحري إلى مصر وسوريا، وقاعدة تجارية وحربية هو ما أكسبها أهمية قصوى في الصراع البحري بين المسلمين والمسيحيين[5].

---

[1] - أرنولد توينبي، الحضارة في الميزان، 162

[2] - منذر الحايك، العلاقات بين الشرق والغرب، 41

[3] - سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها، 7

[4] - قبرص: كلمة أعجمية، وهي قبرس في المعاجم العربية وقد ضبطت بضم القاف وسكون الباء وضم الراء مع سين مهملة، والقبرس هو النحاس الجيد، وتعود تسمية قبرص إلى شهرتها منذ القِدم بالنحاس الذي هو بالإنكليزية: Copper المأخوذة من اللاتينية Cuprum.

[5] - إبراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، 73

الصراع بين المسلمين والبيزنطيين المسيحيين على جزيرة قبرص:

بعد أن فتح المسلمون سواحل بلاد الشام غدا من المنطقي أن يوجهوا أنظارهم نحو أقرب الجزر إليهم ألا وهي قبرص، حيث لا يفصلها عنهم سوى أقل من مائة كم، ورغبتهم بالوصول إليها لم يكن فقط كجانب من ذلك الصراع الأبدي، بل لمنع خطر اتخاذها قاعدة لغزوهم من طرف، ومن طرف آخر لجعلها قاعدة تنطلق منها غزواتهم المستقبلية نحو القسطنطينية[1].

كان والي الشام معاوية بن أبي سفيان أول من فكر وخطط للغزو في البحر من المسلمين، ربما بسبب الامتداد الكبير لسواحل ولايته، ولكن يبدو أنه كان للغارات التي قام بها الروم على بعض سواحل الشام، ومعرفته بأنها انطلقت من قبرص التي اتخذتها البحرية البيزنطية قاعدة للسيطرة والتحكم بكامل الحوض الشرقي للبحر المتوسط[2]، فكان لذلك أثره في تشجيع معاوية على خوض غمار البحر لكنه لم يتمكن من اقناع الخليفة عمر الذي رفض ذلك بالمطلق خوفاً على المسلمين[3]. مع ذلك فهذا يدل على إدراك معاوية المبكر لأهمية السيطرة على البحر لإحكام السيطرة على الشام ومصر.

وما إن تولى خلافة المسلمين عثمان بن عفان حتى عاد معاوية لطرح مسألة الغزو البحري والالحاح فيه، لكن عثمان كان متردداً بين تقيده بإحجام سلفه الخليفة عمر من جهة، وإلحاح معاوية الذي يعرف عثمان أنه خبير فيما يقول، فكان الحل أن أعطى معاوية موافقة مشروطة، فكتب له يقول: لا آذن لك في ركوب البحر وقد نهاك عنه عمر بن الخطاب، فإن لم يكن لك بد منه فاحمل معك أهلك وولدك حتى أعلم أن البحر هين كما تقول[4]. وأضاف: لا تنتخب الناس، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنه[5].

---

[1] - عبد الشافي غنيم ومحمد عيسى، التاريخ الإسلامي، 162

[2] - George Hill; History of Cyprus, p 3/ 248

[3] - ابن الأثير، الكامل، 3/ 36

[4] - ابن أعثم، كتاب الفتوح، 2/ 117

[5] - ابن الأثير، الكامل، 3/ 36

حملة معاوية بن أبي سفيان الأولى على قبرص:

وما كان معاوية ليضيع الوقت في انتظار هذا الأمر، فهدفه محدد مسبقاً واستعداداته تتم بهدوء في ميناء عكا. فلما وصلته موافقة الخليفة عثمان بادر فوراً فاستمد أسطول الإسكندرية الذي وافاه بقيادة عبد الله بن أبي سرح[1].

خرجت الحملة البحرية الأولى للمسلمين عام 28 للهجرة ووجهتها جزيرة قبرص، وكانت قيادتها العليا لوالي الشام معاوية بن أبي سفيان، وقيادة الأسطول لعبد الله بن أبي سرح، وتنفيذاً لأمر الخليفة عثمان اصطحب معاوية معه زوجته فاخِتَة وولده[2]. والملفت للنظر في هذه الحملة أن عدداً كبيراً من المسلمين وعلى رأسهم صحابة رسول الله توافدوا للمشاركة في غزو البحر[3]. وكان منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته الصحابية أم حرام بنت ملحان التي كانت من أول شهداء الحملة[4]، وكان ذلك تصديقاً لقول النبي لها بأنها ستكون من أول شهداء غزو البحر[5].

وصلت الحملة قبرص فوجدوا أهلها متحصنين، فنزلوا من المراكب وحاصروا بعض مدنها، عندها طلب أهل الجزيرة الصلح، وتم الأمر بعقد معاهدة معهم تتضمن عدة شروط: أن يدفعوا الجزية للمسلمين، وأن يخبروهم بتحركات الروم البحرية ضد سواحل المسلمين، وأن لا يكونوا عوناً لهم، وأن تكون الجزيرة ممراً للمسلمين في عملياتهم البحرية. وقد وافق أهل جزيرة قبرص على دفع الجزية مع أنهم كانوا في الوقت نفسه يدفعون الخراج للروم البيزنطيين[6].

حملة معاوية بن أبي سفيان الثانية على قبرص:

في عام 33 للهجرة بلغ أسماع معاوية بأن الروم يحشدون أساطيلهم بمساعدة من أهل قبرص، فجهز حملته الثانية التي احتلت الجزيرة، يقول البلاذري: "فلما كانت سنة اثنين وثلاثين أعان أهل قبرص الروم بمراكب أعطوهم إياها، فغزاهم معاوية في خمسمائة

---

[1] - البلاذري، فتوح البلدان، 153

[2] - ابن أعثم، كتاب الفتوح، 2/ 118

[3] - المصدر السابق، 2/ 120

[4] - قبرها الآن ضمن تكية عثمانية على ضفة بحيرة الملح قرب مدينة لارنكا.

[5] - البلاذري، فتوح البلدان، 155. الحديث الشريف عن أم ملحان رواه أنس بن مالك، وذكره البخاري في في صحيحه برقم: 2789. وذكره مسلم في صحيحه برقم: 1912

[6] - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 6/ 165

مركب ففتح قبرص عنوة"[1]. ولم يقاومهم سكان الجزيرة بل فروا إلى الجبال، وأرسلوا يطلبون الصلح فصالحهم المسلمون على ما سبق. وعمل معاوية على تثبيت أقدام المسلمين في قبرص فأرسل إليها جماعة يقيمون فيها، وتعهدهم بالرعاية حتى شيدوا لهم مدينة وأقاموا فيها مسجداً[2].

هذه النهاية لحملتي معاوية على قبرص تجعلنا نستنتج بأنه حقق رغبته بغزوها، لما يعتقده من أهميتها لحماية سواحل المسلمين، ولمنع كونها قاعدة لهجوم الروم عليهم، فضمن مبدئياً حياد الجزيرة[3]. وبالفعل استمر وضع قبرص آمناً طوال العصر الأموي[4]. وقد وقد لاحظ المسلمون خلال غزواتهم تلك بأن أهل قبرص ليس لديهم مقدرة عسكرية وليسوا معنيين بها، وأن الروم يغلبونهم على أمرهم[5].

الصراع بين المسلمين والمسيحيين على قبرص في العصر العباسي:

تابع العباسيون السياسة الأموية حيال قبرص، فهم راضون بحيادها واستمرارها بدفع الجزية، إلا في الحالات التي كانوا يرغبون بها في الضغط على البيزنطيين أو تشتيت انتباههم، كما حدث في خلافة أبي جعفر المنصور عام 158 للهجرة، حيث أرسل حملة برية كبيرة بقيادة حمامة بن وقاص لفتح منطقة كيليكيا شمال شرق الأناضول، ولدعم هذه الحملة البرية بإشغال قوات الروم توجهت حملة بحرية اسلامية قامت بالإغارة على قبرص، ولما تصدى لهم حاكم الجزيرة البيزنطي هزموه وأسروه[6].

وتكررت حملات العباسيين البحرية على قبرص، ففي عهد الرشيد توجهت حملة إسلامية للجزيرة عام 190 للهجرة بقيادة معيوف بن يحيى لتواكب الحملة البرية التي يقوم بها الرشيد في بلاد الأناضول، وذلك رداً على عدم التزام امبراطور الروم نقفور بتعهداته[7].

---

[1] - البلاذري، فتوح البلدان، 154

[2] - كان الاستقرار العربي الأول في الجزيرة في مدينة بافوس، وهي مدينة ساحلية قديمة ويبدو أن سكانها كانوا قد تركوها في ذلك الوقت. (أحمد عثمان، تاريخ قبرص، 129)..

[3] - سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، 8

[4] - Treadgold Warren, A History of the Byzantine. P 314.

[5] - البلاذري، فتوح البلدان، 153

[6] - المصدر السابق، 155

[7] - الطبري، تاريخ الرسل، 8/ 322

وفي عام 290 للهجرة في عهد الخليفة العباسي المكتفي بالله، بينما كان الأسطول الإسلامي يهاجم جزيرة كريت، قام أسطول الروم، متخذاً من موانئ قبرص قواعد له، بقطع طريق الامدادات البحرية عن الأسطول الإسلامي، ومع أنه لم يعرف إن كان هذا الفعل تم ضد رغبة سكان الجزيرة أم بموافقتهم، لكن المسلمين عدوا ذلك نقضاً للحياد الذي تعهد به أهل قبرص، فوجهوا لهم حملة بحرية تأديبية عام 192 للهجرة[1]. أما آخر الغزوات الإسلامية لقبرص في العصر العباسي فكانت عام 397 للهجرة في عهد الخليفة المقتدر بالله، ورغم تمكن الحملة من اخضاع الجزيرة بالكامل لكنها كسابقاتها عادت بدون أن تترك أثرا دائما[2].

بعد ذلك غابت تماماً جزيرة قبرص والساحة الشرقية للبحر المتوسط عن الاهتمام السياسي والعسكري للدولة العباسية، بسبب ضعفها، وتغلب الأمراء على أطرافها، وازدياد مشكلاتها الداخلية[3].

الصراع بين المسلمين والفرنجة المسيحيين على قبرص:

تابعت الحملات الصليبية طريقها البحري نحو الشرق على خطى طريق الحجاج القديم، وبالتالي كانت جزيرة قبرص محطتهم الأخيرة التي يتم فيها الاستعداد النهائي للحرب والتزود بالمؤن[4]، ولكن أول احتكاك عسكري كبير بين قوات الفرنجة وأساطيلهم وبين قبرص نتجت عنه عواقب دائمة كان عام 580هـ 1184م، عندما لجأت إليها بسبب الأحوال الجوية بعض سفن الأسطول الإنكليزي ضمن حملة الملك ريتشارد الصليبية، وصادف ذلك وجود حاكم بيزنطي للجزيرة هو اسحق كومانين الذب كان قد استقل بحكمها وأعلن نفسه امبراطوراً، وحاول بناء علاقات دولية مستقلة فاتصل بصلاح الدين سلطان الشام ومصر واتفق معه على إعاقة أساطيل الفرنجة وعدم السماح لهم بالرسو في الجزيرة[5]، ولذلك ما ان سمع برسو السفن الإنكليزية حتى قام بمصادرتها، ولكن سرعان سرعان ما وصل الملك ريتشارد مع بقية أسطوله، الذي بادر بالهجوم فهرب اسحق وأتم

---

[1] - المصدر السابق، 8/ 390

[2] - ابن الجزري، المختار من حوادث الزمان، 2/ 164

[3] - سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، 1/ 133

[4] - أرنست باركر، الحروب الصليبية، 217

[5] - ابن شداد، النوادر السلطانية، 94

ريتشارد السيطرة على قبرص[1]، والتي ستتحول منذ الآن إلى قاعدة رئيسية للحملات الصليبية ضد الشرق المسلم.

لكن أحلام ريتشارد الوردية بدأت بالتبخر بسبب المشكلات التي واجهها في الجزيرة، وكان منها ثورة الأهالي على نائبه فيها، ومصاريف تنظيم أحوالها مع تفريغ عدد من السفن والجند لحمايتها، وهو في أشد الحاجة إليهم في حربه ضد المسلمين في فلسطين، وبدل التخلي عنها عرض ريتشارد على ملك القدس الفرنجي جاي لوزنيان مبادلة الجزيرة على مملكة القدس، وكان العرض مجزياً لكليهما فالملك جاي بلا مملكة حقيقية فالمسلمون يحتلون القدس، بينما قبرص مملكة قائمة فعلاً. وتمت الصفقة مقابل مبلغ من المال دفعه الملك جاي، الذي تسلم الجزيرة وأقام فيها دولة آل لوزنجيان الفرنجية[2].

استمر جاي لوزنيان ملكاً للجزيرة التي اشتراها مدة قصيرة لم تتجاوز الأربع سنوات انشغل فيها في توطيد مملكته والاستعداد للمخاطر ومنها محاولة البيزنطيين استعادة الجزيرة، وثورة الأهالي ضد ملك على غير مذهبهم الديني، فآثر تهدئة الخارج للاهتمام بالداخل، ومن هذا المنطلق حاول استمالة سلطان المسلمين صلاح الدين[3]، فهو من جهة يضمنه إن لم يكن كصديق فعلى الأقل ليس عدواً، وأيضاً سيكون في صفه ضد البيزنطيين فلهما بذلك مصلحة مشتركة.

وفي الوقت نفسه قام اسحق انجيلوس الامبراطور البيزنطي بمراسلة السلطان صلاح الدين يطلب مساعدته لاستعادة قبرص من عدو المسلمين القديم مقابل تنازلات فيها، لكن السلطان وجد أن مصلحة المسلمين بعدم التحالف مع أي من الطرفين[4].

توفي الملك جاي وخلفه أخوه عموري لوزنيان الذي تزوج من أرملة هنري دي شامبين ملك الصليبيين في عكا ووريث مملكة القدس، فاتحدت بذلك المملكتان وغدا ملك قبرص في قلب الصراع الصليبي الاسلامي في فلسطين. افتتح عموري أعماله الحربية ضد المسلمين بمهاجمة قافلة تجارية بحرية فاحتجزها وقادها إلى ميناء عكا. ثم أخذ عموري يستعد لغزو مصر نفسها، وفعلا قاد أسطوله ودخل مدينة فوة المصرية عبر فرع النيل "رشيد" وعاد محملاً بالغنائم[5].

---

[1] - أنتوني بريدج، تاريخ الحروب الصليبية، 235

[2] - Runciman Steven, A History of Crusades. P 217

[3] - أبو شامة، الروضتين، 2/ 117

[4] - ابن شداد، النوادر السلطانية، 191

[5] - Armstrong Karen, Holly War, P 326

بعد موت عمري عام 603هـ 1206م تولى ابنه الطفل هيو عرش قبرص، واستمر أسطول الجزيرة على خطى عموري يقوم بالقرصنة ضد سفن المسلمين، وكذلك كرروا هجومهم على سواحل مصر بمهاجمة أطراف دمياط. وفي الوقت نفسه كانت القوات البرية القبرصية تشارك في الهجمات الصليبية على بلاد المسلمين في الشام[1].

بعد موت هيو رسموا ابنه هنري- الذي لم يبلغ العام- ملكاً للجزيرة، وكانت الكلمة في لمطران العاصمة نيقوسيا، الذي قاد قوات قبرص وشارك في الحملة الصليبية الخامسة[2]، وبسبب صغر سن الملك وفشل الحملة الخامسة توقفت قبرص عن دعم أي نشاط للحرب الصليبية، واستمر هذا الحال حتى عام 646هـ 1248م وكان الملك هنري لوزنيان قد بلغ أشده ووطد أركان مملكته، وصادف في ذلك العام قيام ملك فرنسا بحملته الصليبية الشهيرة على مصر، المعروفة بالحملة السابعة، وكعادة الحملات البحرية رست حملة لويس في ميناء ليماسول القبرصي فاستقبله الملك هنري واستضافه في قصره بنيقوسيا، وربما كان ذلك لكون أسرة لوزنيان الحاكمة في قبرص هي أسرة فرنسية[3].

وبعد استراحة الملك الفرنسي وجيشه لعدة أشهر، واستكمالهم التزود بالمؤن والذخائر، أطلقت الحملة نحو مصر يرافقهم الملك هنري ومعه كامل قواته من الفرسان والسفن. وعندما حلت بالحملة الهزيمة المنكرة في المنصورة وأسر الملك الفرنسي وعدد كبير من جيشه، تمكن هنري من الهرب ولحق بجزيرته[4]، لكنه سرعان ما مات سنة 615هـ 1253م ونصب ابنه الطفل الرضيع باسم هيو الثاني.

انتقل الصراع البحري حول قبرص من كونه صراع بيزنطي إسلامي إلى صراع فرنجي إسلامي، لكنه ظل صراع مسيحي إسلامي، أما سكان الجزيرة فاستمروا على حالهم يرغبون بمساعدة الفرنجة ولكنهم ذاقوا منهم الويلات خاصة لاختلاف المذهب بينهم فالسكان بمعظمهم أرثوذكس بينما الأوربيون "الفرنجة" كاثوليك بمعظمهم. وغالباً ما كان العداء بين المذاهب المختلفة أشد من العداء بين الأديان المختلفة، لكن في حالة الضعف وعدم تمكنهم من تشكيل قوة قادرة خاصة بهم فبقوا مجرد رعايا هراطقة لملوك الفرنج المتغلبين على الجزيرة[5].

---

[1] - المقريزي، السلوك، 1/ 179

[2] - محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، 204

[3] - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، 43/ 1162

[4] - ورود التاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، 45/ 773

[5] - Stevenson, The Crusaders in the East, p 239

الصراع بين المسلمين والمسيحيين على قبرص أثناء حكم المماليك:

كانت قبرص لا تزال تحت حكم أسرة ملوك القدس القدماء من آل لوزنيان، وكانت الجزيرة في هذه المرحلة تنعم بالأمن والاستقرار، مع أنها لا زالت تحمل لواء الحرب الصليبية ضد المسلمين[1].

وكان سلاطين المماليك مهملين لأمر قبرص أول الأمر لأنهم وجهوا جهودهم العسكرية كلها لتحرير مستعمرات الفرنجة في الشام، فكما حرر بيبرس أنطاكية أولى إمارات الفرنج في الشرق[2]، حرر المنصور قلاوون مدينة طرابلس، وأثناء حصاره لها عام 688هـ 1289م حاول هنري الثاني ملك قبرص تقديم الدعم ببعض السفن من البحر لفرنجة طرابلس[3]، وكان أضعف من أن يتدخل بالمعركة، وبعد سقوطها أدرك أن دور عكا وهي آخر ممتلكات مملكة بيت المقدس قد حان، ولذلك سارع بالاتصال مع السلطان قلاوون عارضاً عليه الصلح، فأجابه لذلك وتم عقد هدنة مدتها عشر سنوات[4]، لكن سرعان ما انهارت الهدنة باعتداء حجاج صليبين على المسلمين، وصادف ذلك تسلم الأشرف خليل بن قلاوون سدة السلطنة بعد وفاة أبيه، فلم يتأخر رده كثيراً فقد خرج بجموعه من مصر قاصداً عكا عام 690هـ 1291م، فهب هنري الثاني ملك قبرص يدافع عن آخر ممتلكاته في الديار المقدسة، وقصد عكا بكل جيوشه وأساطيله، ولكنه وجد أن الأمر شبه منتهي فانسحب مع كامل قواته عائداً إلى قبرص[5].

وكما توقع هنري سقطت المدينة لكنه ربما لم يتوقع توجه جموع الصليبيين منها إلى جزيرته فاستقبلهم ووطنهم فيها، وبذلك انتقلت لمدن الجزيرة كافة النشاطات التجارية التي كانت للفرنج وللجاليات الأوروبية في عكا، وتم تعيين القناصل والوكلاء التجاريين في قبرص، وتزاحمت في موانئها السفن التجارية الأوروبية التي كانت تنشد التجارة مع الشرق من خلال عكا[6].

ولما مات هنري الثاني خلفه ابنه هيو الرابع الذي أمضى حياته كقرصان يغير على سواحل السلاجقة في آسيا الصغرى، وأحيانا على سفن وسواحل مصر. ولما مات عام

---

[1] - سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، 8

[2] - ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، 102

[3] - النويري، نهاية الأرب، 28/ 155

[4] - ابن أبي الفضائل، النهج السديد، 200

[5] - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/ 16

[6] - محمد طاهر المنصوري، قبرص في العصر الوسيط، 2/ 216

751هـ 1350م خلف ابنه بطرس الأول الذي سيكون مختلفاً عن كل من سبقه من أسرته في قبرص، فقد ترافق تولي بطرس للعرش مع فترة ضعف مرت بها السلطنة المملوكية، مما ساهم إلى حد كبير في نجاح مساعيه وشهرته الحربية.

في عام 767هـ 1365م قام بطرس ملك قبرص بأهم عمل عسكري تحققه قبرص ضد المسلمين، فقد جهز حملة بحرية كبرى وزودها بكل ما يلزم من العتاد والمؤن، وكان قد أعد لها سابقاً بدعم من عدة ممالك أوروبية. ومهد لها بهجوم مضلل على عدة مدن قي ساحل الشام، وحرص على كتمان وجهته الحقيقية بشدة، لكن الأخبار وصلت أنه يريد دمياط، فاستعد أمراء المماليك لذلك[1]، ولما كانت بعض أخبار استعدادات اساطيل قبرص تشير نحو الإسكندرية فما كان أمرائها يلتفتون إلى ذلك، ويستصغرون شأن القبارصة أن يتجرأوا على غزو أكبر المدن ذات الأسوار والقلاع المتينة وميناء أعظم التجارات العالمية الإسكندرية[2]. وحسب بعض الروايات فإن خبر غزو القبارصة للإسكندرية وصلت لمسامع الناس قبل عدة أشهر[3]. ولكن المشكلة كانت بعدم اهتمام والي المدينة وأمراء الحرب من المماليك[4]. وربما كان وراء ذلك كمية كبيرة من الاستخفاف بملك قبرص وقواه العسكرية، العسكرية، فللمصريين تجارب عسكرية كثيرة مع ملوك قبرص[5].

وصل الأسطول القبرصي ورسا أمام الإسكندرية وكان فيه 70 سفينة مختلفة الأحجام والمهام، عندها تيقن الأمراء من الأمر فأخذوا بالاستعداد، وانتشر الناس على الأسوار، ولكن روح الاستخفاف بالقبارصة لازالت مسيطرة على الجميع. وقد أدرك المهاجمون ذلك، فقربوا سفنهم ونزلوا إلى البر، فخاف كل من على الشاطئ وهربوا، ووصل رجال الحملة إلى السور وسرعان ما اقتحموه ودخلوا المدينة[6].

أسر القبارصة كل شاب وفتاة وقتلوا الباقين دون تمييز، وكانوا ينهبون كل غال وثمين ويحرقوا كل ما عجزوا عن حمله، استمروا بذلك ثمانية أيام بلياليها[7]. يرحلون في

---

[1] - المقريزي، السلوك، 2/ 49

[2] - النويري السكندري، الإلمام، 414

[3] - المقريزي، السلوك، 3/ 115

[4] - عبد العزيز عبد الدايم، مصر في عصر المماليك، 85

[5] - النويري السكندري، الإلمام، 415

[6] - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، 316

[7] - النويري السكندري، الإلمام، 430

الليل إلى سفنهم ويعودون في النهار خوفاً وصول النجدات ومداهمتهم[1]. ويبدو أن غنائم الإسكندرية على كثرتها لم توف مصاريف الحملة فقام بطرس ملك قبرص بحملة أخرى سريعة على مدينة طرابلس الشام، ورغم أنه دخلها ونهب منها لكن المسلمين جاءتهم النجدات وهاجموه فانسحب على عجل، ليقرر بعدها أن حملاته الفردية ليس ذات جدوى، وبالفعل فهي لا تعدو عن كونها عمليات قرصنة يقودها ملك. إن هذه المغامرات غير المجدية دفعت حاشية الملك بطرس للتآمر عليه وقتله عام 771هـ 1369م. فخلفه ابنه بطرس الثاني الذي تمكن بوساطة البنادقة من عقد صلح مع السلطان المملوكي الأشرف[2].

استمر الصلح نظرياً لكنه في الواقع لم يمنع القبارصة بالتعاون مع بعض الأوروبيين من القيام بأعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية والاغارة أحياناً على ثغور الشام كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

حملات السلطان برسباي على قبرص:

استمر الوضع على ما هو عليه حتى عام 826هـ 1422م عندما تولى السلطان الأشرف برسباي الحكم في القاهرة. وكان الرد على غزو القبارصة للإسكندرية شغل المسلمين الشاغل[3].

حملة برسباي الأولى:

في عام 828 هـ 1424م انطلقت من ميناء بيروت حملة استكشافية مؤلفة من بضعة سفن، وصلت ليماسول شرقي قبرص واستولت على الميناء، ثم نزلوا الى المدينة فاحتلوا جانباً منها وهزموا متوليها، ولكن باقي المدينة استعصى عليهم لشدة تحصينه. فحملوا ما قدروا عليه من الغنائم والأسرى وعادوا بعد أن أحرقوا سفن القراصنة المحتمية في عدة خلجان على الشواطئ القبرصية[4]. كانت الحملة ضربة للقرصنة وعملية استطلاع كشفت إمكانية نجاح هجوم كبير على الجزيرة[5].

---

[1] - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 4/ 29

2 - ابن قاضي شهبة، 218

[3] - ابن إياس، بدائع الزهور، 2/ 87

[4] - صالح بن يحيى تاريخ بيروت، 224

[5] - سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، 91

حملة برسباي الثانية:

في عام 828هـ 1425م انطلق أسطول المسلمين من ميناء طرابلس الشام، وألقى مراسيه أمام ميناء الماغوصة "فاماغوستا" على ساحل قبرص الشرقي، وسرعان ما استسلمت المدينة بغير قتال فدخلها المسلمون وجالوا حولها[1]، ثم تحول الأسطول الإسلامي إلى مدينة لارنكا القريبة، يواكبه الجند على البر. تصدى لهم الأسطول القبرصي وبدأ مناوشاته لفصل أسطول المسلمين عن مشاتهم لكن محاولاته لم تفلح وسرعان ما هرب[2]. وتقدمت القوات الإسلامية وعندما اعترضهم الملك جانوس بقواته هزموه، وأسروا أمير لارنكا، واستولوا على مخازن العتاد. ثم ساروا إلى ليماسول "نمسون" فاستولوا على قلعتها، وهناك سمعوا بإمدادات البنادقة للملك جانوس، واستعداداته وحشوده لمهاجمتهم، فتشاوروا وأجمعوا على الانسحاب[3].

حملة برسباي الثالثة:

سمع السلطان برسباي باستعدادات ملك قبرص جانوس وطلبه الإمدادات من أوروبا، فخشي من تكرار هجوم الإسكندرية، فأمر بتحرك اسطول مصر نحو قبرص، وفي عرض البحر انضم اليه الأسطول الشامي[4]، ورست الأسطول الإسلامي أمام ليماسول، فهاجموا قلعتها واحتلوها، وانتقلوا نحو المدينة فأكملوا السيطرة عليها، وبلغتهم فيها أخبار تقدم ملك قبرص جانوس نحوهم مع امدادات أوروبية، فبادروا إلى لقائه خارج المدينة، وسار المشاة على البر والأسطول في البحر حتى التقوا عند بحيرة الملح قرب لارنكا، ورغم ضخامة جمع ملك قبرص مع حلفائه فإنه سرعان ما انهزم، وتمكن المسلمون من أسره بعد أن قتلوا أخيه[5]، وتابعوا تقدمهم باتجاه العاصمة نيقوسيا، فدخلوها وأمنوا أهلها، ثم غادروا الجزيرة مع الملك جانوس لوزنجيان[6]، فوصلوا إلى القاهرة وقد أعد موكب خاص ليسير فيه الملك الأسير[7]، وحوله أعلامه وتاجه وخلفهم الأسرى[8]. ثم أمر السلطان

---

[1] - صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، 228

[2] - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 117

[3] - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 285

[4] - صالح بن يحي، تاريخ بيروت، 227

[5] - المصدر السابق، 229

[6] - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 290

[7] - ابن إياس، بدائع الزهور، 329

[8] - العيني، عقد الجمان، 2/ 77

بتخصيص مكان لائق للملك يحجز فيه، وكلف مجموعة بخدمته وخيّره فيمن يصحب من جماعته الأسرى[1].

وبعد مفاوضات طويلة وافق السلطان برسباي على إطلاق ملك قبرص مقابل فدية كبيرة، وأن يعود لحكم قبرصاً نائباً للسلطان، مع دفع جزية سنوية. وعاد جانوس ونفذ كل الشروط، حتى أنه أعلم المسلمين عن إغارة بحرية تتقدم نحوهم يقوم بها الكتلان "الاسبان"، فأفشلها المسلمون. وبقي جانوس وفياً على ما عاهد عليه حتى وفاته، والتزم بها ابنه حنا الثاني من بعده[2].

خاتمة:

من كل ما سبق نتبين أهمية جزيرة قبرص في الصراع الذي دار بين المسلمين والمسيحيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، لكونها مركزاً للتحكم في طرق النقل والتجارة في أيام السلم، وقاعدة عسكرية لتموين وانطلاق الأساطيل زمن الحرب، وهذا يفسر التنافس الشديد الذي كان قائماً حولها بين القوى الإسلامية والقوى المسيحية.

كما نتوصل لنتيجة مفادها أن جميع نتائج الحملات الإسلامية عل جزيرة قبرص كانت كلها متشابهة، بحيث بقيت قبرص خاضعة لكلا الجارين القويين الروم المسيحيين والمسلمين، وظلت ذات تبعية مزدوجة فلم تستقر مع أي من المتصارعين بشكل كامل، فلم يتمكن أي من الروم أو المسلمين من السيطرة الكاملة الدائمة على الجزيرة. إضافة إلى أن الاهتمام الكبير الذي أولاه البيزنطيون للجزيرة هو ما منع العرب من ضمها بشكل دائم، كما فعلوا بجزيرة كريت، وليستمر تقاسم النفوذ في قبرص مناصفة بين المسلمين والروم، وهذا ما أكد عليه كثير من المؤرخين[3]. واستمر هذا الوضع حتى قيام مملكة آل لوزنجيان اللاتينية فيها.

---

[1] - المصدر السابق، 2/ 81

[2] - ابن تغري بردي، النجوم، 15/ 254

[3] - ابن حوقل، صورة الأرض، 185

مصادر البحث

- ابن أبي الفضائل، مفضل، النهج السديد والدر المفيد فيما بعد تاريخ ابن العميد، مكتبة النهضة، القاهرة/ 1988
- ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث، بيروت/ 1995
- ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي، كتاب الفتوح، دار الكتاب العربي، بيروت/ 1997
- أوف ويندوفر، روجر، ورود التاريخ، الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، مطابع دار البعث، دمشق/ 2002
- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار البشائر، دمشق/ 1989
- باركر، باركر، أرنست، الحروب الصليبية، تعريب: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت/ 1967
- بريدج، أنتوني، تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق/ 1985
- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار الكتاب، بيروت/ 1974
- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي:

1- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، دار إحياء التراث، بيروت/ 1987.

2- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة، لجنة التأليف والنشر، وزارة الثقافة، القاهرة/ 1966

توينبي، أرنولد، الحضارة في الميزان، ترجمة: محمود أمين الشريف، دار العلم، بيروت/ 1989

ابن الجزري، محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، المختار من حوادث الزمان، تحقيق: خضير المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت/ 1988

- الحايك، منذر:

1-العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية،دار الأوائل،دمشق/2000

2- العلاقات بين الشرق والغرب، دار صفحات، دمشق/ 2022

- ابن حوقل، صورة الأرض، مكتبة المثنى، بغداد/ 1965
- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الإسكندرية، دار المعارف، مصر/ 1969
- سميث، فيليب، الحضارة الرومانية، ترجمة: وائل سلامة، الدار العربية، بيروت/ 2004
- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية، القاهرة/ 1964
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الكتاب، بيروت/ 1972
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، تاريخ الملك الظاهر، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، القاهرة/ 1983
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة، القاهرة/ 1961
- عاشور، سعيد:

1- قبرص والحروب الصليبية، الهيئة العامة للكتب، القاهرة/ 2002

2- أوروبا في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة/ 1979

- عبد الدايم، عبد العزيز محمود، مصر في عصر المماليك، دار الكتب العلمية، بيروت/ 1999
- العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، مكتبة النهضة، القاهرة/ 1970
- عمران، محمود سعيد، الحملة الصليبية الخامسة، دار المعارف، القاهرة/ 1985
- عطية، سوريال، الحروب الصليبية وتأثيرها، الدار العربية، القاهرة/ 1966
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة/ 1969
- غنيم، عبد الشافي وعيسى، محمد، التاريخ الإسلامي، مكتبة مدبولي/ 1989
- فابري، الراهب فيليكس، جولات ورحلات، الموسوعة الشاملة، سهيل زكار، مطابع دار البعث، دمشق/ 2002

- ابن قاضي شهبة، محمد بن أحمد، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت/ 1970
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة/ 1961
- محمد، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، دار الكتاب العربي، القاهرة/ 1976
- المنصوري، محمد طاهر، قبرص في العصر الوسيط، مركز البحوث، نيقوسيا/ 2001
- النويري، محمد بن قاسم السكندري، الاعلام بواقعة الإسكندرية، تحقيق: أحمد ربيع، مطبعة دار الكتب القاهرة/ 1974
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: أحمد كمال زكي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة/ 1980
- ابن يحيى، صالح، تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت/ 1927

- Armstrong Karen. Holly War. Macmillan, London 1988
- George Hill; History of Cyprus, Cambridge university press. London 1948
- Stevenson, W. B, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907. Coby right, Beirut 1968
- Runciman Steven A History of Crusades. Cambridge university press 1954
- Treadgold Warren, A History of the Byzantine. Stanford University Press. California 1997

التواصل الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي
(جزيرة صقلية خلال الحكم النورماني نموذجاً)

د.خديجة خيري عبد الكريم خيري
أستاذُ التَّاريخِ الإسـلامي المســاعد
جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم/ السودان
mailto:khadigakhairy@gmail.com

المقدمة:

يعدُّ التواصلُ الحضاري بين الأمم والشعوب -بما يمثله من تأثير وتأثر بين الحضارات والثقافات - من الظواهر الإيجابية، التي أسهمت في تقدم وتطور الفكر الإنساني. فلا غرو أن يعدُّ التواصلُ الحضاري سمةً من سمات الحضارة الإسلامية المهمة، لا سيما وأن الإسلام يدعو إلى التعارف والتعاون بين الأمم والشعوب قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1].

وفي محاولة منا لتسليط الضوء على التواصل والتفاعل بين الحضارات ودوره في تطور وتقدم المجتمعات الإنسانية، جاء هذا البحث هادفاً إلى إبراز دور جزيرة صقلية في التواصل الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي وذلك بحكم موقعها - وسط البحر الأبيض المتوسط – الذي شَكَّلَ همزةَ الوصلِ بين العالَمَيْنِ الإسلامي والمسيحي.

تكمن مشكلة البحث في السؤال الرئيس: كيف أسهمت صقلية في تحقيق التواصل والتفاعل بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي؟ وتنبثق عنه الأسئلة الفرعية الآتية: ما هي العوامل التي ساعدت صقلية على التواصل والتفاعل مع الشرق الإسلامي؟ و إلى أي مدى تأثرت صقلية بالحضارة الإسلامية؟

وفي معالجة موضوع البحث اتبعنا المنهج التاريخي والمنهج الوصفي. وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث؛ ففي المبحث الأول تحدثنا عن **جغرافية وتاريخ جزيرة صقلية**، وفي المبحث الثاني تناولنا **العوامل التي ساعدت صقلية على التواصل والتفاعل مع الشرق الإسلامي**، وفي المبحث الثالث: تعرضنا لـ

[1] سورة الحجرات:آية رقم:11

مظاهر تأثر صقلية بالحضارة الإسلامية. ثم ختمنا البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج وبعض التوصيات.

جغرافية جزيرة صقلية.

صِقِلِّيَّةُ (Sicily): بكسر الصاد والقاف واللام، وتشديد اللام والياء، وأكثر أهلها يفتحون الصاد واللام (**صَقَلِّية**)[1]، والبعض يقول **أصقلية**[2]، **وسقلية**[3]. وتعني في اللسان القديم التين والزيتون[4]. تعد – جزيرة صقلية- واحدة من أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط، وهي امتداد جغرافي لشبه الجزيرة الإيطالية إذ يفصلها عنها مضيق **مسينا (Messina)** الضيق[5]، وتقدر المسافة بينها وبين الشمال الأفريقي(المغرب الأدنى) بحوالي مئة وعشرون كيلومتراً[6].

تأخذ جزيرة صقلية شكل المثلث المتساوي الساقين[7]، ويغلب على سطحها الجبال[8]، كما تمتاز بأراضيها الخصبة، وبخيراتها المتنوعة، وقد بالغ الجغرافيون والرحالة في وصف محاسنها وخيراتها[9]، وليس أبلغ من قول شاعرها **ابن حمديس** (ت:527هـ/1133م) في وصفها:

ذكـــرت صقلية والهـوى يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدث أخبارها[10].

---

[1] ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج3، دار صادر، بيروت، ص416.

[2] المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص181.

[3] ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص416.

[4] الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص367.

[5] عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة: توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، 1980م، ص8.

[6] الزهرة احفوصة، سهام العابد، **المستعمرات الإغريقية في جزيرة صقلية(735ق.م-212ق.م)** كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمه لخضر-الوادي، الجزائر، 2018-2019م، ص8.

[7] ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، 1992م، ص113. القزويني،**آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ص215.

[8] ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص113. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص417. الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص317.

[9] ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص117-118. الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج2، مكتبة الثقافة الدينية، 2002م، ص588-589. ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، 1955م، ص314. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص417. القزويني،**آثار البلاد وأخبار العباد**، ص215.

[10] ابن حمديس، **ديوان ابن حمديس**، دار صادر، بيروت، ص183.

فبحكم موقع الجزيرة الاستراتيجي في منتصف البحر الأبيض المتوسط جعل منها معبراً مهماً للطرق التجارية، ومن ثم غدت منطقة جاذبة للهجرات البشرية، ولتنافس القوى السياسية في السيطرة على البحر الأبيض المتوسط[1]، هذا بالإضافة إلى ما تمتعت تمتعت به -جزيرة صقلية- من صفات طبيعية ميزتها عن سائر البلاد في ثرواتها الزراعية والمعدنية والحيوانية[2].

التاريخ السياسي لجزيرة صقلية:

تاريخ صقلية موغل في القدم، فمنذ نحو ألف سنة قبل الميلاد استوطنها شعب الصيقول، ومنهم اشتقت اسمها **(صيقول-صقلية)**[3]، وقد خضعت صقلية منذ تاريخ مبكر لغزوات الفينيقيين والإغريق، وأسسوا قواعد تجارية على سواحلها، ففي حين أسس الفينقيين قاعدة بلرم (**Palermo**) في سواحلها الشمالية، أسس الإغريق في القرن الثامن قبل الميلاد قاعدتين في سواحلها الشرقية هما؛ سرقوسة (**Syracuse**) وقطانية (**Catania**)[4].

وعلى الرغم من ازدياد النفوذ الإغريقي في صقلية إلا أن الحكم لم يَصْفُ لهم، وأصبح العنصران الفينيقي والإغريقي يتنازعان في فرض السيادة المطلقة على الجزيرة حتى برز القرطاجيين وتمكنوا بعد محاولات عدة من بسط سيطرتهم على الجزيرة سنة 264ق.م، ودامت سيطرتهم قرابة 274 عاماً ، ثم انتزعها منهم الرومان سنة 146ق.م، وغدت صقلية من ممتلكات روما، وأصبح تاريخها جزءاً من تاريخ الإمبراطورية الرومانية لعدة قرون[5]. ومع ظهور الوندال في الشمال الإفريقي في مطلع القرن الخامس الميلادي[6]،

---

[1] منى بنت حسين القحطاني، **العلاقات الاقتصادية لصقلية بدول البحر المتوسط(من القرن الثاني حتى السادس الهجري/ السابع حتى الحادي عشر الميلادي)** مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية، مج3، ع2، 2016م، ص156.

[2] القزويني،**آثار البلاد وأخبار العباد**، ص215.

[3] أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا**، مكتبة الاستقامة، تونس، 1365هـ، ص19.

[4] شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات (ليبيا- تونس-صقلية)**، دار المعارف، القاهرة، ص333.

[5] أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا**، ص22-24.

الميلادي[1]، ونجاحهم في الاستيلاء على قرطاج سنة 439م، أخذوا يتطلعون للاستيلاء على جزر البحر المتوسط، حيث تمكنوا سنة 456م من الاستيلاء على جزيرة سردينيا (**Sardinia**) وجزيرة كورسيكا (**Corsica**) وجزر البليار(**Balearic**) ثم صقلية[2]. إلا أن حكمهم لصقلية لم يدم طويلا إذ تمكن الروم سنة 530م من استعادتها[3].

وبعد سيطرةٍ رومانيةٍ دامت قرابةَ الثلاثةِ قرونٍ، خضعت صقلية سنة 827م لحكم المسلمين[4]، وظلت الجزيرة تحت السيادة الإسلامية لأكثر من قرنين ونصف (827م-1091م) شهدت صقلية خلالها ازدهاراً حضارياً لم تشهده من قبل[5]. وفي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي شهدت صقلية اضطرابات داخلية عجلت في سقوطها في يد النورمان[6] سنة484هـ/ 1091م[7]، حيث دانت لحكمهم قرناً من الزمان، انتهجوا خلالها - - وخاصة في عهد كل من الكونت روجر الأول Roger I(1092-1101م) وابنه الملك روجر الثاني Roger II(1101-1154م)- سياسةً قائمةً على التسامح العرقي والديني، في فترة كانت فيها الحروب الصليبية المقدسة على أشدها[8].

---

[1] الوندال: شعوب جرمانية قدموا من مناطق بحر البلطيق إلى اسبانيا ثم عبروا مضيق جبل طارق سنة 428م واستقروا في الشمال الإفريقي في عهد ملكهم جيزريك(**Gaiseric**) . محمود سعيد عمران، **مملكة الوندال في شمال إفريقيا**، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص5.

[2] العود محمد الصالح، **التحولات الحضارية في شمال إفريقيا في الفترة الوندالية(429-534م)** رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2009-2010م، ص68-69.

[3] أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا**، ص25.

[4] ابن الآبار، **الحلة السيراء**، تحقيق: حسين مؤنس، ط2، ج2، دار المعارف، مصر، 1985م، ص381.

[5] أمين توفيق الطيبي، **دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية**، دار اقرأ، طرابلس، 1990م، ص18.

[6] النورمان: تعني رجال الشمال، ويطلق عليهم أيضا الفايكنج وتعني سكان الخلجان، ترجع أصولهم إلى شبه جزيرة اسكندناوة، استقرت طائفة منهم في أواخر القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع الميلادي غرب فرنسا وفي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي استقرت جماعات منهم في جنوب ايطاليا واخذوا يتطلعون للاستيلاء على صقلية. رشيد تومي، **النورمان والمسلمون في جزيرة صقلية في عهد الكونت روجر الأول(ت: 1101م)** مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، ع12، القاهرة، 2011م، ص 83.

[7] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج8، دار الكتب العلمية، بيروت،1987م، ص474.

[8] أمين توفيق الطيبي، **دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية**، ص20-21.

عوامل تواصل وتفاعل صقلية مع الشرق الإسلامي.

هناك العديد من العوامل التي ساهمت في حدوث تواصل وتفاعل حضاري بين صقلية والشرق الإسلامي، لعل أبرزها:

حركة الترجمة:

تعد الترجمة واحدة من وسائل التواصل المهمة بين الأمم، لعبت عبر العصور دوراً هاماً في الانتقال المعرفي والفكري بين مختلف الشعوب، فهي دون شك عامل رئيسي للارتقاء والنهوض بالحضارات[1]، ومن ثم شكلت صقلية عبر عصورِ ازدهارِهَا جسراً ثقافياً وحضارياً راقياً، عَبَرَتْ من خلاله أغلب المعارف والعلوم العربية والإسلامية إلى الغرب المسيحي[2].

وقد نشطت حركة الترجمة أبان الحكم النورماني لصقلية، خاصة في عهد الملوك روجر الثاني، ووليم الأولWilliam I (1154-1166م) ووليم الثاني William II (1166-1189م)[3]. حيث خصص في البلاط النورماني قسماً خاصاً لترجمة المؤلفات العربية واليونانية، يشرف عليه مترجم رئيس، أوكلت إليه مهمة متابعة عمليات الترجمة، والتي قام بها عددٌ من المترجمين لعل أشهرَهم؛ يوجين البرلمي الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية، وارستبس الذي ترجم من اليونانية إلى اللاتينية[4].

اللغة العربية:

بقيت اللغة العربية في صقلية بعد زوال سلطان المسلمين عنها، وشاركت غيرها من اللغات في الحياة اليومية وفي الحركة العلمية، ولا غرو من أن يزخر البلاط

---

[1] فاطمة لواتي، **الترجمة وحوار الثقافات**، مج2، ع8، جسور المعرفة، جامعة حسيبة بن بو علي شلف، الجزائر، 2016م، ص129.ص 137.

[2] ميلود حميداتو، نبيلة عبد الشكور، **الترجمة الأدبية في صقلية والأندلس ما بين القرنين 12-13م وأثرها على الأدب الأوروبي**، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج13، ع3، 2021م، ص333.

[3] نفسه. إحسان عباس، **العرب في صقلية-دراسات في التاريخ والأدب-**، دار الثقافة، بيروت، 1975م، 1975م، ص159.

[4] ميلود حميداتو، نبيلة عبد الشكور، **الترجمة الأدبية في صقلية والأندلس**، ص334. إحسان عباس، عباس، **العرب في صقلية**، ص159.

النورماني بالمتكلمين بها من الملوك النورمان، و من رجالات بلاطهم على حد سواء[1]، وبلغ من منزلة اللغة العربية في البلاط النورماني أن غدت واحدة من اللغات الرسمية في الكتابات الرسمية للملوك، وفي علاماتهم ونقودهم [2].

وليس أدل على نفوذ اللغة العربية في الغرب المسيحي من أن كثيراً من الألفاظ العربية لازالت موجودة اليوم في اللغة الصقلية واللغة الإيطالية، هذا إلى جانب أسماء بعض المناطق في صقلية لازالت تحمل أسماءً عربيةً[3].

عناية الحكام النورمان بالعلم والعلماء:

نشطت الحركة العلمية في صقلية أبان الحكم النورماني- خاصة العلوم الفلسفية والطبيعية- حيث حظيت بتشجيع ورعاية ملوك النورمان؛ خاصة الملك روجر الثاني وابنه وليام الأول، اللذان حرصا على استقطاب العلماء إلى بلاطهم واحاطتهم بكثير من العناية والاحترام[4]. ولعل من أبرز العلماء الذين وفدوا على البلاط النورماني العالم الجعرافي الشهير الشريف الإدريسي، الذي استدعاه الملك روجر الثاني من إفريقيا، وأقام في بلاطه، وبتكليف من الملك أعَدَّ الإدريسي كرةً أرضيةً من الفضة الخالصة، وصَنَّفَ للملك روجر الثاني كتابَ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق[5]، كما وَضَعَ الإدريسي مُؤَلَّفاً جغرافياً آخرَ عُرِفَ بـ روض الأُنس ونزهة النفس[6] صَنَّفَهُ للملك وليام الأول[7].

---

[1] علي بن محمد الزهراني، **الحياة العلمية في صقلية الإسلامية**، رسالة دكتوراه، الدراسات العليا التاريخية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1992م، ص513.

[2] ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص315. أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**، ص195.

[3] يوسف حسن نوفل، **العرب في صقلية وأثرهم في نشر الثقافة الإسلامية**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1965م، ص36-37.

[4] إحسان عباس، **العرب في صقلية**،159.

[5] الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص6-7.

[6] سعيدة تراكة، **المسلمون في صقلية على عهد النورماند**، مذكرة ماجستير، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2018-2019م، ص51.

[7] حسان حلاق، **العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الأندلس- صقلية- الشام**، 1986م، ص127.

ولم تقتصرْ عناية الملوك النورمان بالعلم على استقطاب العلماء إلى بلاطهم وتشجيعهم على التأليف والترجمة فحسب بل عمدوا إلى استيراد الكتب العربية واليونانية من خارج صقلية[1].

[1] إحسان عباس، **العرب في صقلية**، 158-159.

قبول الآخر:

طبع عن النورمان اهتمامهم بكل ما هو إيجابي لدى الشعوب المختلفة عنهم، ومن ثم أسهم انبهارهم بالحضارة الإسلامية في صقلية وإعجابهم بها على إقبال ملوك النورمان عليها وتشجيعهم لها والاحتزاء بها[1]. ولا غرو من أن يختار ملوك النورمان من النابغين المسلمين لشغل أعلى المناصب وأخصها في الدولة والجيش فكان منهم؛ الوزير، والطبيب، وطباخ البلاط، وأمير البحر، وقائد الأسطول، وغيرها من الوظائف التي تدل على ثقة النورمان بالمسلمين وبقدراتهم[2].

ولعل في تقبل النورمان للحضارة الإسلامية تجسيدا لمقولة ابن خلدون في مقدمته: "المغلوب مولع أبداً بالإقتداء بالغالب..."

مظاهر تأثر صقلية بالحضارة الإسلامية.

أدرك النورمان منذ سيطرتهم على جزيرة صقلية أن طابع الحضارة الإسلامية هو الغالب والمسيطر على أوجه الحياة المختلفة، وعلى الرغم من أنهم أَنْهوا الوجودَ السياديَّ للمسلمين، إلا أنهم بُهِرُوا بمظاهر التمدن والرقي وتأثروا بها[3]، ولا غَرْو في ذلك فالبلاط النورماني كان الوارث المباشر للحضارة الإسلامية في جزيرة صقلية[4]. تلك الحضارة التي استطاعت أن تفرض نفسها على النورمان أولاً ثم على أوروبا ثانياً[5]. ولعل أبرز مظاهر تأثر صقلية بالحضارة الإسلامية تتجلى في:

نظام الحكم والإدارة:

ساد التأثير الإسلامي في تنظيم البلاط النورماني أكثر من التأثير البيزنطي[6]،

ففي نظام الحكم أخذ أول حكام النورمان الكونت روجر الأول عن المسلمين أساليبهم في الإدارة وفي الدواوين[1] وفي النظم المالية والضرائبية والعسكرية، وفي حصر الأملاك وإدارتها[2].

---

[1] العبد بكري، مفتاح خلفات، **الصلات الحضارية بين صقلية النورمانية وبلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 5-6هـ/ 11-12م**، مجلة التمكين الاجتماعي، مج3، ع3، الجزائر، 2021م، ص4-5.

[2] زيغريد هونكة، **أثر الحضارة العربية في أوروبا**، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، ط8، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص413-414.

[3] رشيد تومي، **النورمان والمسلمون في جزيرة صقلية**، ص73-74.

[4] أمين توفيق الطيبي، **دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية**، ص48.

[5] شوقي أبو خليل، **فتح صقلية**، دار الفكر، دمشق، 1998م، ص85.

[6] عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ص73.

كما ظهر التأثير الإسلامي في البلاط النورماني في الألقاب والعملات الإسلامية[3]. وفي الوثائق والمراسيم الرسمية والقرارات، التي كانت تصدر باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية [4]. وفي عبارات الملوك التي استخدموها في توقيعاتهم فكانت عبارة الملك روجر الثاني (الحمد لله وشكراً لأنعمه) وعبارة الملك وليام الأول (الحمد لله حق حمده)[5]. وفي مراسم البلاط النورماني -الذي أخذ نمطاً إسلامياً- كان من بين رجال البلاط مجموعة من الرجال يعملون في وظائف مختلفة -مستمدة من المسلمين- مثل الحاجب، والجناب، والجاندار، وغيرها من الوظائف التي لم يعرفها الغرب[6].

مجال الحياة الاقتصادية:

يظهر تأثر الحياة الاقتصادية في صقلية بالحضارة الإسلامية في ثلاثة مجالات الزراعة، والصناعة، والتجارة. ففي مجال الزراعة تأثر النورمان بالمنظومة الزراعية العربية - الخاصة بأساليب وطرق الزراعة والري-[7] التي ابتكرها المسلمون واستخدموها أيام حكمهم لصقلية، فأبقى النورمان عليها وحافظوا عليها واستغلوها الاستغلال الأمثل[8].

وفي مجال الصناعة تعد صناعة النسيج من أهم الصناعات العربية التي أحسن النورمان استغلالها، وذلك من خلال المحافظة على دار النسيج التي أقامها المسلمون في

---

[1] سادت ثلاثة أنواع من الدواوين الإسلامية هي: ديوان المظالم، ديوات الطراز، ديوان التحقيق المعمور. إحسان عباس، **العرب في صقلية**، ص146-147.

[2] حسان حلاق، **العلاقات الحضارية**، ص122.

[3] اتخذ ثلاثة من ملوك النورمان ألقاب إسلامية ؛ فاتخذ روجر الثاني لقب (**المعتز بالله**) وتلقب وليام الأول بلقب (**الهادي بأمر الله**) وحمل وليام الثاني لقب (**المستعز بالله**) وقد ظهرت ألقابهم تلك في عملاتهم وفي نقوشهم. عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ص73.

[4] رشيد تومي، **النورمان والمسلمون في جزيرة صقلية**، ص77. عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ص73.

[5] ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص315.

[6] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، ص474. عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ص74.

[7] غوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م، ص321.

[8] ميلود حميداتو، **أثر الحضارة العربية الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط النورمان**، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2013-2014م، ص 30.

العاصمة بلرم، وكانت تقوم بصناعة الملابس الملكية و تطريزها بكتابات عربية[1]، ولعل من أبرز الملابس التي صنعت فيها عباءة الملك روجر الثاني والتي ارتداها في حفل تتويجه ملكاً سنة 1130م[2]. ولم يقتصر دار بلرم للنسيج على حياكة الملابس فحسب بل صُدِّرَتْ الأقمشة والجلود المدبوغة إلى أوروبا[3].

وإلى جانب صناعة النسيج تعد كل من صناعة الورق والسفن من مفاخر الصناعات الإسلامية في صقلية والتي انتقلت منها إلى أوروبا [4]. أما مجال التجارة فقد ساهم النشاط التجاري الذي ورثه النورمان عن المسلمين[5] في نشاط الحركة التجارية في صقلية وأصبح لها معاملات تجارية كبيرة مع الشمال الإفريقي وأوروبا[6].

مجال العمران:

كان لانبهار النورمان بالحضارة الإسلامية أثراً واضحاً في الفن المعماري حيث عكس العمران التأثير الإسلامي الذي ظل واضحاً حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وهذا إِنْ دَلَّ على شيء فإنما يدل على تقبل النورمان للحضارة الإسلامية والاستفادة منها[7]، ولعل من أهم المنشأت المعمارية التي حرص النورمان على تقليدها والمحافظة عليها؛ البيمارستانات والحمامات، والفنادق، ومنشأت مصادر المياة[8].

ويظهر الأثر الإسلامي في المعمار النورماني الصقلي مقتبساً عن الطراز المعماري الإسلامي- الفاطمي، والصنهاجي، والحمادي- في شكل وبناء وزخرفة القصور والكنائس[9]،

---

[1] يوسف حسن نوفل، **العرب في صقلية وأثرهم في نشر الثقافة الإسلامية**، ص73.

[2] ميلود حميداتو، **أثر الحضارة العربية الإسلامية في صقلية**، ص38-39.

[3] يوسف حسن نوفل، **العرب في صقلية**، ص74. غوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ص322.

[4] يوسف حسن نوفل، **العرب في صقلية**، ص74- 75. ميلود حميداتو، **أثر الحضارة العربية**، ص41-42.

[5] لم تكن التجارة في صقلية قبل المسلمين بذات قيمة، فبفضلهم اتسع نطاقها، وشهدت أسواقها نشاطاً كبيراً. حول النشاط التجاري للمسلمين أبان حكمهم لصقلية انظر: أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**، ص187. سعيدة تراكة، **المسلمون في صقلية**، ص13. منى بنت حسين القحطاني، **العلاقات الاقتصادية لصقلية بدول البحر المتوسط**، ص157.

[6] ميلود حميداتو، **أثر الحضارة العربية** ، ص54. رشيد تومي، **النورمان والمسلمون في جزيرة صقلية، صقلية**، ص78.

[7] العبد بكري، مفتاح خلفات، **الصلات الحضارية**، ص13.

[8] ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص 320-324. ميلود حميداتو، **أثر الحضارة العربية**، ص96-72.

[9] العبد بكري، مفتاح خلفات، **الصلات الحضارية**، ص14.

ولعل من أبرز القصور التي تعكس الأثر الإسلامي؛ قصر العزيزة الذي شيده وليام الأول، وعُدَّ آية من آيات الفن المعماري الإسلامي[1] وقصر القبة الذي شيده وليام الثاني[2].

الخاتمة:

وفي ختام بحثنا الموسوم **بالتواصل الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي (جزيرة صقلية خلال الحكم النورماني نموذجاً)** والذي حاولنا من خلاله تسليط الضوء على الدور الذي لعبته جزيرة صقلية في التواصل الحضاري بين الشرق والغرب خلصنا فيه إلى:

لَعِبَتْ جزيرةُ صقلية دوراً مهماً في التواصل الحضاري بين العالَمَيْنِ المسيحي والإسلامي وذلك بحكم موقعها الاستراتيجي- وسط البحر الأبيض المتوسط – والذي شَكَّلَ همزةَ الوصلِ بين شرق العالم وغربه.

يُسْتَدَلُّ على إسهام المسلمين في تاريخ صقلية على أثرهم الحضاري في فترة الحكم النورماني، والذي يتجلى في تقبل ملوك النورمان للحضارة الإسلامية وتأثرهم بها في مختلف المجالات.

بَرَزَتِ الصبغة الإسلامية في الدولة النورمانية في النظم والأساليب الإدارية والعسكرية والاقتصادية والمعمارية.

تُعَدُّ الحضارة الإسلامية التي شهدتها صقلية أبان الحكم الإسلامي -والذي دام نحو قرنين ونصف القرن من الزمان- واحدة من أهم الحضارات التي شهدتها الجزيرة، ولا تأتي هذه الأهمية من كون أنها حضارة استمرت بعد زوال سلطان المسلمين فحسب؛ بل لأنها انتقلت إلى أوروبا عبر صقلية، ومن ثم أسهمت في النهضة الأوروبية.

التَّوْصِيَّاتُ:

توظيف الأجهزة الإعلامية ووسائل التواصل الاجتماعي لتعزيز قيم التعايش السلمي وتقبل الآخر المختلف، ونبذ خطاب الكراهية.

---

[1] أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا**،ص39.

[2] المرجع السابق، ص40.

معركة ليبانت 1571م الصراع الإسلامي المسيحي من خلال كتابات المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل

طالــب الدكتــوراه: أمين قارة
المركز الجامعي- بريكة/ الجزائر
University Center of Barik/, Algeria
amine.kara@cu-barika.dz

مقدمة:

إن الصراع الإسلامي العثماني والمسيحي الأوروبي ضارب في جذور التاريخ، فمنذ ميلاد الدولة العثمانية وهما في صراع طويل على مر الأزمنة والأمكنة، وكانت هناك صدامات مباشرة بين الطرفين. إذ يرى المستشرق الإنجليزي لويس برنار أحد أبرز منظري علاقة الصراع بين المسلمين والمسيحيين بأنها كانت واستمرت منذ الرسول ﷺ وإلى فترة التوسعات الإيديولوجية ضد الغرب المسيحي. ونفس الشيء تقريبا ذهب إليه المفكر الأمريكي صامويل هنتنجتون[1] بأن سبب الصراع بالدرجة الأولى هو اختلاف المفهوم بين الدين والسياسة اللذان يعتبران متلازمين في الدين الإسلامي بينما المفهوم الغربي يفصل بينهما " ما لقيصر لقيصر وما للرب للرب "، وعليه فإن معركة ليبانت واحدة من سلسلة الصراع بينهما، واختلفت نظرت المؤرخين لها بين الجانبين الشمالي والجنوبي، فمنهما من رآها نصر عظيم ومنهما من نظر إليها على شكل خسارة معركة وليست حرب بأكملها، وعليه يذكر المستشرق الفرنسي روبرت منتران Robert Mantran حول معركة ليبانت la bataille de Lépante 07 أكتوبر 1571م بأن لها صدى كبير في الغرب بحيث نقلها حشد من الكتاب من جميع الأنواع والأصناف، المؤرخين والشعراء والفلاسفة ورجال الدين ..، لكن صدى هذه المعركة حسبه أن المؤرخين العثمانيون ذكروا المعركة بشكل عام ومحدود إلى حد ما من حيث نتائجها وأبعادها القريبة والبعيدة، [2] ومن هنا حاولنا دراسة هذه المعركة بوجهة نظر غربية متمثلة في واحد من مؤرخي شمال المتوسط

[1] صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي)، تر. طلعت الشايب، تقديم. صلاح قلنصوة، القاهرة، ط 1، 1999، ص 341.

[2] Robert Mantran, L'écho de la bataille de Lépante à Constantinople, Annales Histoire Science Sociales, Economies, sociétés, civilisation, 28 année, N.2, April 1973, p 396.

المسيحي وهو الفرنسي فرناند بروديلFernand Braudel و دراسته لهذه المعركة من مختلف الجوانب.

1/ نبذة عن المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل:

فرناند بروديل من مواليد عام 1902 بفرنسا [1] ، وهو مؤرخ متحصل على شهادة الكفاءة في التاريخ من دار المعلمين العليا وفي عمره عشرون سنة [2] ، اشتغل كمدرس بالجزائر [3]، واستاذ في عدة كليات بفرنسا منها كلية باستور، و كوندورسيه وغيرها،[4] كما انتقل إلى البرازيل مما زاد من ثقافته و خبرته، [5] ترك لنا رصيد مهم جدا من الكتب أبرزهاII La méditerranée et le monde méditerranéen a l'epoque de pielippe) المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني)، وكتاب ديناميكية الرأسمالية : La) dynamique du capitalisme) وغيرها من المؤلفات.

2/ إنشاء العصبة المقدسة ودور الخطاب الديني في تأسيسها ضد الدولة العثمانية:

كانت مهمة إنشاء العصبة صعبة واستغرقت وقت كبير في المناقشة والمفاوضات، إذ كان الانتهاء من العصبة المقدسة (التحالف) ضد الأتراك في 20 ماي 1971م، وذلك بالنظر إلى عدم الثقة المتبادل بين الحلفاء المستقبليين و مصالحهم المنفصلة وخلافاتهم ورغم ذلك كان من الممكن القيام بالعصبة، و قد عاتبت اسبانيا فينيسيا على رغبتها في التوصل إلى اتفاق مع الأتراك بمجرد أن أملت مصالحها ذلك، و نفس الشيء مع البندقية و جنوه و توسكانا.[6]

كانت مهمة إنشاء العصبة ثقيلة بالنسبة للقائمين على اختتام العصبة المقدسة بنجاح، بحيث كان الكاردينال باتشيكو و جرانفيل و خوان دي شونيغا ممثلين لإسبانيا

---

[1] Fernand Braudel : Personal Testimony , journal of Modern History Vol 44. 4 , published by the University of Chicago Press , chicago , USA (December 1972) , p 448

2جون ليشته : خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر فاتن البستاني، مر محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، لبنان 2008، ص 191.

3 Fernand Braudel, Personal Testimony.. , op-cit , p 450.

4جون ليشته، المرجع السابق، ص 192.

5 Fernand Braudel, Personal Testimony.. , op-cit , p 453.

6 Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Philippe II, 6eme, Ed 1985, Armand colin, Paris, t 2, p 384

وكانوا جميعا في روما أثناء تلقيهم أمر الملك الإسباني بتعيينهم في وظائفهم الجديدة وقد تلقوا الأمر بتاريخ 07 جوان 1570م وذلك وفق الأمر المؤرخ في 16 ماي 1570م في البندقية، وعين البابا ممثلين عنه، وهم الكاردينال موروني Morone وسيزيCesi وجراسيسGrasisوألدوبراندينوAldobrandinoوأليساندرينوAlessandrinoوروستيكوتشي Rusticucci.[1]

بدأت المفاوضات وكانت صعبة من جلستها الأولى وذلك بتاريخ 02 جويلية 1570م إلى الجلسة الأخيرة، وتمت مقاطعتهم ثلاث مرات في فترات متعددة : من شهر أوت إلى أكتوبر 1570م و في جانفي و فيفري 1571 و في مارس إلى ماي 1571م، وخلال فترات التعليق الأخيرتين حاولت البندقية أن تتصالح مع الأتراك وفي جانفي أرسلت سكرتير مجلس الشيوخ جاكوبي راغاتسونيJacopo Ragazzoni إلى القسطنطينية مما أدى إلى تأخير توقيع العصبة المقدسة.

لم تكن البندقية مصممة لإعطاء موافقتها إلا بعد أن تأكدت من فشل الاتفاق مع القسطنطينية، وكان دور الدبلوماسيين أيضا الذين اجتمعوا في صالونات الكاردينال أليساندرينو هو مراقبة جيرانهم وإعداد تقارير طويلة عنهم، كما كانوا أكثر التزاما بالرجوع إلى حكوماتهم في ما يتعلق بجميع القرارات الرئيسية كما أدرج هذا في مفاوضاتهم بأن لا يتخذوا قرارات فردية.[2]

وكان البابا بيوس الخامس قد أدرك خطر الزحف الإسلامي على أوروبا برا وبحرا، وبذلك أخذ يسعى من أجل إنشاء اتحاد مسيحي لتوحيد قواته، تحت راية البابوية المسيحية لمواجهة الزحف الإسلامي.[3] وتعتبر هذه أول واقعة بين الدولة العثمانية ضد إتحاد أكثر من دولتين مسيحيتين، وشتراك البابا فيها يدل على أن محرك هذا التحالف ضد الدولة العثمانية الاسلامية هو الدين.[4]

وقد أعطى حضور البابا دفعا قويا لتأسيس العصبة باعتباره ذو مكانة دينية أكثر منه سياسيا، فمنذ البداية فسح بابا النقاش باقتراح نص اتفاقية 1537م مع إخضاعها

---

1 Ibidem.

[2] Fernand Braudel, La Méditerranée et.. , op-cit, p 384.

[3] أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492 – 1792م، دار البعث قسنطينة الجزائر، ص 396.

4 محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، د 2، مطبعة محمد أفندي مصطفى بحوش، مصر ، ، 1896، ص 112.

للتنقيح وفق متطلبات اليوم، وتم معالجة جميع القضايا بشكل فعال، وتم الاتفاق على أن تنتهي العصبة في مدة لا تقل عن اثنتي عشر سنة، وتكون أهدافها هجومية و دفاعية، كما أبرمت ضد الأتراك " الدولة العثمانية "، وتكون موجهة أيضا ضد كيانات شمال إفريقيا (طرابلس الغرب، تونس، الجزائر) وكان هذا بطلب من الإسبان الذين أرادوا حريتهم المستقبلية في مجال المتوسط ومجال نشاطاتهم، كما تم الاتفاق على أن يكون القائد العام للأسطول الدون خوان النمساوي، وتم تقسيم النفقات العامة إلى ستة أجزاء (كما كان عليه في اتفاق1537م)، ثلاثة منها على حساب اسبانيا واثنان على حساب البندقية والأخير على حساب البابوية " الدولة البابوية / الكرسي الرسولي ".[1]

كما تم الاتفاق على نقاط أخرى وهي أن اسبانيا تفتح أسواقها الايطالية أمام البندقية كما توعدت بأسعار معقولة وعدم زيادة الضرائب ورسوم التصدير، و أصرت البندقية على عدم الاستغناء عن القمح التركي، كما تم الاتفاق أيضا على عدم التعامل مع الأتراك بشكل منفصل دون العودة والموافقة من الكونفدراليين المكونين للعصبة، وبعده تم إرسال المشروع إلى الحكومات من أجل المراجعة واتخاذ الإجراءات التصحيحية.[2]

استأنفت المحادثات في 21 أكتوبر وبعد فحوصات طويلة قرر الملك فيليب الثاني إرسال الصلاحيات اللازمة لإبرام الاتفاقية بشكل نهائي مع بعض التعديلات التي أقرتها، لكن تراجعت البندقية فجأة مما أوشك على الانتهاء، وتم تغيير أعضاء اللجنة وأعادت طرح كل شيء من جديد في نقاش آخر، ومع الخطابات التطرفية والغير مجدية وراجعت كل التفاصيل منها سعر الطعام وحدود صلاحيات القائد العام وصياغة العمليات والحصة المالية لكل من الحلفاء..

في شهر ديسمبر توقف المؤتمر على سؤال ما إذا كان دون خوان سيكون قائدا للسفن التابعة للبابا أو قائد عام، واستمر الانقطاع هذه المرة عدة أسابيع، وبعد أن وافق ملك اسبانيا على أن يختار البابا الملازم دون خوان من بين ثلاثة أسماء تقرحها اسبانيا، استأنف العمل في فيفري وتم التوصل إلى وضع نص جديد في بداية مارس، لكن البندقية التي كانت على اتصال بالأتراك من أجل التوصل إلى نتائج مهمة لها

[1] Fernand Braudel, La Méditerranée et.. , op-cit, p 385.

[2] Ibidem.

ومنتظرة نتائج وفدها بقيادة راجزوني إلى تركيا تحت ذرائع مختلفة استمرت إلى غاية شهر ماي.[1]

و في 20 ماي تم تبادل التوقيعات حول إنشاء العصبة، وبعده في 25 ماي 1571م تم الإعلان الرسمي للعصبة في كنيسة القديس بطرس في روما، في حين تم الإعلان عن العصبة كإتحاد عسكري دائم لمدة ثلاث سنوات من 1571الى 1573م، وعلى جميع أطراف الحلفاء الالتزام كل عام بإرسال أسطول مكون من 200 قادوس و100 سفينة مستديرة يعمل بها 50000 جندي و 4500 حصان، كما توقع العصبة شن حملات ضد الشام وضد الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، كما تم الاتفاق أيضا على تسوية النفقات بالنسبة للطعام والاتفاق على الأسعار المعقولة دون زيادة الضرائب وغيرها من الحقوق، وعدم إبرام أي سلام منفصل مع أطراف خارجية مهما كان نوعه.[2]

وقد وعد الاسبان و البنادقة والبابوية في اتفاق منفصل بالانضمام بقواتهم في أوترانتو قبل نهاية شهر ماي (هناك 10 أيام فقط من إمضاء العصبة ونهاية شهر ماي) كعلامة بسيطة عن حسن النية، لكن وصلت الأنباء الخاصة بتوقيع إنشاء العصبة متأخرة إلى اسبانيا وذلك في 06 جوان 1571م، وقد أدت هذه التأخيرات إلى تأخر الاستعداد البحري الاسباني،[3] كما ضمت العصبة أيضا دوقية توسكانا[4] ، ودوقية سافوي.[5]

وبذلك نجح البابا بيوس الخامس في إنشاء عصبة مقدسة بين كل من اسبانيا والبندقية وفرسان القديس يوحنا المالطيين والبندقية وتوسكانا وجنوة وفلورنسا وسافوي ومانتو وبارما. [6]

الشيء الذي يمكننا أن نستنتجه هو أن إنشاء العصبة المقدسة لم يكن بتلك السهولة والبساطة وإنما مرت بمراحل عصيبة وصعبة قبل إنشائها، وربما حسب نظرنا

---

[1] Fernand Braudel, La Méditerranée et .. , op.cit, p 385.

[2] Ibid, p 386.

[3] Ibid, p 390.

[4] Ibid, pp387.389.

[5] Ibid, p 388.

6 يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر.عدنان محمود سليمان، مج.1، ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول تركيا، 1988 ،ص 371.

الشيء الذي سمح بإنشائها هو صبغتها الدينية المسيحية وأهدافها التي وجهت ضد الدولة العثمانية ذات الطابع الإسلامي.

أما فيما يخص فرنسا وموقفها من تأسيس العصبة فقد كانت غائبة عسكريا وسياسيا عن البحر الأبيض المتوسط، وقد بدت وكأنها فقدت الاهتمام بما يحدث في المتوسط، وذلك راجع إلى حالتها المتمثلة في أنها دمرتها الحروب الأهلية، وكانت بحاجة إلى ولادة جديد منذ عهد هنري الثالث.[1]

أما البرتغال فقد كانت منشغلة بمسائلها في المغرب الأقصى.

3/ الأوضاع الاقتصادية أعضاء العصبة المقدسة في الفترة التي سبقت معركة ليبانت:

ساد هناك موسم حصاد سيء هو الآخر أثر في إعاقة الإمدادات في برشلونة والأندلس، كما أدى هذا الوضع إلى جوع كبير وهو ما اضطر المورسكيين إلى أن يصبحوا عبيدا لدى المسيحيين من أجل الخبز.[2]

وفي ايطاليا كان الوضع أحسن بقليل عما هو الحال في اسبانيا، حيث تمكن الفينيسيون من الحصول على الإمدادات في صقلية، كما أكدت لهم تونس وبنزرت في شهر ماي بأنه بإمكانهم أن يحصلوا على 20000 قنطار من البسكويت بمعدل 7000قنطار شهريا، هذا دون القمح والشعير، والجبن الايطالي ونبيذ نابولي.[3]

4/ الأتراك قبيل معركة ليبانت:

كانت الدولة العثمانية على دراية تامة بأمر التحالف المسيحي " إنشاء العصبة المقدسة " منذ مرحلتها التحضيرية، وكان الصدر الأعظم في الدولة العثمانية صوقللي باشا على علم بالمفاوضات الكائنة بين الأطراف الأوروبية المتحالفة كما كان على علم أيضا بالمسؤوليات العسكرية والتكاليف التي وزعت بين الحلفاء، وهذا بمساعدة أجهزة الجواسيس الأتراك في البندقية.[4]

يذكر فرناند بروديل أنه كانت السفن التركية متموقعة بشكل جيد منذ بداية الموسم الجديد، وقد تم الإبلاغ عنهم مبكرا في ايطاليا بداية شهر فيفري، بحيث تم تجهيز

---

1 Fernand Braudel, La Méditerranée et .. , op.cit, p 387.

2 Ibid, p 390.

3 Ibidem.

4 يلماز أوزتونا، المرجع السابق ، ص ص 371.372.

250قادوس و100سفينة في القسطنطينية في شهر مارس تلقت فاماغوستFamagouste (التي كانت لا تزال محاصرة) مساعدة من البندقية، وكان الأتراك في استعداد باتجاه ألبانيا و دالماتيا، وجزء كبير من أسطولها توجه نحو قبرص ب 50 سفينة، وقد تحدث العبيد الهاربين من القسطنطينية عن 200 سفينة من شأنها أن تتجه نحو كورفو Corfou إذا تم إنهاء العصبة وأن تركيا ستكون راضية عند استكمال غزو قبرص و الحفاظ على بحارها، كما كان هناك حديث دائم عن مشروع بري في ألبانيا مع تجمع القوات في البداية عند صوفيا [1] وصلت 196 سفينة تركية إلى البحر وتم تقسيمها بين نيجريبونت (وهي قاعدة كبيرة للإمداد) وجزيرة قبرص، تركت قبرص أمام الأتراك بحيث لم يكن هناك الكثير يمكن القيام به من أجلهم، كما تم تعزيز الأسطول التركي بإجمالي مايقدر ب 300 سفينة شراعية بقيادة علج علي، ووصلت القوات إلى خليج سودا Suda، ودمرت العديد من القرى والمدن الصغيرة على الساحل وهاجمت مدينة كانيا Canée مرتين لكنها كانت قلعة محصنة بالمدفعية.

كما كانت هناك 68 سفينة فينيسية تهدف إلى إغاثة فاماغوست وانتشرت أخبار انهزامهم، لكن علج علي نجح في الاستيلاء ميناء ريثيم الصغير Rethymo، وبعد المناوشات المتكررة واصل الأسطول التركي في التوجه نحو الغرب، وعند اقترابه تخلى فينييرو Veniero عن سواحل موريا Morée و ألبانيا، حيث نجح في غارات قليلة على دورازو Durazzo و فالونا Valona مع 6 قواديس و3 سفن و50 قادوس، ثم استقر في مينيسيا بتاريخ 23 جويلية، كما حافظ بهذا التراجع قدرته على المناورة لكنه ترك المجال مفتوحا أمام الأتراك في البحر الأدرياتيكي الذين أخذوا الأمر ببساطة واستولوا على الساحل والجزر الدلماسية وسوبوتو ودوليسينو وأنتيفاري وليسينا وهاجموا كارزولا التي دافع عنها سكانها ببسالة، واستولى جنود أحمد باشا على كل ما وجده، وفي جانب آخر شن عولج علي غارة على زارا Zara وشن كارة حاج غارة أخرى دمر من خلالها خليج البندقية. [2]

و قد بدأ التجنيد على عجل في المدن الكبرى في بوليا وكالابريا، لكن الأسطول التركي اعتقد الأمر مثل فينييرو على البحر الأدرياتيكي قد يكون فخا ولم يشارك فيه كاملا وركز جهوده أكثر على كورفو ودمرها ثم امتد الأسطول التركي إلى المدن المجاورة.

---

[1] Fernand Braudel, La Méditerranée et .. , op.cit, p 392.

[2] Ibid, p 393.

في انتظار ما ستقوم به العصبة قد وصلت أخبار إلى الدولة التركية وقد استنفد الأسطول التركي قوتهم وأنهكت قواته خلال هذه الأشهر من الحرب الصغيرة وهم في حملتهم على قرى الأدرياتيكي بالتدمي ، وقد أهملوا الأسطول الفينيسي الأساسي في كانديا واحتشدت هناك السفن.[1]

4/ أهم مجريات الأحداث التاريخية التي ميزت معركة ليبانت07 أكتوبر 1571م ونتائجها:

عندما وصل الدون خوان قائد العصبة المقدسة إلى ميسينا كانت الروح المعنوية لحلفائه منخفضة جدا، ولم تكن السفن المجمعة في حالة استعداد وجاهزية جيدة، لكن وصول سفن الدون الخوان تركت انطباعا جيدا، علاوة على التواصل بين القادة والجنود بشكل جيد، إضافة إلى الزي الذي كان يلبسه مع جنوده الجذاب والمنظم والمنضبط ترك انطباعا رائعا، كما أن الدون خوان كان قائد محنك يعرف كيف يتصرف ويحول قوات بحرية متباينة إلى جيش متجانس، وعندما لاحظ السفن البندقية خالية من الجنود سخر لها أربعة آلاف جندي من الاسبان والايطاليين، كما استطاع أن يخلق جو من التعاون والتبادل والاتحاد،وتلاشت كل الخلافات وسادت نوع من الثقة المتبدل والتعاون بين قوات العصبة.

انطلق أسطول العصبة من مسينا في 16 سبتمبر وكان هدفه الأول كورفو، حيث كان الهدف المأمول هو الحصول على أخبار دقيقة عن موقع أسطول الأتراك وتم التوصل إلى أخبار من قبل السفن الاستكشافية أنهم كانوا في خليج ليبانت، كما سادت معلومات قللت من شأن القوات العثمانية.[2]

التقيا الأسطولان الإسلامي العثماني وأسطول العصبة المقدسة المسيحية يوم 07 أكتوبر 1571م الموافق لـ 17 جمادى الأول 979هـ [3]

ومع التقاء الأسطولان اللذان كانا يبحثان عن بعضهما البعض بشكل مفاجئ وغير متوقع في أكتوبر عند شروق الشمس في مدخل ليبانت، ونجح الأسطول المسيحي وكان نجاحا تكتيكيا، وكانت قواتهم تتكون من 230 سفينة حربية و 208 سفينة في المدينة المسيحية، وقد عززت ستة سفن مجهزة جيدا بالمدفعية أسطول الدون خوان، والتي في

---

[1] Braudel Fernand, La Méditerranée et .. , op.cit, p 394.

[2] Ibidem.

3 أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 398.

مجملها كانت مجهزة أفضل من الأسطول التركي حيث كان هناك الكثير من الجنود يقاتلون بالأقواس.[1]

ويذكر المؤرخ يلماز أن الأسطول المسيحي يحتوي على 295 سفينة و 30000جندي و 16000 جداف و 208 من السفن الحربية (114 منها بندقية و70 اسبانية و 12 بابوية و6 مالطية و3 جنوية و 3 سافوائية)، بقيادة الدون خوان كقائد عام و وقائد الأسطول البندقي فينييرو والأسطول البابوية بقيادة الأمير ماركو أنطونيو كولونا ، ويقود الأسطول الإسباني جيوفاني أندريا دوريا ، والأميرال كوردونا قائدا لسفن صقلية على رأس 8 قطع حربية ، والأميرال النابولي ماركي بازانو على رأس الأسطول الاحتياطي المكون من 30 سفينة.[2]

وكان الأسطول التركي بقيادة مؤذن زادة باشا و برتو باشا وعولج علي،[3] اشتدت رحى الحرب وبدأت المدفعية بالقصف، وكانت القوات الاسبانية أشد أثر على الأسطول العثماني وقد أدى إنهاك القوات العثمانية خلال الأشهر الماضية في تراجع قواته، وكان الانتصار المسيحي هائلا نجا منه سوى 30 سفينة تركية فقط تحت قيادة عولج علي،[4] بينما يذكر أحمد توفيق المدني أن علج علي استطاع إنقاذ 40 سفينة التي بقيت من أسطوله.[5]

تم أسر وأخذ جميع السفن العثمانية الأخرى وتقاسمها بين المنتصرين والآخر غرق، خسر الأتراك في المواجهة أكثر من 30 ألف قتيل وجريح و3000 سجين وإطلاق سراح 15000 من المسيحيين المحكومين عند الأتراك، ومن جانب قوات العصبة فقد خسروا 10سفن و8000 قتيل و21000جريح، وبذلك دفعوا ثمننا باهظا مقابل نجاحهم وانتصاراتهم، كما كانت مياه البحر ظاهرة باللون الأحمر من دم القتلى والجرحى .[6]

6 / لماذا انتصار بلا عواقب حسب فرناند بروديل؟:

فتح هذا الانتصار أمام أعظم الآمال، لكن لم يكن له عواقب إستراتيجية، ولم يستطع أسطول العصبة تتبع العثمانيين المهزومين وذلك بسبب خسائرهم الكبيرة

---

[1] Braudel Fernand, La Méditerranée et .. , op.cit, p 395.

2 يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص 372.

3 المرجع نفسه، ص 373.

4 Fernand Braudel, La Méditerranée et .. , op.cit, p 396

5 أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 398.

6 Fernand Braudel, La Méditerranée et .. , op.cit, p 396.

وسوء الأحوال الجوية، كما أن الملك فيليب الثاني أعطى أوامر للدون خوان بعدم المغامرة ما لم يتم منح ميناء في موريا، وخاصة أمام نقص المعدات اللازمة لعمليات الحصار كما أن البابا لم يكسب البابويون و الفينيسيون الذين كانوا يرغبون في البقاء خلف الأسوار ببعض المدن الثانوية في البحر الأدرياتيكي أي " مجد الانتصار في المعركة ولا الربح النهائي للحرب " ، وعاد الدون خوان إلى ميسينا في 1 نوفمبر، وبعد أسابيع كان ماركانتونيو كولونا في أنكونا و فينيير في البندقية.[1]

لقد أكد فرناند بروديل على أن انتصار ليبانت يمثل **" نهاية البؤس ونهاية عقدة الدونية للمسيحية "**،[2] واظهر هذا الانتصار المسيحي الطريق أمام المستقبل الذي كان يبدو قاتم للغاية، وزادت رغبت الدون خوان في تحرير الأراضي المقدسة "القسطنطينية " واقترح مشروع تونس سنة 1572 والصيف باتجاه جزيرة رودس وقبرص وفي الشتاء حملة ضد الجزائر[3] ، ويذكر الأستاذ الدكتور كمال فيلالي أن سنة 1571م تعتبر بمثابة بداية ظهور فرنسا كقوة ناشئة بقيادة الملك شارل التاسع وطموحها لاحتلال الجزائر بعد فشل الغرب في ذلك، وذلك من خلال الحصول على امتيازات في بايلك الشرق وتكون حصون عسكرية سرية.[4]

وكما هو معروف عن الملك فيليب الثاني أنه أكثر عقلانية عكس والده وأخيه والدون سيباستيان البرتغالي الذي انتهى أمره في المغرب الاقصى والمهووس بأحلام الحروب الصليبية، وكما هو معروف عن الملك فيليب الثاني كثرت الحسابات ويستشير حاشيته من حوله عن آرائهم ويناقشها، وفي الواقع نصر ليبانت لم يجعلهم أكثر ثقة ولا أقل حكمة.

يذكر فرناند بروديل أن الانتصار في ليبانت لم يكن سوى انتصارا بحريا فقط في هذا العالم (المتوسطي) الذي يحيط به البر من كل الجوانب، وأنه لا يمكن تدمير وإنهاء الجذور الدولة العثمانية التي هي في الحقيقة ضاربة في عمق القارات المحيطة بالبحر

---

1 Ibidem.

[2] Fernand Braudel, La Méditerranée et .. , op.cit, p 397.

[3] Ibidem.

4 كمال فيلالي، تاريخ المغرب الحديث من فتح القسطنطينية إلى سقوط قسنطينة (1453-1837) أساطير مؤسسة هجرات مؤسسات وثورات، دار ألكسندر للطباعة والنشر والتوزيع.ألفا دوكا، قسنطينة، 2018، ص ص 205.206.

المتوسط، وأن مصير العصبة المقدسة سيتحدد ما إذا كان هنا هجوم بري من كل الأطراف من فيينا ومن وارسو ومن روما من موسكو.[1]

في الحقيقة لم يكن انتصار ليبانت متوقعا وتحقق ذلك لعدة أسباب منها التزام اسبانيا التزاما محكما، مع الامتزاج بمجموعة من الظروف التي ساعدت على ذلك مثل ما سبق ليبانت خلال عامي 1570 و 1571م.[2]

خاتمة: ختاما يمكن لنا القول بأن معركة ليبانت لم تكن سهلة لا من حيث الأسباب ولا من حيث النتائج بالنسبة لطرفي الصراع (الدولة العثمانية ولا للعصبة المقدسة)، وبناء على ما تم التوصل إليه من كتابات المؤرخين حول هذه المعركة استوقفتنا جملة من النتائج يمكن حصرها فيما يلي :

أن إنشاء العصبة المقدسة لم يكن بتلك السهولة والبساطة وإنما مرت بمراحل عصيبة وصعبة قبل إنشائها، وربما حسب نظرنا الشيء الذي سمح بإنشائها هو صبغتها الدينية المسيحية وأهدافها التي وجهت ضد الدولة العثمانية ذات الطابع الإسلامي.

أن الغرب ككل و ما نم ذكره نقلا عن مؤرخيه يعتبرون الانتصار على الدولة العثمانية في معركة ليبانت بمثابة المعجزة والشيء العظيم وهو ما يجسد بوضوح في مقولة فرناند بروديل حين وصف الانتصار في معركة ليبانت بمثابة التخلص من عقدة النقص والشعور بالدونية.

وفي جانب آخر نجد أن الطرف العثماني لم تكن لها تأثير مباشر وكبير بسبب الانهزام في معركة ليبانت، وأن الدولة العثمانية استطاعت إعادة بناء أسطولها في ظرف وجيز ولم يكن لها أي تأثير سياسي أو غيره وهذا ما ذهب إليه العديد من المؤرخين العثمانيين أمثال يلماز أوزتونا وغيره وهو أيضا ما أشار إليه المستشرق الفرنسي روبير منتران وكما وضحه أيضا فرناند بروديل من خلال عنوان في كتابه المتوسط والعالم المتوسطي ... بأن انتصار العصبة المقدسة كان بلا عواقب على قوة وصيت الدولة العثمانية في مختلف أقاليهما. التعصب الديني واستغلال الدين في غير محله هو سبب من أسباب انتشار الحروب في المتوسط بين العالم الإسلامي العثماني الغرب المسيحي بقيادة إسبانيا والكنيسة البابوية.

---

[1] Braudel Fernand, La Méditerranée et .. , op.cit, p 397

[2] Ibid, p 398.

شتات مسلمي الأندلس على سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التفتيش والترحيل النصراني (1492 - 1609م)

طالب الدكتوراه: ناصر بوشليق
University Center of Barika/ Algeia
nacer.bouchelig@cu-barika.dz

مقدمة:

لقد شكل المسلمين حضارة كبيرة في الأندلس امتدت لفترات طويلة ناهزت ثمانية قرون وقد استطاع المسلمون خلال هذه المدة الزمنية تكوين دولة تراوحت بين القوة والضعف واستمر الأمر إلى غاية منتصف القرن الخامس عشر أين عرفت الأندلس عديد التطورات التي أدت الى تراجع النفوذ الإسلامي شيئا فشيئا إلى أن انحصر في مملكة غرناطة والتي سرعان ما سقطت في يد المسيحين ورغم بنود المعاهدة التي نصت على احترام حرية ممارسة الشعائر الدينية لمسلمي الأندلس إلا أنه سرعان ما تم نقضها وذلك ببداية ممارسة الاضطهاد الديني ضد المسلمين أين تعرضوا الى التعذيب والقتل والحرق في اطار ما يعرف محاكم التفتيش والتي مارست كل أنواع الاضطهاد الديني ضد الأندلسيون الى غاية نفيهم وطردهم من الأندلس وهوما سنتطرق له في هذه المداخلة

الوضع العام بالأندلس منذ منتصف القرن الخامس عشر:

عرفت مملكة غرناطة مرحلة ضعف بدأت تظهر جليا مع النصف الثاني من القرن الخامس عشر ميلادي ،فبوصول أبي الحسين علي بن سعد بن إسماعيل الى سدة الحكم سنة 1464م زاد الصراع على الحكم وهذا لاستهتاره وركونه للملذات، ضف الى ذلك زواجه الثاني من الاسبانية الأصل ثريا والتي أنجب منها سعد ونصر وقد كانت له زوجة أولى وهي ابنة عمه عائشة والتي عرفت بالحرة ، كان له منها ولدان محمد ويوسف وهوما فتح الباب لصراع السيدات على الحكم في البداية ثم لصراع أبي الحسن مع ابنه محمد (أبي عبد اللّه الصغير).

أما من الجانب المسيحي فقد زاد تكالب النصارى على غرناطة، وفي ظل الضعف والصراع الذي عرفته تمكن كل من ملك أراغون فرديناند وملكة قشتالة ايزابيلا من تحقيق اتحاد بينهما عن طريق زواجهما سنة 1469م وانتهت بهذا الحرب بإسبانيا الموحدة لتشتغل في غرناطة المسلمة حيث تم الاتفاق بين الملكان الكاثوليكيان على

إعلان الحرب على غرناطة.[1] فعملا في البداية على الاستيلاء على الحصون والقلاع والقرى المحيطة بالمدينة بغرض محاربة المسلمين في مكان واحد من جهة والاستيلاء على الموارد الزراعية لتلك القرى من جهة ثانية.[2] إلى تم لهما الأمر بسقوط غرناطة في 02 (كانون الثاني) جانفي 1492م.[3] وتوقيع معاهدة الاستسلام .

بنود معاهدة الاستسلام:

وقعت المعاهدة بين أبي عبد الله الصغير والملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا وتضمنت العديد من البنود ولقد تعهد الملكان فيها باحترام العقيدة الدينية للمسلمين ومما جاء في ذلك نذكر:

ضمان أمان المسلمين وأملاكهم وحرية اقامتهم لشعائرهم الإسلامية وبقاء المساجد على ما كانت عليه.

احترام عادات وتقاليد المسلمين وعدم وضع أي إشارة تميزهم عن غيرهم .

اطلاق جميع الأسرى المسلمين بدون شروط .

عدم إرغام المسلمين على اعتناق النصرانية.

تكوين مجلس مختلط من المسلمين والنصارى يتولى الفصل في الخصومات بين الطرفين التي تقع بينهما .

بعد توقيع معاهدة الاستسلام المخزية دخل فرديناند وايزابيلا الى قصر غرناطة في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني 1492م ومباشرة بعد تسلمهما المدينة قاما بوضع صليبا فضيا أعلى برج الحمراء في حين قام الرهبان بوضع الصليب في محراب المسجد وقاموا باحتلاله وقاموا بتعليق النواقس في المئذنة.[4] أما عبد الله الصغير وبعد رحيله توقف عند جبل الريحان ليلقي نظرة أخيرة على غرناطة ولما سألت عنه أمه قيل لها أنه

---

[1]- جمال يحياوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسين 1492 – 1610م ، دار هومة، الجزائر، 2004، ص 31 32 34.

[2]-شامخ زكريا علاونة، سقوط غرناطة (896هـ /1492م) دراسة تحليلية، مجلة الانسان والمجال، مج 5 ، العدد 09، ديسمبر2019، ص 38.

-أسعد حوامد، محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988، ص 219 [3]

4- عبد الحكيم ذنون، آفاق غرناطة، ط1، دار المعرفة، دمشق، 1988، ص 69 70.

يبكي فقالت له مقولتها أبك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال.[1] وبسقوط غرناطة انتهى الوجود الإسلامي بالأندلس.

ولكن وبالعودة الى بنود معاهدة الاستسلام يرى بأنها متكافئة وتضمن حقوق الطرفين ولكن ما وقع

على أرض الواقع يرى بأن النصارى حققوا كل أمنياتهم في حين أن مسلمي الأندلس لم يحصلوا سوى

على وعود سيتم نقضها من قبل المسيحين.[2]

نقض المعاهدة وبداية المعاناة الأندلسية:

بعد الاستيلاء على غرناطة سادت فكرة أن المسلمين سيدخلون في الديانة المسيحية أفواجا وبدون صعوبات لذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية في البداية على تحقيق ذلك عن طريق الوعظ ومحاولة الاقناع لتنصيرهم.[3] ولهذا لم تنته مصيبة الاندلسيون بزوال سلطانهم وسقوط آخر معاقل المسلمين بيد النصارى، بل بدأت مصيبة جديدة بهم وهي تتمثل في ثباتهم وصراعهم ضد الملك الاسباني الذي كان يريد فنائهم من حيث العقيدة وكل مايتصل بها، لهذا مر الأندلسيون بفترات عصيبة وظلوا يقاومون مايزيد عن قرن دفاعا عن عقيدتهم.[4]

ولهذا عمل الملكان الكاثوليكيان منذ اليوم الأول الذي دخلا فيه الى غرناطة،على سياسة التنصير فتم اصدار أمر بإحراق كل الوثائق والمخطوطات المتعلقة بالدين الإسلامي حيث أحرق مليون وخمس مائة ألف كتاب ديني ليسهل الأمر على ابعاد المسلمين عن عقيدتهم والقضاء عليها ،ومواصلة لتنفيذ سياستهما قاما بتقريب مجموعة من الأحبار والرهبان وهم انييغولوبث دي مندوسا كونت تنديا والأب ايرناندودي تالافيرا مطران غرناطة والأب خيمينيس دي سينيروس مطران طليطلة ورأس الكنيسة الاسبانية هذا الأخير كان أبرز من نفذ أبشع الجرائم بالمسلمين ونكل بهم،ومن بين

---

[1]-M.floriani.hostory of the moors of spain,publishedby harper brothers,new yourk, 1841 ,p196.

- محمد عبده حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، الأردن، 2000، ص 643 644 645 647. [2]

- جمال يحياوي ، المرجع السابق، ص 96. [3]

[4]- عبد الرحمان علي حجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 897/92هـ – 1492/711م، ط2، دار القلم، بيروت، 1981، ص 568.

الإجراءات التي تم القيام بها تحريم حمل السلاح ،منع شراء الأراضي،ومنع الاستحمام وهدم جميع الحمامات في الأماكن العمومية،وفرض ضرائب جديدة باهضة مابين 1495 – 1499م على مسلمي الأندلس دون غيرهم وهوما أدى الى ثورات وانتفاضات.[1]

ظهور محاكم التفتيش:

أ- مفهوم محاكم التفتيش :THE INQUISITIONS

مصطلح مشتق من الكلمة اللاتينية وهي كلمة Inquiser وهي بمعنى يتقصى ويبحث ويفتش،وقد أطلق عليها عدة تسميات كديوان المقدس وديوان التحقيق،ولكن التسمية الدقيقة هي محاكم التفتيش لأن هذه الأخيرة كانت تتخذ أسلوب البحث والتقصي والتفتيش عن المتهمين أساسا لعملها،وذلك من خلال قوانين كانت تضعها الكنيسة وترسل بعدها عدد من الرهبان والقساوسة للبحث عن هؤلاء المخالفين لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية.[2]

ب-نشأتها بإسبانيا:

يرجع تأسيس محاكم التفتيش في اسبانيا الى عهد الملكيين الكاثولكيين فرديناند وايزابيلا حيث أرسلا سفيرهما الى البابا سنة 883ه/1478م للحصول على موافقة في هذا الشأن ،وقد تم البدء في تنفيذ المشروع في سنة 1480م وأنشأت أول محكمة تفتيش باشبيلية وبدأت نشاطها ضد اليهود المتنصرين فلاحقت ألوفا منهم ثم أنشأت محاكم جديدة في سنة 1482م بقرطبة وجيان وشقوبية وطليطلة وبلد الوليد، وبعد استصدار براءة من البابا في سنة 1483م أنشأمجلس أعلى لمحاكم التفتيش وكان تخصصه في الشؤون الدينية.[3] وكان الملك هو المسؤول الفعلي عن هذه المحاكم، بينما مثل البابا محققون يختارهم بنفسه.[4]

---

[1] - محمد عبده حتاملة، المرجع السابق، ص 671 672 673.

[2] - بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الاسبانية 1480 – 1516م، زهران للنشر والتوزيع، عمان، د ت ، ص 18.

[3] - محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم للمغرب خلال القرنين 16 و17م، ط3، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998، ص 62.

[4] - مريم بركان، سقوط غرناطة وانعكاساته على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط الجزائر تونس المغرب الأقصى (1492 – 1609م)، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2016، ص54.

ج- هيكلة المحكمة ونظام عملها

لقد اتخذت محاكم التفتيش أشكالا هندسية فكان شكل بنائها يكون على شكل مستطيل أو مربع به ثلاث طوابق تتوسط المبنى حديقة وبه عدة قاعات تخصص للاستجواب،[1] وتكونت هيكلة المحكمة من عدة موظفين هم :

- **المفتش العام : inquisitor General** : يحتل قمة الجهاز الإداري له اتصال مباشر مع الملك ويقوم بتعيين المفتشين في المحاكم ويساعده مجلس مكون من ستة أعضاء،ومن أشهر من تولى هذا المنصب

في عهد الملكيين فرديناند وايزابيلا توماس توركيمادا (1483 1498م) وديغوديزا (1498 1507م)،وخيمينيس(1507 1515م)،وكان يشترط في المفتش أن يكون ذا مستوى ديني رفيع،أن يفوق عمره أربعين سنة ومتمسكا بالمذهب الكاثوليكي متحمسا له.[2]

- **المفتش: Inquisidor:** كان يمثل الهيئة العليا للمحكمة وكان يشترط فيه أن لاتقل رتبته

الدينية عن أسقف،وأن يكون ذا درجة علمية جامعية ويستمد صلاحياته من المفتش العام .

- **المدعي: Claimant** : وهو مسؤول عن توجيه الاتهام للمتهمين وتحديد نوع العقوبة الموافقة للجريمة.

- **كاتب الضبطNatario** : ويعمل على تدوين القضايا المعروضة من حيث تسجيل أقوال الشهود والمتهمين

- **المخبرون Detectives** : وهم الجواسيس حيث كان يحملون معهم وثيقة مختومة من المحكمة تقضي بتقديم كل التسهيلات اللازمة لهم من قبل السلطة المدنية والمواطنين.

- **رئيس الشرطة Jef de policia** :والذي يعمل على اعتقال المتهمين والعمل على حجزهم في اطار جهاز شرطة محكمة التفتيش ،أشهر بالقمع وعرف باسم جيش الحرب المقدسة شعبيا .

---

[1] - بشرى محمود الزوبعي ، المرجع السابق، ص 57.

[2] - بشرى محمود الزوبعي، المرجع نفسه، ص 67 68.

- **الخبير Experto** : حيث كانت المحكمة تستعين بخبراء لتدقيق الأدلة الجنائية التي تدين المتهم كمطابقة الخط وكشف التزوير.كما كان هناك موظفون آخرون كأمين الخزانة والأسقف المحلي، والمحلفون، والراهب لمرافقة السجان.[1]

د- نظام عمل المحاكم:

تبدأ عملها بتقديم شخص شكوى ضد شخص آخر فتبدأ المرحلة الأولى من التحقيق وفي حال وجود شاهد يتم تعيين محقق لمتابعة الشكوى ويتم جلب المتهم للتحقيق اذا أمكن في النهار أو القيام بمداهمته ليلا حيث يتم دق باب المتهم ويطلب لقاءه لمرافقة الهيئة وفي حالة الامتناع عن فتح الباب يتم الدخول بالقوة ،وتكميم فمه بآلة تشبه الاجاصة وقد كان من يعتقل بهذه الطريقة ينقل الى محكمة التحقيق الذي يمكن أن يستمر أسبوعا أو شهرا أو يستمر لسنوات وخلال هذه المدة يمنع المتهم من مقابلة أهله بعد هذا يتم تقديم المتهم ليمثل أمام القاضي والمحققين ليتم استجوابه وفي حالة انكاره يتم اللجوء الى تعذيبه نفسيا وجسديا ليتم الحصول على اعترافاته وفي كثير من الأحيان كان يموت المتهم وهو تحت طائلة التعذيب.

هـ- سجون محاكم التفتيش:

كانت مؤلفة من عدة غرف صغيرة يوصل إليها بممر ضيق ويمر النور إليها من كوة صغيرة بسقف كل غرفة، وقد أحكمت سدتها بثلاثة أدوار غليظة الحديد عليها، وكان الظلمة تطغى على الممرات والقاعات أما الغرف فتم طلائها بالشحم لمنع السجين من تسلق الجدران والهرب[2] كانت سجون ديوان التحقيق تحت الأرض تميزت برائحتها الكريهة وبقذارتها وبهوائها الفاسد وقد قسمت الى ثلاثة أنواع فكان أولها مخصص للأشخاص الذين لاتكون جرائمهم ضد الدين ،والثاني لموظفي المحكمة الذين يرتكبون أخطاء أثناء تأدية مهامهم أما النوع الثالث فخصص للمتهمين بالهرطقة وكان سرير السجين قطعة مستطيلة من الخشب وفراشه قطعتين من الخيش ووسادته من قطعة مربعة من الحجر وله اناءان أحدهما لطعامه والآخر لفضلاته.

---

[1] - بشرى محمود الزوبعي، المرجع السابق ، ص 70 72 73 74 75 76.

[2] - محمدعلي قطب، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، مكتبة القران للنشر والتوزيع، القاهرة، 1985، ص 78.

آلات التعذيب:

لقد عملت اسبانيا على تصفية المسلمين وعلى ضرورة تطهير أرضها من الإسلام فقامت بالعديد من الإجراءات من أجل تنصير مسلمي الأندلس خلال عشر سنوات، وهذا باعتراف ملوك اسبانيا خلال القرن السادس عشر فتعرضت الأقلية الأندلسية المسلمة الى الملاحقة والتقفي من قبل ديوان التحقيق فارضة عليهم الاختيار بين التنصير أوالعبودية مدى الحياة،[1] وحتى ممارسة أنواع التعذيب بآلات وأساليب و طرق متعددة والتي نذكر منها:

التعذيب بالماء حيث يوثق السجين على سلم مائل حتى يصبح الرأس مائل أدنى من مستوى الرجلين،ويجبر على ترك فمه مفتوحا وهذا بوضع طرفة قماش بداخله وارغامه على تجرع الماء وقد استعمل لهذا جرة تسع أكثر من لتر واحد من الماء،فكان المعذب يتجرع أكثر من ثماني جرات .

وفي طريقة أخرى كان يتم تعليق المتهم على بكرة بواسطة حبل يوثق معصميه، وتعلق أثقال على رجليه ويرفع جسده ببطء ،ثم يترك لكي يسقط بقوة ، كذلك كان هناك أسلوب آخر هو المنصة وفيه يتم تقييد المعذب من يديه ورجليه بحبال كانت تفتل شيئا فشيئا بواسطة عتلة آلية،[2] وهذا يدل على هول التعذيب الذي كان يمارس داخل سجون المحاكم ومن آلات التعذيب نذكر:

-**آلات لتكسير العظام:** يتم البدء بعظام الرجلين الى عظام الصدر والرأس واليدين إلى أن يتم تهشيم الجسم .

-**الصندوق:** والذي يكون بحجم رأس الانسان يتم فيه وضع رأس السجين بعد ربط يديه بالسلاسل حتى لايقدر على الحركة وفي أعلى الصندوق يكون ثقب يتقاطر منه الماء البارد على رأس السجين قطرة بقطرة ونتيجة لهذا فقد جن الكثيرين من هذا العذاب، وكان يبقى المعذب على حاله حتى الموت.

---

[1] - عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسيين، ط1، مطبعة بابيريس، تونس، 1989، ص 27.

[2] - جوزيف بيريز، التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش، ط1، ترجمة مصطفى أمادي، مراجعة زينب بنيابة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2011، ص 189.

-**التابوت :** والذي كان يثبت عليه السكاكين الحادة حيث يتم القاء الشخص في داخل التابوت ثم يتم اغلاق بابه فتقوم السكاكين الحادة بتمزيق الجسم وتقطعه اربا اربا.

- **الكلاليب:** والتي كانت تغرز في لسان المعذب ثم تشد ليخرج معها اللسان ويقص قطعة قطعة .

- **السياط الحديدي الشائك:** حيث كان يضرب بها السجين حتى تتفتت عظامه وتتناثر لحومه.[1] **محاكم التفتيش ومعاناة مسلمي الأندلس**

أدى سقوط غرناطة الى اعلان الصليبيين حربا شاملة ضد المسلمين في الأندلس وذلك بالعمل على جبرهم على التنصير وفرض الديانة المسيحية عليهم،حيث أصبحت محاكم التفتيش تتابع تنصير الموريسكيين بصرامة ،فقد ورد في وصية فرديناند الى شارل الخامس أمر بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للكاثوليكية وتضييق الخناق على طائفة محمد صلى الله عليه وسلم ،وعلى هذا عملت محاكم التفتيش على إعداد قائمة مفصلة لكي تظهر أتباع ملة الإسلام، وعملت على فتح باب الوشاية بهم من قبل الإسبانيين ومن بين ما جاء في القائمة أداء صلاة الجمعة ،الزواج على الطريقة الإسلامية،وتغسيل الموتى وتكفينهم،وهو ما أدى الى تعرض الآلاف من المتهمين في فخ الوشاية والحكم عليهم بالسجن والاسترقاق و التهجير.

ونتيجة لهذا فقد بلغت نسبة الموريسكين المقدمين لمحاكم التفتيش نهاية سنة 1533م حوالي3.3%أما تهمهم فكانت حول ممارسة الشعائر الإسلامية كالصوم والوضوء والصلاة والطهارة،وعدم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير والزواج على الطريقة الإسلامية ،ولم يتوقف الأمر هنا فقط حيث نجد محاكم التفتيش فرضت قوانين صارمة أخرى منها منع الآباء من تعليم أبنائهم التعاليم الدينية واجبارهم على حضور الحفلات الدينية المقامة بالكنائس وتحويل المساجد الى كنائس ومصادرة الكتب، ومنع ختان الأطفال وتسميتهم بأسماء عربية.[2]

---

[1]-راغب السرحاني، قصة الأندلس من الفتح الى السقوط، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة القاهرة، 2011، ج2، ص 703 704.

[2] - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، دارالهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 94 96 97.

لم تكتف اسبانيا بهذا بل لجأت الى طرق وقرارات أخرى بغية انهاء الإسلام والمسلمين من الأندلس فعمدوا الى احراق الكتب حيث رأى الكاردينال خيمينيس وأعوانه أن نجاح العملية يتطلب القضاء على اللغة العربية فقام بإتلاف الكتب المكتوبة باللغة العربية [1] لأجل قطع الصلة بين الموريسكيين ولغتهم ودينهم[2]، حيث أمر بجمع كل الكتب بالعربية في ساحة باب الرملة في غرناطة ثم أضرم النار فيها وهناك تضارب في عدد الكتب المحروقة فالبعض يرى أنها 5000 كتاب ويرى آخرون أنها وصلت إلى 130000 كتاب ويقدرها بعض المهتمين بالدراسات العربية بـ 80000 ألفا[3] ولكن مايمكن قوله هنا أن عدد الكتب المحروقة كان كبيرا جدا والتي شكلت في مجملها ثمرات القرون وزبد الحقب وهو مايدل على رغبة المسيحيين الكبيرة في القضاء على اللغة العربية ولهذا فقد أصدرت الملكة قرارا ملكيا في سنة 1512م تلزم فيه جميع السكان الذين تنصروا حديثا على تسليم كل الكتب العربية الى قاضي الجهة، كما قامت محاكم التفتيش بالقيام بعملية مراقبة حازمة ومتابعة على الكتب والمطبوعات في عام 1546م وأصدرت لوائح بأسماء الكتب الممنوعة.[4]

وهذا يدل على أن المسلمون تعرضوا لكل أنواع العذاب وبمختلف الأشكال والألوان.[5] والذي يظهر أيضا في منعهم من شراء الأراضي والعقارات لتمكين تفريقهم بالقوة وتوطين الاسبان بأماكنهم ومحاولة لمزج المسلمين بالإسبان ليفقدوا بهذا مقوماتهم ولذلك منذ اللحظة الأولى لدخول الاسبان غرناطة وزعت مساحات شاسعة من الأراضي والأملاك على النبلاء الاسبان بعدما كانت كلها قبل هذا للمسلمين.[6] .

---

[1] - محمد حسن العيدروس، العصر الأندلسي خروج العرب من الأندلس التطهير العرقي وجرائم الإبادة الجماعية ضد المسلمين في اسبانيا، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2011، ص 72.

[2] - محمد عبده حتاملة ، الاعتداءات الفرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس والمشرق (حرب متواصلة على الإسلام)، ط1، المكتبة الوطنية، عمان، 2001، ص 30.

[3] - محمد حسن العيدروس، المرجع السابق ، ص 72.

[4] - بسام اسخيطة، قصة محاكم التفتيش في العالم، ط1، دار هيا للنشر والتوزيع، دمشق، 2000، ص 243.

[5] - شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، ط1، تقديم عباس أبو صالح، الدار التقدمية، لبنان، 2009، ص 251 252.

[6] - محمد عبده حتاملة، التنصير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين (1474-1516م)، ط1، الجامعة الأردنية، الأردن، 1980، ص 63.

في ظل الاضطهاد الديني الكبير الذي تعرض له المسلمين وتعنت محاكم التفتيش واصرارها على طرد المسلمين والقضاء على الاسلام نهائيا لجأ مسلمي الأندلس الى التقية كإجراء حاولوا من خلاله إخفاء معتقدهم الديني،والتقية هي الاحتياط أو الكتمان وهي الحذر والسرية،فيمتنع المسلم عن ممارسة دينه متظاهرا باعتناقه للدين المفروض عليه غصبا.[1] ولعل من الأسباب التي جعلت الموريسكيون يلجأون الى التقية هي الإجراءات التعسفية لمحاكم التفتيش وعزمها القضاء على الإسلام والمسلمين باسبانيا المسيحية،وبالرغم من هذا فقد وقف المسلمين صامدين وأفشلوا كل المحاولات التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية والملوك وهنا يقول الملك فيليب الثالث أنكم على علم بكل بمحاولتي مدة سنين طويلة لتنصير موريسكي هذه المملكة... وبإصدار أوامر العفو منـــة مني عليهم... وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها ،إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد بل على العكس لم يزدهم إلا إصرارا.[2]

وفي ظل هذا لجأ المسلمين يبحثون عن فتوى لحالهم ورأي الشرع في ذلك وقد أرسل لهم مفتي وهران أحمد بن بوجمعة الوهراني فتوى شهيرة باسمه سنة 1504م حملت في طياتها تسهيلات تسمح لهم بالمحافظة على دينهم باتباع أسلوب التقية ومما جاء فيها :

- يمكن قول حمد إذا طلب منهم شتم النبي صلى الله عليه وسلم ويقصد بها مهمادا اليهودي.
- إذا أجبروا على شرب الخمر فيشربوا مع اعتبار ذلك أمرا فاحشا.
- اذا تعذر تأدية الصلاة في النهار تؤدى في الليل.
- يسمح باستخدام إشارات في الصلاة اذا تعذر الجهر بها.
- يمكن تعاطي الربا بشرط انفاق الفائدة على الفقراء.
- إذا طلب منهم انكار الإسلام فيقولوا ذلك ظاهرا وينكروه في قلوبهم.

ومن هذه الفتوى بات المسلمون يمارسون شعائرهم الإسلامية[3]، فيقومون بالدخول في المسيحية ظاهرا للهرب من البطش والتنكيل بمن يتمسك بدينه،و ممارسة

---

[1] - لوي كارديالك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية (1492 – 1640م) مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين بأمريكا، ط1، تعريب وتقديم عبد الجليل التميمي، المجلة المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 1983، ص 90.

[2] - جمال يحياوي، المرجع السابق، ص 67.

[3] - جمال يحياوي، المرجع نفسه ، ص 51 52.

الشعائر الإسلامية بشكل سري ، وتعدى الأمر أن أصبح الواحد منهم يحذر حتى من أبنائه الذين كانوا يأخذون قصرا من الكنيسة لتربيتهم ثم يرجعون لأسرهم ليكونوا عيونا لها ولمحاكم التفتيش التي كانت محارقها تلتهم الكثير منهم لأقل شبهة ووشاية بهم.

لقد أدى الضغط والمراقبة المستمرة لمحاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلس للدفع بهم الى التفكير في الدفاع عن حقوقهم ودينهم ولقد كان هذا صعبا في ظل الظروف الصعبة التي يعيشونها ففكروا في سرية تامة بالقيام بثورات وانتفاضات كان أبرزها انتفاضات حي البيازين ثم البشرات سنة 1501م وكانت ثورة كبرى في سنة 1568م واستمرت الى غاية الطرد النهائي من الأندلس سنة 1609م ونذكر منها انتفاضة جبل لاغور ،ومويلادي كورتيس وهما آخر محاولة للموريسكين للبقاء بالأندلس.[1]

قرار الطرد:

لقد ظهر بعد قرار التنصير الاجباري الذي أصدره الكاردينال خيمينيس سنة 1502م ،ولعب فيليب الثاني دورا هاما في بروز فكرة النفي من خلال الاجتماع الذي عقده في لشبونة سنة 1572م،وقد رسم لولده فيليب الثالث (1598 -1627م) بعد ثورة 1568م سياسته وتتمثل في نزع هوية الاندلسيون ظاهريا والعمل على طردهم جماعيا باطنيا.[2] وذلك بإصدار عدة مراسيم كتلك المعلنة في سنة 1567م والتي حظرت استخدام الملابس واللغة العربية.[3] ،ولكن ظلت فكرة الطرد تظهر وتختفي تقرر ويتراجع عنها الى ان تم اتخاذ القرار نهائيا في 1609/09/22م حيث تم اتخاذ كل الاحتياطات لضمان نجاحه خاصة بعد ممارسة كل التعسفات والمصادرات والملاحقات من ديوان التفتيش والتي أرهقت كاهل الموريسكين، فتم منح مدة ثلاث أيام كي يرحلوا والموت لكل مخالف فاستقبل المسلمون هذا القرار بنوع من الخوف والاضطراب ومما جاء فيه : يتوجب على الموريسكين الرحيل في ظرف ثلاثة أيام من نشر القرار والموت لمن يخالفه ويسمح لهم بنقل ما استطاعوا من أمتعة على ظهورهم وتتكفل الحكومة بطعامهم أثناء السفر مع استبقاء 6% من الموريسكين للانتفاع بهم في المنزل وقد نفذت عملية الطرد

---

[1] - جمال يحياوي، المرجع السابق، ص 157 158 .

[2] - مريم بركان ، المرجع السابق، ص 59.

[3] - ميغيل انخيل بونيس ايبارا الموريكيون في الفكر التاريخي ط1 ترجمة وسام محمد جزر مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمان المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 2005م ص 22

بشكل واسع مابين (1609 – 1610م) واستمر النفي حتى سنة 1614م.[1] حيث بدأت عملية الجلاء بمشاهد أقل ما يقال عنها جد محزنة ومأساوية أودية من البشر من مختلف الفئات فقراء وأغنياء علماء وجهلة نساء ورجالا أطفالا وبناتا وشيوخا وعجائز الجميع يخفي حزنه وبالمقابل غصت الكنائس بالأجراس ورفعت الصلبان فوق كل مرتفع ولم تقف الفرحة عند هذه الحدود بل تجاوزت الى إقامة احتفالات عارمة .[2]

[1] - مريم بركان ، المرجع السابق ، ص 59 61 63 65 .

[2] - عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492 1616م ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1989، ص 63.

جزر البحر الأبيض المتوسط والصراع بين الشرق والغرب
جزيرتي صقلية وكريت -أنموذجا

د. بن داود بن جارة
جامعة تلمسان/ الجزائر
bendjara82@gmail.com

مقدمة:

ظل البحر الأبيض المتوسط تحت السيادة الرومانية ثم البيزنطية بضفتيه الشمالية والجنوبية، حتى ظهر الإسلام في النصف الأول من القرن السابع ميلادي، واضطر المسلمون في إطار نشر الإسلام وتبلغيه الى كافة الناس لأنه رسالة عالمية ، إلى ركوب البحر بإنشاء أسطول بحري يضاهي أسطول الدولة البيزنطية وذلك لحماية ما فتحوه من بلاد الشام وغرب مصر في عهد خلافة عثمان(ض) من هجمات البيزنطيين، وكان الفضل في ذلك إلى والي الشام معاوية بن أبي سفيان(ض)، وذلك ما حتّم عليهم الاستلاء على جزر البحر الأبيض المتوسط التي تتخذها الدولة البيزنطية مراكز لشن هجماتها على الأراضي التي فقدوها لصالح المسلمين.

سنتطرق في هذه الورقة البحثية الى إبراز فتح المسلمين لجزر البحر الأبيض المتوسط وصراعهم مع القوى في المنطقة ذلك باختيارنا لجزيرتي كريت وصقلية كنموذج للدراسة ، ومن هنا جاء طرحنا للإشكالية الرئيسية :

"ما هي أسباب فتح المسلمين للجزيرتين وماهي مظاهر الصراع عليهما بين القوى الإسلامية والمسيحية و ماهو تأثير التواجد الإسلامي في الجزيرتين على نهضة أوروبا "

تهدف هذه الدراسة الى تقصي طبيعة الصراع حول البحر المتوسط بين مختلف القوى سواء الإسلامية فيما بينها أو المسيحية فيما بينها أو صراع القوى الإسلامية المسيحية ولمعالجة هذا الموضوع اتبعنا المنهج الوصفي لسرد الأحداث والمنهج التحليلي لتفكيك هذه الأحداث ومحاولة فهم خلفياتها.

1-أوضاع ضفتي البحر المتوسط في القرن التاسع ميلادي :

تقاسم البحر الأبيض المتوسط مع مطلع القرن التاسع ميلادي، عدة قوى إسلامية مسيحية فضفته الجنوبية كان إسلامية سواء جهته الشرقية الخاضعة للخلافة العباسية ونقصد هنا سواحل الشام ومصر، وبينما جهته الغربية فكانت مجزأة بين الاغالبة في المغرب الأدنى والرستميين في المغرب الأوسط والأدارسة في المغرب الأقصى.[1]

وبخصوص شماله، فقد كان شمال شرقه مركز الإمبراطورية البيزنطية[2] وأما وسطه ايطاليا فقد تقاسمها الفرنجة[3] (الكارولانجين Carolingien) في شمالها والبيزنطيين في جنوبها بالإضافة الى الإمارات الومباردية في وسط ايطاليا[4] وشمال غربه للأمويين الذين أقاموا دولة لهم في الأندلس وهي دولة مناوئة للعباسيين وذلك بعد قضاء هؤلاء على الخلافة الأموية بدمشق.

فضلا عن ذلك، فقد عانت الدولة البيزنطية منذ عهد أواخر الأسرة الايسورية sauriensاوخلفائهم[5]، خاصة بعد تحكم امرأة في شؤون الحكم ولمدة ربع قرن تقريبا و نقصد بها الإمبراطورة ايرينIrene التي خلفت زوجها ليو الرابع4 Leon كوصية على ابنها القاصر الإمبراطور قسطنطين السادس Constantin6من مشاكل عدة منها نزاع حرب

---

[1]-انظر الملحق رقم 02

[2]- الإمبراطورية البيزنطية: أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية عاصمتها القسطنطينية التي أسسها قسطنطين الأول مابين 324و330م وبعد وفاة الإمبراطور ثيودوز 1Theodose عام 395م قسم الإمبراطورية بين والديه هونوريوسHonorius (إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الغربية) واركاديوس Arcadius إمبراطور الإمبراطورية الشرقية حتى سقطت على يد العثمانيين عام 1453م ينظر -عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.2010

[3] الأسرة الكارولانجية Les Carolingiens أسرة حكمت فرنسا مابين 751و987م وحكمت جرمانيا مابين 751و911م، أسسها بيبان القصير Pépin le Bref ومن أشهر ملوكها شارلومان Bénédicte Gaillard et autres :dictionnaire Hachette ,encyclopédie ,Hachette livres ,2012 p256

[4]-انظر الملحق رقم 01

[5]-الأسرة الايسورية:أسرة حكمت الدولة البيزنطية مابين 717م-802م تناوب على حكمها (ليو الثالث-قسطنطين الخامس-ليو الرابع-قسطنطين السادس –ايرين) خلفت أسرة هرقل وقد أنقذ مؤسس هذه الأسرة القسطنطينية من حصار الأمويين لها مابين 717-718 وظهرت في عهد الأسرة مشكلة حرب الإيقونات ووقوع البابوية تحت سيطرة الفرنجة وحمايتها وخاصة بعد إحياء الإمبراطورية الرومانية سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ط4، مكتبة الانجلو مصرية القاهرة،1966، ص 13-127

الأيقونات بالإضافة الى تعرض جيوشها للهزائم في حروبهم ضد الخلافة العباسية وضد البلغار الذي حاصر ملكهم كروم 813مKroum القسطنطينية [1]و ضد شبه الجزيرة الايطالية في مساندة من طرفها للومبارديين ضد الفرنجة وأصبحت روما عاصمة البابوية تحت سيطرة الملك الكارولانجي[2] شارلومانCharlemagne الذي توسع شرق بلاده محاربا الوثنيين وأعلن نفسه إمبراطور 800م ،محييا الإمبراطورية الرومانية الغربية ومنافسا بذلك الإمبراطور البيزنطي وهاجم الأندلس[3]

في المقابل، كان التنافس حادا بين هذه القوى سواء بين القوى المسيحية فيما بينها أو بين المسيحيين والمسلمين ومن مظاهر هذا الصراع التنافس الحاد بين الإمبراطورية الفرنجة و الإمبراطورية البيزنطية حول ايطاليا وزاد هذا التنافس منذ إحياء شارلمان للإمبراطورية الرومانية بإعلان نفسه إمبراطورا سنة 800م[4] منافسا بذلك الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية وذهب كل واحد منها الى نسج تحالفات ضد الآخر ،فتحالف الفرنجة مع العباسيين ضد البيزنطيين وحلفائهم الأندلسيون وزادت بسبب ذلك غارات العباسيين على الأراضي البيزنطية شرق المتوسط وغارات الأندلسيين على سواحل الفرنجة نيسNice و جزيرة كورسيكا Corse وجزر البليار Baléaresفي شمال غرب المتوسط[5]

2- فتح المسلمين لجزيرتي كريت وصقلية[6] :

تعتبر جزيرتي كريت[1] وصقلية إحدى أربع جزر كبرى في البحر الأبيض المتوسط فالأولى تقع شرق البحر الأبيض المتوسط ذات موقع جغرافي ممتاز بسبب قربها من ثلاث

---

[1] -Robert Mantran ;Histoire d'istanbul,librairie artheme ,fayard , France 1996,p65-66

[2] -جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية 284-1453م، دار المعرفة الجامعية مصر 2003،ص 125-129

[3] - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص201-207

[4] - سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية عام 476م وأحياها شارلومان عام 800م

[5] -شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، د ت 139-141

[6] - جزيرة صقلية كبرى جزر البحر الأبيض المتوسط،تابعة لايطاليا مساحتها 25696كلم مربع، ويفصلها ويفصلها عنها مضيق مسينا، من مدنها سرقوسة، بلرم،اجريجنتو، قطانيا، علي موسى، محمد الحمادي، جغرافية القارات، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان 1997، ص 77-78 انظر الملحقين 1و2

قارات (أوروبا- آسيا- افريقيا) وكانت بذلك نقطة التقاء الحضارات المختلفة ومركزا تجاريا و خضعت كريت للرومان ثم للبيزنطيين فيما بعد حتى خضعت للمسلمين في القرن ال9 م وأما لجزيرة الثانية صقلية فهي تقسم البحر الأبيض المتوسط الى قسمين شرقي وغربي وخضعت للقرطاجيين فالرومان ثم البيزنطيين قبيل الفتح الإسلامي لها في القرن التاسع ميلادي.

بعد أرسى المسلمون دعائم دولتهم اتجهت أنظارهم نحو امتلاك أسطول بحري يجابهون به الأسطول البيزنطي ويحمي حدودهم الشمالية من هجمات هؤلاء، وكان ذلك عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان والذي سمح لوالي الشام معاوية بن أبي سفيان بصنع أسطول عربي إسلامي وقام حينها بغزو جزيرة قبرص عام 28هـ/648م وهي أول غزوة بحرية للمسلمين في التاريخ[2].

استنادا إلى ماسبق حرص المسلمون لفتح جزيرة كريت لرغبتهم اتخاذها قاعدة حربية في محاولات فتحهم للقسطنطينية وأولى هذه المحاولات قام بها أجندة بن أبي أمية الأزدي عهد معاوية بن أبي سفيان عام 54هـ/674م تلاها حملة وقعت مابين 705م-715م عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ونجح العباسيون في فتح أجزاء من الجزيرة عهد هارون الرشيد ولكن البيزنطيون استعادوها فيما بعد[3] .

ارتبط فتح كريت بالأندلسيين الذين فروا من الأندلس عقب ثورة الربض[4] عام 202هـ/818م نحو فاس أين استقروا هناك عند البربر وكان المغرب الأقصى أنذلك تحت

---

[1] أطلق على جزيرة كريت في العصور القديمة بعدة أسماء كارونيسوس Macaroneasos،ايريا Aeria نظرا لاعتدال مناخها، دوليخة Dolicheبسبب تكوينها المستطيل الشكل، كما سميت ب تلخينيا Telchinia نسبة إلى الشعوب التي استوطنت الجزيرة قديما، وفي العصور الوسطى فقد أطلق عليها الرحالة المسلمون اسم افريطش 8-اسمت غنيم : الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، الإسكندرية ص 31-34

[2]-عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس،دار النهضة العربية، بيروت،1969،ص17-19

[3]- اسمت غنيم، المرجع السابق، ص45-46

[4]-ثورة الربض: قامت عام 202هـ/818م عهد الحكم بن هشام بقرطبة وقام بها فقهاؤها بعدما زالت حظوتهم لدى الحكم بن هشام واتهموه بمعاقرة الخمر وانهماكه في الملذات وسعوا للإطاحة به وتعيين حاكم آخر بدله وفشلت محاولتهم مرتين عام189هـ/805م و 190هـ/806م وقام الحكم بالتنكيل بهم في محاولتهم الثالثة عام 202هـ/818م إذ قتل الكثير منهم وبعضهم بالفرار خارج الأندلس محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس، ط2، دار النفائس، بيروت 2010 ص 187-192

حكم الأدارسة وفريق آخر من الربضيين اتجه صوب الإسكندرية وسيطر عليها بمساعدة أعراب الجيزة مستغلا اضطراب أوضاعها بسبب تأثر أهلها بالفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون بسبب الحكم لكن ا الخليفة المأمون بعدما استتب له الأمر فأرسل أحد ولاته لإجبار هؤلاء الأندلسيين للدخول في طاعة العباسيين مجبرهم على الخروج من مصر ولا ينزلوا بأي ارض تابعة للعباسيين فهاجروا بسفنهم واحتلوا جزيرة كريت التي كانت بيزنطية عام 212هـ/827م وكان يترأسهم أبي حفص عمر البلوطي[1] .

لم يكن نزول الأندلسيون الى كريت ارتجاليا بل قبله أرسلوا حملة استطلاع للجزيرة عام 826م من الإسكندرية هاجمت وغنمت أثناء الإغارة عليها، وجمعت المعلومات حول الجزيرة وفي السنة التي تلتها 827 هاجمت الجزيرة ونزلت على أرضها دون تلقيها مقاومة تذكر من قبل أهلها الخانقين من سوء إدارة البيزنطيين لهم جراء الحركة اللاايقونية Iconoclastesاوكما أن بيزنطة كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية

أمّا جزيرة صقلية فهي تقسم البحر المتوسط الى قسمين غربي وشرقي وبعد فتح المسلمين لمصر وبرقة سعوا لحماية حدودهم الغربية وخاصة بعدما اتخذت بيزنطة صقلية كمركز لانطلاق هجمات أسطولها على افريقية(تونس) وبرقة [2] وتم فتحها كما فتحت الأندلس من قبل، وذلك نتيجة صراعات داخلية بين زعماء الجزيرة وطلب بعضهم الدعم من العرب وتجسد هذا في قدوم القائد البيزنطي اوفيموس الذي كان خارجا على إمبراطور بيزنطة مع بعض أنصاره الى زيادة الله الأول طالبا منه العون لاسترجاع ملكه فقرر زيادة الله الأول(816-837) مساعدته بأسطول بحري بقيادة أسد بن الفرات انطلق من سوسة تجاه صقلية أين نزل بمازرة في جوان827م واحتلوها وفتحوا بعدها بلرمةPalerme عام831م ومسينا Messine وبقي الجزء الشرقي من

---

[1]-أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس،دار النهضة العربية، بيروت ص125

[2]- وأول من غزاها عبد الله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن خديج عام 46هـ/665م ثم غزاها عقبة بن نافع عام 49 هـ وغزاها عطاء بن رافع الهذلي عام 83هـ وعياش بن اخيل في ولاية موسى بن نصير وتوالت غزوات المسلمين على صقلية في ولاية يزيد بن ابي مسلم 102هـ وغزاها بشر بن صفوان عام 109هـ والمستنير بن الحارث الحرثي عام 113هـ وحبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع سنوات 116هـ و122هـ وغزاها عبد الرحمن بن حبيب عام 135هـ أيام إمارته على افريقية، للتفاصيل انظر، - طالبي محمد،الدولة الأغلبية،التاريخ السياسي800-909،تر:المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، 1995، ص435-440

الجزيرة في يد البيزنطيين الذين فشلوا في طرد المسلمين منها بسبب انهماكهم في مشاكلهم الداخلية[1].

يتضح مما سبق، أنّ المسلمين فتحوا جزيرتي كريت وصقلية في وقت متزامن منتهزين ضعف الدولة البيزنطية المتدهورة في النصف الأول من القرن التاسع ميلادي وبهذا ستشهد القرون ال9و10و11صراع بين المسلمين والمسيحيين من بيزنطيين ونورمان حول الجزيرتين وهذا عنوان مبحثنا التالي:

3-مظاهر الصراع بين المسيحية والإسلام حول الجزيرتين:

حاولت الدولة البيزنطية استرجاع الجزيرتين كريت وصقلية منذ سقوطهما في يدالمسلمين ، وأرسلت بموجب ذلك عدة حملات الى الجزيرتين ، ودخلت خلال ذلك في صراع مع القوى الإسلامية في المنطقة ومع أهمها المنافس الجديد في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وهم النورمان وسنتناول في هذا المبحث مظاهر الصراع بين هذه القوى:

سعى البيزنطيون منذ سقوط جزيرة كريت في يد الأندلسيون إلى استرجاعها حيث قام ميشال الثاني(820-829)Michel 2 لأجل ذلك بثلاث محاولات فاشلة [2] وكما أرسل الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل(829م-842م) Théophile سفارة برئاسة المترجم كراتيوز Kratiyoz الى الإمارة الأموية في الأندلس عبد الرحمن بن الحكم(222م-852م) للاستعانة به ضد أندلسي كريت الخارجين عن سلطانه، مذكرا إياه بعدائه مع العباسيين وبضرورة استرجاع ملك أجداده الأمويون الذين قضى عليهم العباسيين ولكن أمير الأندلس كان متحفظ ولم يعد الإمبراطور البيزنطي بشيء [3]

ولابد من الإشارة الى إغارة البيزنطيون على دمياط المصرية وذلك لقطع مساعدة المصريين للكريتيين وذلك في عهد والي عباسي على مصر وهو عنبسة بن اسحاق عام 853م واستغل كذلك الكريتيون فرصة هجوم الروس على القسطنطينية وأغاروا على جزر السيكلاد Cyclades وعلى سواحل آسيا الصغرى عام 860م وعلى جزيرة نيو ، وردّ عليها الإمبراطور البيزنطي ميشال الثالث(842-867) Michel 3 بإعداد حملة كبيرة عام

---

[1]- للمزيد من التفاصيل حول فتح صقلية انظر -محمد طالبي :المرجع السابق، ص461-502

[2]- عام 828م أرسل لاسترجاعها كل من قواد الأسطول فوتيناس و دميان 2-حملة كراتيروس 3 –عام 829 قادها اوريفاس ينظر إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1951 ص100

[3]-André Clot ;l'Espagne musulmane, editions talantikit, bejaia 2015, p91-92

866 يقودها قائده برداس Bardasولكن الحملة لم يكتب لها النجاح بسبب مقتل قائدها على يد باسيل الأول (866-867) Basil1 والذي سيتولى بعد عام عرش الإمبراطورية البيزنطية [1] وبعد وفاة باسيل الأول عام 886 خلفه ليو 6 الحكيم (886-912) Léon 6 le sage الذي إنشغل بشؤون السياسة والحرب بل انصرف بالاهتمام بأمور اللاهوت والفلسفة والقانون ولذلك أطلق عليه معاصروه لقب الحكيم[2] وضاعت في عهده طمبرين بصقلية وهاجم الكريتيون مع الأسطول العباسي ليو الطرابلسي سالونيك 904م عاصمة إقليم مقدونيا [3] وهذا ما شجع ملك البلغار سيمون1 (893-925م) Siméon1 الاستلاء على سالونيك Salonique ولكن إمبراطور بيزنطة تنازل له عن بعض أجزاء إمبراطوريته مقابل تخليه عن سالونيك[4] وكما فشلت محاولتين لبيزنطة في استرجاع الجزيرة سنتي 910م و949م[5].

أمّا صقلية فقد كان الصراع على أشده بين البيزنطيين و مسلمين (أمراء صقلية وداعميهم من فاطميين وزيريين) والإمبراطورية الرومانية المقدسة والوافدين الجدد النورمان وهذا كالتالي :

وننوّه هنا ،أنه لما نزل المسلمين في جزيرة صقلية لم يخضعوا كامل الجزيرة بل بقيت بعض المناطق خرج سيطرة البيزنطيين الذين قاموا بعدة محاولات لاسترجاع الجزيرة مثل حملتي سنة 848م و868 وفتح المسلمون قصريانة 858م و سرقوسة عام 878م واستغل أمراء صقلية انقسام أمراء جنوب شبه الجزيرة الايطالية [6]ونسجوا تحالفا مع أمراء نابولي المتنافسين ضد اللومبارديين وقاموا بعدة غارات على سواحل بحر الأدرياتيكي كمحاولة أمير صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب فتح روما عام

---

[1]-اسمت غنيم: المرجع السابق، ص142-146

[2]-اسمت غنيم، المرجع السابق، ص 204

[3]-ارشبالد لويس: المرجع السابق، ص 238

[4]- اسمت غنيم، المرجع السابق، ص201-202

[5]-عبد العزيز سالم، المختار العبادي، المرجع السابق، ص90-90

[6]- كان جنوب ايطاليا خاضع للأمراء بنفنت اللومبارديين وجمهوريات صغيرة تابعة ا(نابل، جايتا، سورتو، أمالفي وسعت هذه الجمهوريات الاستقلال عن إماراة بنفت اللومبارديةوتحالف بعضها مع المسلمين حفاظا على استقلالها وأول من تحالف مع المسلمين نابل وذلك مابين 830و835 ودام التحالف حوالي 50 سنة عبد العزيز سالم، احمد مختار العبادي، المرجع السابق،ص 131

846م وفتحوا نوطس عام 864م مالطة عام 869م لم يستطيعوا فتح الجزيرة كاملة إلاّ عام 902م .

بطبيعة الحال، تأثرت جزيرة صقلية بأحداث المغرب الإسلامي، حيث تبعت للخلافة الفاطمية(العبيدية) بعد إزالة هؤلاء للأغالبة والرستميين عام 909م وحكم أسرة بني كلب[1] صقلية بإسم العبيديين(الفاطميين) مابين 948م-1053م وفي عهد هذه الأسرة هزم أمير صقلية الحسن بن علي البيزنطيون في معركة ريو البحرية عام 948م وفتح المسلمون مدينة طبرمين عام 965م بعد هزمهم للبيزنطيين في معركة مسينا 965م كما دخلت الإمبراطورية الرومانية ميدان الصراع منذ عهد أوتون الثاني(962-973) Otton 2 الذي حاول إخضاع البندقية و وطرد البيزنطيين من جنوب ايطاليا ولكنه هزم أمام أمير صقلية أبي القاسم (قتل في المعركة)عام 982 م في معركة رأس كولون Cap Colonna[2] .

في بداية القرن الحادي عشر وأمام تهديد البيزنطيين لصقلية تحالف أمير صقلية احمد بن يوسف الأكحل مع المعز بن باديس الزيري وقاما بغارات مابين 1026-1035م على مقاطعة اليرياIllyrie البيزنطية (الساحل الشرقي للأدريايكي) وعلى بعض جزر اليونان وحتى تراقيا ولكن سياسة الوفاق بينه وبين المعز الزيري لم تطل بسبب سياسة التفرقة التي اتبعها بتفضيله للصقليين على حساب الأفارقة(افريقية هي تونس) وهذا ما أدى قدوم وفد من أهل صقلية على المعز برئاسة أبي حفص يشكون من سوء سياسة احمد بن يوسف فلبى المعز بن باديس طلبه وأمدّه بمساعدة عسكرية تقدر ب 6 آلاف رجل بقيادة ابنه عبد الله الذي أفلح في دخول بلرم وقتل خلال ذلك الأكحل ولكن أ هل صقلية انقلبوا على الزيرين وهزموهم وقاموا بطردهم واستغل البيزنطيون واحتلوا مسينة وإثنا عشرة مدينة مابين 1038و1042 سترجعها الحسن الصمصام(1040م-1053) آخر الأمراء الكلبيين عام 1042[3].

---

[1]- الكلبيون : حكموا صقلية مابين 948م-1053م ومن أشهر أمرائهم الحسن الكلبي وأبو القاسم علي بن الحسن وآخرهم حسن الصمصام، انظر زامباور،الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت، 1980 ص 107

[2]- أحمد توفيق المدني،المرجع السابق ص 187 سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 309

[3]-عزيز أحمد، المرجع السابق، ص 40-43

على العموم، ستدخل صقلية خاصة في فترة آخر حكام الأسرة الكلبية في مرحلة طوائف، حيث استقل كل أمير بمنطقة مثلما كانت الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية ، وهذا ما سهل مهمة النورمان في الاستلاء على الجزيرة.

3- استرجاع بيزنطة لجزيرة كريت وإستلاء النورمان على صقلية:

عرضنا في المبحث السابق مظاهر الصراع بين الدولة البيزنطية والمسلمين في صقلية وكريت وذلك أثناء محاولة هذه الأخيرة استرجاع الجزيرتين، إلا أنها استطاعت بعد قرن وثلث قرن من استرجاع جزيرة كريت ، بيد أن جزيرة صقلية قد سقطت في يد النورمان[1] ، وهذا ما سنتطرق له في المبحث التالي:

عقب فشل حملة عام 949م استعد الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني(959-963م) Romain2 أسطولا مؤلفا من حوالي ثلاثة آلاف وثلاثة مائة وستين سفينة حربية مابين كبيرة وصغيرة وعين عليها أكبر قادته تقفور فوكاس Nicephore phocasو قامت هذه السفن بمحاصرة الجزيرة لوقف وصول النجدات وأمام هذه الأوضاع استنجد أميرها عبد العزيز بن عمر بن شعيب بالخليفة العباسي المطيع (946-974م) ومن سيف الدولة الحمداني الذي اشتهر بحروبه ضد البيزنطيين وبالإخشيديين بمصر ولكن لم ينجده أي من هؤلاء واكتفى الإخشيد حاكم مصر بمراسلة للمعز العبيدي(952-975) في المهدية بتونس يحثه على مساعدة أهل كريت لانشغال الإخشيد بحرب القرامطة الذي هددوا الشام[2] .

في هذا الصدد ، اضطر أمير كريت الى طلب المساعدة من المعز العبيدي والذي أبدى نيته في تقديم المساعدة ولكن المعز بالله أضاع الكثير من الوقت في تنسيقه لإعداد حملة إنقاذ الجزيرة مع الإخشيديين مما جعل شنداكس عاصمة كريت تسقط في أيدي

---

[1] --النورمان: استقر النورمان شمال غرب فرنسا بعدما عقد ملك فرنسا شارل الثالث الساذج مع زعيم النورمان رولون معاهدة سان كلير على الابت عام 911 Saint Clair-sur -Epte تنازل له بموجبها عن أرض شمال غرب فرنسا والتي سميت باسمهم فيما بعد Normandie وسيعتنقون المسيحية فيما بعد ويغزون انكلترا عام 1066 نور الدين حاطوم تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، دار الفكر،دمشق ن 1982، ص 474-478

[2] - محمد سهيل طقوش،تاريخ الفاطميين في شمالي افريقية ومصر وبلاد الشام،ط2،دار النفائس بيروت 2007 ص165-167

البيزنطيين يوم 15 محرم 350هـ/6مارس 961 وعادت الجزيرة للدولة البيزنطية بعدما ظلت إسلامية مدة 134سنة[1].

على الجانب الآخر، فجزيرة صقلية وكما ذكرنا آنفا فقد انقسمت إلى عدة إمارات متناحرة[2] خاصة بعد خلع الحسن بن الصمصام من طرف القادر بالله بن الثمنة والذي أصبح الحاكم الفعلي للجزيرة، ولكنه دخل في صراع عائلي مع صهره علي بن الحواس أمير جرنت والذي انهزم فيه القادر بالله بن الثمنة واستعان خلالها بروجار الأول Roger 1 ملك بالنورمان [3] المستقر في كلابريا Calabre عام 1052م فناصره وأصبح حاكم صقلية في بالرمو واستولى النورمان على عدة مناطق من الجزيرة وهاجر بعض أهلي صقلية الى افريقية(تونس) مستصرخين بالمعز بن باديس الذي كانت بلاده تعاني آثار الغزوة الهلالية وأرسل أسطولا كبيرا تحطم قبالة جزيرة قوصرة عام 1062م [4] حتى توفي عام 1061 وخلفه ابنه تميم الذي بادر بإرسال المدد الى صقلية بقيادة ابنيه أيوب وعلي عام 1064م لضبط الأمور في الجزيرة ولكنه سحب قواته من الجزيرة بعدما تعذر عليه التفاهم مع الصقليين عام 1068) تاركا صقلية تواجه مصيرها وحدها [5] .

بديهيا، أن يستغل النورمان هذا واستولوا على باري آخر معقل للبيزنطيين في ايطاليا عام 1071م ثم استولى على بلرمة عاصمة صقلية وتهاوت مدنهم الواحدة تلوا الأخرى مثل طمبرين،جرجنت، فسرقوسة عام 1087م واكتمل غزو النورمان لكامل الجزيرة عام 1090م[6].

---

[1]-محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين، ص167

[2]-في بلرمة العاصمة كان يحكم حسن الصمصام مازرة تحت حكم الأمير عبد الله بن منكوث جرجنت تحت حكم علي بن نعمة بن الحواس وحكم القادر بالله بن الثمنة منطقة سرقوسة وقطانية واستقل أمير آخر في جهة مسينا، أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص191

[3]-ظهر النورمان بجنوب ايطاليا عام 1016م وفي 1040، أقاموا مراكز في ابوليا Apulieوانتقلت زعامة النورمان الى روبرت جسكارد Robert Guiscardمن أسرة هوتفيل Hautevilleوتوسع جسكارد على حساب أمراء ايطاليا المحليين ونواب بيزنطة في المنطقة وفي 1059 اعترف البابا بمركزه واعتبره من الأمراء التابعين للبابوية مكافأة له على دعمه ضد الألمان الذي هددوا روما ظهر في هذه الأثناء روجر أخ روبرت في جنوب ايطاليا قد استقر بقلورية بعدما استولوا عليها من البيزنطيين ومنها بدؤوا يتدخلون في صقلية بعدما استنجد بهم بن الحواس لويس ارشيبالد، المرجع السابق ص373-374

[4]-عزيز أحمد، المرجع السابق،ص60

[5]- لويس ارشيبالد : المرجع السابق، ص 373

[6]- لويس ارشيبالد: المرجع السابق، ص375

عموما، باستعادة البيزنطيين على جزيرة كريت يكونون قد تخلصوا من مصدر إزعاج هدد أمنهم لمدة تزيد عن قرن من الزمن مسترجعين هيبتهم وقوتهم البحرية في شرق المتوسط وعدوه أعظم انتصار في تلك الفترة وبينما يمثل استيلاء النورمان على جزيرة صقلية نهاية التهديدات الإسلامية على جنوب ايطاليا و إنهاء سيطرة المسلمين على البحر المتوسط مدة من الزمن حتى ظهور الدولة الموحدية .

4-دور الجزيرتين كمنفذين لنهضة أوروبا وآثار المسلمين فيهما:

ظهرت النهضة الأوروبية بصورة تدريجية منذ القرن الثاني عشر ميلادي ،وأول عامل رئيسي في أثر هذه النهضة هو اتصال الغرب المسيحي الذي عاش في ظلام وجهل بالعالم الإسلامي الذي كان منار العلم والحضارة وكان هذا الاتصال عن طريقي السلم والحرب فتأثرت أوروبا بعلوم المسلمين وكان هذا بصفة عامة عبر عدة وسنتناول في مبحثنا هذا منفذ كريت و صقلية وجنوب ايطاليا خاصة.

أما عن دور جزيرة كريت[1] في التواصل الحضاري بين الشرق والغرب الأوروبي فقد استفاد البنادقة من مهارة الكريتيين في صنع السفن وذلك لوجود مادة الخشب(وجود الغابات بالجزيرة)وأصبحت كريت نظرا لموقعها الممتاز لوقوعها بين ثلاث قارات(افريقيا-آسيا-إفريقيا) همزة وصل بين العالم الإسلامي والعالم البيزنطي والغرب الأوروبي وبفضل احتكاك البنادقة بالبيزنطيين والمسلمين في الشرق وخاصة بعد احتكاكها بمسلمي جزيرة كريت الذين بقوا بالجزيرة ولم يهجروها وعاش الطرفان مع بعض خاصة مع تهجير البندقية لحوالي 300 أسرة بندقية في كريت اختلطوا بالسكان الأصليين وتعلموا منهم واستفادوا من خبراتهم في صناعة السفن وأمور التجارة أصبحت البندقية [2]كما قالت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكةSigrid Hinke "من أن تجارة البندقية لرابحة دفعت

---

[1] بالمناسبة بقيت الجزيرة في يد البيزنطيين حتى منحها الإمبراطور ألكسي 4(1204-1204) Alexis 4، جزيرة كريت لبونيفاس دي مونتيفيراتboniface d montferrat والذي باعها بدوره للبنادقة يوم 12 أوت 1204 ولكن الجزيرة قبل احتلها سعى الجنويين الاحتفاظ بها ولكن محاولتهم فشلت وخضعت الجزيرة للبنادقة وواصل الكريتيون ثوراتهم ولكن أخمدها البنادقة وهجّر البنادقة حوالي 310 عائلة بندقية الى كريت Alvize Zorzi ;ocit p74 والذين أساؤوا معاملة أهلها حتى جاء الفتح العثماني عهد السلطان العثماني محمد الرابع(1648-1687) عام 1669 وبقيت إسلامية حتى احتلها اليونان عام 1898م

[2] -Alvize Zorzi, opcit ,p74

معها تجارة الشرق الايطالية خطوات الى الأمام وكما دفعت تجارة فرنسا وألمانيا وهولندا ولولا نشاط البندقية التجاري مع العرب لما ازدهرت أصلا تجارة هؤلاء "[1] .

وبناء على ماسبق، وجب أن نؤكد على أن الكريتيين لم يكونوا الوحيدين الذين استفاد منهم البنادقة في صناعة السفن وأمور التجارة ولكن كان هناك نوع من التأثر وإن كان قليل دون مبالغة في عظم التأثير الكريتي على البنادقة، الذين كانت لهم علاقات مع البيزنطيين الذين هم بدورهم متفوقين على الغرب الأوروبي في تلك الفترة بسبب احتكاكهم بالعرب في تخوم الشام والأناضول نتيجة حروبها المتواصلة مع المسلمين .

على خلاف ذلك كان تأثير جزيرة صقلية كبيرا على نهضة أوروبا ،حيث انتقل التأثير العربي الإسلامي الى أوروبا بعدما امتزج في صقلية على أيدي ملوك النورمان في كامل المجالات ومن مظاهر هذا التأثير:

أ-الطب: ساهم أطباء بلرمة في نمو مدرسة الطب في سالرنو Salerno ترجمة مؤلفات العرب في الطب ومن أشهر المترجمين قسطنطين الإفريقي (ولد بقرطاجة 1015م – مونتي كاسينو 1087) ، يذكر بأنه أسس مدرسة سالرنو وترجم عدة كتب الى اللاتينية منها زاد المسافر لابن الجزار ناقلا طريقة ابن الجزار في الطب الى أوروبا كما ترجم كتبا للرازي ولإسحاق بن سليمان الإسرائيلي و تبحر بعدها قسطنطين في الطب مؤلفا حوالي 32 كتاب طبعت بعد اختراع الطباعة بعد ذلك مابين 1536-1539م[2] .

ب-**الرياضيات**: نقل الأرقام العربية الى أوروبا ليوناردو فيبوناتشي Leonardo fibonaccio كان في بلاط فريدريك الثاني الذي كان التأثير العربي في مملكته أقوى من التأثير اليوناني وذلك نتيجة لعلاقة هذا الملك علماء الشام ومصر وكثرت الترجمة وكما اشتهر جيوفاني البلرمي في هذا المجال[3] .

ج-**تأثير اللغة العربية**: انتقال المفردات العربية إلى اللغة الايطالية والأوروبية مثل : أمير في اللغة الايطالية Ammiragli و Admiral في اللغة الانجليزية والكلمة العربية مخزن Magazzino في اللغة الايطالية و Magazine في الانجليزية[4].

---

[1]-زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، تر، فاروق بيضون،كمال دسوقي،ط8، دار الجيل، بيروت،1993 ص40

[2]-احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 235-236

[3]- أحمد عزيز، المرجع السابق، ص 103

[4]-أحمد عزيز، المرجع السابق، ص106-107

د-**العمران:** امتد التأثير الإسلامي إلى بناء القصور وزخرفة الكنائس ونقل عنهم النورمان طريقة تشييد المباني وسط البساتين ذات القنوات المليئة بمختلف الأسماك كقصري العزيزة والقبة[1] بالإضافة الى اقتباسهم المعمار في شمال افريقيا الأعمدة المزخرفة ذات الأطواق البارزة في أعلاها ويوجد عمودان عن هذا القبيل في كنيسة لامرتورانا وعمودان آخران في متحف بلرم [2] .

أما بخصوص آثار المسلمين في الجزيرتين فجزيرة كريت بعدما أصبحت بيزنطية عام 961م دمروا تراث المسلمين وآثارهم الحضارية وعادت كأن المسلمون لم يمتلكوها ونقل آخر حكامها ابوشعيب عبد العزيز إلى القسطنطينية ومات هناك وفرض على المسلمين الباقين فيها التنصير بعدما أرسل المبشرون الى الجزيرة وهجرها الكثير من أهلها الى السواحل الإسلامية مصر وبلاد المغرب الإسلامي [3].

ولعله من المفيد أن نؤكد ، أنه مازال في صقلية البعض من آثار المسلمين هناك وذلك راجع لعدم طمس النورمان لحضارة المسلمين هناك مثلما فعل البيزنطيين في جزيرة كريت، بل حافظوا عليه وتعايشوا مع المسلمين هناك ومن آثار المسلمين الباقية في صقلية حتى الآن قصر العزيز ، قصر القبة[4].

وعليه، انتقلت حضارة المسلمين من صقلية إلى ايطاليا فأوروبا بفضل اهتمام ملوك النورمان الذين اهتموا بذلك وكانت صقلية المنفذ الثاني المؤثر على نهضة أوروبا بعد منفذ الأندلس ذات التأثير العظيم مقارنة بجزيرة كريت التي كان تأثيرها ضعيفا في ذلك .

---

[1]-أحمد عزيز، المرجع السابق، ص 115

[2]- العيد بكري، مفتاح خلفات: الصلات الحضارية بين صقلية النورماندية وبلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 5-6هـ/11-12م، مجلة التمكين الاجتماعي،مج1،ع3،سبتمبر 2021، ص 14

[3]- منى بنت حسين بن علي آل سهلان القحطاني، الهجرة العربية الأندلسية الى جزيرة افريطش (كريت) ص88-90

[4]-أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 223

خاتمة:

من خلال دراستنا ل"موضوع جزر البحر الأبيض المتوسط والصراع بين الشرق والغرب جزيرتي صقلية وكريت –أنموذجا" يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية:

1-يتوسط البحر الأبيض المتوسط قارات العالم القديم(آسيا- أوروبا- إفريقيا) وكان محطة تنافس كبيرة بين القوى المسيحية فيما بينها أو الإسلامية فيما بينها أو المسيحية الإسلامية

2-مع ظهور الإسلام في القرن السابع ميلادي دخل المسلمين كمنافس جديد للدولة البيزنطية الدولة المسيحية الكبيرة حتى هذه الفترة على أغلب المناطق المطلة على البحر المتوسط .

3-في إطار حماية المسلمين للمناطق التي فتحوها اضطروا إلى احتلال أهم الجزر التي تتخذها الدولة البيزنطية كمراكز ارتكاز وفي هذا الصدد جاء فتحهم لجزيرتي كريت شرق المتوسط وصقلية وسط المتوسط عام 212م/827م .

4- سعى البيزنطيون منذ فقدانهم لجزيرتي كريت وصقلية استرجاعهما بإرسال حملات لتحقيق ذلك، إلاّ إنهم فشلوا في البداية .

5- استطاعت الدولة البيزنطية استرجاع جزيرة كريت القريبة من حدودها عام 961م مدمرة كل الآثار الإسلامية هناك واجبروا المسلمين على اعتناق المسيحية لذلك فهاجرها أكثر الى أهلها وفي سنة 1204 أصبحت كريت تحت سيطرة البنادقة والذين هجروا حوالي 300اسرة بندقية اليها .

6-لم يستطع البيزنطيون استرجاع جزيرة صقلية بسبب ظهور منافس جديد لهم وهم النورمان الذين استغلوا الصراعات الأسرية داخل الأسرة الكلبية وأصبحوا يتدخلون في شؤون الجزيرة حتى احتلوها عام 1091م.

7-على غرار ما فعله البيزنطيون في جزيرة كريت من تدمير لأي أثر إسلامي، لم يفعل النورمان نفس الشيء بل تعايشوا مع المسلمين محافظين بذلك على التراث الإسلامي هناك .

8- استفاد النورمان من علوم المسلمين في صقلية الذي انتقل الى ايطاليا فأوروبا واعتبرت صقلية المنفذ الثاني الذي أثر في نهضة أوروبا بعد الأندلس .

9-تعددت مجالات تأثير الحضارة الإسلامية على نهضة أوروبا ، كاستخدام الأرقام العربية في مجال الرياضيات وترجمة كتب العرب في الطب من طرف قسطنطين

الإفريقي مؤسس جامعة سالرنو،وكما تأثروا بطريقة بناء العرب في بناء كنائسهم وقصورهم .

10- كان تأثير جزيرة صقلية في نهضة كبيرا مقارنة بجزيرة كريت والتي سقطت مبكرا في يد البيزنطيين ولم يمكث فيها المسلمون فيها مدة طويلة 134 سنة وذلك راجع إلى الى طول فترة ببقاء المسلمين في صقلية(264سنة) بالإضافة الى إبقاء خلفاء المسلمين (النورمان) في صقلية بما تركه المسلمين هناك في صقلية ، عكس ما فعله البيزنطيين من محوهم لأي أثر إسلامي بمجرد استيلائهم على كريت.

الفتح العثماني لجزيرة رودس " الأبعاد الدينية والسياسية"

د. كريبي خالد

University Center of Barika Algeria

khaled.kribi@cu-barika.dz

مقدمة:

كان الفتح العثماني لجزيرة رودس من أهم الفتوح في العصر الحديث ، حيث كان فرسان القديس يوحنا يتمركزون في هذه الجزيرة التي تعد أهم نقطة في حوض البحر الأبيض المتوسط تواجه الدولة العثمانية و تزعجها بتعدياتها المتكررة على الأساطيل العثمانية التجارية أو تلك التي تحمل الحجيج فسببت رعبا للتجار و الحجاج على حد السواء . كما أصبحت مصدر تهديد للطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها في البحر المتوسط والأحمر.

1-جغرافية الجزيرة وتاريخها قبل الفتح العثماني:

رودس جزيرة من أشهر جزائر بحر ايجة في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ،وهي من جزائر القسم الشرقي المعروفة بالأسبوراد، وهي مستطيلة الشكل كالسفينة، كما ترى في الخريطة، وطولها 77 كيلومترًا، ويختلف عرضها باختلاف شكلها، معظمه بين رأس "لاردوس" ورأس "مونوليتوس" ويبلغ نحو 37 كيلومترًا، ومساحتها 1404 كلم2[1] ،قال ياقوت الحموي :"هي جزيرة مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر، وهي أوّل بلاد أفرنجة، وهي دار صناعة الروم وبها تبنى المراكب البحرية، وفيها خلق من الروم، ومراكبهم تقارب بلاد الإسكندرية، وغيرها من بلاد مصر"[2]، امتازت رودس بموقعها الاستراتيجي في بحر ايجة، إذ تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، و لا تبعد عنه سوى 18كلم، وهي أبعد جزر بحر إيجة عن اليونان باتجاه الجنوب، وتقع في منتصف المسافة بينها وبين قبرص.طبيعتها صخرية وتحوي أودية خصبة تجري فيها المياه، وغابات طبيعية واسعة، وعيون جارية عذبة[3].

1-حبيب غزالة :**جزيرة رودس** ،مؤسسة هنداوي للنشر ، المملكة المتحدة 2017، ص 11

[2]- ياقوت الحموي : **معجم البلدان**،دار صادر ،بيروت1977،ج03،ص78

[3]- حبيب غزالة : **المرجع نفسه** ،ص11

تعتبر قلعة رودس من أمنع الحصون فالذي بناها زودها بسور بناه تحت الأرض وعمل لها خندقا عريضا عميقا وشحنها بالمدافع وجعل للبلاد سورين في عرض السبعة أذرع، ولها من جانب البحر ميناء عظيم دائري كالحوض وباب مخصوص عليه سلسلة من حديد، فبنى بها الكفار حصنا حصينا وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع الجوانب ثقوبا فيها مدافع من الحجم الكبير، وأصبحت تشكل أخطر ثغور المسيحيين في البحر الأبيض المتوسط

استولى المسلمون على جزيرة رودس خلال حملات عديدة أثناء القرن الأول الهجري واتخذوهما قاعدة هامَّة وجَّهوا منها الحملات على أملاك الدولة البيزنطية، واكتسبت رودس أهميتها من قربها الشديد لسواحل البيزنطيين، وقد أقام فيها معاوية بن أبي سفيان حامية ثابتة، ونظرًا لقرب هذه الجزيرة من أراضي البيزنطيين زوَّدها معاوية بأسطول مقيم على اتصال بالأساطيل الإسلامية الأخرى بهدف شل حركات أساطيل العدو[1].

ويورد "ابن كثير" في أحداث سنة 53 هـ /673 م توجه حملة بقيادة جنادة بن أبي أمية الأزدي في زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى "رودس" و"أرواد" ثم "كريت"، لفتح تلك الجزر واتخاذها مقَرَّ إقامة حامية عسكرية، حيث أقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر، ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدرُّ عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة، وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون في حصن عظيم عندهم فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطير على البحر ينذرونهم إن قدم عدو أو كادهم أحد، وما زالوا كذلك حتى كانت إمارة يزيد بن معاوية بعد أبيه، فأقفلهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة..."[2].

وفي العصر الأموي تبيَّن لولاة العرب في إفريقية أهمية إنشاء دار صناعة لإنشاء السفن في إحدى مدن الساحل لتزويد الجيش البري بأسطول مستقل عن أسطول مصر ينفرد بحركاته في البحر لغزو "صقلية" و"رودس" وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التي كانت تُشكِّل خطرًا ماثلًا أمام السواحل التونسية، ويقوم بحماية هذه السواحل

[1]-محمد ياسين الحموي: **تاريخ الاسطول العربي** ، فؤاد هاشم الكتبي، دمشق 1945، ص120

[2]-ابن كثير : **البداية و النهاية**،دار هجر للطباعة و النشر ، مصر 1997،ج11،ص259

والدفاع عنها من غارات البيزنطيين، حيث تحولت "تونس" إلى قاعدة بحرية هامَّة، وأعظم ثغور إفريقية، لمهاجمة الجزر البيزنطية وفي مقدمتها "صقلية" و"رودس" و"سردينيا"[1].

أما في عهد الدولة العباسية حاول الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ-787-809 /م) فتح جزيرة رودس من جديد لكنها بقيت تابعة لبيزنطة ، و اكتفى بتحصين الثغور.

بعد أن طرد المسلمون الصليبيين من بلاد الشام إلى غير رجعة سنة 691هـ/1288م انتقلت فلول الحركة الصليبية إلى ثلاثة مراكز في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، الأول في دولة أرمينية في قليقية بالأناضول، والثاني في جزيرة قبرص حيث آل لوزينان الذين ظلوا يحكمون الجزيرة منذ سنة 586هـ /1183م حتى فتحها المماليك سنة 829هـ/1426م، والثالث في جزيرة رودس حيث دولة الفرسان الاستبارية أو فرسان القديس يوحنا.و استوطن هؤلاء الفرسان الجزيرة

وحكموها من عام 1310 إلى عام 1522م... وظلت رودس خاضعة لهم،و بلغت في عهدهم ذروة مجدها و قوتها.ومن الطبيعي أن يحمل هؤلاء الفرسان الكراهية للإسلام و المسلمين لأنهم ترعرعوا في أحضان الحركة الصليبية.

وفي عهد المماليك جعل السلطان سيف الدين جقمق[2] قضية فتح رودس في الدرجة الأولى لاهتماماته، فوجه أولى حملاته الى الجزيرة سنة 843هـ/1440م من خمسة عشر سفينة عسكرية، وقد كشفت تلك الحملة عن الاستعدادات القوية والدفاعات الحصينة لفرسان الاستبارية،حيث انتهت بفشل المسلمين في اقتحام الجزيرة[3].

---

[1]- السيد عبد العزيز سالم ،أحمد مختار العبادي:**تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس**،دار النهضة العربية ،بيروت1969، ص ص29-30

[2]- الملك الظاهر سيف الدين ابو سعيد جقمق ،هو الرابع و الثلاثون من ملوك مصر الاتراك ،العاشر من المماليك الجراكسة ،تولى الحكم سنة 842هـ/1438م واستمر في الحكم حتى توفي سنة 857هـ/1453م.محمد فتح الله الغياث:**التاريخ الغياثي** ،الفصل الخامس ،دراسة و تحقيق طارق نافع الحمداني ، مطبعة أسعد ،بغداد1975،ص 357

[3]- مفيد الزيدي : **موسوعة التاريخ الاسلامي "العصر المملوكي"**، دار أسامة للنشر و التوزيع،الاردن 2009،ض166

وبعد ثلاث سنوات أي في سنة 846هـ/1443م أرسل الظاهر سيف الدين حملة ثانية وكانت أكبر من الأولى يقودها الأمير أينال العلائي الذي صار سلطانًا فيما بعد، وأبحرت من دمياط واتجهت إلى بيروت وطرابلس حيث انضمت لها قوات شامية ثم توجهت إلى قبرص لأخذ التمويل اللازم، ثم تحركت الحملة الى ساحل آسيا الصغرى باتجاه جزيرة رودس، ولكن حدث أن جزيرة صغيرة بساحل آسيا الصغرى تسمى (الحصن الأحمر) وكانت تابعة لفرسان الاستبارية، فأطلقت مدافعها نحو الحملة الإسلامية، فأثار هذا العمل الطائش غضب المسلمين فاتجهوا نحوها وحطموها بالكلية مما أثر على ذخيرة الحملة الإسلامية، واقترب فصل الشتاء، فعادت الحملة دون أن تحقق هدفها[1]..

لم ييأس سيف الدين جقمق من فشل الحملتين السابقتين فأرسل الثالثة وأنفق عليها أموالاً طائلة، وعين لها قائدين، واحدًا للقوات البرية، وهو أينال العلائي، والآخر للقوات البحرية وهو تمرباي، وسارت الحملة لهدفها مباشرة، وتمكن المسلمون بعد قتال عنيف من النزول على بر الجزيرة وحاصروا عاصمتها، دخلوا في حرب عصابات حامية طيلة أربعين يومًا، في تلك الأثناء انتفضت أوروبا كلها ووقفت خلف فرسان الاستبارية وأرسلت إمدادات كثيرة إلى رودس، وصمدت العاصمة بفضل ذلك أمام الهجوم الإسلامي الشديد، وأخذت مؤن المسلمين ،وذخيرتهم تقل وتنفد بسرعة، واضطروا في النهاية لرفع الحصار والعودة إلى مصر[2].

ولم يعد المماليك بعدها لمحاولة فتح رودس بسبب الاضطرابات الداخلية المتكررة والصراع على كرسي الحكم، وأيضًا بسبب ظهور قوى بحرية جديدة كان لها قدم السبق في السيطرة في البحر المتوسط شمالاً وهم الأتراك العثمانيون.

---

[1]-ابو المحاسن بن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة** ،دار الكتب العلمية ،بيروت1992، ج15، ص110

[2]- مفيد الزيدي :**المرجع السابق** ،ص 167

الفتح العثماني لجزيرة رودس:

لقد حاول السلاطين العثمانيين منذ عهد الفاتح فتح هذه الجزيرة ، لكن مناعتها الطبيعية وحصونها القوية حالت دون ذلك ، فضلا عن الخبرة الحربية والبحرية الكبيرة التي تمتع بها المدافعون عنها

نتيجة لتعاظم دور "فرسان رودس" واشتراكهم في كثير من الحروب الصليبية، وتهديدهم مدن الساحل التركي في عهد العثمانيين، صمم السلطان محمد الفاتح على فتح الجزيرة لتامين التجارة الإسلامية وضمان وصول الحجاج إلى الأراضي المقدسة، فجهز أسطولا من 160 سفينة إلى جانب جيش من 70.000 رجل تحت قيادة مسيح باشا، وكان الهدف الاستراتيجي الأول للعثمانيين هو الاستيلاء على قلعة القديس نيقولا الذي كان النقطة الرئيسية للفرسان في الدفاع عن الجزيرة، وواصلت المدفعية العثمانية قصفها المتواصل ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على أهم قلاعها لكن دون نتيجة.و في يوم 28جويلية 1480م أمر القائد العام بالهجوم على القلعة و دخولها من الفتحة التي فتحتها المدافع في أسوارها فهجمت عليها الجيوش وقاومها الفرسان بكل بسالة و إقدام . وبعد أخذ ورد تقهقر العثمانيون بعد أن قتل وجرح منهم كثيرون ورفع الباقي عنها الحصار[1]، وتخلى الأسطول العثماني عن محاولته الاستيلاء على رودس في 17 أوت 1480م. وكان السلطان محمد الفاتح سيهاجم الجزيرة مرة أخرى، لولا وفاته في ربيع 1481م بالأناضول.

أما في عهد بايزيد ونتيجة لخلافه مع أخيه الأمير جم على الحكم، اتصل جم برئيس فرسان القديس يوحنا في رودس عام 1482م و لجأ إليهم لكنهم لم يكرموا وفادته والقوه في السجن، فاكتسبوا بهذه الرهينة امتيازات وتوصل رئيس الفرسان مع السلطان بايزيد إلى اتفاق يقضي بقاء الأمير العثماني في السجن وقتله فيما بعد حيث دس السم لجم مقابل تعهده بعدم التعرض للجزيرة، و هو ما كان سببا في إعاقة حركة التوسع الإقليمي وزيادة خطر فرسان الجزيرة[2] .

---

[1]-محمد فريد بك : **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، دار النفائس ،بيروت1981 ،ص176

[2]-اسماعيل احمد ياغي : **الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث**،مكتبة العبيكان، السعودية 1998،ص51

عرض قادة الجند والوزراء على خليفته السلطان سليم الأول فتح جزيرة رودس معقل فرسان الإسبتارية، كون هؤلاء كانوا دائمي الإغارة على سفن المُسلمين التجارية، ويقطعون الطريق البحرية بين إستانبول ومصر. فأذن لهم السُلطان في بناء السفن وإعداد العدة اللازمة لِحصار قلاع الجزيرة غير أن القدر لم يسعفه في ذلك وتوفي سنة 926هـ / 1520م.

فتح سليمان القانوني للجزيرة:

أدرك "سليمان القانوني" أن القضاء على فرسان القديس يوحنا في رودس أمر لا يقبل التأجيل أو التهاون وضرورة فتح جزيرة رودس تعزيزًا لقوته البحرية، وتسهيلًا للمواصلات بين مصر والآستانة، والسفر إلى الحرمين الشريفين، وكان يقول: إنه ليس للدولة العثمانية طريق إلى الغرب غير بلغراد ورودس، فبعد فتح "بلغراد" أخذ يتأهب لفتح جزيرة رودس، فاهتم السلطان سليمان بفتحها وأعد حملة عظيمة ساعد على تحقيقها عدة أمور:

انشغال أوروبا بالحرب الكبرى بين شارل الخامس ملك اسبانيا وفرانسوا الأول ملك فرنسا.

الصراع القائم بين البابوية و المصلح الديني الألماني مارتن لوثر مؤسس مذهب البروتستانية.

عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية.

التطور والنمو الذي شهدته البحرية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول[1].

كل هذه الظروف كانت مجتمعة لتوفر الجو الملائم وتمنح الفرصة السانحة للعثمانيين للتحرك، فأعلن السلطان سليمان القانوني الحرب بحيث قادها بنفسه وكان ذلك في منتصف سنة

1522م بعدما عرض على رئيس الرهبنة في الجزيرة إخلاء المنطقة والانسحاب دون أن تتعرض له القوات العثمانية لأنفسهم وأموالهم غير أن هذا الأخير رفض و أصر على المواجهة .

---

[1]- بن علي زكريا:**الدولة العثمانية و دول البحر الابيض المتوسط في عهد بايزيد الثاني و سليمان القانوني** ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية العلوم الإنسانية ، جامعة سيدي بلعباس 2015، ص 133.

وقامت القوات البحرية بالتحرك و المكونة من أسطول من 300 بارجة كبيرة و400 سفينة لنقل الذخائر و10000 جندي بحري بقيادة الوزير الكبير "مصطفى باشا" الذي عيّن سر عسكر" لهذه الحملة[1]، بينما قاد السلطان بنفسه الجيش البري إلى خليج مرمرة المقابل للجزيرة من جهة آسيا الصغرى فوصلت الجيوش البحرية يوم 26 جوان 1255 م أما السلطان فقد وصل يوم28 من الشهر المذكور.

وبمجرد وصوله ابتدأ الحصار برا وبحرا ، وفي 29 جوان 1522م أعطى السلطان الأمر بضرب المدينة، وقصفها بالمدفعية وبعد حصار دام نحو خمسة أشهر،لم تجد محاولات الدفاع نفعاً أمام قوة مدافع العثمانيين اضطر رئيس الرهبنة فيله دي ليل أدام[2] إرسال اثنين من رهبانه إلى السلطان يوم 51 سبتمبر م1255 طالباً منه توفير الأمان لإخلاء الجزيرة في مدة قدرها باثني عشر يوم، تاركين خلفهم خمسين من الرهائن نصفهم من الفرسان والنصف الآخر من سكان أهل الجزيرة لضمان و تحقيق الانسحاب على أن لا يقترب الجيش العثماني من القلعة أكثر من ميل لضمان سلامة المنسحبين فوافق السلطان سليمان القانوني على شروط قراصنة رودس ووقع معهم معاهدة في ديسمبر 1522م[3].

بعد توقيع المعاهدة قابل السلطان سليمان الأول رئيس فرسان القديس يوحنا فيليب دي ليل آدم الذي شكر السلطان على سماحته في قبول خروج الفرسان، وقبل يده احتراما، وأهدى اليه أربعة أواني نفيسة من الذهب، وفي 01 جانفي1523م غادر الفرسان الجزيرة متجهين الى جزيرة مالطا، وتنقل السلطان الى الجزيرة في موكب مهيب الى كنيسة القديس يوحنا، وصلى الجمعة فيها وهذا بحضور الوزراء ورؤساء الجيش، والعلماء وأمر بتحويل الكنيسة الى جامع للمسلمين[4]، وبهذا تمكن السلطان سليمان الأول من طرد الفرسان نهائيا من جزيرة رودس في سنة 929هـ /1523م

---

[1]- حبيب غزالة : **المرجع السابق**، ص 27

[2]- فيلير دي ليل آدم: راهب مسيحي فرنسي الاصل ولد عام 1464م وتوفي عام 1543م قائد فرسان القديس يوحنا في رودس..... محمد فريد بك: **المرجع السابق** ص70

[3]ذياني خلف بن دبلان بن خضر **:الفتح العثماني لجزيرة رودس 929هـ - 1522م**، مكتبة ملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، السعودية،

1997،ص ص102-103.

[4]- حبيب غزالة : **المرجع نفسه**، ص 31

وفي أعقاب الفتح العثماني لرودس في نهاية 1522 م، عين السلطان العثماني سليمان القانوني القائد كوردوغلو مصلح الدين محافظًا لجزيرة رودس، وكان من جيل البحارة العثمانيين العظام في القرن السادس عشر الميلادي دلالةً على أهمية الجزيرة استراتيجيًّا، وخوفًا من عودة فرسان القديس يوحنا ثانية لاحتلال الجزيرة.

الأبعاد السياسية والحضارية للفتح العثماني لجزيرة رودس:

السياسية:

بسقوط جزيرة رودس يكون العثمانيون قد حققوا انتصارا أوليا يؤمن حدود الدولة من جهة شرق البحر الأبيض المتوسط من عدو تقليدي و يمهد إلى تفرغ السلاطين لتنفيذ خطة التوسع إلى نقاط متقدمة وسط و غرب البحر المتوسط ، و ضم إلى حوزتها أهم الممرات البحرية في المتوسط.

سبب سقوط جزيرة رودس بيد العثمانيين غصة وأذى كبير لحق بالأوربيين المسيحيين جراء فقدانهم هذه الجزيرة ذات الأهمية البالغة في المواصلات والتي ظلت لأكثر من قرنين من الزمن تحت يد القراصنة المسيحيين اثروا من خلالها على قدر من تجارة البحر الأبيض المتوسط.

يعتبر انتصار الدولة العثمانية في رودس تأسيسا ودعماً لقوتها البحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ سنة 1523م لحماية الملاحة البحرية الإسلامية عبر البحر الأبيض المتوسط والتي أصبحت مؤكدة سواء في السفن التي تنقل الأشخاص والبضائع من استانبول الى مصر و الشام والحجاز والعكس .

لم يكن حصار جزيرة رودس آخر الجولات المباشرة بين العثمانيين وفرسان القديس يوحنا في عهد سليمان العظيم، فقد نجح القائد التركي تورغوت باشا في طردهم عام 1551م من مدينة طرابلس الليبية بعد 40 عامًا من الاحتلال، كما سيشن العثمانيون هجومًا كبيرًا على مالطا عام 1565م، لكن المدافعين سينجحون هذه المرة في الانتصار.

الدينية:

تحولت جزيرة رودس بعد فتحها على يد العثمانيين من دار حرب إلى دار سلام ،وأصبحت جزءا من ممتلكات الخلافة العثمانية الإسلامية.

شكل فتح رودس من قبل العثمانيين وقع أليم لدى البابوية ولدى ملوك أوربا الغربية المسيحيين، لذلك توالت عقد المؤتمرات في مدينة روما للبحث والاتفاق عن كيفية مواجهة المد العثماني في أوربا والتصدي له.

تخليص أسرى المسلمين الذين بلغ عددهم ستة ألاف أسير، فقد كانوا هدفا لقرصنة فرسان الجزيرة من قبل أثناء تنقلاتهم حيث سلبوهم أموالهم و أمتعتهم.

شرع العثمانيون بعد فتح الجزيرة في نشر الإسلام وتدعيمه ببناء المساجد والمدارس لحفظ القرآن الكريم، ونصب فيها القضاة لإقامة العدل والمساواة ، كما تمتع الذميين بمعاملة تحفظ كامل حقوقهم.

كان للسياسة الحكيمة المتصفة بالتسامح للسلطان العثماني سليمان القانوني أثرا كبيرا في اعتناق جزء من سكان الجزيرة للإسلام و جعلته ينتشر بسرعة، وهذا لما اتصف به الإسلام من عدل ومساواة، وهو أمر لم يعهده سكان تلك الجزيرة إلا في عهد الدولة العثمانية.

تحمل المواقف الأوربية (الصليبية)الفردية منها و الجماعية أنها كانت تستهدف القضاء على الدين الإسلامي المتمثل في شخص الدولة العثمانية. حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن البابا ادريانوس لما علم بحملة السلطان سليمان القانوني ضد سيف المسيحية وأبناءه الإبطال كما يسميهم، أخذ يصلى من اجل نصرهم ودحر خطر المسلمين عنهم، وخلال أعياد الميلاد التي صادفت الحصار كان البابا يقيم الصلاة والدعاء في كنيسة سان بترو في روما.

الخاتمة:

كانت سيطرة العثمانيين على جزيرة رودس ضربة موجعة للأسطول البحري الأوربي ونهاية لأخر إمارة صليبية بشرق المتوسط أو مفتاح شرق المتوسط كما كانت تعرف وإيذانا ببداية سيطرة كاملة للعثمانيين على البحر الأبيض المتوسط ونشر الأمان للتجار والموانئ الإسلامية. بل وأصبحت مركز العالم واقوي دولة في عهد سليمان القانوني حيث وصلت الإمبراطورية في عهده إلى أوج اتساعها و قوتها برا و بحرا.

المحاولات العسكرية الروسية للوصول الى البحر المتوسط خلال القرن التاسع عشر

د. حسين عبد الحسين عباس الزهيري
كلية الامام الكاظم/ جمهورية العراق
ramym2741@gmail.com

مقدمة:

يُعد البحر المتوسط من المناطق التي شهدت تنافساً دولياً كبيراً للسيطرة عليه، إبان القرن التاسع عشر، إذ شكل محورا مهما في السياسية الدولية، فالسيطرة عليه يسهم في زيادة النفوذ على العالم، لا سيما وأنه قد اتسم بصفته بحيرة داخلية للدولة العثمانية، ومغلق بوجه جميع البلدان، لذا فإن الدول الاستعمارية اتجهت إليه لتقويض النفوذ العثماني، ومن بين تلك البلدان هي روسيا التي سعت بكل جهدها للقضاء على الدولة العثمانية، عن طريق وصول سفنها إلى البحر المتوسط وإقامة قاعدة عسكرية فيه، مما يؤدي إلى تحقيق طموحاتها الاستعمارية أولا، والتخلص من العزلة الأوربية لها ثانيا، وتقليص حدود الدولة العثمانية ثالثا، كل ذلك جعل للبحر المتوسط تكالب الدول عليه، مما أوجد تواجدا عثمانيا واضحا فيه في محاولة منها لصد التواجد الاستعماري والحد من خطورة التواجد الدولي فيه لاسيما الأطماع الروسية، فشكلت العقبة الأولى في مد نفوذها تجاه البحار العالمية، وهو ما استدعى التجاء العثمانيين إلى الدول الأوربية لصد الأطماع الروسية، فبدلا من تواجد دولة واحدة مثل روسيا أسهمت الدولة العثمانية في تواجد دول أخرى في البحر المتوسط.

تم تقسيم هذا البحث إلى محاورين لتوجيه الكتابة بشكل أيسر، إذ جاء المحور الأول موسوماً بـ (الطموح الروسي للوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط)، وأما المحور الثاني معنون بـ(معوقات وصول روسيا للبحر المتوسط والقضاء عليها عسكريا (حرب القرم1853-1856)، وكان المحور الثالث (المحاولات الروسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى1876-1917).

ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن الباحث اتبع المنهج التاريخي التحليلي، والتسلسل الكرونولوجي في كتابة البحث.

الطموح الروسي للوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط

سعت روسيا منذ تكوينها إلى توسيع نفوذها وتواجدها الاستعماري في العالم، للتخلص من الضغوطات الأوربية من جهة، والتخلص من قسوة الطبيعة من جهة أخرى، إذ إن معظم المياه الروسية متجمدة ومتوقفة عن العمل أغلب أيام السنة [1]،كما هو الحال في بحر البلطيق، المنفذ البحري الوحيد نحو أوربا، كونه يتجمد في أغلب أيام السنة، الأمر الذي انعكس على التوجهات الروسية التي أعلن عنها بطرس الأكبر، وبقيت ترافق معظم الأباطرة الروس، وكان من بين تلك التوجهات هو الوصول إلى المياه الدافئة وبناء قواعد عسكرية تمكن روسيا من فرض هيمنتها على العالم من خلالها، لا سيما في البحر المتوسط[2]، أن الذي يدرس الخريطة التي تحدد ملامح جغرافية روسيا، سوف يكتشف أنها دولة قارية كبرى تشغل مساحة في شرق أوروبا، وتمتد في شمال آسيا، لتصل إلى حدود القوى الكبرى في تلك القارة الضخمة وهي تعاني تَارِيخِيًّا وَجُغْرَافِيًّا من البحار المغلقة أو المياه المتجمدة لذلك فهي تسعى دائمًا نحو البحار المفتوحة وتتجه أحيانًا إلى الجنوب الشرقي ولكن دائمًا إلى الجنوب الغربي لعلها تصل إلى الشواطئ التي تسمح لها من النواحي الاستراتيجية أن تنتصر على الوضع الجيوبوليتيكي الذي فرضته الطبيعة عليها[3]. ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن روسيا قد واجهت مجموعة من المعوقات التي لم تسمح لها بالتوسع نحو البحر الأبيض المتوسط، ومنها وقوعه تحت سيطرة الدولة العثمانية، اذ يعد من ممتلكاتها.

---

[1] حنا عزو بهنان، العلاقات التركية – السوفيتية1925-1935، مجلة دراسات إقليمية، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة الموصل، مج 4، العدد8، 2007، ص9.

[2] للمزيد من التفاصيل عن الرغبة الروسية ينظر:-هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية المرحلة الاولى1774-1856، بغداد، 1990.

(3)مصطفى الفقي، "الدب" والمياه الدافئة، الثلاثاء 6 كانون الاول2022، www.alarabya.net .

معوقات وصول روسيا للبحر المتوسط والقضاء عليها عسكرياً في القرن التاسع عشر

ثورات البلقان واليونان عام1806-1821:

قامت روسيا في بداية القرن التاسع عشر بدعم الثورات والحركات الانفصالية أو المواجهة للدولة العثمانية بحجة دعم العناصر السلافية في الدولة العثمانية، ومن بين تلك الثورات والحركات الانفصالية هي الثورات البلقانية في الجبل الأسود، وصربيا، واليونان، وبقية المناطق الأخرى التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، أو القريبة منه، فوجهت روسيا إمكاناتها الدبلوماسية والعسكرية في التدخل بالثورة الصربية التي اندلعت في عام1806، إذ وقفت روسيا إلى جانب الصربيين، ونقلت إليهم الأسلحة والجنود للمقاتلة إلى جانبهم، واستمر ذلك الدعم إلى نهاية الثورة الصربية وحصول الاستقلال الذاتي عام1817[1].

بدأت الثورة في اليونان، في مطلع نيسان 1821 في سبع جزيرة المورة وفي غضون أشهر قليلة سيطر المسلحون اليونانيون عل كل منطقة الريف من (تيسالي) الواقعة شرق وسط اليونان، إلى (المورة) [2]، وحاصر المسلحون الجيش العثماني في الحصون والقرى .ووقعت عدة مذابح منها واقعة (نفارينو وتريبوليتاس) وأصبحت جزيرة هيدرا قاعدة لشن الهجمات ضد السفن العثمانية، إلا أن العثمانيين تمكنوا في النهاية من قمع الثورة اليونانية . ومن الجدير بالذكر إن الاسباب المباشرة التي أدت إلى قيام هذه الثورة هو الظلم السياسي وحالة الذل الذين طبعا الواقع المسيحي هناك في ظل السيطرة العثمانية تنامي الشعور القومي الجماعي لدى اليونانيين للتحرر من سلطة العثمانيين، فادى ذلك الى تدخل روسي واسع في الدولة العثمانية، فحصل صراع خطير بين روسيا والنمسا. نشطت فيه القناصل والمندوبين الروس في الدولة العثمانية إذ

---

[1] احمد صالح علي محمد، الحروب العثمانية الروسية منذ بداية القرن19 حتى نهاية الحرب العالمية الأولى(1806-1918م)، مجلة كلية التربية للعلوم التربوية الإنسانية، جامعة بابل، العدد42، 2019، ص471-472.

(2) للمزيد من التفاصيل ينظر:- حسين لبيب: تاريخ المسألة الشرقية، مطبعة الهلال، القاهرة، 1921، ص64-65.

اعتقد هؤلاء المندوبين قد تورطوا في مؤامرات الجمعية السرية اليونانية (هيتريا فيليكية) [1].

كانت هناك عوامل عديدة دفعت روسيا إلى التدخل في قضية اليونان في مقدمتها:

التنافس الاستعماري التوسعي بين الدول الاوربية.

العامل الديني، فقد اعتبرت الدول الاوربية إن هؤلاء اليونانيين مسيح ومن أبناء دينهم.

استخدام الدولة العثمانية القسوة والشدة في قمع العناصر الثائرة.

ضغط الرأي العام في أوربا على حكومتها من أجل التدخل فغي الثورة ومناصرة الثوار.

اعتلاء القيصر الروسي نيقولا الاول عرش روسيا في عام1825 الذي نبذ سياسة سلفه الاسكندر الاول في التضامن مع الدول الاوربية فاتبع سياسة التدخل والتحرك لصالح روسيا[2].

لم تكن القضية اليونانية تهم الروس بقدر ما كانت تهم الاقاليم الدانوبية، ففي عام 1826 وجه القيصر الروسي إنذاراً إلى الدول العثمانية بتنفيذ بنود معاهدة بوخارست التي وقعت في عام1812 والمتعلقة بولايات الدانوب، وبعد مفاوضات بين الطرفين (العثمانيين والروس) توصل الطرفان إلى اتفاق (اكرمان عام1826)حيث وقع وافق العثمانيون على إعطاء امتيازات تجارية في البحر المتوسط والسماح لسفنهم التجارية في العبور بحرية وقد أثار هذه الاتفاق بريطانيا ونتج عن التدخل والمعارضة البريطانية أن توصل الروس والبريطانيين إلى اتفاق أصبح الروس فيه أحراراً في الدانوب، وتكفل البريطانيون بالقضية لم تهتم بالواسطة واحتجت فرنسا على عدم مشاركتها في المعاهدة مما أدى إلى توقيع معاهدة بريطانية روسية فرنسية عام1827 ونصت على[3]:

بقاء سلطة العثمانيين على اليونان مقابل دفعهم إلى الدولة العثمانية الضريبة.

يقوم اليونانيون بانتخاب حكومة لهم واسترجاع الاراضي اليونانية من العثمانيين .

---

(1) حسن عبد علي الطائي، روسيا وحرب القرم1853-1856، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، مج22، العدد4، 2015، ص1635-1636.

(2)حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1636-1637.

(3) المصدر نفسه.

إلا إن السلطان العثماني لم يقبل بهذه المعاهدة ألن القوات العثمانية قطعت شوطاً كبيرا انه كان يتصور ٍ في مقاتلة اليونانيين. وأن العثمانيين قادرون على القيام بالضربة الاخيرة في اليونان وتجمعت 126 سفينة عثمانية بمساعدة الاسطول المصري وفي عام1829 توصلت الاطراف المتنافسة إلى اتفاقاً ينص على إقامة دولة يونانية تحت السيادة اليونانية على أن تكون مستقلة استقلالاً ذاتياً وحكماً وارثياً، وقد وافق السلطان العثماني على ذلك عام1829، فرسخت المصالح الروسية في ولايتي البغدان والافلاق، وأدت على استقلال صربيا الذاتي وحصل الروس على الدانوب وحرية التجارة في البحر الاسود والقوقاز وأرمينية، وهكذا حصلت اليونان على استقلالها[1]. إلا أن ذلك لم يمنع روسيا من التدخل في شؤون الدولة العثمانية في سبيل الوصول الى البحر المتوسط، لاسيما المسألة المصرية.

المسألة المصرية1831-1840:

إن محاولة مصر إعلان انفصالها عن الدولة العثمانية في عهد محمد علي باشا طوال المدة1832-1840 قد أوجد مناخا مناسبا لروسيا لتفرض نفسها، لا سيما وأنه قد حصل تعاون بين محمد علي باشا، والقيصر الروسي في سبيل الحصول على دعم الأخير، في حال الانفصال، وإعلان الدولة الكبرى، إذ جاء وفد من روسيا إلى القاهرة واجتمع مع محمد علي باشا وأظهر له الرغبة بالدعم الروسي لمصر على الصعد كافة، بما فيها الجانب العسكري[2].

لم يساند محمد علي باشا السلطان محمود الثاني في حربه مع روسيا عام 1828، بسبب خوفه من الدخول في مشاكل مع روسيا، كما انه يرغب في الحصول على موافقتها في حال الانفصال عن الدولة العثمانية[3]، ولكنه أرسل الاموال لاسترضاء السلطان، لذلك كانت العلاقات بينهم طيبة ، فضلا عن أن هزيمة أسطول محمد علي في واقعة نفارين وسحق قوته في 20 تشرين الاول 1827، كانت وراء سحب محمد علي قواته مع المنطقة، وبدأ يطالب السلطان بعد توقيعه معاهدة أدرنة في أيلول 1829،

---

(1)حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1636-1637.

[2] للمزيد من التفاصيل عن محاولة مصر الانفصال ينظر:-إسكندر بن يعقوب اغا ابكاريوس الأرمني، تاريخ محمد علي باشا، تحقيق احمد عبد المنعم العدوي، جامعة القاهرة، 2009.

[3] للمزيد من التفاصيل عن موقف مصر ينظر:-حسين عبد الحسين عباس الزهيري، موقف مصر من قضايا امارات الخليج العربية1952-1970، دار الجنان، عمان، 2019.

والتي وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا، والتي اعترف فيها السلطان العثماني باستقلال اليونان، وأن يعطي لمحمد علي حكم بلاد الشام ثمناً وتعويضاً له عما خسره في هذه الحرب، فكانت هذه بداية القطيعة بين محمد علي والسلطان، ويمكن اعتبارها البداية التي أخرجت محمد علي عن حكم الدولة العثمانية عام1831، أثر رفض السلطان إعطاءه سوريا مقابل الاموال الكثيرة التي فقدها والاسطول الضخم الذي تحطم في المعركة، فأراد أن يحصل على حقوقه بنفسه، فبدأت الازمات تتصاعد بين الطرفين، اذ شعر محمد علي بضعف السلطان بعد حربه مع روسيا والثورة في اليونان، فحاول أن ينفرد بتحصيل حقوقه فبدأت حملته على بلاد الشام في 29 تشرين الاول عام1831، وقد كان الجيش العثماني في حالة ضعف تام عكس الجيش المصري الذي كان منتظماً ومسلحاً، ولم يتحرك الجانب العثماني الا بعد ستة أشهر من بدء الحركات المصرية، فالجيش المصري سيطر على غزة ويافا، وحيفا بدون مقاومة تذكر ، وفي تشرين الثاني من العام نفسه حاصر عكا ودخلها بعد ستة أشهر، ومن ثم استولت القوات المصرية على حمص وحماة وحلب، ثم تمكنت القوات المصرية من دخول الاناضول، واستولت على أظنه، بعد معركة قونية في21 تشرين الثاني عام1832، عندها أحست الدولة العثمانية بالخطر[1].

طلب السلطان العثماني المساعدة من الدول الاوربية، ولكن فرنسا كانت تؤيد محمد علي، وبريطانيا كانت في موقف لا تستطيع أن تقدم المساعدة، إلا أن روسيا استغلت الوضع لاسيما أن السلطان طلب منها التدخل، بعد أن احتل المصريون كوتاهية، فطلب محمود الثاني المساعدة من روسيا في2 شباط عام1833، وفي20 من الشهر نفسه دخل الاسطول الروسي مياه البسفور، وانزلت روسيا قوات من ثلاثين ألف جندي، فأفزع التدخل الروسي كل من بريطانيا وفرنسا، فحاولتا مصالحة محمد علي مع السلطان لكي يقطعا الطريق أمام روسيا، وتدخلها في المنطقة،وفي4 أيار من العام نفسه، استطاعتا أن تجعلا محمد علي والسلطان يوقعان صلح كوتاهية، والذي بموجبه أعطي محمد علي حكم مصر والجزيرة وكريت وعين حاكماً على بلاد الشام[2].

---

(1)حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1636-1637.

(2) علي عبد المطلب علي خان المدني، الموقف الفرنسي من الازمة المصرية العثمانية 1810-1838م((دراسة تاريخية))، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية ، جامعة الكوفة، 2012، ص8-10.

إن قوة محمد علي وسيطرته المباشرة على بعض ممتلكات الدولة العثمانية، أدى إلى أن يلجأ إلى روسيا، ولقد كرس السلطان جهده العثمانية، فضلا عن خوف السلطان من امتداد هذا النفوذ ليشمل أجزاء اخرى فتحالف مع خصومه من أجل تحطيم السياسة المصرية، فعقد اتفاقية خنكار سكله سي في 8 تموز 1833 مع روسيا، التي عززت موقعها فجعلت من نفسها المحامي الوحيد للدولة العثمانية المتداعية، وان تحصل على مواقع جديدة في مياه البسفور والدردنيل، فتعهدت روسيا بإرسال قوات لمساعدة السلطان، إذا ما اقتضت الحاجة لذلك، وعلى السلطان أن يقفل الدردنيل بوجه السفن الحربية الاجنبية إذا ما طلبت روسيا منه ذلك، وأكدت هذه المعاهدة على سيطرت روسيا على الدولة العثمانية، وأصبحت الحامية الوحيدة للدولة العثمانية[1].

وفي عام 1839 دخلت الازمة طورها الحاسم، خاصة بعد اعلان استقلال محمد علي عن الدولة العثمانية، فسعى إلى محاولة رد الهجوم على القوات المصرية في الجبهة السورية، وكان الجيش العثماني فاصبح الموقف أكثر خطورة، وتطور الصراع الدولي بين كل من بريطانيا وحليفتها الدولة العثمانية، وبين محمد علي وجرت معركة بين الطرفين قرب نصيبين الواقعة بين الفرات وحلب، وانتهت بهزيمة الجيش العثماني في24 حزيران 1839، ولكن تطورات الموقف أجبرت الدولة العثمانية على خوض المعركة[2].

أبدت الدول الكبرى دهشتها واستيائها، ولم يتوقف إبراهيم باشا انما توجه نحو أورفة وقونية، واراد أن يعبر جبال طوروس، ولكن تعليمات منعته من العبور الى إسطنبول، ولم تكن من مصلحته في هذه الفترة التوقف والانتظار، إذا أتاحت الفرصة أمام بريطانيا والدولة العثمانية من أجل أن تستعيد قواتهما، وفي تلك الاثناء توفي السلطان محمود الثاني في 29حزيران1839[3]، وتسلم من بعهده عبد المجيد، ولقد سلم القبوان أحمد فوزي باشا الاسطول العثماني لوالي مصر في تموز وتتضمن جميع قطع الاسطول العثماني، انتصارات الجيش المصري في نصيبين قد وضعت إن المسألة المصرية خاصة[4]، ومسألة التوازن الاوربي عامة موضع البحث والتعمق في النظر، إذ

(1) عباس عبد الوهاب عبد علي ال صالح، السياسة الروسية تجاه الصراع العثماني-المصري في مرحلته الأولى(1831-1833م)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج10، العدد3، 2010، ص260.

(2)عباس عبد الوهاب عبد علي ال صالح، المصدر السابق، 265-266.

(3)حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1636-1637.

(4)عباس عبد الوهاب عبد علي ال صالح، المصدر السابق، ص266-267.

إن هذا الانتصار وغيرها من الانتصارات الكبيرة التي حققها والي مصر من خلال قواده في سوريا والجزيرة العربية قد أحدث اخلال في التوازن الاوربي، فضلا عن تداعي أركان الدولة العثمانية[1]. واستطاعت الدول الاوربية من تحجيم الدور الروسي في هذه المرحلة ومنعها من الوصول الى البحر المتوسط بعد وقوفها الى جانب الدولة العثمانية، الامر الذي جعل روسيا تبحث عن محاولات عسكرية أخرى، فكانت حرب القرم احدى معاركها الجديدة مع الدولة العثمانية.

حرب القرم 1853-1856:

أخذت روسيا تخطط لإيجاد فرصة لإعلان الحرب ضد الدولة العثمانية لا سيما بعد حالة الضعف والانهيار الكبيرين، اللذان مرت بهما إبان الحروب البلقانية، وما رافق ذلك من تدخل دولي لاسيما النمسا وروسيا إلى جانب الحركات الثورية والانفصالية من جهة، أو إلى جانب الدولة العثمانية من قبل فرنسا وبريطانيا من جهة أخرى، لاسيما خلال الاعوام1840-1853. فجاءت الفرصة التي تبحث عنها روسيا في عام1853، عندما نشبت الاضطرابات في بيت المقدس بين المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك فأدى إلى نشوب حرب القرم، وبداية يجب أن نعرف الأسباب التي أدت إلى هذه الحرب[2]:

أولا- الأسباب الاستراتيجية أو الدولية:

أصبح الشرق العربي على جانب كبير من الأهمية لسرعة نقل التجارة وبكميات ضخمة والتي لا يستطيع طريقا أرسو الرجاء الصالح نقلها بالسرعة المطلوبة إلى الهند لطول المنتجات البريطانية التي أصبحت تقطع هذه المسافة الطويلة من أوربا ثم حول أفريقيا وصولا إلى الطريق ولعدم قدرة البواخر على قطعها إلى الهند، دون التعرض إلى المتاعب الفنية التي تجعل تكاليف الرحلة غالية بدرجة تؤدي إلى أن ينتفي الهدف الاقتصادي من وراء إرسال البضائع بواسطة البواخر إلى الشرق الأقصى أو جلب البضائع منه إلى أوربا في الوقت المناسب فأدى هذا الانقلاب الجديد في خطوط المواصلات العالمية إلى ارتفاع تجارة العراق ومصر لدى كل من بريطانيا ذات المستعمرات الواسعة في الشرق الأقصى وفرنسا التي كانت تفكر بحماس في مشروع شق قناة السويس، وفي مد خط بري لربط البحر المتوسط بالخليج العربي فضلا عن تطلعات فرنسا

(1)حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

[2]حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

الاستعمارية وحيث إن الدولة العثمانية كانت لا تعارض كثيرا أو بالأحرى لا تستطيع أن تعارض مشروعات بريطانيا وفرنسا في الولايات العثمانية العربية فإن ظهور أي قوة أوروبية على مسرح هذه الولايات سيؤدي إلى إصابة المشروعات البريطانية والفرنسية بشلل كبير والأخطر من ذلك على بريطانيا وفرنسا إن تستول روسيا على القسطنطينية وأن تطلق الأساطيل الروسية من البحر الأسود إلى البحر المتوسط، ومن ثم كان حصول روسيا على تفوق سياسي في الدولة العثمانية يعني السماح لروسيا بالانطلاق ليس سوى مساواة بين كل الأطراف للعمل في البحر المتوسط[1].

إن ادعاء بريطانيا الدفاع عن الدولة العثمانية الضعيفة أمام العدوان الروسي ليس سوى إخفاء لهدف آخر هو أن السيطرة الروسية على القسطنطينية كان تعني إخلالا للتوازن الدولي من وجهة النظر الروسية هو إن تكون لها قواعد على نفس المستوى الذي كانت تمتلكه كلا من فرنسا وبريطانيا في البحر المتوسط ولتكن القسطنطينية هي القاعدة وحيث إن القسطنطينية لم تكن مجرد عاصمة عثمانية وإنما كانت مفتاح البحر المتوسط فقط كان وقوعها سياسياً وعسكرياً بيد الروس يؤدي أن لا يصبح البحر المتوسط الطريق الهادئ إلى الهند بالنسبة إلى بريطانيا وحيث إن الأسطول الروسي كان قد بلغ درجة من القوة القادرة على أن تسيطر سيطرة كاملة تقريباً في البحر الأسود في وجه أسطول عثماني ناشئ فقد كان من الضروري من وجهة نظر بريطانيا تحقيق الأهداف الرئيسية التالية بعد وقوع الهجوم البحري الروسي على ميناء سينوب العثماني وهي[2]:

منع الأسطول الروسي من التفوق الكامل في البحر الأسود.

منع الأسطول الروسي من الانطلاق عبر مضايق العثمانية إلى البحر المتوسط.

ثانيا- العامل الاقتصادي:

لقد كانت روسيا خلال فترة التي أعقبت الحروب النابليونية معينة بزيادة حجم صادراتها وخاصة من القمح الذي يزرع في مساحات شاسعة من الإمبراطورية القيصرية وكان ميناء أوديسا من أهم الموانئ التي تصدر عن طريقه قمحها، وكانت في البلقان ولايتا هما الأفلاق والبغدان التين كانتا تصدران كميات كبيرة من القمح تنافس بشدة الصادرات الروسية وكانت لدى روسيا بعض النفوذ الذي يمكنها من التحكم في

---

[1] حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

[2] المصدر نفسه.

الصادرات القمح من الولايتين الرومانيتين ولكن القيصر كان يريد السيطرة الكاملة على هاتين الولايتين لهذا الهدف ولأنهما تمكنانه من التحكم في البلقان العثماني بما يفسح المجال له الغرض فرض وصاية روسية على الأقل وعلى أجزاء من البلقان إن لم يستطع السيطرة عليها كلها. ومن ناحية أخرى كان فتح البحر المتوسط أمام التجارة الروسية أمرا مزعجا أمام التجار والصناعيين البريطانيين الذين أحرجتهم الحواجز الكمركية التي وضعها القيصر لإنعاش التجارة والصناعة الروسية الناشئة في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا ترى أن الأسواق الروسية قادرة على تصريف المنتجات البريطانية[1].

ثالثا- العامل الديني:

أسهم هذا العامل في ادعاء روسيا بحقها في الأماكن المقدسة في داخل الدولة العثمانية لا سيما في القدس، وبحق حماية الأرثوذكس هناك، فرفضت الدولة العثمانية ذلك، إذ كانت مصالحها الجغرافية والمادية الاستراتيجية تقضي بضرورة تحديد علاقتها بالدولة التي تسيطر على مضايق البسفور غالف هذه والدردنيل، أما عن طريق القضاء عليها، أو على الأقل ضمان حرية المرور، وفي كل الأوقات لسفنها التجارية والحربية الممرات أمام هذه سفن أعداء روسيا. لقد أصبحت روسيا في الواقع بعد الثورة الفرنسية الدولة الأوربية الكبرى الوحيدة التي تضع الفكر الصليبي في مقدمة سياستها الخارجية، وكان كثير من الساسة الروس يتعجبون من إن أوربا ال تشد أزرهم ضد الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامي، ولكن الفكرة الصليبية التي كانت تلقى ترحيباً لدى شعوب البلقان لم تكن كذلك لدى الفرنسيين والبريطانيين، فكان من الطبيعي أن يدخل القيصر الروسي رأس الكنيسة في مجال هذا التنافس التبشيري في الدولة العثمانية فكان أن وقع الصدام في بيت المقدس بين رجال الدين الكاثوليك ورجال الدين الأرثوذكس ليتحول إلى موجهة كبرى باسم الدين المسيحي، والحقيقة إن العامل الديني كان أقل العوامل من حيث الأزمة إلى حرب إلا إنه هو الذي ظهر كسبب مباشر للحرب[2].

نشبت الحرب في شهر تموز من عام1853، ثم اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا في آذار من عام1854، وكان لها ثلاث جبهات جبهة الدانوب في الغرب وجبهة قفقاسيا في الشرق،

---

[1] علي عبد القادر عبد الواحد العبيدي وكاظم حسن جاسم، حرب القرم1853-1856 تنامي الطموح الروسي وبداية الانهيار العثماني، مجلة الباحث، العدد1، جامعة كربلاء، 2021، ص796.

[2] حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

وأما الجبهة الثالثة فكانت في شبه جزيرة القرم، وفي 20 أيار من عام 1853 قدم منشكوف اقتراحا جديدا إلى وزير الخارجية العثماني، جاء فيه بأن توقع الحكومة العثمانية وثيقة رسمية، تلتزم بموجبها على تأكيد جميع حقوق وامتيازات الأرثوذكس، ومنحهم جميع الحقوق التي يحصل عليها أصحاب المعتقدات الأخرى في المستقبل، وعندما لم يتسلم منشكوف رد على ذلك قطع اتصالاته بالمسؤولين العثمانيين وغادر العاصمة العثمانية[1].

ردت روسيا على ذلك بأن أمرت قواتها باحتلال إمارتي الدانوب، فقام فيلقان روسيان في 3 تموز 1853، بعبور نهر بروث والمباشرة باحتلال الاماراتين، وعندها قدمت الدولة العثمانية إنذارا إلى روسيا بسحب قواتها من إمارتي الدانوب، وعندما لم تستجب أعلنت عليها الحرب في 16 تشرين الاول 1853، وردت روسيا أيضاً باعلان الحرب، وقد رجحت كفة القوات الروسية منذ البداية، اذ تمكنت من إيقاف العمليات الهجومية التي قامت بها الدولة العثمانية، واحبطت محاولاتها إلى اخراج الجيش الروسي من أمارتي الدانوب، وانتصرت على العثمانيين في ضواحي قارص وفيما وراء القفقاس[2].

وتمكن الأسطول الروسي من تدمير الأسطول العثماني في 30تشرين الثاني 1853 بإغراقه في ميناء سينوب الذي استولى عليه الروس وأزالوا تحصيناته إرسال أسطول إلى القسطنطينية إسطنبول لدعم بعد أن احتلت روسيا أمارات الدانوب[3].

قام الأسطول الروسي بتدمير مجموعة من السفن العثمانية في سينوب وقامت فرنسا وبريطانيا بإرسال أساطيلها إلى البحر الأسود لحماية حركة التجارة العثمانية ثم أعلنتا الحرب على روسيا ثم بعد ذلك قام الروس بسحب قواتهم من إمارات الدانوب بغية منع النمسا من الانضمام إلى التحالف ضدها، ومن ثم احتلت النمسا أمارات الدانوب[4].

وفي11أيلول عام1855 تمكن الفرنسيون من شن هجوم ناجح على مدينة مالاكوف وهي نقطة استراتيجية في الدفاعات الروسية واضطر الروس إلى أخلاء حصونهم وإغراق

---

[1] للمزيد من التفاصيل عن أسباب الحرب وتطورات المواقف الدولية ينظر:- محمد عبد ذكر، موقف بريطانيا من حرب القرم1853-1856، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة ذي قار، 2011.

[2] حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

[3] علي عبد القادر عبد الواحد العبيدي وكاظم حسن جاسم، المصدر السابق، ص800-802.

[4] حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

سفنهم والتخلي عن ميناء سيفاستيبول، وبعدها توفي القيصر الروسي نيقولا الأول وخلفه في الحكم الإسكندر الثاني الذي عرف بتركيزه على أمور روسيا الداخلية وبعد ذلك وافقت روسيا على شروط السلم المبدئية على مضض بعد أن أنهكت عسكرياً واقتصادياً [1].

وفي أوائل 1856 أرسلت النمسا إنذارا إلى روسيا تطلب فيه منها أن تقبل بالمبادئ الأربعة دون قيد أو شرط وإنهاء الحرب وفي 16كانون الثاني من العام نفسه، أجابت روسيا بالقبول ولم تعد هنالك ضرورة لدخول الحرب، توجهت الدعوة إلى مؤتمر سلام عقد في مدينة باريس وانتهى بمعاهدة الصلح المعروفة باسم معاهدة باريس والتي وقعت في 30 آذار من العام نفسه، وتنص شروطها على ما يلي[2]:

1- أن يعترف السلطان بالمساواة بين رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ويفهم من ذلك أن من حقه الاهتمام بشؤون رعاياه المسيحيين ولا يحق لدولة أجنبية التدخل في شؤونهم.

2- تعترف الدول الأوربية بالسيادة العثمانية على مناطق المضايق

3- ويحضر على روسيا بناء أسطول بحري وإنشاء معامل حربية وأسلحة.

4- إعلان حرية المالحة في نهر الدانوب وتأليف لجنة دولية للإشراف عليها.

5- تمتع الولايتان الدانوبيتان بالاستقلال الذاتي ضمن الإمبراطورية العثمانية.

الخاتمة:

حاولت روسيا أن تجد لها موقعا في السياسية الدولية بعد أن أخذت طموحاتها الاستعمارية بالنمو، لا سيما في عهد بطرس الأكبر، واتجهت أنظارها إلى بناء قوة بحرية تستطيع من خلالها، أن تفرض نفسها بالضد من البلدان الأوربية البحرية القوية، لاسيما بريطانيا وفرنسا، وتحديداً في البحر الأبيض المتوسط، فكانت أمامها الكثير من المعوقات التي وقفت حاجزاً منيعاً أمام تحقيق طموحاتها العسكرية، ومنها الدولة العثمانية، إذ يُعد البحر المتوسط من ممتلكات العثمانيين، فأخذت تتحين الفرص ليكون لها موطئ قدم فيه، فتدخلت في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، لاسيما في قضايا البلقان، ثم حاولت عسكرياً القضاء على الدولة العثمانية عبر حروبها المستمرة معها، والتي تميزت بكثرتها، فتارة تستولي على مناطق عثمانية، وتارة أخرى تدعم

---

[1] علي عبد القادر عبد الواحد العبيدي وكاظم حسن جاسم، المصدر السابق، ص802-804.

[2] حسن عبد علي الطائي، المصدر السابق، ص1641-1646.

الحركات الانفصالية كما حصل في مناطق البلقان في اليونان، وصربيا والجبل الاسود، ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتدخل الدولتين المنافستين لها (بريطانيا وفرنسا)، وبقيت روسيا تتحين الفرص لمواجهة الدولة العثمانية، حتى تمكنت من ذلك بعد انتهاء حرب القرم عام1856.

" فرسان مالطا والصراع العثماني الإسباني على طرابلس الغرب خلال القرن 16م"

أ.د درعي فاطمة
جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر-
fatima.drai@univ-mascara.dz

مقدمة:

شهدت منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م تحولات هامة على الساحتين السياسية والدينية، تمثلت في ظهور مرحلة جديدة من مراحل الصراع الإسلامي المسيحي، الذي قادته الإمبراطورية الإسبانية والدولة العثمانية، للهيمنة على البحر الأبيض المتوسط، وقد شكّل ساحل شمال إفريقيا عامة وطرابلس الغرب خاصة مسرحاً حقيقياً لهذا الصراع، بعد أن تمكّنت إسبانيا من توحيد قوتها سنة 1492م حملت لواء الحركة الصليبية ضدّ العالم الإسلامي، وبدأت بشن هجماتها لإحتلال سواحل إفريقيا، فتمكّنت من إخضاع معظم المدن الساحلية، ثم تطلّعوا لاحتلال طرابلس الغرب سنة 1510م، ثم تركها لفرسان مالطا الذين زادوا من الضغط والخطر على المنطقة، مما جعل سكانها يستنجدون بالدولة العثمانية التي كانت قوة إسلامية، حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي ضدّ الخطر المسيحي، لذا ستعرف المنطقة طوال هذه الفترة، صراعات وتطورات أثّرت على أحولها الداخلية، وانعكس على دورها بالشمال الإفريقي.

1-التحرّشات الإسبانية على الحوض الغربي للمتوسط وإستراتيجيتها التوسعية بالمنطقة:

بسقوط الأندلس بأيدي تمكّن الإسبان بعد سقوط الأندلس، من الاستفادة من منجزات الحضارة العربية الإسلامية فخبروا فنون الملاحة البحرية وأتقنوا العمل على السفن البحرية، ونظراً لذلك تمكنوا من اكتشاف أمريكا سنة 1492 وكشف طريق رأس

رجاء الصالح سنة 1497[1]. ولم يتوقف النفوذ الاسباني إلى حد ذلك فقد بدأت خططهم في السيطرة على سواحل شمال إفريقيا[2]، ويعود ذلك للأسباب التالية:

- الرغبة في امتلاك الموانئ والأسواق التي يستطعن منها احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي تردّ إليها عن طريق القوافل والبحر الأحمر من جنوب آسيا[3] .

- البحث عن طريق بحري يوصلها إلى أسواق الهند والشرق، لأن تجارة الشرق كانت تصل إليها بعد المرور بعدة احتكارات ترفع أسعارها، لذا رأت إسبانيا أن التخلص من مشاكلها يكون بالاستيلاء على سواحل شمال إفريقيا[4] .

- يعتبر ساحل إفريقيا كمفصل هام يجمع حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي، وباحتلاله سيضمن لإسبانيا السيادة والتوسع على البحر الأبيض المتوسط [5] .

- إن الأوضاع والاضطرابات الداخلية التي كانت قائمة في الشمال الإفريقي أسرع الإسبان في استغلالها حيث لم يكن في ذلك الوقت وحدة سياسية قوية، بل كانت مكونة من عدة دويلات صغيرة متناحرة [6].

- حرصت إسبانيا على توجيه حملاتها على شمال إفريقيا بالتذرّع باللون المسيحي، الذي يضمن لها الحماس الشعبي[7]، ومحاولة نشر الديانة المسيحية في البلدان التي يضعوا أيديهم عليها[8] .

---

[1] حسن سليمان محمود، ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب للنشر والتوزيع، طرابلس، 1962، ص159.

[2] جغدان بوعبد الله، الولايات العثمانية الثلاثة (الجزائر- تونس- ليبيا)، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، 2018، ص12.

[3] عمر محمد الباروني، الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي للنشر والتوزيع، طرابلس، 1952،ص07.

[4] جغدان بوعبد الله، الولايات العثمانية الثلاثة (الجزائر- تونس- ليبيا)، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، 2018، ص47.

[5] محمد مصطفى بازامه، ليبيا عشرين سنة من حكم الاسبان1510-1530، منشورات مكتبة الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، 1965، ص75

[6] أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا، شركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984، ص86

[7] رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، عين دراسات للبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.م،1994، ص377.

[8] عمر محمد الباروني، المرجع السابق، ص05.

- كما نجدُ سببا آخر يدعوا إلى هذا النزول يتمثل في فكرة الانتقام من مراسي الشمال الإفريقي، حيث كان الكثير من المهاجرين الأندلسيين عندما يستقر بهم الأمر في مدن شمال إفريقيا يعملون على الانتقام بشن غارات بحرية ضدّ الأسبان، وشارك فيها الكثير من سكان سواحل إفريقيا[1]، لذلك كان إحتلال شمال إفريقيا يبدوا شيئاً ضرورياً للإسبان لأسباب إقتصادية وسياسية وفي نفس الوقت لسبب ديني .

كان الإحتلال الاسباني لطرابلس الغرب مدبراً، فقد عمل رئيس وزراء ملك إسبانيا "الكردينال خمينيس Ximenes"،على التعجيل بالسيطرة على إفريقيا الشمالية عامة وعلى طرابلس الغرب خاصة نظراً للمكاسب التي سيحصلون عليها، وأعطيت الأوامر إلى القائد"بيدرو نافرو" للتعجيل لإحتلالها[2]، والتي ستكون طرابلس الغرب كما خطط لها سابقاً كقاعدة للإمدادات وملجأ لحملاته في شمال إفريقيا[3].فتحرك "بيدرو نافرو" لاحتلال طرابلس الغرب واستولى في طريقه على بجاية، 1510 وهي محطة ضرورية لتزويد المياه و المؤن، لكن لانتشار مرض الطاعون اضطر القائد الاسباني مغادرتها وتوجه مباشرة إلى طرابلس الغرب[4].

2- إستراتيجية الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط:

مثّل الحوض الغربي للمتوسط محور إهتمام الدولة العثمانية خاصة الضفة الجنوبية منه لإعتبارات إقتصادية ودينية، فهو شريط خصب مفتوح على المياه يمتد من

---

[1] محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلام للنشر والتوزيع، ط02، تونس،1982، ص262.

[2] محمد علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق للنشر والتوزيع، ج02، دمشق، 2000، ص149.

[3] كوستانزيو برنيا، طرابلس 1510- 1850م، تر: حليفة محمد التليسي، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع، والتوزيع، ط01، بنغازي، 1985، ص21.

[4] جان كلود زليتنر، طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795، تر:جاد الله عزوز الطلحي، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي،ص29.

طرابلس الغرب إلى طنجة[1]، ناهيك عن العدد الكبير للموانئ والمرافئ الطبيعية المتتالية التي تسمح بخدمة الأهداف المختلفة. تجارية إقتصادية إستراتيجية[2].

السيطرة على القسنطينية سنة1453م كعاصمة للعالم المتوسطي بحوضيه الشرقي والغربي وضفتيه الشمالية والجنوبية يعتبر حدثا مهما للتوجه العثماني في المتوسط، وبعد إكتشاف رأس الرجاء الصالح أصبح لزاما عليها حماية مصالحها التجارية والحفاظ عليها تحاشيا للآثار الناجمة عن هذا التحوّل، وسعيا منها لإيجاد السبل التي تسمح بإستمرار توفير الموارد المالية التي اعتبرت عائدات التجارة مصدرا أساسيا لها[3].

أدرك العثمانيون أهمية القوة البحرية لذلك عملوا على تثبيت أقدامهم، وتقوية أسطولهم حتى تكون لهم السيادة على حوضي البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي، وقد كانت الأطماع الإقتصادية التوسعية للأوربيين على سواحل بلاد المغرب دافعا للتحرك العثماني المضاد قصد الحصول على نصيب من تجارة الشرق بالبحث عن منافذ تمكّن من ذلك[4].

سياسة الإسبان تجاه مسلمي الأندلس، وجهودهم المتواصلة في ملاحقتهم ، خاصة أن هؤلاء مثلوا عدد كبيرا وشريحة واسعة أخذت تساهم منذ وصولها لسواحل بلاد المغرب في عدة مجالات عسكرية وإقتصادية وغيرها،بالإضافة إلى نقل نشاط الجهاد البحري إلى الحوض الغربي للمتوسط الذي مهّد لوصول العثمانيين[5]، في الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون إلى رأس الرجاء الصالح سنة 1498م، والذي سيترتّب عليه تحويل

---

[1] جواد سماحي،" البعد الإقتصادي للصدام العثماني الأوربي في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 10هـ/16م"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مجلد04، عدد 02، ص493.

[2] جون جوليوس نورويش، الأبيض المتوسط تاريخ بحر ليس كمثله بحر، ترجمة طلعت الشايب، ط1، المركز القومي للترجمة، مصر،2015، ص 344.

[3] وجيه كوثراني، تكون الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي في العصر الحديث، موسوعة تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، ط1، المجمع الإسلامي للتقريب بين المذاهب، إيران، 2010، ص264.

[4] جواد سماحي، المرجع نفسه، ص 494.

[5] إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، 1996، ص67.

التجارة مع الشرق عن منافذ العالم الإسلامي، ومنه ضرورة إيجاد العثمانيين لحظوظ تجعلهم يتحاشون الخسائر الناجمة عن ذلك، وهو ما يبرهنه تواجدهم في المنطقة لتحقيق التوازن الدولي وتثبيت وجودهم السياسي والإقتصادي، وحصل الصدام في مناطق إستراتيجية اعتبرت مراكز تموقع وسيطرة.

3- التعريف بفرسان مالطا وعلاقتهم بالدولة العثمانية:

نشأت منظمة فرسان مالطا ببيت المقدس خلال القرن 12م، أسّسها عدد من تجار مدينة أمالفي الإيطالية بمدينة "بيمارستان" الواقعة قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس بفلسطين سنة 1070م[1]، بدأت حياتها كمنظمة خيرية مهمتها، مساعدة الفقراء والمحتاجين المسحيين وتقديم الرعاية للاجئين المسحيين إلى القدس، ثم أصبحت خلال الحروب الصليبية منظمة دينية فرسانية أطلق على أعضائها إسم "اسبتارية Ospedalieri" نسبة إلى أعمال الإستشفاء التي يقدمونها، كما عرفوا بمنظمة القديس يوحنا نسبة إلى الحماية التي منحها لهم القديس "يوحنا باتيسيا"[2].

كان أغلبهم من سكان إيطاليا وصقلية وكالابريا وإسبانيا[3]، وخلال القرن 13م أصبحت لها مهام عسكرية تعهدّت بالدفاع عن بيت المقدس ضد المسلمين، فاقتطعت لنفسها بعض الأراضي حيث أصبح لها أملاك واسعة في فلسطين وسوريا، وأقامت عليها ثكنات وتنظيمات عسكرية[4]،كانوا يعلقون صليباً أبيض ذو ثمانية خطوط ممثلين قوة عسكرية مخيفة[5].

---

[1] جونثان سميث،الإسبتارية فرسان قديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص،تر:العميد الركن صبحي الجابي، دار طلاس للدراسات والترجمة ونشر والتوزيع، ط01، دمشق، 1989، ص07

[2] ايتوري الروسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1199، تر:خليفة محمد التليسي، دار العربية للكتاب للنشر والتوزيع، ط02، الإسكندرية، 1991، ص189.

[3] خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، دار العربية للكتاب للنشر والتوزيع، ط03، د.م، 1997، ص73.

[4] Whitworth Robert, a history knights of Malta, London, 1858 ,p09

[5] نقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، تر: يوسف عطا الله، دار الفارابي للنشر والتوزيع، ط01، بيروت، 1988، ص219

لعبت المنظمة دوراً بارزاً في الحروب الصليبية حيث كانت أشدّ الناس عداوة للإسلام والمسلمين[1]، وفي سنة 1187م طردها صلاح الدين الأيوبي من القدس بعد تحريرها من المسحيين، فاضطرت إلى نقل مركزها إلى"عكا" بفلسطين وبقوا فيها سنة 1291م، لكنهم طردوا منها مرة ثانية، فنقلوا مركزهم إلى جزيرة "رودس"[2]، التي أسسوا بها شبه حكومة مسيحية تحت حماية ملوك البابا بروما، ومن الجزيرة بدأت بإلحاق الظلم تجاه المسلمين ومهاجمة السفن العثمانية[3]، فصمّم السلطان العثماني "سليمان القانوني"[4] سنة 1522م على طردهم من جزيرة رودس بعد حصار دام ستة أشهر أجبر من خلاله الفرسان على الإستسلام والخروج من الجزيرة[5] .

وفي أكتوبر 1523 طلب رئيس المنظمة "فيليب فيلر ليسل آدم Lisde Adam"[6] من "شارل الخامس"اقتطاعه جزيرة مالطا[7] وقوزو[8]، لتكون مركزاً في إقامة دولة صليبية للقرصنة ومطاردة السفن المسلمين في البحر الأبيض المتوسط، فقررّ منحهم جزيرة مالطا وقوزو بشرط أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن القلعة وبلاد طرابلس الغرب؛

---

[1] محي الدين عبد حسن عرار، معارك إسلامية، دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص345

[2] الباروني، المرجع السابق، ص75.

[3] ابن غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح: الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، دار المدار الإسلامي، ط01، بيروت، 2004، ص148.

[4] سليمان القانوني: هو السلطان سليمان الخان الثاني بن سليم الأول اثر على أوروبا حتى أطلقت عليه لقب القانوني بعد رفع شأن الدولة داخلياً عهد بالعدل والقوة والنظام والجهاد والعمران والازدهار توفي وعمره 50 سنة بعد أن حكم ثلاثة سنوات وثمانية أشهر ودفن في تربة جده السلطان سليمان الأول، محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم للنشر والتوزيع، ط03، دمشق، 2012، ص89

[5] Whitworth Robert, Op.Cit , p152

[6] فيليب ليسل أدم: ولد سنة 1464م وتوفي سنة 1534م وهو فرنسي الأصل، فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: أحسان حقي، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط09، لبنان، 2013، ص205.

[7] مالطا: هي جزيرة صغيرة في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من ساحل إيطاليا وأفريقيا أحتلها المسلمون قبل فترة واتبعت شارلكان تنازل عنها لرهبنة رودس، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[8] قوزو: هي جزيرة صغيرة تابعة لماطا، فريد بك المحامي، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

حيث كان يرى "شارل الخامس" بتنازله هذا إلى تسليط قوته في الدفاع عن ممتلكاته في جنوب إيطاليا والتخلّص بصورة مشرّفة على طرابلس الغرب[1]

بعد مفاوضات طويلة وقّع الإمبراطور"شارل الخامس" 24 مارس 1530م على مرسوم يتنازل فيه عن طرابلس الغرب لفرسان مالطا، وفي شهر جوان سنة 1530م[2] استلم المرشد الأكبر "ليسل آدم" جزيرة مالطا وجعلها مقر إقامتهم ومن ثم أصبح يطلق عليها فرسان مالطا[3]، ثم أرسل وفدا من مالطا ليستلموا طرابلس الغرب من حاكمها "فرانشيسكو فلاسكويزا"، وسرعان ما وصلت إلى طرابلس الغرب سفينتان تحملان العتادّ والمئونة وقافلة من الفرسان وفرقة من الجنود تحت قيادة "غاسباري دي سانغوسا Gaspare De Sanguess" الذي عُيّن أول والي من منظمة فرسان مالطا على طرابلس الغرب[4]، وبهذا انتهى الحكم الإسباني على طرابلس الغرب الذي دام 20 سنة والذي لم يستطيع تجاوز أسوارها[5].

حرصت المنظمة على حماية القلعة والتي اتخذت طابعاً دينياً وعسكرياً حيث كانت تؤدى بها مراسم العبادة في الكنيسة، وكانت تشددّ الحراسة على أبوابها ليلاً ونهاراً[6]، وكان يقيم بها عادة خمسون من الفرسان ومائتان من الأهالي لايزيدّ عددها على مائة بين الفرسان والمشاة[7].

شكّل فرسان مالطا قوة أسبانيا الرئيسية الضاربة، حيث لم تحصل أي حملة عسكرية إسبانية إلا وهم يشاركون بها، فخلال سنوات 1535م/1540م أنزل الفرسان جنودهم على شواطئ تونس، وفي سنة 1541م بلغوا أسوار مدينة الجزائر أثناء حملة شارل الخامس عليها، كما أن سفنهم كانت تجوب بحر الأبيض المتوسط بشكل مستمر يشنون غاراتهم على المسلمين[8] .

---

[1] عمر محمد الباروني، المرجع السابق، ص79.

[2] يتجه إبن غلبون في كتابه التذكار و الباروني في كتابه الأسبان وفرسان قديس يوحنا في طرابلس، أن تاريخ تسليم طرابلس الغرب لفرسان مالطا كان سنة 1535م، ص151.

[3] نقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص219.

[4] إيتوري روسي،ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1199، المصدر السابق، ص193.

[5] عمر محمدالباروني، المرجع السابق، ص87.

[6] خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ص 74- 75.

[7] إيتوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، المصدر السابق، ص60.

[8] نقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص220.

في سنة 1531 أصبحت أوضاع طرابلس الغرب مهدّدة بالخطر بعدما تزايدت قوة الأسطول العثماني في البحر المتوسط، خاصة بعدما منح السلطان العثماني خير الدين بربروس لقب ببيلرباي الجزائر، ثم أن الأهالي لم يكفوا عن مهاجمة طرابلس وكانت أكبر مركز تجمعهم منطقة تاجوراء، فأيقن الفرسان أن مواجهتهم لن تقتصر على أهالي البلاد فقط بل عليهم مواجهة العثمانيين أيضاً الذين يعملون على توسيع تواجدهم على الساحة الإفريقية[1].

4- سيطرة فرسان مالطا على طرابلس الغرب والمواجهات العثمانية الإسبانية بها:

تجمّع سكان طرابلس الغرب بتاجوراء فرارا من الحكم الاسباني، وما زاد عليه من اضطهاد الفرسان أدركوا عجزهم عن المقاومة بمفردهم، فأجمعوا على الإستنجاد بالدولة العثمانية، التي ستتولى مهمة طرد الفرسان وضم طرابلس الغرب، والتي ستتخذ من تاجوراء قاعدة حربية هامة تتجمع فيها حركة المقاومة والجهاد، وتنطلق منها مختلف العمليات العسكرية ضدّ الحامية الاسبانية.

في سنة 1530م بدأت بوادر التقارب بين السلطان الحفصي (مولاي حسن) السيء السيرة الذي اضطربت في عهده البلاد وخرجت عن طاعته[2]، وبين فرسان مالطا، عندما عرض عليهم عقد معاهدة صداقة بين البلدين ضدّ العثمانيين، خشية من امتداد النفوذ العثماني بتونس لذلك فضّل التحالف مع المسحيين من أجل الحفاظ على عرشه[3].

عند علم خير الدين بربروس بهذه الأمور، قسّم جيشه إلى قسمين للإستيلاء الكامل على تونس ولإخضاع كل ممتلكات "مولاي حسن" للتضييق عليه[4]، فجهّز حملة للنزول بتاجوراء واحتلها سنة 1531م وطرد منها أنصار مولاي حسن ومؤيديه، وأبقى بها أحد قادته يسمى "خير الدين كرمان"[5] الذي أطلقت عليه المصادر الأوروبية إسم "ملك

---

[1] محمد علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص155.

[2] الشافعي درويش،"الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م"،مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، والاجتماعية، العدد 30، غرداية، 2017،ص03.

[3] رابحة محمد خيضر،" دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني 1555م"، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد06، العدد02، الموصل، 2008، ص112 .

[4] عمر محمد الباروني، المرجع السابق، ص97.

[5] إبن غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص152.

تاجوراء" ، كانت مهمته الأساسية تقضي بالاستيلاء على قلعة الفرسان[1].شرع كرمان في تحصين تاجوراء بالأبراج العالية المزودة بالمدافع، كما جهز مرفأ صغيراً قادراً على استقبال السفن القادمة إليه، وتلقى دعم كبير من سكان تاجوراء والمناطق المجاورة لطرابلس الغرب.

تمكّن "خير الدين كرمان" في سنة 1535م من تشييد برج القلعة المحصنة سميت "ببرج القائد"، وأقام بها مدفعية ثقيلة، ثم بدأ بتضييق الحصار على طرابلس الغرب. تمكّن الفرسان عن طريق التحايل من نشر الفتنة بين جيش كرمان فانصرفوا عن مواقع الدفاع وانظم معظمهم إلى صفوف العدو.

عيّن خير الدين بربروسا في سنة 1539م مراد آغا[2] قائداً على تاجوراء خلفاً لخير الدين كرمان، ومنذ استلام مراد آغا إدارة تاجوراء باسم الدولة العثمانية عمل على تدعيم تحصيناته ، وإقامة الحواجز على الطرق وتثبيت نقاط الحراسة عليها، فقطع بذلك طرق الموصلات التي تربط بين طرابلس الغرب ومناطق الدواخل[3].

خلف درغوث باشا[4] خير الدين بربروس سنة 1546م في قيادة الأسطول العثماني بحوض بحر الأبيض المتوسط[5] الذي اعتبر مهمته الرئيسية منذ سنة 1544م هي تحطيم تحطيم مالطا أظهر تهديداته للفرسان وفرض حصارا إقتصاديا، وكانت أكبر غنيمة غنمها درغوث سنة 1548م أثناء استيلائه على سفينة مالطية تحمل خزينة مال فرسان القديس مالطا التي كانت تقدّر حوالي عشرين دوكاً ذهبياً[6] .أصبح وضع الفرسان ضعيفاً

---

[1] نقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص218.

[2] مراد آغا: ولد في راقوسا بإيطاليا أسره العثمانيون في إحدى حملاتهم على شواطئ دلماسيا، ثم بيع في الأستانة لأحد النخاسين وقام بتعليمه وتربيته وسماه مراد حبب إليه الإسلام ودخل الجيش فالتحق بإبراهيم باشا في حملته على بلاد فارس واشتهر في من خلالها فلقب بمراد أغا ثم انظم إلى خير الدين بربروسا الذي عينه على تاجوراء، عمر محمد الباروني، المرجع السابق، ص 108 .

[3] رابحة محمد خيضر، مرجع سابق، ص114.

[4] درغوث باشا: إستشهد سنة 1565م أثناء الحملة التي تقضي بطرد فرسان مالطا من جزيرة مالطا، محمد علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص171 .

[5] إيتوري الروسي، لبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1199م، المصدر السابق، ص204 .

[6] جون وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، تح: أبو قاسم سعد الله, عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 ، ص65.

ضعيفاً لا يقوى على الصمود في سنة 1548م ، فوجدت المنظمة بمالطا نفسها مدفوعة إلى تركيز قوتها على طرابلس الغرب[1].

حظي درغوث باشا بمقابلة السلطان سليمان القانوني واقترح عليه عرضا يقضي بطرد فرسان مالطا بطرابلس الغرب مؤكداً صحة المعلومات المقدّمة من مراد آغا سابقاً وأن الأهالي ينتظرون إرسال النجدة لأنقاضهم من الظلم والإضطهاد[2]، وبقاء طرابلس الغرب تحت سيطرة الفرسان سيقف عائقاً في طريق النفوذ العثماني ببحر المتوسط ، تخوّف من أن يقوموا بتكوين حلف مع القوى الأوروبية لتوجيه أنظارهم نحو الشرق من أجل استعادة رودس وجزر اليونان وسواحل فلسطين[3]، فاستجاب السلطان العثماني لطلبه ومنحه منصباً لديه كفاءة على أعماله [4].

أمر السلطان "سليمان القانوني" بتجهيز حملة تم الاستعداد لها بسرية تامة بقيادة "سنان باشا"[5] قائد الأسطول العثماني يسانده "صالح رايس"[6] والي الجزائر ودرغوث باشا باشا الذي أسندت إليه قيادة بعض السفن الأخرى[7]، بعدما عيّنه السلطان العثماني بمنصب قبطاناً على 50 سفينة[8]. في 05 أوت 1551م ظهر الأسطول العثماني أمام طرابلس الغرب التي هي الهدف الرئيسي للحملة، ونزلوا بتاجوراء حيث يتواجد مراد آغا[9]، وبدأت تنطلق أولى طلقات المدفعية العثمانية، ولم يستطيع الفرسان الصمود

---

[1] إيتوري الروسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، المصدر السابق، ص69.

[2] محمد علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص161.

[3] كوستنزيو برنيا، المصدر السابق، ص39

[4] نقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص213.

[5] سنان باشا: قائد وبحار عثماني خاض العديد من الحروب البحرية على الأسطول العثماني ساهم في تحرير اليمن وطرابلس وتونس وإخضاعهما للدولة العثمانية للمزيد ينظر: رابحة محمد خيضر، "القائد سنان باشا وجهوده في استعادة اليمن وتونس"، مجلة جامعة تكريت للعلوم،مج18،ع01، الموصل، ص352.

[6] صالح رايس: قائد وبحار عثماني أصله من الإسكندرية شارك في العديد من الحروب البحرية العثمانية تولى منصب بايلرباي الجزائر مابين 1552-1556 توفي أثناء حصاره لوهران، ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في تاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.، ص ص 291- 313.

[7] محمد علي عامر ومحمد خير فارس المرجع السابق، ص 161.

[8] رابحة محمد خيضر، دخول طرابلس الغرب تحت الحكم العثماني، المرجع السابق، ص120 .

[9] نقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص224.

أمام القوات العثمانية، فبدأت بالإنسحاب . فخرج الفرسان بحرية وفتحت طرابلس الغرب أبوابها للعثمانيين يوم 14 أوت 1551م[1] .

5- نهاية الصراع وتأسيس إيالة طرابلس الغرب:

تمكّن الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا من هزيمة فرسان مالطا وطردهم من طرابلس الغرب احتفل السكان في 16 أوت 1551م بفتحها. وبدءاً من هذا اليوم أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية فعمدوا على تطبيق الإجراءات العثمانية الإدارية والعسكرية عليها[2]، حيث قام سنان باشا بتنظيم شؤونها ووضع على قلعتها حامية كبيرة كبيرة من الانكشارية وقام بإصلاح شؤون الإدارية وعين مراد أغا والياً عليها ثم اتجه إلى إسطنبول حيث صدّر فرمان سلطاني يدّل على تعيين مراد أغا والياً على طرابلس الغرب التي أصبحت ولاية عثمانية،[3] وحاملاً معه عدداً من المسحيين الأسرى والغنائم الوفيرة[4].كما نجح درغوث باشا في الحصول على موافقة الباب العالي على إرسال فيالق الانكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أي اعتداء صليبي قدّ يقع عليها سواء من الاسبانيين أو من فرسان مالطا وهذا الحذّر يبيّن اهتمام الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس الغرب؛ أي أن هذا الاهتمام منهم كان موجهاً إلى الجوانب العسكرية أكثر من المدنية[5].

---

[1] جون وولف، المصدر السابق،ص68.

[2] محمود الناجي، طرابلس الغرب، تق: عبد السلام أدهم و محمود الأسطى، منشورات الجامعة الليبية الليبية للنشر والتوزيع، بنغازي، 1970، ص149

[3] عبد المنعم الجميعي، الدولة العثمانية والمغرب العربي، دار الاعصار العلمي للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص29.

[4] إيتوري روسي،طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، المصدر السابق، ص78.

[5] عبد العزيز محمد الشناوي, الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها, ج02, مكتبة الانجلو المصرية المصرية للنشر والتوزيع, القاهرة, 2004, ص 200.

مراد آغا واليا على طرابلس الغرب:

أصبح مرادّ آغا والياً على طرابلس الغرب وهو المنصب الذي كان يتطلّع إليه درغوث باشا في الخفاء[1]، واعتبر أول والي عثماني عليها، وبولايته عاد الحكم الإسلامي إلى طرابلس الغرب بعد أن أمضت نحو 40 سنة تحت الاستعمار الصليبي الإسباني ثم استعمار فرسان مالطا[2]، وعليه أقسم مراد آغا على القرآن الكريم بأن يتولى إدارة شؤون البلاد باسم السلطان العثماني وأن يحترم القوانين العثمانية ويطبقها[3].

وفي عهده بدأت طرابلس الغرب في إعادة بناء اقتصادها بعدما عمها الخراب من جراء الحرب وإهمال الفرسان شأنها فشغل مرد أغا على تعميرها[4]، حيث انتعشت الزراعة والتجارة وأنشئت البساتين واستثمرت الأرض وازدهرت حياة المدن وعادّ اللاجئون إلى بلادهم بعد سنوات عديدة من الهجرة، فساهموا إلى حدّ كبير في إعادة ازدهارها وإنعاشها كمركز تجاري كبير بعد مدة قصيرة[5] .

نجح مراد آغا في توسيع رقعة طرابلس الغرب وضمها إلى الحكم العثماني، حيث تمكن في السنوات الأولى من بسط نفوذه بمصراته وزواره وبعض مناطق الدواخل[6].

استمر مراد آغا في حكم طرابلس الغرب حتى عام 1556م،حيث أدركته الشيخوخة وأخذ منه العجز فانتقل إلى تاجوراء وأخذ معه أمواله وبعض الأسرى المسحيين الذين استعان بهم في بناء مسجده بتاجوراء، ووعدهم بإطلاق سراحهم بعد إتمامهم للمسجد على أكمل وجه ومزال المسجد متواجدا،[7] به 48 عموداً جعله على شكل حصن ويعدّ هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة بطرابلس الغرب[8].

---

[1] إيتوريروسي،طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطا، المصدر السابق، ص 78.

[2] الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلي نهاية العهد التركي، دار الفتح للطباعة ونشر والتوزيع، ط01، بيروت، 1970،ص75.

[3] نقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص225.

[4] ابن غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص163.

[5] نقولاي إيفانوف, المصدر السابق, ص226.

[6] جمال هشام وأحمد الدويب، "تثبيت الحكم العثماني في طرابلس الغرب"، المؤتمر الدولي الأول حول الدراسات العربية، جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية , 2011، ص364.

[7] الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، المرجع السابق، ص75.

[8] عبد المنعم الجميعي، المرجع السابق، ص30.

وقدّ استفادّ العثمانيون كثيراً في وقوع طرابلس الغرب في أيديهم، فقدّ تحولت تجارة إفريقيا التي تركزت في تاجوراء إليها، وازدادت حركات التبادل التجاري المتمثلة في التوابل والذهب بين طرابلس الغرب وداخل إفريقيا[1]، كما تمكنوا من الحصول على قاعدة بحرية هامة ترتبط بمصر وتحمي ظهر تونس من العدوان المسيحي[2].

خاتمة:

كان لطرابلس الغرب أهمية إستراتجية كبيرة منذ أواخر القرن 15م، حيث عرف ميناءها نشاطاً حيوياً للحركة البحرية التجارية مع الدول الشرق والغرب، وبعد استيلاء فرسان مالطا عليها شكلت هذه الأخيرة إلى جانب مالطا ركيزة كبيرة لحركة القرصنة البحرية المسيحية ضد المسلمين، فجعلت مالطا مقراً رئيسياً للمنظمة وطرابلس الغرب مقراً عسكرياً لهم، فشكّلت المحاولات الأولى لتحرير طرابلس الغرب من خلال دور خير الدين كرمان ومراد آغا تهديداً كبيراً لفرسان مالطا، ومهّدت أمام الفتح النهائي لطرابلس الغرب وضمّها للحكم العثماني .

عجّلت الدولة العثمانية إلى تحرير طرابلس الغرب من قبضة فرسان مالطا الذين ساعدوا إسبانيا في التقدم على الأراضي التونسية، ومثّل ذلك خطوة إستراتجية كبيرة في بسط نفوذها على سواحل إفريقيا، والتخلّص من فرسان مالطا الذين يمثّلون الصليبية في أشدّ درجاتها تعصبا ضد المسلمين .

أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية وعين مراد أغا والياً عليها، واتخذت كقاعدة هامة في البحر المتوسط، تنطلق منها حملات الجهاد واسترداد المناطق التونسية من الإمبراطورية الاسبانية ، واستفادت الدولة العثمانية كثيراً من ذلك بعودة نشاطها الاقتصادي، وازدياد حركة التبادل التجاري بين طرابلس الغرب وداخل إفريقيا .

---

[1] أحمد سالم، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2011،ص135.

[2] مقلاتي عبد الله، المرجع في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر (الجزائر تونس المغرب ليبيا)، ديوان المطبوعات الجامعية للنشر والتوزيع، برج بوعريرج، 2013، ص 23.

الحصار العثماني لجزيرة مالطا 1565م، أسبابه ونتائجه

الباحث: سالم جوامع
جامعة أبوبكر بلقايد-تلمسان/ الجزائر
salemdjouama1492@gmail.com

مقدمة:

نظرا للقيمة الاستراتيجية التي تمتلكها جزر البحر المتوسط فقد كانت منذ العصور القديمة هدفا للقوى السياسية في المنطقة، وخلال العصر الحديث زاد اهتمام إمبراطوريات المتوسط بهذه الجزر، إذ أن من يسيطر عليها سيسيطر على الأوضاع السياسية والاقتصادية في منطقة حوض المتوسط.

على هذا الأساس كان الصراع خلال العصر الحديث وخاصة خلال القرن السادس عشر قد اشتد بين الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية من أجل السيطرة على جزر البحر المتوسط، حيث سعى كل طرف منهما لبسط نفوذه واستيلائه على الجزر المتوسطية التي تشكل بالفعل نقاطا حيوية ومراكزاً جدُّ استراتيجية تُمكّن من يسيطر عليها على تسيير موازين القوى في حوض المتوسط والتحكم فيها.

وانطلاقا من هذا فإن دراستنا هذه سوف تتطرق للحصار العثماني على جزيرة مالطا سنة 1565م ومحاولتها السيطرة على هذه الجزيرة الحيوية الواقعة في قلب البحر المتوسط، باحثين من خلالها على الأسباب والدوافع التي جعلت الدولة العثمانية تسعى للاستيلاء على مالطا، ومحاولين الخروج بأهم النتائج (الاستراتيجية خاصةً) التي تولدت عن هذا الحصار الهام الذي كان من أبرز أحداث القرن السادس عشر، هذا، وقد سعينا في هذه الدراسة لتوظيف العديد من الوثائق التاريخية وتحليل الكثير من روايات المصادر والدراسات المعاصرة على حد سواء للخروج بتحليلات واستنتاجات تخدم الموضوع وتَطرَحُه بشكل يخالف -على قدر المستطاع- طروحات الدراسات السابقة التي تناولته.

أولا: أسباب الحصار العثماني لجزيرة مالطا[1]

1- النشاط الصليبي لفرسان القديس يوحنا

1-1- تهديدات فرسان القديس يوحنا لتونس وطرابلس الغرب:

بدأ فرسان القديس يوحنا منذ طردهم من طرابلس الغرب بعد تحريرها على يد القوات العثمانية سنة 1551م واستقرارهم بجزيرة مالطا بتنظيم أسطول جريء في هذه الجزيرة وظلُّوا يضايقون سواحل البلدان المغاربية وبالخصوص طرابلس الغرب وتونس بحكم قربهما من الجزيرة، كما كانوا أيضا يقومون بقطع سبل التواصل بين القسطنطينية والجزر الخاضعة لها في بحر إيجة[2]، فضلا عن أن جزيرة مالطا كانت تسد الطريق بين عاصمة الدولة العثمانية والإيالات المغاربية كما شكلت تهديدا مستمرا للمراكز العثمانية في شمال أفريقيا[3]، إضافة إلى أن فرسان مالطا كانوا يقطعون الطريق على قوافل الحجيج البحرية[4]، ولم يكتف فرسان مالطا بمضايقة سفن الدولة العثمانية وإيالاتها بل كانوا كذلك يقومون بغزو سواحل البلاد التونسية والطرابلسية، ففي شهر أوت من سنة 1552م غزا فرسان مالطا مدينة زوارة التابعة لإيالة طرابلس الغرب، وقد استطاعت هذه الغزوة أن تحدث الكثير من الضرر في المدينة ناهيك عن قيامها بأسر ألف وخمسمائة من أهلها قبل أن يتمكن مراد آغا من إجهاض الحملة التي انتهت بخسائر فادحة في صفوف المالطيين[5].

الهوامش:

[1] مالطا Malta: جزيرة تقع في منتصف البحر المتوسط شمال ليبيا وجنوب إيطاليا، تتكون من أربعة جزر هي غوزو، كومينوطو، فيلفولا ومالطا وهي الجزيرة الكبرى والرئيسية، تبلغ مساحتها 316 كم، تبعد عن الساحل الليبي بـ330كم وعن ساحل تونس بـ320كم.

[2] روسي إيتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، تروتق، خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، الإسكندرية، مصر،1991، ص229، إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، تر، يوسف عطا الله، ط1، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ص237

[3] Maxange Defontin, Eudj'Ali, A. Pedone Editeur, Paris,1930, p76

[4] فكاير عبد القادر، الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن 16م، ط1، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016، ص 340، جميل عائشة، الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس 2017-2018، ص151

[5] روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص217

وعلى غرار تهديداتهم المتكررة لسواحل إيالة طرابلس وجزر البلاد التونسية وتهديد مصالحها ومصالح الدولة العثمانية في غرب المتوسط كما تقدم، قرر فرسان مالطا تجهيز حملة لاستعادة طرابلس، فنظرا للمكانة الاستراتيجية لهذه المدينة في البحر المتوسط فقد أوعز فرسان مالطا لملك إسبانيا بضرورة استعادتها من العثمانيين، فقرر ملك إسبانيا فيليب الثاني تجهيز حملة عسكرية لاسترداد طرابلس وطرد العثمانيين منها، وقد رحبت الإمارات الجنوبية لإيطاليا بهذه الخطوة وأعلنت استعدادها للمشاركة في هذه الحملة[1]، كما كان التنافر الحاصل بين طرغود باشا والزعامات المحلية في الجنوب الشرقي التونسي من الدوافع الأخرى التي حركت فرسان مالطا للقيام بهذه الحملة، إذ يذكر حاجي خليفة في كتابه "تحفة الكبار في أسفار البحار" أنه كان:".. **بين طرغود باشا وأمراء العرب حرب وصراع، وأن أمراء العرب ومشايخهم يميلون إلى الفرنجة وأنهم يريدون أن يضربوا الدولة العثمانية وأن يسيؤوا إليها.."**[2] وقد كان هذا العامل من العوامل الأخرى التي أراد فرسان مالطا استغلالها لاسترداد طرابلس وسواحل البلاد التونسية في آن واحد .

كلّف فيليب الثاني ملك إسبانيا "دون دي مدينا شيلي" (Don Medina Coeli) نائب ملك صقلية بقيادة الحملة والإعداد لها، فقام بتجهيز أسطول قوامه أربع وخمسون سفينة من نوع قاليرا وغليوطة وثماني وعشرين قطعة بحرية كبيرة أخرى وضع على رأسها القائد الجنوي الشهير أندري دوريا، فيما تولى دون ألفارو دي ساندي(Don Alvaro De Sande) قيادة الجيش البري، وقد كان عدد الجنود المشاركين في هذه الحملة حوالي إثني عشر ألف جندي من نابولي وصقلية وفلورنسا إضافة إلى قوات البابا وجنود من ألمانيا وإسبانيا[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص223، منفروني كاميللو، إيطاليا في الأحداث البحرية الطرابلسية، تر، عمر محمد الباروني وصلاح الدين السوري، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1988، ص89

[2] خليفة حاجي، تحفة الكبار في أسفار البحار،تح و تع، محمد حرب وتسنيم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم،2017، ص138

[3] روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص223، منفروني، المرجع السابق، ص59

1-2- تحرك الدولة العثمانية لوقف تهديدات فرسان مالطا:

في الوقت الذي كان الإسبان يُعدون فيه العُدة للحملة على طرابلس وصلت الأخبار بشأنها إلى الباب العالي حيث أن القبودان بيالة باشا وكذا حاكم طرابلس طرغود باشا قد قاما بإبلاغ الباب العالي بتحركات فرسان مالطا مما جعل الأخير يقوم فورا بإصدار أوامره لحكام إيالاته المغربية بضرورة اتخاذ الاحتياطات والاستعدادات اللازمة لمجابهتها[1]، وهو ما يظهر كذلك من خلال رسالة موجهة إلى حاكم طرابلس طرغود باشا خطابا يخبره فيه بأهمية إيالة طرابلس الغرب وبضرورة الحفاظ عليها من حملات الصليبيين وذلك في رسالة بتاريخ5ربيع الأول 967هـ/5ديسمبر 1559م جاء فيها:

" حكم إلى بكلربكي طرابلس الغرب طرغود باشا

أرسلت رسالة إلى سدة سعادتي تبلغ فيها أنه بعد عودة أسطولنا السلطاني قام الكفار الأذلاء بإعداد العدة لتحشيد سفنهم وأنهم يعتزمون التوجه نحو الولاية المذكورة، وبناء عليه فإن إيالة طرابلس هي كسائر ممالكي الحروسة..ويُعد حفظها وحراستها بكل وجه من الوجوه والحيلولة دون إلحاقها بضرر أو أذى من أعداء الدين من أهم الأمور، ولهذا فقد تم مرة أخرى تجهيز مراكب بحرية لا حد لها لهذا الغرض..وعند تحقق تحركات الكفار المندحرين إلى تلك الأرجاء مثلما ذُكر، تهيأ أنت بحسن التدبير والتجهيز..وتكون قلبا وقالبا مع قبائل الأعراب ومشايخ العربان وغيرهم من أهالي الولاية وبحسن الاتحاد والاتفاق معهم..وتحفظ ليلا ونهارا وبالوجه المناسب مدينة طرابلس والمناطق الواقعة في تلك السواحل وتحرسها، وتعمر القلاع المحتاجة إلى التعمير والترميم، ولا تتهاون في تجهيزها بالأسلحة والمعدات، وتحول بعناية الله تعالى دون إلحاق أعداء الدين والكفرة الملاعين الضرر والأذى بالبلاد والولاية والقلاع والبقاع والنواحي والقرى والرعايا والبرايا..."[2]، ومن هنا يظهر جليا اهتمام الباب العالي وحرصه على أمن إيالاته المغاربية وسعيه إلى وقف أي تهديد صليبي ضدها، وفي هذه المراسلات كذلك نلحظ حرص الباب العالي على ضرورة التنسيق والتعاون بين الإيالات المغاربية فيما بينها، وكذا تأكيده على أن القوات العثمانية الهمايونية جاهزة دائما للالتحاق بالقوات العثمانية في الإيالات المغاربية لردع وقتال أي حملة صليبية على الإيالات المغاربية.

---

[1] حاجي خليفة، المصر السابق، ص138

[2] بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية النصف الأول من القرن10هـ/16م، تق، خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول،2010، ج3، ص293-295

3-1: حملة فرسان مالطا على طرابلس الغرب (معركة جربة 1560م ونتائجها):

انطلقت الحملة الإسبانية المالطية في شهر أكتوبر 1559م غير أنها اضطرت بسبب سوء الأحوال الجوية للنزول في جزيرة مالطا[1]، قبل أن تستأنف الحملة وجهتها نحو طرابلس بعد أن اجتمعت في مالطا كل الوحدات العسكرية يوم 10 فيفري 1560م، وبعد أن استقرت الحملة قبالة جزيرة جربة بدأ قادتها بالاتصال مع الزعماء المحليين المناهضين للوجود العثماني في الجزيرة وخاصة زعماء قبيلة المحاميد الذين أبدوا تأييدهم للحملة الإسبانية على طرابلس، ومن قبالة جزيرة جربة زحفت القوات الإسبانية باتجاه طرابلس ونزلت في سواحل مدينة زوارة، وبمساعدة القبائل المحلية المناهضة لطرغود باشا والعثمانيين وصلت القوات الإسبانية قبالة مدينة طرابلس، غير أن وقوف قائد الحملة دون مدينا تشيلي على تجهيزات المدينة وتحكيماتها الجيدة جعله يضطر للانسحاب إلى جزيرة جربة مرة أخرى[2].

في 7مارس نزلت القوات المالطية -الإسبانية بجزيرة جربة وبسبب ضعف الاستعدادات العسكرية في جربة فقد استطاعت بعد مناوشات مع بعض الفرق المحلية والعثمانية هناك السيطرة على حصن الجزيرة والاستقرار فيه[3].

بعد سقوط جربة اتصل طرغود باشا بالباب العالي موضحا له أن سقوط جربة وتهديدات فرسان مالطا تمثل هزيمة لكافة المسلمين في المنطقة[4]، ومن أجل ذلك لم يتأخر الرد العثماني حيث جهز الباب العالي حملة بحرية تحت قيادة القبطان بياله باشا وصلت إلى جربة في 10 ماي 1560م، وفي معركة قصيرة استطاع الأسطول العثماني أن يهزم القوات المالطية-الإسبانية التي اضطر قسم كبير منها إلى الفرار إلى صقلية في الوقت الذي غرقت فيه العديد من القطع البحرية أو وقعت في أسر القوات العثمانية، أما قائد القوات البرية ألفارو دي ساندي فقد بقي محاصرا في حصن الجزيرة ينتظر وصول الدعم من صقلية ومالطا إلى غاية 29 جويلية كان لايزال يقاوم رفقو من معه من الجند بشراسة وبسالة قبل

---

[1] Kavas Ahmet, Osmanli Devleti 'ni Kuzey Afrika'da Kalicilastiran Sefer : Tunus Savasi 1574, Siyasal bilgiler facyulesi (ISMUS), I/1, 2016, p18

[2] إيفانوف، المرجع السابق، ص227

[3] منفروني، المرجع السابق، ص60،

[4] Kavas, op-cit, p18

أن يقع في أسر القوات العثمانية واضطرت بعد ذلك الحامية المالطية-الإسبانية في جزيرة جربة للاستسلام بعد تأكد الهزيمة[1].

حسب "جون وولف" فإن نتائج هذا النصر العثماني لم تكن عسكرية فقط، فقد كانت نسفاً مريعا للسمعة الإسبانية ولأمنها كذلك، كما أن هذا النصر قد زاد من قوة وعمليات البحارة العثمانيين في المتوسط، فضلا عن كونه شجّع الموريسكيين عن الانتفاضة ضد السلطات الإسبانية وقوّى لديهم إرادتهم في التخلص من اضطهادها[2]، والأهم من كلّ ذلك فقد كانت هذه الهزيمة التي ألحقها العثمانيون بالإسبان في جزيرة جربة قد جعلت الباب العالي فكر جديا في الاستيلاء على جزيرة مالطا والقضاء نهائيا على تنظيم فرسان القديس يوحنا وهو ما سنتطرق إليه في العنصر الموالي.

ومن هنا فقد نجحت الدولة العثمانية في ردع أول حملة خارجية كبيرة على طرابلس الغرب من انضمامها الرسمي إلى الباب العالي، وقد رأينا من خلال المراسلات العثمانية كيف كان الاهتمام كبيرا من قبل الباب العالي بشأن حفظ وتأمين إيالة طرابلس من التهديدات التي تواجهها.

هذا؛ ونظرا لحرصه على تشجيع وتثمين دور العنصر المحلي في وقف التهديدات الخارجية على إيالاته المغاربية فقد بعث الباب العالي برسالة تنص على تقديم منح وعلاوات لجميع الرؤساء المتطوعين المشاركين مع الأسطول الهمايوني في معركة جربة[3].

2-ضرب فرسان مالطا لمصالح الدولة العثمانية وإيالاتها المغاربية:

حتى بعد هزيمتهم في جربة سنة 1560م لم يتوقف فرسان مالطا عن تهديد إيالة طرابلس الغرب، حيث قاموا سنة 1561م بغزو مدينة مصراتة وقاموا بنهبها وأسر ما يقارب خمساً وستين أسيرٍ أغلبهم من النساء والأطفال، إضافة إلى عمليات الإغارة على السفن التجارية العثمانية وتهديد مبادلاتها الاقتصادية، ففي ربيع عام 1564م استولى فرسان مالطا على سفينة تابعة لحكومة طرابلس الغرب وسفينتين للشحن مرسلتان من من اسطنبول إلى طرغود باشا، وفي جوان من نفس العام هاجم فرسان مالطا في البحر الأدرياتيكي سفينة عثمانية كبيرة كانت متوجهة إلى ميناء البندقية، بل أن قرصنة فرسان

---

[1] حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 140، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص224

[2] وولف، ج.ب، الجزائر وأوروبا، تر و تح، أبو القاسم سعد الله، ط.خ،دار عالم المعرفة، الجزائر،2009، ص75

[3] دفتري مهم 3، حكم 1611، 968هـ

مالطا طالت حتى إحدى السفن الحاملة لأغراض منقولة إلى قصر السلطان العثماني وهو ما اعتبره الأخير إهانه لشخصه ولعائلته على حد تعبير المؤرخ الإنكليزي إدوارد كريسي Edward Creasy.[1]

وعلى العموم وحسب المؤرخ الإيطالي إيتوري روسي فإن أسباب الصراع بين العثمانيين وفرسان مالطا لا يمكن حصرها نظرا لحالة الحرب الدائمة بين الطرفين والتي جعلت حكام إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب على الخصوص يهتمون أشد الاهتمام بفرسان مالطا وتهديداتهم المستمرة على الإيالات العثمانية وعلى النفوذ العثماني في غرب المتوسط[2].

3- الأهمية الاستراتيجية لجزيرة مالطا:

كانت إذاً التهديدات التي يقوم بها فرسان مالطا على المصالح الاقتصادية وكذا الاستراتيجية للعثمانيين من أسباب إصرار سليمان القانوني على تنظيم حملة للاستيلاء على الجزيرة، هذا؛ ويذكر المحامي في كتابه "تاريخ الدولة العلية العثمانية" أن هناك عاملاً مهماً آخر جعل العثمانيين يفكرون في الاستيلاء عليها ألا وهو الأهمية الاستراتيجية الكبيرة لهذه الجزيرة، حيث أن هذه الأخيرة تقع قبالة كل من طرابلس الغرب وتونس وجنوب إيطاليا، حيث من كان الضروري-حسب المحامي- أن تحتلها أي دولة تريد أن يكون لها اليد الطولى على البحر المتوسط[3]، كما يذكر المؤرخ الإنجليزي إدوارد كريسي أن سليمان القانوني كان جِدُ مهتم بالأهمية العسكرية والسياسية التي تمتلكها جزيرة مالطا، إذ لو كانت القوات العثمانية قد استقرت في السابق في مالطا فإنها كانت ستستخدم كقاعدة للعمليات العسكرية البحرية في غرب البحر المتوسط والتي كانت ستنجح لا محالة[4]، أما الكاتب التركي Ahmet Kavas فيعتبر أن الحصار العثماني لمالطا كان مهما جدا من حيث التنافس الثنائي

---

[1] كريسي إدوارد شيفرد، تاريخ الأتراك العثمانيين، تر، سالم أحمد سالم، ط1، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة، 2019، ص182، أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرّين والبحرين، تر، جمال فاروق وأحمد كمال، ط2، دار النيل، القاهرة، 2015، ص433، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص229

[2] المرجع نفسه، ص229

[3] المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان 1981، ص249

[4] كريسي، المرجع السابق، ص182، أمجان، المرجع السابق، ص434

الذي استمر على مدى عقود في المنطقة[1]، بمعنى أنه قد يلعب دورا كبيرا في ترجيح ميزان إحدى القوتين على الأخرى في البحر المتوسط.

وقد كان الإسبان مثل العثمانيين يدركون جيداً الأهمية الاستراتيجية للبحر المتوسط[2] في الصراع القائم بين الطرفين خلال القرن 16م، حيث بدأ فيليب الثاني[3] Phillip 2 ملك إسبانيا وخليفة الإمبراطور شارلكان برنامجاً طموحاً لإنشاء أساطيل بحرية في مياه البحر المتوسط في جنوب إيطاليا والساحل الشرقي لإسبانيا، كما تلقى عونا من البابوية لتحقيق هذا الغرض، وفي سنة 1562م اجتمع برلمان قشتالة في دورة غير عادية لتقديم العون والمزيد من الدعم لهذا المشروع[4]، وفي المقابل زاد اهتمام سليمان القانوني بتعزيز السفن الحربية في غرب البحر المتوسط منذ ضم طرابلس سنة 1551م[5] من أجل حماية الأقاليم العثمانية في المنطقة وذلك لبُعدها عن مقر الخلافة .

ثانيا: الحصار العثماني لمالطا ماي-سبتمبر 1565م:

1- الاستعدادات العثمانية لفتح مالطا:

في سنة 1564م عقد سليمان القانوني مجلس الشورى في مقر الخلافة باسطنبول حول اتخاذ قرار بشأن إرسال حملة عسكرية للاستيلاء على مالطا، وخلُص المجلس إلى

---

[1] Kavas, op-cit, p18

[2] للمزيد حول أهمية البحر المتوسط في العلاقات الدولية المتوسطية خلال العصر الحديث ينظر:بعرة مريم رزاق، أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية و انبعاث النشاط البحري الجزائري في العصر الحديث، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، جامعة الوادي، الجزائر،ع3، 2015

[3] فيليب الثاني2 Phillip : هو ابن الإمبراطور شارلكان وخليفته، تولى عرش الإمبراطورية الإسبانية مابين 1558-1598م، للمزيد حوله ينظر:حتامله محمد عبده، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني، ط1، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1982، ص11-24

[4] كولز بول، العثمانيون في أوروبا، تر، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، د.ط، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1993، ص94

[5] للمزيد حول اهتمام القوى الكبرى في البحر المتوسط بالأساطيل البحرية في العصر الحديث وتطور الأسطول العثماني ينظر: عبد الحي نبيل رضوان، تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، ع20،1998

االموافقة على القرار[1]، وفي شهر ديسمبر من نفس العام أرسل السلطان العثماني إلى جميع رؤساء البحرية في الأقاليم العثمانية بضرورة التأهب للمشاركة في هذه الحملة[2] [3].

وفي مارس 1565 م أعطى السلطان سليمان الإذن بخروج الأسطول الهمايوني لفتح مالطا، وكان السلطان العثماني قد جعل قيادة الحملة تحت كل من القبودان[4] بياله باشا[5] والسردار[6] مصطفى باشا[7] وقد جاء في كتاب "تحفة الكبار في أسفار البحار" حول هذه الحملة:**"...عندما رجع بياله باشا بالأسطول العثماني من حماية الشواطئ العثمانية في سنة 968هـ** (1560م)، **صدر له الأمر السلطاني بتجهيز السفن لحملة مالطا، وأصبح مصطفى باشا بن أحمد قائداً، واقتحم بياله باشا البحر بجنود من الأناضول والروميللي**

---

[1] سالم أحمد سالم، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، 2011، ص141، كريسي، المرجع السابق، ص182

[2]Haedo F.D ,Histoire des Rois d'Alger, Tr, H.D De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger,1881, p130

[3] في ديسمبر 1565م أصدرت تعليمات لكل من حاكم جزيرة ميدللي وحاكم الإسكندرية علج علي بتجهيز السفن استعدادا لغزو مالطا، كما تمت مراسلة حسن باشا حاكم الجزائر وطرغود باشا حاكم طرابلس بشأن هذه المهمة، هذا إضافة إلى توجيه تعليمات بحشد قوات عسكرية في حوالي عشرين إمارة بالأناضول والروميللي، ينظر: أمجان، المرجع السابق، ص435

[4] قبطان داريا Kaptani Derya : الاسم الذي أطلق على أكبر منصب بحري في الدولة العثمانية يقابله في الوقت الراهن رئيس القوات البحرية أو الأميرال، صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة السعودية، 1999، ص177

[5] بياله باشا: أصله من كرواتيا، يعتبر من أشهر أمراء البحر العثمانيين، قائد الأسطول العثماني في حصار وهران 1556م، وفي معركة جربة 1560م وفي حصار مالطا 1565م، تولى منصب قبطان داريا بعد سنان باشا من 1554-1578م، ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص137، الصدّيقي محمد بن أبي السرور، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تح، ليلى الصباغ، ط1، دار البشائر، بيروت، 1995، (هامش المحقق)، ص115

[6] السردار Serdar: هو اللقب الذي يُطلق على الصدر الأعظم حين يخرج لحرب لا يكون السلطان مشاركا فيها، وكان يقال له أيضاً السر عسكر أي قائد الجيش، ينظر:صابان، المرجع السابق، ص133

[7] مصطفي باشا أو لاله كارا مصطفى باشا:من أصل ألباني، كان الوزير الخامس في مجلس سليمان القانوني أثناء تكليفه بقيادة الحملة السلطانية على مالطا سنة 1565م، والحملة على قبرص سنة 1570م، ارتقى لمنصب الصدر الأعظم (الوزير الأول) سنة 1580م وتوفي في نفس العام، ينظر:حاجي خليفة، المصدر السابق، ص154، المنح الرحمانية، المصدر السابق (هامش المحقق)، ص114، كريسي، المرجع السابق، ص182

بمائة وخمسين قطعة سفينة مختلفة الأنواع من الأسطول السلطاني وذلك في وفي أواخر شعبان سنة 971هـ[1]**(جانفي 1565م)، وقاموا من ميناء آوارين في 14شوال (15ماي 1565م) واتجهوا نحو مالطة..."**[2]، وقد كانت القوات العثمانية التي خصصت لهذه الحملة كبيرة جداً حيث كانت القوات التي خرجت من موانئ القسطنطينية وحدها باستثناء قوات الأقاليم العثمانية الأخرى تتكون من حوالي مائة وخمسن سفينة وما يقارب الخمسين ألف جندي[3]، كما انضمت إلى هذه القوات في وقت لاحق وحدات مختارة من مصر وطرابلس الغرب والجزائر، هذه الأخيرة التي بعث السلطان العثماني لحاكمها حسن بن خير الدين بخطاب سلطاني بتاريخ بتاريخ 25 جمادى الأول 972هـ/ أواخر جانفي 1565م جاء فيه:

"حكم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب

...قد تم تعيين الدستور المكرم وزيري مصطفى باشا قائدا بنية فتح قلعة مالطا الواقعة في ديار الغرب وكما هو معروف منذ أمد بعيد بأن تلك الجزيرة هي بمثابة مقر للكفار أصابهم الدمار الذين لا يرتدعون عن قطع طريق الحجاج والتجار القاصدين مصر بحرا ملحقين بهم كل أنواع الخسائر لذا فإن قلع وقمع تلك القلعة هو من أمر من واجبات الدين ومن مهمات دولتي الهمايونية..."[4]، ونظرا لأهمية هذه الغزوة فقد طلب الباب العالي من حاكم الجزائر تجنيد مجموعة من الرياس والبحارة المتطوعين للمشاركة فيها كما تعهد الباب العالي بمكافأة هؤلاء المتطوعين وكل من يشارك في حملة مالطا رفقة القوات العثمانية حيث جاء في ذات الخطاب:**"...أنْ تستميل وترغب الرؤساء المتطوعين في تلك الديار إلى غزوتي الشريفة، وأن تعلن أن كل من يشارك ويقدم خدماته سيكون محط رعايتنا الملوكية...ولن يضيع أجر أحد منهم، وبناء على ذلك فلتعلم الرؤساء بمقامي الشريف وأن تظهر كل أنواع اهتمامك وسعيك في سبيل الدين المتين."**[5]ومن

---

[1] انطلاقا مما ورد في مراسلات الباب العالي بخصوص هذه الحملة فالأصح هو سنة 972هـ

[2] حاجي خليفة، المصدر السابق، ص144

[3] تختلف الكتابات حول عدد القوات العثمانية المشاركة في هذه الحملة، للمقارنة ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص237، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص230، مانتران، المرجع السابق، ص230، Belhamissi Mouley, Marin et Marins d'Alger 1518-1830, Bibliothèque National d'Algérie, Alger, 1996, p93, T2

[4] دفتري مهم 6، حكم 565، 25جمادى الأولى972هـ

[5] نفسه

خلال استعانة الباب العالي بالبحارة المتطوعين من العنصر المحلي[1] يتضح لدينا جليا الأهمية الكبيرة لهذه الحملة والسعي الحثيث من قبل الدولة العثمانية للاستيلاء على جزيرة مالطا.

في المقابل؛ كان فرسان مالطا قد استعدوا لهذه الحملة بأن نقلوا الشيوخ والنساء إلى إيطاليا، كما زادوا من تحصينات الجزيرة وأنشأوا نظام اتصال بين حصونها لصد الهجوم العثماني[2] في الوقت الذي شرع فيه رئيس فرسان مالطا دولافاليت[3] (De La Valette) بربط اتصالاته مع ملك إسبانيا فيليب الثاني والبابا بيوس الرابع لحثّهم على ضرورة إرسال كل مايمكنهم إرساله من القوات لمنع سقوط مالطا وتجنيبها نفس مصير جزيرة رودس، كما أوعز لهما بكون سقوط مالطا سيعرّض المسيحية والدول المسيحية للخطر[4].

2-بداية الحصار:

في 18ماي 1565م وصلت القوات العثمانية إلى شواطئ مالطا و استقرت بمرسى السيروكو(Marsasirocco) قرب الجزيرة[5]، ومنذ اللحظة الأولى انقسمت قيادة الحملة العثمانية فيما إن كان يجب أن تباشر الهجوم قبل وصول الدعم من إسبانيا والجنوب الإيطالي لفرسان مالطا، أم تنتظر وصول الدعم من طرغود باشا حاكم طرابلس ومن حاكم

---

[1] تذكر في هذا الصدد الباحثة بوحمشوش نعيمة أن التعاون اللوجستيكي والعسكري بين الباب العالي وإيالة الجزائر كان قائما طيلة القرن 16م، وقد تمثل ذلك –إضافة إلى المشاركة في الحروب- في توفير الحِرفيين والمواد الاستراتجية والمؤن والذخيرة، وأنّ هذا التعاون والتضامن لم يكن -حسب الباحثة- مع حكومة الجزائر فقط بل مع العنصر المحلي من جميع أنحاء الإيالة. ينظر: بوحمشوش نعيمة، التضامن بين إيالة الجزائر والباب العالي أثناء القرن السادس عشر من خلال وثائق "مهمة دفتري"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ع30، 2015، ص113

[2] Belhamissi, op-cit,T2, p93, Heers Jacque, Les Barbaresques(La course et la guerre en Méditerrané), Ed8, Perrin Editeur, Paris, 2008, p88

[3] جون دو لافاليت باريزو De La Valette Parosot: من أشهر قادة فرسان مالطا، اصله من أسرة نبلاء فرنسية، تولة مهمة الدفاع عن الجزيرة اثماء حصار 1565م، سميت نسبة له عاصمة الجزيرة "فاليتا". ينظر: وولف، المرجع السابق، ص79

[4] بوحمشوش نعيمة، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن 16م، ط1، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص170، 171

[5] Athénien Chalcondil, Histoire général des Turcs, Tr, Blaise de Vigenaire, Imprimerie et Librairie Ordinaire du Roy, Paris, T1, 1663, p648, De Rotalier.Ch, Histoire d'Alger et de La piraterie des Turcs dans La méditerrané, Paulin Libraire Editeur, Paris , 1841,T2, p196

الجزائر حسن باشا[1]، غير أن القائد مصطفى باشا أخذ بالرأي الأول وقرر أن يباشر الهجوم[2]على حصن سان إلمو (San Elmo) أحد حصون جزيرة مالطا الأربعة[3]وقام بإنزال ثلاثة آلاف جندي إلى بر الجزيرة[4].

بعد عشرة أيام من القصف العثماني غير المُجدي على حصون مالطا وصلت قوات مصر بقيادة علج علي[5] قادمة من ميناء الإسكندرية مكونة من ست سفن تحمل ما يقارب ألف رجل[6]، وفي اليوم الموالي وصل طرغود باشا من طرابلس رفقة خمس عشرة سفينة وألف وأربعمائة جندي[7]، ومنذ اللحظة الأولى عارض طرغود باشا الهجوم العثماني على حصن "سان إلمو" مبرراً ذلك بأن الحصن هو الأقل أهمية عسكرية بين الحصون إذ أنه سيسقط طواعية بمجرد تمكن القوات العثمانية من الاستيلاء على الحصون الأخرى، غير أن طرغود باشا لم يشأ شق الصف داخل الحملة وواصل مع باقي القيادة قصف حصن "سان إلمو"[8].

كانت القوات المدافعة عن جزيرة مالطا تتكون من سبعمائة فارس وثمانية آلاف وخمسمائة جندي إضافة إلى بعض المرتزقة من الجنوب الإيطالي[9]، وقد وُفِقت هذه القوات

---

[1] Heers, op-cit, p88

[2] رأى بيالة باشا أن من الأحسن انتظار قدوم طرغود باشا وقواته من طرابلس، في حين قرر مصطفى باشا بدء الهجوم دون انتظار قوات الإيالات المغاربية. ينظر: كريسي، المرجع السابق، ص183

[3] هذه الحصون هي: حصن سان إلمو، حصن سان ميشال، حصن سان أنجيلو وحصن البورغو، ينظر:روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص230

[4] De Rotalier, op-cit, p196

[5]علج علي أو قليج علي: بحار وقائد عثماني أصله من كلابريا بإيطاليا، حكم إيالة طرابلس بعد وفاة طرغود باشا، تولى منصب حاكم الجزائر بايلرباي أفريقية، وأصبح قبودان باشا قائدا عاما للأساطيل العثمانية سنة 1571م، للمزيد حول هذه الشخصية ومساهمتها في الحروب العثمانية ينظر: سي يوسف محمد، قليج علي ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1988، تركي عباس، إضاءات حول شخصية بايلرباي الجزائر قليج علي 1568-1587م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، م2، ع4، 2020، .Maxange, op-cit

[6] سحابات زهيرة، البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة تيارت، الجزائر،ع9، 2016، ص142

[7] Athenien, p651, op-cit, روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص230

[8] De Rotalier, p203, op-cit, كريسي، المرجع السابق، ص183

[9]المرجع نفسه، ص183

في الوقوف أمام هجمات العثمانيين والنجاح في الدفاع عن الجزيرة، وزاد من صعوبة القوات العثمانية في فتح الجزيرة مقتل طرغود باشا يوم 16 جوان أثناء هجومه على حصن سان إلمو، إذ أصابت رأسه شظية صخرية بقي جراءها يصارع الموت إلى أن توفي يوم 23 من نفس الشهر، وقد كان لوفاة طرغود باشا أثر جد سلبي على الحملة إذ أثارت القلق والاضطراب في صفوف القوات العثمانية[1].

في 20 أوت عقد نائب ملك صقلية الدون غارسيا دو توليدو (الطُلَيطُلي) (Don Garcia de Tolledo) مجلساً للتشاور حول إرسال الدعم لفرسان مالطا لمواجهة الحصار العثماني للجزيرة، وقرر المجلس إرسال ستين سفينة حربية و خمسة عشر ألف جندي رفقة ألف وخمسمائة متطوع بقيادة دون ألفارو دي ساندي (Alvaro de Sande) و أسكانيو دي لاكورنيا (Ascanio de la Cornea) وتشابين فيتللو(Chapin Vitello) لدعم فرسان مالطا، والتأم شمل هذه القوات في غضون خمسة عشر يوماً في ميناء صقلية ونزلت بجزيرة مالطا يوم 7 سبتمبر1565م[2] [3].

بعد وصول أنباء الدعم الإسباني لفرسان مالطا ومن أجل الحيلولة دون وصولها للجزيرة أرسل حسن بن خير الدين القائد علج علي على رأس ثمانين سفينة لمواجهة سفن الإسبان القادمة لدعم فرسان مالطا[4]وإن كانت بعض الكتابات الأجنبية قد برّرت هذه الخطوة على أنها انسحاب من قبل العثمانيين[5]، هذا؛ وقد أمر مصطفى باشا بمواصلة الحصار خاصة بعدما علم أن قوات الدعم الإسباني ليست بالحجم الذي يكافئ القوات العثمانية[6]، لكن ورغم محاولة الاستمرار فشل العثمانيون في اقتحام الجزيرة التي استعصت عليهم خاصة أن مدة حصارهم للجزيرة قد طالت قرابة الأربعة أشهر، زد على ذلك نفاذ الذخيرة والمعدات أمام صلابة دفاع فرسان مالطا[7].

---

[1] حاجي خليفة، المصدر السابق، ص145، سي يوسف، المرجع السابق، ص75، روسي، المرجع السابق، السابق، ص230

[2] Ibid, p130, Athenien, op-cit, p660, Heers, op-cit, p91

[3] تجدر الإشارة إلى أن مالطا لا تزال إلى اليوم تحتفل بالسابع من سبتمبر عيداً وطنياً لها، ينظر:روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص231

[4] De Rotalier, op-cit,p239

[5] ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص237، Heers, op-cit, p91

[6] De Rotalier, op-cit, p240

[7] سالم أحمد، المرجع السابق، ص141

3-نهاية الحصار وأسباب فشله:

انتهى الحصار العثماني بفشل فتح جزيرة مالطا، إضافة إلى مقتل حوالي عشرين ألف جندي عثماني منهم ثمانية آلاف من القوات البحرية، أما فرسان مالطا والقوات الإسبانية فخسروا حوالي تسعة آلاف جندي وستمائة فارس[1]، في حين بخصوص قوات إيالة الجزائر فيذكر هايدو(Haedo) أنها تضررت بشكل كبير حيث قتل حوالي نصف الجنود الذين ذهبوا للمشاركة في الحملة رغم نجاح حسن بن خير الدين في العودة بجميع سفنه الثمانية والعشرين إلى ميناء الجزائر[2].

تذكر الروايات التي أرّخت لحصار مالطا أن هناك بعض العوامل التي أدت إلى فشل استيلاء العثمانيين على جزيرة مالطا رغم القوات الكبيرة التي شاركت في حصار الجزيرة، ويبدو أن الاختلاف الحاصل بين مصفى باشا وبياله باشا في بداية الحصار هو السبب الرئيسي لهذا الفشل، حيث جاء عن صاحب "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية" أنْ:"**...فأرسل مولانا السلطان عسكراً لأخذها** (أي جزيرة مالطا) **فما أمكن لخلاف وقع بين السردار مصطفى باشا وبين القابدان، وهي الآن في أيدي النصارى...**"[3] وقد تمّت الإشارة آنفاً لفحوى هذا الخلاف وهو أن مصطفى باشا رفض انتظار قدوم قوات الإيالات وباشر بالهجوم.

السبب الثاني لفشل هذه الحملة هو الخطأ العسكري الذي قام به مصطفى باشا بأن بدأ الهجوم على حصن سان إلمو والذي لم يكن ذو أهمية عسكرية كبيرة، وقد كان طرغود باشا قد عارض بعد وصوله هذه الخطوة غير الفعالة، ضف إلى ذلك التنافس والغيرة –إن صح التعبير- التي كان يكنّها قائدي الأسطول لطرغود باشا وهذا ما أشار إليه إدوارد كريسي في خضم حديثه عن حصار مالطا[4].

فضلا عن ذلك؛ فقد كان لوفاة طرغود باشا أثناء الحصار أثر سلبيٌ جداً على مسار الحملة، إذ أن الأخير كان من أكبر أمراء البحر العثمانيين وكانت وفاته خسارة كبيرة للقوات

---

[1] ينظر: روسي، المرجع السابق، ص231، كريسي، المرجع السابق، ص185، De Rotalier ,op-cit, p241

[2] Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p130

[3] المنح الرحمانية، المصدر السابق، ص113،114

[4] ينظر: كريسي، المرجع السابق، ص182، وكذلك، المنح الرحمانية، المصدر السابق (هامش المحقق)، ص115

العثمانية، وقد أدّت أيضا إلى اضطراب كبير في صفوف العسكر العثماني[1]، كما كان تأخر وصول حسن بن خير الدين حاكم الجزائر وقواته عاملاً آخر في فشل الحملة، إذ لم تصل القوات الجزائرية إلى مالطا إلا بعد ما يفوق شهرين ونصف من بداية الحصار، ولم يُحدِثْ وصولها المتأخر تغييرا كبيرا في مسار الحملة[2] رغم المجهودات العسكرية الجبارة التي بدلتها بعد وصولها، ناهيك عن الدور الذي لعبه الدعم الإسباني لفرسان مالطا في فشل الحملة العثمانية وانسحابها بعد قرابة أربعة أشهر من حصارها لمالطا.

ثالثا: نتائج فشل حصار مالطا:

1-استئناف تهديدات فرسان مالطا على الإيالات المغاربية:

بعد فشل العثمانيين في فتح مالطا وجد الأوروبيون الفرصة مواتية لاستعادة طرابلس وطرد العثمانيين منها فبدأوا بإرسال الجواسيس المسيحيين إلى المدينة يترقبون أخبارها وينقلونها إلى الأوربيين، وهو ما تفطنت إليه الدولة العثمانية وقامت بمراسلة حاكم طرابلس الغرب بخصوص القضية في رسالة بتاريخ 9شوال 973هـ/10 ماي 1566م جاء فيها:"**...يتناهى إلى الأسماع مجيء بعض العلوج والكفار إلى طرابلس متنكرين بزي المسلمين للتجسس على الأوضاع هناك وإخبار الأعداء عنها... ونظرا لعدم جواز التغافل عن الأعداء أمرت: عند وصوله تكون على البصيرة بأتم وجه، وتحفظ المرافئ بالشكل اللازم وتحول دون وصول أحد من العلوج والفرنك إلى طرابلس، وتحفظ الولاية وتحرسها بحيث لا يبقى هناك أي احتمال لقيام الأعداء والعياذ بالله بنشر الفساد...**"[3] وهذا ما يدل على استمرار أو بالأحرى استئناف فرسان مالطا لتهديداتهم وهجماتهم على سواحل كل من تونس وطرابلس الغرب.

---

[1] حسب المؤرخ الإيطالي إيتوري روسي فإن فرسان مالطا قاموا فيما بعد بتشييد برج في الموضع الذي قتل فيه طرغود أطلقوا عليه "رأس طرغود"، ويضيف ذات المرجع أن متحف مالطا لايزال يحتفظ بخنجر ودرع يُنسبان إليه، ينظر: روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص231، وكذلك: كريسي، المرجع السابق، ص184،217 De Rotalier, op-cit, p

[2] Ibid, p219

[3] بيات المرجع السابق، ج3، ص322، كما سبقت هذه المراسلة مراسلة أخرى لحاكم الجزائر حول إمكانية إلتحاقه بالأسطول الهمايوني في شرق المتوسط من عدمها وفيها تأكيد على ضرورة توخي الحذر من الأعداء ورصدهم وعلى ضرورة حفظ البلاد من أي تهديد أو هجوم محتمل، ينظر:دفتري مهم5، حكم 967، 19رجب 973هـ

2-ظهور حركات التمرد ضد السلطة العثمانية في طرابلس الغرب:

صحيح أن حركات التمرد كانت في طرابلس الغرب منذ عهد طرغود ريس إلا أن هذه الانتفاضات والتمردات ضد الحكم العثماني في الإيالة زادت حدتها بعد فشل العثمانيين في حصار مالطا، وربما قد استغل المتمردون هذا الظرف العسكري لاستئناف عصيانهم على الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب، وعن ذلك يقول المؤرخ إيفانوف أنه خلال عهد عليج علي الذي حكم طرابلس الغرب بعد مقتل طرغود ريس في مالطا تم ظهور تمرد جديد في تاجوراء وتاورغاء اضطر علج علي للتعامل معه بكل قسوة، واستمرت نشاط الحركات المناهضة للعثمانيين في الإيالة حيث ظهر كذلك تمرد قبائل البدو في دواخل البلاد والذي استطاعت الحكومة العثمانية في طرابلس الغرب أن تقضي عليه بكل حزم وقوة[1].

أما صاحب "المنهل العذب" فيشير كذلك إلى دور السلطة العثمانية في طرابلس الغرب في تأمين البلاد وفرض الحزم فيها وإن كان هو يعتبر أن خليفة طرغود ريس على الإيالة هو يحيى باشا الذي حكم مابين 1565-1567، إذ جاء عنه:"وولي يحي باشا برتبة طرابلس الغرب بكلربكي فأبدى الحزم وأمّن السبل وأجرى العدل..."[2] في إشارة منه إلى سياسته الصارمة في الإيالة والتي حالت دون نجاح حركات التمرد التي ظهرت خلال فترة ولايته والتي كان ظهورها بعد فشل الحصار العثماني لجزيرة مالطا وفشلهم في طرد فرسان القديس يوحنا منها.

3-الامتناع عن التدخل لدعم ثورة البشارات في إسبانيا 1568-1570م:

من الصعب أن نجد في الوثائق التاريخية ما يؤكد على أن العثمانيين لم يتدخلوا عسكريا في غرناطة لدعم ثورة البشارات بسبب فشلهم في فتح مالطا، وقلّما نجد ما يؤكد ذلك أيضا في الدراسات المعاصرة، غير أننا يمكن أن نعتبر أن هذا الفشل الأخير كان من أسباب عدم تدخل الباب العالي عسكريا في غرناطة، إذ أنه كان من الخطير جدا على الدولة العثمانية أن تفكر في التدخل المباشر لدعم ثورة الموريسكيين التي قامت جنوب إسبانيا بداية من شتاء العام 1568، ففشل الحصار العثماني قد زاد موقف المملكة الإسبانية قوة أمام الباب العالي الذي لم يكن إذ ذاك يجرؤ بالقيام بعملية عسكرية أقصى غرب المتوسط ستكون نتائجها غير مضمونة بشكل مؤكد تماما.

---

[1] إيفانوف، المرجع السابق، ص227، روسي ليبيا، المرجع السابق، ص233

[2] الأنصاري أحمد بك النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د.ط، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس،د.ت، ص210، 211

ضف إلى ذلك فإن حجم العدة والعتاد وكذلك الجند الذي تمت خسارته[1] خلال حصار مالطا قد شكل عاملا آخر يحول دون تفكير الدولة العثمانية في تقديم دعم مباشر لثورة البشارات.

هذا؛ ناهيك عن موقع جزيرة مالطا التي تقع في قلب المتوسط، هذا الموقع الذي يحول دون توجه الأسطول العثماني إلى غرب المتوسط دون صدام مع فرسان مالطا المتمركزين في الجزيرة والذين انتصروا منذ مدة قصيرة على القوات العثمانية وأفشلوا الحصار العثماني، وبالتالي فالدولة العثمانية التي هي بصدد لملمة جراحها بعد فشل حصار مالطا كان من الصعب عليها أن تفكر في التوجه إلى أقصى غرب المتوسط لدعم الثوار الموريسكيين خاصة وأن تركيز الدولة العثمانية كان منصبا أكثر على الاستيلاء على الجزر المتوسطية في شرق المتوسط كما جاء في إحدى الرسائل الموجهة من الباب العالي إلى قادة الثورة الموريسكية[2].

4-البحث عن نقاط استراتيجية جديدة (فتح قبرص 1570م):

لم يوقف الفشل في فتح مالطا مساعي الدولة العثمانية للسيطرة على أهم النقاط والجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط، حيث نتج عن ذلك الفشل تفكير الباب العالي في الاستيلاء على جزر أخرى في المتوسط حيث كان الصراع على هذا الحوض الاستراتيجي على أشده بين الدولة العثمانية والمملكة الإسبانية.

كانت جزيرة قبرص من أهم الجزر في شرق المتوسط خاضعة لحكم إمارة البندقية، وقد كانت هذه الجزيرة تمتلك مكان استراتيجية كبيرة على اعتبارها تقع قبالة ساحل بلاد الشام الخاضعة للدولة العثمانية من جهة وكذلك بين مصر والأستانة من جهة أخرى، وبالتالي فهي تتوسط هذه الأقاليم العثمانية الثلاث وبقاؤها خارج النفوذ العثماني يعني عرقلتها لقنوات الاتصال بين الدولة العثمانية وكل من مصر وبلاد الشام.

ضف على ذلك، فقد كانت سفن البنادقة في جزيرة قبرص كثيرا ما تقوم بقطع طريق الحجاج أو التجار الذاهبين إلى مصر بحرا سواء من بلاد الشام أو من سواحل الأستانة، كما كان البنادقة في قبرص يستولون على سفن المسلمين في شرق المتوسط ويضربون مصالحهم الاقتصادية، ومنه فقد قرر السلطان سليم الثاني تجهيز حملة عسكرية لفتح الجزيرة رغم

---

[1] خسر العثمانيون خلال هذا الحصار حوالي خمسة وعشرين الف جندي إضافة إلى الكثير من المدافع التي تُركت بعد الحصار. ينظر: كريسي، المرجع السابق، ص180

[2] جاء في هذه الرسالة أن أولوية الدولة العثمانية هي فتح جزيرة قبرص القريبة من الأقاليم العثمانية، وأكد الباب العالي في هذه الرسالة على أنه سيطلب من إيالة الجزائر دعم الثورة الموريسكية، ينظر: دفتري مهم 9، حكم 231، 24شوال977هـ/16أفريل 1569م

معاهدة الصلح التي كانت قائمة بين البندقية والدولة العثمانية[1]، إذ أن هذه الحملة قد أجازتها فتوى مفتي الباب العالي أبو السعود أفندي على أساس أنها كانت في السابق أرضا إسلامية تم احتلالها لاحقا من قبل الكفار[2].

وعلى هذا الأساس تم تجهيز الأسطول العثماني لفتح قبرص والذي كان يضم مائة ألف جندي بقيادة بياله باشا والسردار لالا مصطفى باشا وبدأت عمليات فتح حصون جزيرة قبرص تباعا (لفكوشا، ماغوسا، نيقوسيا) في الفترة مابين مارس 1570 وجويلية 1571م[3].

وهكذا تم للعثمانيين السيطرة على إحدى أكبر جزر البحر المتوسط وأكثرها قيمة استراتيجية، ولم يكن فشل حصار مالطا إلى دافعا أخر دفع بالدولة العثمانية التفكير في مواصلة مساعيها للسيطرة على الجزر الحيوية في المتوسط خاصة تلك التي تهدد مصالحها الاقتصادية والعسكرية وهو ما تم لها من خلال فتح قبرص، غير أن هذا الأخير سيفتح لها في المقابل بابا آخر من أبواب الصراع مع الغرب المسيحي ممثلا في معركة ليبانتو الشهيرة في أكتوبر 1571م.

خاتمة:

نخلص في الأخير إلى أن القوى السياسية في حوض البحر المتوسط قد أعطت قيمة كبيرة للجزر المتوسطية وحرصت كل الحرص على السيطرة عليها، وهو ماشهدناه من خلال الصراع العثماني الإسباني على جزيرة مالطا الواقعة في قلب المتوسط وكيف حشد كل طرف قواته البشرية والمادية من أجل الاستيلاء عليها/ الدفاع عنها.

إضاقة إلى ذلك يمكننا القول أن اتخاذ فرسان القديس بوحنا لجزيرة مالطا مقرا لهم واستخدامها كنقطة حيوية لضرب المصالح العثمانية كان من أهم الدوافع التي حرّكت الباب العالي للاستيلاء على مالطا، إذ أن الدولة العثمانية لم يكن بإمكانها البقاء مكتوفة الأيدي في وجه ضربات فرسان القديس يوحنا وكان لابد لها من رد فعل عسكري لردع هذا التنظيم الصليبي الذي تمادى في ضرب المصالح الاقتصادية والاستراتيجية العثمانية.

كذلك نستطيع القول بأن حصار مالطا كان له نتائج جيوسياسية أكثر من النتائج العسكرية، إذ أن فشل الحصار العثماني قد ساهم بشكل كبير في تغيُّر السياسات الاستراتيجية لكلا الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية على حد سواء، وخاصة العثمانية التي

---

[1] حاجي خليفة، المصدر السابق، ص153، سي يوسف، المرجع السابق، ص107

[2] حاجي خليفة، المصدر نفسه، ص153، 154

[3] كريسي، المرجع السابق، ص208، سي يوسف، المرجع السابق، ص107

اضطرت بعد فشلها في هذا الحصار لوقف تدخلاتها العسكرية المتعددة في حوض المتوسط وهو ما رأيناه في ترددها في التدخل العسكري لدعم ثورة البشارات في إسبانيا.

هذا؛ كما نخلص كذلك إلى أن الدولة العثمانية ورغم فشلها في حصار مالطا إلا أنها لم تتراجع عن سياستها الاستراتيجية في البحر المتوسط والهادفة للاستيلاء على أكبر عدد من الجزر والنقاط الاستراتيجية في حوض المتوسط وهو ما تمّ لها باحتلالها لجزيرة قبرص الحيوية في شرق المتوسط سنة 1570م.

قراءة في الأسباب والانعكاسات للصراع الإسلامي المسيحي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

الباحث موسى العاشوري
طالب دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة سوسة/ تونس
moussa.achouri@flsh.u-sousse.tn

المقدمة:

يمثل الصراع الإسلامي -المسيحي حلقة من حلقات الصراع الذي شهده العالم على مدى العصور، فعرفت بلاد المشرق والمغرب العربي هجمات صليبية شرسة، فبمطلع القرن16م ظهرت على طرفي حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي قوتين متنافستين، دارت بينهما أشد المعارك البحرية بين الإسلام والمسيحية، فحاولت الدولة العثمانية كأكبر إمبراطورية إسلامية فتح آفاق جديدة للدين الإسلامي وبسط نفوذها على غرب الحوض المتوسط، في حين سعت إسبانيا وريثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة توطيد سلطتها على كامل البحر المتوسط، فاحتدم الصراع بين الهلال والصليب.

جذور الصراع الإسلامي المسيحي وأهمية البحر المتوسط:

عرف العالم صراعات عديدة بين الشرق والغرب، حيث قسم المؤرخون هذا الصراع لعدة مراحل وصنفوها حسب إطارها الزماني والمكاني والأيديولوجي ،فكانت هناك خمس مراحل لهذا الصراع متمثلة في التالي:

- المرحلة الأولى: الصراع بين الفرس واليونان (الوثنية – الوثنية).
- المرحلة الثانية : الصراع بين الفرس والبيزنطيين (الوثنية –المسيحية).
- . - المرحلة الثالثة : الصراع بين المسلمين والبيزنطيين (الإسلام-المسيحية)1
- المرحلة الرابعة :الصراع بين أوربا والمشرق العربي (هذه المرحلة سميت بمرحلة الحروب الصليبية امتدت من 1095الى 1291م
- المرحلة الخامسة: الصراع بين الدولة العثمانية في الشرق والدول الأوروبية بزعامة إسبانيا

1 محمود سعيد عمران :تاريخ الحروب الصليبية1095 – 1291، د.ط، دار المعرفة الجامعية ،القاهرة، 2000، ص11

وتعتبر هذه المراحل هي امتداد لفكرة الصراع المرير بين العالمين الشرقي والغربي، لكن منذ المرحلة الرابعة خرج الغرب الأوروبي مستتراً بالدين تحت راية الصليب غازيا المشرق العربي الإسلامي بحجة حماية أوروبا من الإسلام، فأضفى على حملاته الصفة الصليبية، كما أتخذ الصراع طابعا جديدا لم يعرفه من قبل الطابع الدولي وقد اختلف بعض المؤرخين في أن الحروب ضد المسلمين التي تزعمها أباطرة بيزنطيين في ق 10 م هي حروبا صليبية، لكن يرى البعض الآخر أنها لا تعدو كونها مجرد محاولات فردية يغلب عليها العنصر السياسي، ولم يكن للكنيسة البيزنطية أثر عليها.[1]

بخلاف الحروب في إسبانيا وصقلية فيمكن اعتبارها مقدمة للحروب الصليبية بهدف إعادة الشرق تحت سيطرة الغرب[2] كما اختلف المؤرخون حول بواعث الصراع الإسلامي المسيحي ،فيرجعها كل منهم لباعث وعامل معين، رغم أنه في الواقع وليد بواعث عديدة وعوامل مختلفة المجالات لكن الكنيسة الغربية ممثلة في البابا هي الباعث الشخصي استطاعت إخفاء البواعث جميعها وراء ستار الدين وشعار الصليب، ليظهر أمام العالم وكأنه الباعث الديني هو الدافع الحقيقي لهذا الصراع وفي اطار هذا الصراع تعرض العالم الإسلامي ما بين 1095و 1270م ابتداء من دمشق وعكا والقسطنطينية ومصر وبيت المقدس والمغرب الإسلامي لهجمات مستمرة من قوات صليبية قادمة من الغرب، ومنذ منتصف ق 15 م بدت تطفو مظاهر صراع بين الشرق الذي تزعمه العثمانيون والغرب الذي تزعمته إسبانيا فكان الصراع وجها لوجه في معركة بقاء أو فناء.[3]

أهمية البحر المتوسط في هذا الصراع:

ظل البحر الأبيض المتوسط ولا يزال حلقة الوصل بين أجزاء العالم قديما وحديثا باعتباره طريقا تجاريا عالميا، كما جالت خلاله أساطيل بحرية ذات شهرة ومكانة عبر التاريخ، كما ظهرت على ضفافه عدة قوى سياسية في بداية العصر الحديث تمثلت في الإمبراطورية العثمانية في المشرق، والتي كانت في أوج قوتها بعد توسعها في شرق أوربا

---

[1] لقد اكتست هذه الحروب الطابع الدولي باشتراك معظم الشعوب الأوروبية التابعة للكنيسة الكاثوليكية التي تتزعمها البابوية: حسان
حلاق :دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، 2002 ، ص39

2 محمود سعيد عمران :المرجع السابق، ص12

3 أحمد توفيق المدني :حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا(1492- 1792)، ط 1 ، دار البصائر، الجزائر، 2007 م، ص 6

والمشرق العربي1، وفي الغرب الممالك الأوروبية وعلى رأسها الإسبان الذين اكملوا مرحلة الفتوحات والتي نتج عنها سقوط الأندلس سنة 1492 م، والتي تطمح في سيادة سواحل أفريقيا المقابلة لها2، مع وجود إمارات المغرب العربي التي اختل نظامها فاشتد الصراع بين هاته القوى وخاصة الأطراف التالية3:

- هجومات الإسبان والبرتغاليون ضد مسلمي الأندلس المضطهدين وبلدان المغرب الإسلامي التي تأويهم.

-رد فعل الدويلات المغاربية ضد الممالك الأوربية في إيطاليا وغرب أوربا وجنوبها الغربي.

-صراع فرنسا وإسبانيا الكاثوليكيتان ضد بعضهما البعض خاصة في عهد فرنسوا الأول الفرنسي وشارلكان الإسباني[4]

- حروب الأتراك العثمانيون ضد الإمارات المسيحية وأساطيل قراصنتها في شرق البحر المتوسط وجنوب شرق أوروبا ووسطها[5]

القوى المتصارعة في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال العصر الحديث:

لقد كان للصراع الإسلامي جذور تاريخية كما رأينا، ولقد ظهر الصراع في الفترة الحديثة مجال الدراسة أو نستطيع القول بأن الصراع تجدد بظهور قوى جديدة في هذه المرحلة، تمثلت في السلطنة العثمانية من الناحية الشرقية أما الجهة الغربية فتمثلها الإمبراطورية الإسبانية وحلفاؤها.

---

[1] بعد فتح القسطنطينية في 1453 م، وخروجها منتصرة على الإمبراطورية الرومانية وانتصارها على الفرس أصبحت الدولة العثمانية حامية العالم الإسلامي: كورين شوفالييه :الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر1510 - 1541، تر: جمال حمانة،د.ط، د.م.ج، الجزائر، 2007 م، ص20

[2] نفسه، ص 20

[3] مولود قاسم نايت بلقاسم :شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 م، د.ط، دار الأمة، الجزائر، 2007 م،ص61

[4] هو ابن فليب الجميل ابن الإمبراطور الألماني ماكسيميليان الأول من ناحية الأب وخوانا المجنونة بنت فردينا ند الكاثوليكي ملك أراغون وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة؛ نفسه، ص135

5 يحي بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، د.ط، دار البصائر، الجزائر، 2009 م، ص 244

كان أول عمل ينتج عن سياسة إسبانيا ذات النزعة الكاثوليكية هو الاستيلاء على غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس في عام1492 م ، ومنها تطلعت للبلاد الإسلامية المغاربية لتوسيع حدودها إلى ما وراء البحر وامتلاك قواعد جديدة والقضاء على أي محاولة من المسلمين لاسترجاع الأندلس، فانطلقت نحو المناطق الاستراتيجية الساحلية لشمال أفريقيا، فاحتلت مليليه عام 1497 م، وذلك بعد توقيع معاهدة" تورد سيلاس 1494م"[1] وفي مطلع ق 16 م تكثف النشاط الإسباني في المغرب الإسلامي، واحتلت الكثير من الواقع خاصة على السواحل[2] بوفاة فرديناند الكاثوليكي في مطلع سنة 1516 م [3] آل العرش الإسباني إلى حفيده شارل، فترشح لخلافته على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد وجد شارلكان منافسة حادة على منصبه من الملك الفرنسي فرنسوا الأول، حيث رأوا أنه الأقدر على درء خطر المسلمين على الحدود البحرية للإمبراطورية، وبهذا صار شارل يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف تحت اسم الإمبراطور شارل الخامس[4]،كانت استراتيجيته شارلكان تقوم على وحدة العالم المسيحي بحكم منصبه الإمبراطوري، وبرغم أنه كان يصارع على عدة جبهات منها الانشقاق الديني في ألمانيا وصراعه مع فرنسوا الأول، إلا أنه أولى اهتمام كبير لصراعه المسلمين العثمانيين، كما رأى أن هذه الحرب هي واجب على كل المسيحيين، لذا عمل على توحيدهم[5]،لا نغفل كذلك مملكة البندقية وجنوة اللتان اللتان تمثلان القوة البحرية في تلك الفترة، وكانتا طرفا في الصراع، وتحالفت مع إسبانيا ضد الدولة العثمانية ضمانا لمصالحهما في البحر المتوسط[6].

---

[1] أبرمت على ضوء القرار الذي أصدره البابا إسكندر السادس لحل المشكلات بين الدولتين ،و تضمنت تقاسم النفوذ بين إسبانيا والبرتغال في سواحل المغرب في المتوسط والأطلسي .أنظر شوقي عطا لله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث)ليبيا-تونس -الجزائر-المغرب (ط1، مكتبة الأنجلو المصرية،مصر، 1977م، ص77

[2] Ernest Mercier: Histoire De Lafrique Septentrionle, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1868,Tome Second, p 405

3Fray Diego de haedo ,Abbé de Fromesta: Histoire Des Rois Dalger, Traduite: H.De Grammont, Adolphe jourdan, Libraire éditeur, Alger, 1881, p 16.

[4] مولود قاسم نايت بلقاسم :المرجع السابق، ص138

[5] نفسه، 138

6 محمد دراج :الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الأخوة بربروس 1512-1543 ، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012 ، ص66

أسباب ودوافع الصراع الإسلامي المسيحي:

ظهرت في العصر الحديث قوى جديدة على الساحة المتوسطية، أخذت تتنافس وتتصارع على النفوذ والسيطرة في حوض المتوسط، مدفوعة بمجموعة من الأسباب والعوامل، تمثل أهمها في دوافع دينية، سياسية، عسكرية وأخرى اقتصادية.

الدافع الديني:

لقد كان الدافع الديني من الأسباب الرئيسية التي دفعت بالجموع الصليبية إلى قلب المعركة منذ الحروب الصليبية الأولى، ولهذا نستطيع القول بأن التدخل الإسباني في المغرب الإسلامي امتداد للحرب مع المسلمين، هذه الحرب التي أطلق عليها الإسبان حرب الاسترداد، وقد اتخذت هذه الحرب صبغة صليبية بهدف ضمان الحماس الشعبي [1]، لما توحدت إسبانيا تحت زعامة فرديناند الكاثوليكي، الذي أخذ غرناطة من بني الأحمر عام 1492 م، ورغبة في احتلال بلاد الإسلام المغاربية لنشر المسيحية في ربوعها[2] تماشيا مع هذه الرغبة أصدر البابا ألكسندر السادس مراسيم بابوية في 1494م يبارك فيها إنجازات الملكين ويحث على مواصلة الحرب الصليبية - سنتي 1493و1494 ضد إفريقيا الإسلامية، كما ساهمت الكنيسة بكل ما لديها من مال وحماس واعتبرت المعركة خاصتها، وهذا ما يؤكده الدور الذي لعبه الكاردينال خيمينيس دي سينيروس مستشار إيزابيلا في تنفيذه وصيتها بعد وفاتها، حيث لعب دورا مخزيا في طرد المسلمين من إسبانيا، وتنشيط محاكم التفتيش ضدهم وتجريد الحملات عليهم في ملاذهم بالمغرب الإسلامي.[3]

الدافع السياسي :

إن ظهور الدولة الوطنية الحديثة بأروبا شجعها للتوسع الاستعماري خارج القارة [4]، فكان ملوك إسبانيا الذين تمكنوا من توحيد إسبانيا قد استولوا على زمام الأمور بيد من حديد، تحمل السيف والإنجيل في آن واحد [5] واحتلوا مواقع استراتيجية بصفة دائمة

---

[1] جلال يحي :تاريخ المغرب الكبير، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 م، ج3 ، ص18

[2] محمد العربي الزبيري :مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ط2 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1985 م،ص15

[3] صالح حيمر :التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 م وتأثيراته الإقليمية والدولية، رسالة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر، قسم التاريخ وعلم الآثار، باتنة، 2007 م، ص33

[4] يحي بوعزيز :المرجع السابق، ص246

[5] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق، ص77

واتخذوها منطلقات رئيسية للتوسع الاستعماري[1] وأصبحوا يطمعون في سيادة البحر الأبيض المتوسط والعالم بأسره، حيث أرادوا السيطرة على القارة الأوربية والإفريقية، كما سيطروا على القارة الأمريكية من قبل من أجل إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية، كما تبين عدم تقبلهم لوجود أي منافس ينازعهم السيادة والسلطان سواء شرقا أو غربا، خاصة مع ظهور الشبح العثماني في الشرق الذي سوف يلقي بأنظاره صوب هذه الأصقاع المغربية التي اختل نظامها ولو بعد حين، فاعتقد الإسبان إنهم إن لم يسبقوا الأتراك إلى هذه الربوع سيسبقونهم إليها.[2]

الدوافع العسكرية:

أخذ الملوك الكاثوليك باضطهاد المسلمين بمجرد سقوط غرناطة، حيث تفننوا في تسليط أنواع العذاب القهر على المورسكيين، الذين لم يجدوا سوى النجاة بأنفسهم وعائلاتهم وبما استطاعوا حمله إلى المغرب وحتى إلى المشرق العربي، حيث أصبحوا يدعون إلى الجهاد ضد الممالك الإسبانية،[3] وكان سكان الأندلس كلما اشتد عليهم الأمر، لجأوا إلى ملوك وأمراء المغرب طالبين منهم العون والمدد، قبل أن تضعف شوكتهم ويصيبهم الوهن [4]، وهكذا انطلق المهاجرون الأندلسيون بمساعدة إخوانهم من مسلمي شمال إفريقيا يشنون الغارات المتتالية على السفن والسواحل الإسبانية، وحتى المتحالفة معها انتقاما لما لاقاه المسلمون في غرناطة[5]، لذلك رأى الإسبانيين أن يضعوا حدا للأضرار التي كان يلحقها غزاة الجزائر بشواطئهم، ويؤمنون طرق مواصلاتهم الهامة بين إيطاليا وإسبانيا، فغزوا شواطئ المغرب الإسلامي، وأقاموا به قواعد عسكرية أمامية تحول دون الاتصال بين الجزائريين وبين بقايا مسلمي الأندلس، وتجعل الغزو البحري انطلاقا من السواحل الجزائرية إلى الشواطئ الإسبانية غير ممكن، ويتخذون تلك القواعد الأمامية منطلقا لغزو المناطق الداخلية، واستغلال الأوضاع السيئة فيها.[6]

---

[1] يحي بوعزيز :المرجع السابق، ص247

[2] أحمد توفيق المدني :المرجع السابق، ص78

3 جون ب .وولف :الجزائر وأوروبا1500 -1830، تر: أبو القاسم سعدالله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 24

[4] محمد دراج :المرجع السابق، ص122

[5] نفسه، ص 123

[6] عمار بن خروف :العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517 -1659، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب جامعة دمشق، 1986، ص 21

الدافع الاقتصادي:

بعد الاكتشافات الجغرافية أصبحت إسبانيا في حاجة إلى أسواق جديدة تتقبل تجارتها، وإلى ثغور ساحلية متعددة تحمي أساطيلها المثقلة بالحمولات .فكان أمامها السواحل الشمالية لإفريقيا، حيث تتمتع هذه السواحل بأهمية كبيرة عبر مختلف العصور باعتبارها مناطق حضارية ترعرعت على ضفافها حضارات راقية [1]، إضافة إلى كونها طريقا عالميا للتجارة، بحيث كانت ومازالت حلقة وصل بين أجزاء العالم المختلفة وشعوبه، فكانت رغبة الإسبان في موطئ قدم دائم، واتخاذها مناطق للتوسع الاستعماري لاستغلال ثروات البلاد الاقتصادية والبشرية[2]،كذلك السيطرة على المراكز التجارية، والمناطق التي تتميز بغنى أقاليمها بالثروات الحيوانية والمحاصيل الزراعية كعنابة ووهران . واحتكار التجارة الخارجية للجزائر وربما النفوذ منها إلى أعماق أفريقيا الغنية بالذهب.[3]

لاحظا أن كل قوة كانت تسعى للسيطرة على المنطقة المتوسطية لاعتبارات معروفة، ولو أُختلف في ترتيبها من حيث الأهمية، إلا أنها شكلت مجتمعة دافع للقوة المسيحية للاعتداء والسيطرة على بلاد المغرب الإسلامي نظرا لما كانت عليه حال هذه الأخيرة من ضعف وتقهقر مس جميع المجالات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، فضلا عن الضعف العسكري والتشتت الذي عم جميع بلاد المغرب الإسلامي وما يعرف عند الأوروبيين ب"شمال أفريقيا"، فما كان على القوة الإسلامية الصاعدة إلا التدخل لمنع إسبانيا وحلفائها من السيطرة على البحر المتوسط، وتحويله إلى بحيرة مسيحية، مستعملة أساليب وطرق مختلفة.

أساليب ومظاهر الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط:

لقد اشتد الصراع بين الإسلام والمسيحية في الفترة الحديثة، ويرجع ذلك لتعاظم قوتيين، غربية مسيحية متمثلة في إسبانيا وحليفتها البندقية، وشرقية إسلامية وهي الدولة العثمانية، حيث أرادت كل منها محاولة السيطرة على حوض البحر المتوسط نظراً لأهميته التاريخية، واتبعت كل منها أساليب عدة لتحقيق الهدف المنشود، فما هي هذه الأساليب؟ وفيما تجلت مظاهر هذا الصراع

---

[1] محمد العربي الزبيري :المرجع السابق، ص30

[2] جلال يحي :تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، د.ط، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999 م، ص59

[3] نفسه، ص 60

القرصنة والجهاد البحري :

القرصنة المسيحية:

أ- فرسان مالطا:

وقد انبثقت عن الجماعة الأم المشهورة باسم فرسان المعبد التي تقوم برعاية المرضى المسيحيين في مستشفى القديس يوحنا في فلسطين[1] وقد طردهم العثمانيون من رودس سنة 1522 م، بعد أن أكثر فرسان مالطا القرصنة ضد العثمانيين[2]، وقد كان الفرسان قبل ذلك في جزيرة قبرص، ثم بعد ذلك منحهم الملك شارل الخامس سنة 1530 م جزيرة مالطا، ثم طرابلس وبها كسبوا موطئ قدم لهم بالسواحل الإسلامية قطعوا من خلالها الطريق على الإمدادات العثمانية القادمة من شرق البحر المتوسط.[3]

ب -القرصنة الجنوبية:

بعد استيلاء البرتغال على سبتة سنة 1415 م، تزعزع الاستقرار الجنوي في تلك المنطقة، وقد بلغ الأمر إلى جعل البرتغاليين يلجؤون إلى استخدام القوة حيث قاموا بتوجيه حملات عسكرية على مراكز جنوة التجارية في المغرب الأقصى وهذا بين سنتي 1514و 1517م[4]، و نتيجة لتلك الأسباب رأى الجنويون أنفسهم مضطرين إلى الارتماء في أحضان إسبانية وهذا قصد الحماية، مما أتاح لهم فرصة ممارسة القرصنة فضلا عن استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي، فقد احتلوا جيجل وأقاموا بها قلعة لصيد المرجان عام 1513م، لكن سرعان ما استرجعها منهم الأخوة بربروسا في 1514 م، كذلك بسبب ضعف الدولة الحفصية، كما هاجم قراصنة نابولي وجنوة المهدية في سنة 1550 م، ومكثوا في جزيرة جربة بعد ذلك ستة أشهر حتى افتكها منهم درغوث باشا[5]

---

[1] هربرت فيشر :أصول التاريخ الأوربي الحديث، تر :زينب عصمت وأحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، مصر، د.س.ن، ص9

[2] كارل بروكلمان :تاريخ الشعوب الإسلامية، تر :نبيه أمين فارس ونبيل البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1968 م، ص451

[3] ياستيك ماخوفسكي: تاريخ القرصنة في العالم، تر :أنور محمد إبراهيم، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2008 ص110

[4] إبراهيم سعيود: القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة ،القرصنة الإيطالية نموذجا، مجلة الواحات، العدد 11، جامعة غرداية، الجزائر، 2011 م، ص154

[5] نفسه، ص 155

-القرصنة الإسلامية والجهاد البحري:

عرفت الجزائر القرصنة بعد استتباب الأمر لخير الدين وتأسيس ميناء الجزائر، حيث أخذ نشاطهم يزداد و قد كانت مهمتهم في بادئ الأمر انقاد المسلمين في الأندلس،[1] وبعد وتمرسهم ساعدوا الدولة العثمانية في حروبها مع مالطا وفي تونس وليبانتي[2]، فقد قام الريس ايدن والريس صالح بنهب 14 سفينة من سواحل جنوة وعرجوا على السواحل الفرنسية وغنموا الكثير وهاجموا سواحل إسبانيا، كما قام الريس ايدن بنقل ما يقرب من 200عائلة بأموالهم من إسبانيا.[3] وقد بلغ عدد سفن القراصنة الجزائريين سنة 1580 م أكثر من 60 سفينة، ومما سبق يمكن القول بأن القرصنة الإسلامية هي جهاد بحري، لأنها كانت كلها موجهة ضد العدو المسيحي وضد الدول التي هي في حالة حرب معها، على عكس القرصنة التي لا تفرق بين سفن العدو والصديق لأن هدفها النهب فقط[4].

-الاعتداءات المسيحية على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط:

بدأ احتلال السواحل الجنوبية للبحر المتوسط في الحقيقة قبل سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في إسبانيا، وذلك عندما احتلت سبته سنة 1415 م والقصر الكبير سنة 1458 م كما تمكنوا من الاستيلاء على طنجة وأصيلا 1471 م، أما الاحتلال الإسباني فبدأ في السنوات الأخير من القرن 15 م، عندما احتل الدوق مادينا مليلية سنة 1495م.[5] بعد ذلك احتلت المرسى الكبير سنة 1505 م لإيجاد ميناء مناسب للسفن الإسبانية، وبعد ست (06) سنوات، وبدافع من الأسقف خيمينيس دي سينيروس، وهذه المدن هي وهران وبجاية وبادس وطرابلس بين 1508 و1511م[6]، كما قام الإسبان بحملتين على الجزائر لاستعادتها سنة 1516 م، كذلك سنة 1530 م ردا على تدمير حصن البنيون سنة 1529م[7]، بالإضافة إلى حملة شارلكان على تونس سنة 1535م، بعدما سيطر

---

[1] عزيز سامح التر :الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، تر :محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص87

[2] أحمد توفيق المدني :المرجع السابق، ص67

3 عزيز سامح التر :المرجع السابق، ص 88

[4] نفسه، ص189

[5] أحمد توفيق المدني :المرجع السابق، ص71

[6] جون ب وولف :المرجع السابق، ص26

[7] محمد دراج :المرجع السابق، ص287

العثمانيون عليها سنة 1534م،كما احتل الإسبانيين مدينة عنابة سنة 1535 م [1]، كذلك والاعتداء الأوروبي على الجزائر في حملته شارلكان الشهيرة سنة 1541 م ورجوعهم منها بالهزيمة المدوية [2]، وحملة على المهدية سنة 1551م، والتحالف الأوروبي ضد الأسطول العثماني في معركة ليبانتي 1571م،كذلك الهجوم على تونس 1573م[3]، لم تتوقف الهجمات الأوربية على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط طيلة العهد العثماني وبالخصوص على السواحل الجزائرية وهذا لكسر شوكة الأسطول الجزائري، بعد أن التحقت القوى الأوربية الحديثة مثل فرنسا وإنجلترا بركب الصراع ضد البلدان الإسلامية الواقعة في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، إلى غاية القرن 19 م، ووقوعها فريسة لهذه القوى الاستعمارية، حيث قامت إنجلترا بحملة على الجزائر سنة 1660م كذلك سنة 1670 م[4]، الحملة الفرنسية على الجزائر وشرشال سنة 1682 و 1683 م والحملة الإسبانية على وهران في جويلية 1732 م، حملة اكسموث على الجزائر سنة 1816 م. وعلى الرغم من أن هذه الحملات كانت بدافع ديني وضد الإسلام والمسلمين، غير أن جون وولف يرى عكس ذلك حيث يقول من الواضح أن هذه السياسة كانت تهدف إلى وقف نشاط البحارة القراصنة المسلمين العاملين ضد الممتلكات الإسبانية أكثر مما كانت مدفوعة بأية اعتبارات دينية [5].

-التصدي للعدوان المسيحي على بلاد المغرب :

تحرير جيجل:

عند محاولة الأخوين تحرير جيجل مرة أخرى رأوا أن ذلك ليس بالأمر الهين وأن تونس بعيدة عن ميدان المعركة، ولهذا قرروا فتح مدينة جيجل[6] ليتخذها نقطة انطلاق نحو بجاية وباقي المقاطعات، وبدأ الهجوم عام 1514 م، حيث تمكن من القضاء على من في

---

[1] عمار بن خروف المرجع السابق، ص22

[2] محمد دراج :المرجع السابق، ص306

[3] أحمد توفيق المدني :المرجع السابق، ص399

[4] جون ب وولف :المرجع السابق، ص328

[5] نفسه، ص 27

[6] عبد الرحمان الجيلالي :تاريخ الجزائر العام، د.ط، بيروت، لبنان، 1980 م، ج3 ، ص37

الحامية الجنوية وترك بها 50 جنديا وثلاث سفن لحمايتها، واتخذت بعد ذلك نقطة ارتكاز ينطلق منها في تحرير المدن.[1]

2-المحاولة الثانية لتحرير بجاية:

خرج الأخوين في عشرة مراكب قاصدين مضيق سبتة مارين من هناك إلى الأندلس لإنقاذ المورسكيين، وهنا اتصل بهم وفد من بجاية حاملا رسالة نجدة[2]، وهنا قام بتجهيز حملة في صيف 1514 م، بمساعدة السلطان العثماني، واستمرت المقاومة 29 يوما داخل المدينة، وكاد المجاهدون أن يحرروها لولا خذلان السلطان الحفصي لهم خوفا على مكانته،[3]

-الصراع حول تونس بين خير الدين وشارلكان سنة 1534م:

في هذه المرحلة تعيش تونس فترة صراع بين الإخوة الحفصيين، ماعدا الرشيد الذي لجاء إلى الأعراب ثم توجه إلى خير الدين لطلب المساعدة منه، أين اقنع خير الدين السلطان العثماني سليمان بمهاجمة تونس خاصة انه بفتح تونس يستتب الأمر على الشمال الأفريقي[4]، لقد تمكن خير الدين من إلحاق تونس بالباب العالي، لكن السلطان الحفصي الحسن فر إلى إسبانيا وطلب المساعدة من إمبراطورها شارلكان أين قام هذا الأخير برد حاسم وسريع، ظنا منه انه قادر على عزل العثمانيين عن المشرق والقسطنطينية خاصة أمام حربهم مع الصفويين استطاعوا دخول تونس سنة 1535م. لقد شهد البحر الأبيض المتوسط صراعاً محتدما بين القوتين الإسلامية والمسيحية في هذه الفترة، مارست كل منها أساليب مختلفة للسيطرة وبسط النفوذ، كالقرصنة والجهاد البحري وغزو السواحل وإقامة مستوطنات بها- إذا صح التعبير -وهذا لإحكام قبضتها على حوض المتوسط، وهو ما كان سببا في تراجع هذين القوتين مع طول مدة الصراع واستمراريته، ما ساهم في ظهور قوى جديدة في القرنين السابع عشر والثامن عشر حملت

---

[1] مارمول كربخال :إفريقيا، تر :محمد حجي وآخرون، د.ط، دار النشر والمعرفة، الرباط، 1988 م، ج2 ، ص162

[2] Laugiere de tassy: histoire du royaume d'Alger, MDCC.XXV,amesredam,p133

[3] محمد أبي الضياف :إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تر :لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافة والأخبار،
ط2 ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 م، ص24

[4] جون ب وولف ، المرجع السابق، ص47

لواء الصليبية، إلى أن تمكنت في النهاية وبحلول القرن التاسع عشر من القضاء تماما على القوة الإسلامية الوحيدة، وبدأت تحتل إيالاتها في حوض المتوسط الواحدة تلوى الأخرى.[1]

خاتمة:

من خلال ما تقدم في تفاصيل الموضوع يمكن أن نقول أننا خلصنا إلى مجموعة من الاستنتاجات المهمة ربما أبرزها يتمثل في:

- أن الصراع الإسلامي المسيحي ليس وليد الفترة الحديثة بل هو استمرار لحروب عرفتها البشرية في إطار الصراع بين الشرق والغرب، قبل ظهور الديانة المسيحية والإسلامية، وهذه الحروب وإن غلب عليها الطابع الديني فهي بالدرجة الأولى عمليات توسعية وبسط النفوذ على حساب الآخر وتبقى هاته العلاقة بين القوتين المتصارعتين علاقة مد وجزر والغلبة فيها للأقوى.

- أن البحر الأبيض المتوسط مّثل المسرح الذي كان ميدان للصراع بين القوى لأنه بالدرجة الأولى يمثل بيت القصيد أو مربط الفرس بالنسبة لكل قوة تريد الاستحواذ عليه وضمه للممتلكات بما أنه المركز بالنسبة لأغلب القارات، ويعتبر مركز استراتيجي مهم للتبادل التجاري.

-أما عن ظهور القوتين العثمانية والإسبانية كإمبراطوريتين يرجع إلى الظروف والتطورات السياسية التي عرفها العالم مع مطلع القرن 15 م، خاصة الشمال الإفريقي الذي بدأ يختل فيه التوازن من خلال الصراعات الداخلية لإماراته الإسلامية.

-كما نستنتج أن الصراع الإسلامي المسيحي كانت له مظاهر وآثار على العالم سواء في الفترة الحديثة أو الفترات اللاحقة، بينت مدى تلاحم الكفرة تحت لواء المسيحية من أجل القضاء على الإسلام، في حين نجد المسلمين كلٌ يسعى للاستئثار بالمناصب والسلطة.

---

[1] يلمازأوزتونا :تاريخ الدولة العثمانية، تر :عدنان محمود سليمان، د.ط، مؤسسة فيصل للتموين، تركيا، 1981م، ص153

الحملة البحرية الإنجليزية الأولى على الجزائر 1620م والعلاقات معها

د. خميسي سعدي
University Center of Barika, Algeria
khemissi.saadi@cu-barika.dz

مقدمة:

تعد المواجهات البحرية التي حدثت في البحر الأبيض المتوسط بين الجزائر ومختلف القوى الأوربية أحد مظاهر العلاقات السياسية المتأزمة بين إيالة الجزائر ومختلف الممالك الأوربية. وتعد بريطانيا أحد أهم الدول البحرية التي سعت للدفاع عن مصالحها في حوض البحر الأبيض المتوسط، فاصطدمت بإيالة الجزائر. فجردت لها حملة عسكرية بحرية سنة 1620م، هذه الحملة لم تنتج عنها مواجهة مسلحة بين الدولتين بل كانت ذات طابع سياسي، فيا ترى ما هي أسبابها ونتائجها؟

أهمية المصادر الانجليزية في كتابة تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط:

تعتبر المصادر الإنجليزية ذات أهمية كبيرة في كتابة تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط ومن خلاله تاريخ الجزائر وأخبار العلاقات والمعاملات بين البلدين. فمن منطلق العداء التاريخي لفترة طويلة بين الإنجليز والإسبان تصبح المصادر والوثائق المختلفة الموجودة في كل من فرنسا وايطاليا تعطينا فكرة لما كانت عليه علاقات تلك الفترة في البحر الأبيض، لأنه من خلال مقارنة ما كتب بمختلف اللغات يعطينا فكرة قريبة من الواقعة التاريخية[1]. تفيدنا في تحليل وتفسير خط سير الحركة التاريخية لشعوب البحر الأبيض المتوسط.

[1] - وحين عزمت على تناول هذا الموضوع تفاجأت بما كتبه توفيق المدني في كتابه حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا حول الحرب بين الإنجليز والجزائر سنة 1620، فهو قد كتب كلاما غير مطابق للواقع وللحقيقة والتاريخ. ينظر:
أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492- 1792، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص420،421. (واخذ الأسطول يرمي القنابل على المرسى، وحاول أخذ سفن من أسطول الجزائر، فلم يقدر على ذلك. وانزل رجاله حوالي المدينة قصد إرهاب الجزائريين، فما استطاعوا أن ينالوا منهم منالا، ورجعوا الى سفنهم، ثم اقلعوا الى بلادهم دون طائل) ص 421.

الأسباب:

أثارت الملك الإنجليزي **جيمس الأول JAMES I** ,شكاوى رعاياه حول ما يلاقونه من قرصنة حين عبورهم البحر الأبيض المتوسط من قبل بحارة الجزائر، وتأكد له ذلك من خلال العريضة المستعجلة التي قدمتها الشركة التركية**The Turkey Company** التي طالبت بصفة استعجالية بوضع حد لنشاط القراصنة الجزائريين. فقرر بالتنسيق والتشاور مع مستشاريه القيام بحملة ضد إيالة الجزائر. وأضاف بعض المستشارين الإشارة للمكاسب التي يمكن تحقيقها من خلال هذه الحملة، مثلا الاستيلاء على السفن الجزائرية وأسر رجالها وبيعهم كعبيد في الأسواق الأوربية. ورغم إشارتهم عليه بأن هذا العمل لا يمكن القيام به إلا بالتعاون مع بقية الممالك والدول الأوربية، خاصة المساهمة المالية في نفقات الحملة، أو التزود بالمؤن من موانئ قريبة كاسبانيا مثلا. إلا أنه قرر القيام بهذه الحملة بنفسه، لكن ما لبث أن تراجع عن ذلك وكلف **السير روبرت مانسل Sir Robert Mansel** نائب أميرال البحرية الملكية الانجليزية[1].

في تلك الفترة كان الاعتقاد سائدا لدى الكثير من الشعوب الأوربية إن الجزائر قوة لا تقهر وحتى بعض الساسة في بلاط الملك **جيمس الأول JAMES I**[2].

تعداد الحملة:

سفينة ليون **The lyon** بقيادة **السير روبرت مانسل Sir Robert Mansel** تحمل **600** طن من المؤنة والعتاد العسكري وعلى متنها 250 بحارا و 40 مدفعا.

سفينة فونتارد **The Vantguard** بقيادة نائب الأميرال السير ريتشارد هوكينس **Sir Richard Hawknis** تحمل 660 طنا من العتاد والمؤن وعلى متنها 250 بحارا و40 مدفعا.

سفينة رينبو **The Rainbow** بقيادة نائب الأميرال **Sir Thomas Button** تحمل 660 طنا من العتاد والمؤن وعلى متنها 250 بحارا و40 مدفعا.

---

[1] - R. P. Playfair, épisode de l'histoire des relations de la grande- Bretagne avec les états barbaresques avant la conquête Française, in revue Africaine, Volume 22, année 1878, pp 305, 306.

- R. P. Playfair, the scourge of Christendom annals of British relations with Algiers prior to the French conquest, London, 1884, p 37.

2 - R. P. Playfair, the scourge, Op. Cit, p 38.

سفينة كونستانت ريفارماسيون **Constant Reformation**بقيادة النقيب **Arthur Main waring** من العتاد والمؤن وعلى متنها 250 بحارا و40 مدفعا من نوع **Bras guns**.

سفينة انتلوب **The Antelope** بقيادة النقيب السير هنري بالمر **sir Henry Palmer** تحمل 400 طنا من العتاد والمؤن وعلى متنها 160 بحارا و 34 مدفعا من نوع **Bras guns**.

سفينة كونفرتين **Convertine** بقيادة النقيب توماس لوف **Thomas Love** تحمل 500 طنا من العتاد والمؤن وعلى متنها 220 بحارا و36 مدفعا من نوع **Bras gun.**

سفينة شراعيةMercury بقيادة النقيب فيناس بيت **Phineas Pitt** تحمل 240 طنا من العتاد والمؤن و55 بحارا و18 مدفعا.

سفينة شراعية سباي **Spy** بقيادة النقيب ادوارد جيلس **Edward Gyles** تحمل 160 طنا من العتاد والمؤن وعلى متنها 55 بحارا و18 مدفعا[1].

والمجموع 3880 طنا من العتاد والمؤن، و1500 بحارا، و268 مدفعا، إلى جانب عدة سفن تجارية تحمل 2790 طنا وعليها 170 بحارا و230 مدفعا. انطلاق الأسطول الإنجليزي من ميناء بليموث في 31 أكتوبر 1620م ليصل أمام ساحل مدينة الجزائر يوم 27 نوفمبر 1620[2]م.

سير الأحداث ومحادثات الديوان:

حين وصل الأسطول الإنجليزي أمام شاطئ مدينة الجزائر قام بتحية المدينة حسب العادة المتبعة، وبعد هدوء اضطراب البحر أرسل قائد الأسطول رسولا عنه إلى حاكم الجزائر آنذاك الباشا شريف كوسا موضحا له سبب مجيئه، والتي من بينها الرهائن، لكن حاكم الجزائر أبلغه أن هذا الأمر قد تم مع الخليفة العثماني وأنه قد أذن لهم بالتزود من بر الجزائر بما يحتاجونه. وإذا أرسل إليه شخصا آخر يحمل صفة التمثيل مرفقا برسائل الملك سيكون هناك حديث آخر[3].

1- R. P. Playfair, épisode de l'histoire, Op. Cit, p 306.

- علي تابليت: بحوث في تاريخ الجزائر الفترة العثمانية، ج 1، ثالة اديسيون، الجزائر، 2014، ص ص 357، 358.

[2] - علي تابليت: المرجع السابق، ص 358.

[3] - R. P. Playfair, the scourge, Op. Cit, p 39.

في يوم 29 من شهر نوفمبر 1620م ارسل النقيب جون روبار **John Roper** على رأس وفد هام لزيارة الباشا وتبليغه بالمهمة التي جاء بها الأسطول. فأجابهم بأنه لا يستطيع استقبالهم وقراءة رسائل الملك وإجابتهم إلا بحضور الديوان. وهذا الأخير ينعقد يوم السبت القادم. قد بلغ الوفد الإنجليزي مطالبه باسم جلالة ملك بريطانيا بما يلي:

تعويض 150 سفينة استولى عليها الجزائريون خلال السنوات الستة الماضية.

القراصنة وأعوانهم الذين يغيرون على الموانئ يحاكمون أو يسلمون لقائد الأسطول الإنجليزي لمحاكمتهم.

كل السفن الموجودة بالميناء مع حمولتها ورجالها وكل العبيد والمسيحيين والأسرى رعايا الملك يجب أن يسلموا[1].

وحين اجتمع الديوان سلمه الموفد الانجليزي رسائل الملك مع ترجماته للغة التركية والايطالية واللاتينية، فقرأ الباشا تلك المكتوبة باللغة التركية، ثم سأله إن كان يحمل توصية من الخليفة العثماني، فأجابه بالنفي، فأعلمه الباشا بأنه مضطر لإخبار الخليفة بذلك. وحين طالب أعضاء الديوان بشرح مضمون مراسلات الملك شرع الموفد الإنجليزي في بيان ذلك، فقاطعه الخليفة مجيبا إياه عن مطالبه السابقة فأخبره بأنه قد مر وقت طويل على ذلك، فبعض السفن غرقت وما بقي بيع، أما عن الرجال فقد هلك منهم الكثير، أما السلع فقد استهلكت، وما بقي سوف يسلم حالا[2].

ثم شرع الباشا في سرد المخالفات التي ارتكبها البحارة الإنجليز في حق رعاياه مذكرا إياه بأن سفينة إنجليزية حملت حجاجا جزائريين من الإسكندرية غررت بهم حيث تركت بعضهم في الصحراء الليبية وبعضهم في جزر معزولة فهلك من هلك بالعطش والبرد والبعض بيع كعبيد للمالطيين. وسفينة أخرى خطفت ضابطا جزائريا واتجهت نحو بجاية وهناك جذبت إلى ظهرها بعض المسلمين فحملتهم وباعتهم كعبيد في أسواق ليفورن. وسفينة أخرى حملت على ظهرها أتراك ومغاربة اتجهت بهم نحو اليكانت أين تم بيعهم هناك كعبيد. اعترض الموفد الإنجليزي جون روبر John Roper بأن الذين قاموا بهذه الأفعال بعيدون عن اختصاص عدالة جلالة الملك ولم تتم أي شكوى من قبل بخصوص هذه الأمور[3].

---

1 - Ibid, p 40.

2 - R. P. Playfair, the scourge, Op. Cit, p 41.

3 - Ibid, p 42.

بعد صمت طويل ساد المجلس قام الباشا وألقى قراره، بأن خسائر الجانبين تعوض بعضها، أما عن السفن والبضائع التي لم تتلف أو تستهلك تسلم في عين المكان، أما عن العبيد والأسرى والأطفال فيحضرون ويسلمون إلى الأسطول، أما عن الأطفال الذين تحولوا عن ديانتهم فلهم الخيار إن شاءوا رحلوا أو يبقوا في الجزائر[1].

ثم طلب منهم الباشا إبقاء قنصل إنجليزي بالجزائر أجابه قائد الأسطول بأنه غير مخول بتنفيذ مثل هذا الطلب، وتحت طائلة التهديد بعدم تسليم بقية الأسرى رضخ الجانب الإنجليزي وتم تعيين ريتشارد فورد كقنصل انجليزي بالجزائر، وعاد الأسطول الى بلاده في 08 ديسمبر 1620م.

الخاتمة:

رغم الطابع العسكري لهذه الحملة وما حملته من عدة وعتاد إلا أنه غلب عليها في الأخير الطابع الديبلوماسي. لأن العلاقات السابقة بين الباب العالي والإنجليز لم تكن لتسمح بوقوع ما يفسد تلك العلاقات. فحتى قائد الأسطول اخذ ذلك في حسبانه وباشا الجزائر في خلال حديثه مع الوفد الإنجليزي أشار الى ذلك. وقد تكللت هذه الحملة بعودة العلاقات بين الجزائر وإنجلترا ورجوع بعض الأسرى الإنجليز الى بلادهم.

1 - Ibid, p 43.

التقاطع في العلاقات بين الإسلام والمسيحية؛ ثنائية الصراع بين الدولة العثمانية والتحالف المسيحي من معركة ليبانت 1571م إلى ضم تونس 1574م

د. كمال مايدي
المركز الجامعي الشريف بوشوشة أفلو- الأغواط/ الجزائر
k.maidi@cu-aflou.edu.dz

مقدمة:

تمثل العلاقات بين قوى ضفتي البحر المتوسط في العصر الحديث نقاط تقاطع والتقاء، ونقصد بذلك حالة الصراع التي شهدها البحر الأبيض المتوسط بين الدولة العثمانية الممثلة لسيف الإسلام؛ ضد ما عرف بالتحالف المسيحي المقدس وعلى رأسه اسبانيا خلال القرنين 16 و17م، وقد أشارت كل الأدبيات الأوربية إلى دور المسيحية في تغذية الصراع وخصوصا ما كتبه الأب دان، وديغو دو هايدو في كتابه تاريخ ملوك أوربا، مما يعني استمرارية الحروب الصليبية على العالم الإسلامي.

وما يهمنا في هذه الورقة البحثية هو تسليط الضوء على حدثين بارزين في تاريخ الصراع بين الدولة العثمانية بكل مكوناتها أي ايالاتها؛ والتحالف المسيحي، وهما معركة ليبانت 1571م، و ضم تونس 1574 إلى الفضاء العثماني بشكل نهائي، حيث نجد أن الحدثين مرتبطين ببعضهما البعض كون أن الدولة العثمانية خسرت في معركة ليبانت، رغم الجهود التي قدمها العلج علي؛ لكن الباب العالي تمكن من الثأر من التحالف المسيحي و تمكن من طرد الأسبان من تونس بشكل نهائي، وعليه سنحاول أن نعالج هذا الطرح بناءا على الإشكالية التالية: إلى أي مدى ساهمت معركة ليبانت في ضم تونس؟؛ وتتفرع هذه الإشكالية إلى جملة من التساؤلات أبرزها:

- ماهي مبررات خسارة الدولة العثمانية في المعركة، وماهي الجهود التي قدمتها البحرية الجزائرية في هذه المعركة؟

- لماذا لم تستثمر القوى المسيحية هذا الانتصار في معركة ليبانت لاقتلاع التواجد العثماني من ايالتي الجزائر وطرابلس الغرب؟

- هل كان إلحاق تونس بالدولة العثمانية بداية توازن القوى؛ والتخلص من نقطة ضعف في الضفة الجنوبية؟

سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات لربط الحدثين ببعضهما، وتوضيح مبررات تحول هزيمة الدولة العثمانية إلى انتصار في تونس، وأثر ذلك في إبراز مكانة البحرية الجزائرية في الحوض الغربي للمتوسط.

1- حتمية فتح جزيرة قبرص وانعكاساتها على العلاقات العثمانية الأوربية:

بتولي سليم الثاني العرش بعد وفاه سليمان القانوني 1566 1574 خلفه ابنه سليم الثاني الملقب بالسكير بعد 23 يوم من وفاه والده سنه 974 هـ 1566 م؛ لم يكن السلطان سليم الثاني يشبه السلاطين العثمانيين السابقين فقد كان أقلهم علما و دراية ،كما أنه لم يخرج على رأس جيشه لأي حرب لذلك كان غير مؤهل لمواصله سياسة والده التوسعية؛ بل ولم يستطع المحافظة على مكتسباتها أمام تردي الأوضاع الداخلية، وضغط الأحداث الخارجية إضافة إلى أنه تم نعته ووصفه بالحاكم المنحل والخامل[1].

وقد عرفت فتره حكمه بروز وزيره "صوقللي محمد باشا"[2] الذي عهد له بالإدارة والسياسة، وقد كان متمرسا على الأعمال العسكرية والسياسية والإدارية؛ لكن الدور الذي لعبته الخلافة العثمانية في مرحله القوه انعكس سلبا على قدراتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، فكان من الطبيعي أن يبدأ الانهيار أمام التحالف الأوروبي والتطور الذي عرفته الدول الأوروبية على المستوى العسكري خاصة، ومهما يكن من أمر فقد واجه السلطان سليم الثاني في بداية حياته السياسية قضيه داخليه هامه تمثلت في تمرد الجيش الانكشاري الذين طالبوا برفع الأجور والزيادة في عطاياهم مما دعاهم إلى العصيان[3].

وفي طريقه إلى أدرنة نحو العاصمة لاستلام منصبه اعترضه الانكشارية، ورفضوا السماح له بالدخول إلى القصر وطالبوه بزيادة أعطيتهم التي منحت لهم أثناء اعتلائه العرش فاستجاب السلطان لمطالبهم ثم استقر في اسطنبول وانغمس في الملذات وحياه

---

[1]- أحمد أق كونندز وسعيد أوزتورك، **الدولة العثمانية المجهولة**، د.د.ن، د.م.ن، 2008، ص 257.

[2] - اشتق اسمه من الكلمة السلافية sokol ومعناها باز وهو سلافي الأصل وملقب بالصقلي ذو اللحية، ينظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني**، ط1، دار الشرق، بيروت1983،ص 143.

[3] - محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، تح إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيوت 1981م، ص253.

الترف تاركا شؤون الحكم في يد الصدر الأعظم محمد باشا[1]، وبفضل حنكه هذا الوزير تمكنت الدولة العثمانية في عهد سليم الثاني من الحفاظ على علاقاتها مع الدول الأوروبية، وخاصة التي كانت على نقطه تماس معها حيث اعترف ملك النمسا بتبعية أمراء ترانسلفانيا و الافلاق إلى الدولة العثمانية كما هنأ شاه إيران وأمراء الافلاق و البغدان وسفراء فرنسا والبندقية بتوليه الحكم، حيث عقد صلحا مع النمسا سنه 1568م؛ حيث اعترفت فيه الدولة العثمانية بأملاك النمسا في المجر كما عقد اتفاقيه مع فرنسا أكدت على الامتيازات الفرنسية في الفضاء العثماني وهي معاهده التجديد سنه 1569م المعاهدة الامتياز الشهير، والتي ستكون سببا في ضعف الدول العثمانية وبابا تتدخل منه الدول الأوروبية في شؤونها[2].

ورغم ذلك بقي الأسطول العثماني يسيطر على مناطق واسعة في البحر الأبيض المتوسط؛ حيث تمكن من فتح جزيره قبرص، والذي كان فتحها ضروري وحتمي لمن يريد الاستمرار وفرض سطوته في الحوض الشرقي للمتوسط، وكان ذلك في سنه 977 هـ-1570م. حيث تم افتكاكها من يد البنادقة فأنهت بذلك ملكيه المسيحيين للجزيرة التي انتقلت إلى يد المسلمين وهذا بدوره فتح باب الصراع القديم الجديد بين الدولة العثمانية من جهة والعالم المسيحي من جهة أخرى[3].

أسباب معركة ليبانت 1571م:

إن عمليه فتح العثمانيين لجزيرة قبرص كان نقطه فارقة في تاريخ الصراع بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي حول سيادة الحوض البحر الأبيض المتوسط، وما كاد أن يحقق الأسطول العثماني هذا الانجاز الكبير ويرسو على ضفافي جزيرة قبرص حتى دعا البابا بيوس الخامس إلى تكوين حلف صليبي جديد ضد العثمانيين تحت راية الباباويه، فاستجاب لندائه الملك فيليب الثاني، واستجابت جمهوريه البندقيه، وبعض المدن الايطالية وأرسل البابا إلى ملك فرنسا شارل التاسع يطلب منه الانضمام إلى الحلف فاعتذر في البداية بحجه ارتباطه بمعاهدات مع الباب العالي؛ لكن الواجب

---

[1] -محمد سهيل طقوش، **تاريخ العثمانيين وقيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة** ، ط2، دار النفائس، بيروت 2008، ص 231.

[2] - نفسه، ص 232.

[3] - نفسه، ص232.

الصليبي كان أقوى من هذه المعاهدات فانضم إلى الحلف المسيحي، وهنا دلالة أخرى على الحقد الصليبي عندما يرتبط الأمر بالأمة المسيحية.

أولا- فتح قبرص:

لقد حاول السلطان سليم الثاني أن يحقق انتصارات عسكريه مماثله لانتصارات أبيه السلطان سليمان الذي تمكن من فتح جزيرة رودس سنه 1522م محاوله فتح جزيرة مالطا ؛ لكنه فشل فقام ابنه بتوجيه أنظاره نحو جزيرة قبرص نظرا لموقعها المتوسط الجيد إضافة إلى أن هناك جمله من الأسباب جعلته يقوم بفتحها منها:

أولا- مواجهه التفوق البرتغالي في شرقي أسيا والهند ومحاوله إزاحة خطر قراصنة البندقية الذين اتخذوا من جزيرة قبرص منطلق لهم لتعاطي نشاط القرصنة على السفن التجارية في الحوض الشرقي للمتوسط التي تعرضت لنشاطهم سفن الحجيج الذين تم اسر عدد كبير منهم وتعرضوا إما للاستعباد أو القتل[1].

ثانيا- توجيه أنظار الدولة العثمانية نحو البحر الأبيض المتوسط بدل البحر الأسود فكان وجود مستعمرة أوروبية في شرق المتوسط يشكل خطرا كبيرا على الأمن البحري العثماني؛ وخاصة في ظل وجود قوه بحريه عثمانية كبيره[2].

إضافة إلى ذلك فقد كان صديق السلطان وهو من أصل برتغالي هاجر للقسطنطينية وتقرب من السلطان والمدعو "جوزيف ناسي" يقترح على السلطان بضرورة فتح جزيرتي قبرص لكن هذا الأخير كان هدفه هو إقامة وطن قومي لليهود والانتقام من البندقية التي صادرت أموال زوجته سنة 1569 م[3].

يضاف إلى هذا رغبه حاشية السلطان في احتلال جزيرة قبرص والسيطرة عليها بغرض توسيع نفوذهم وعلى رأسهم "بياله باشا" أمير الأسطول[4]، وبعد سنه ونصف من تولي السلطان بدأ يخطط لغزو جزيرة قبرص نظرا للخطر الذي أصبحت تتعرض له السفن العثمانية من سفن البنادقة في جزيرة قبرص. فانذرها عده مرات وقام بإرسال بعوثا للبندقية يدعى "شاوش كوباد" طلب من حاكمها تسليم الجزيرة مع إبقاء السلم

---

[1] - محمد علي أورخان، **روائع من التاريخ العثماني** ، ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر 2008م، ص 93.

[2] - أحمد عبد الرحيم، المرجع السابق، ص 144.

[3] - ليلى الصباغ، **ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ أواخر عام 1568م، والدولة العثمانية**، في مجلة الاصالة، وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ع17، اكتوبر 1975م، ص ص 168، 169.

[4] - نفسه، ص 160.

بين البلدين نظرا لوجود علاقة تجاريه بين البلدين تدفع من خلالها البندقية ضرائب سنويا؛ لكن مجلس هذه الأخيرة رفض التهديد العثماني[1]. وعليه قام العثمانيون بتجهيز حمله بحرية كبيرة واكتفى السلطان العثماني بالدعاء للأسطول، ولم يكن على رأس هذا الأسطول؛ وهذا مخالفا للتقاليد العثمانية القديمة. كما دعاء السلطان كل من الوزير "مصطفى لاله باشا" و"بيالي باشا" وكلفهما بالتجهيز الحملة و من المعارضين للحملة نجد الصدر الأعظم " محمد صوقللي"[2].

وقد رأى أن فتح الجزيرة هو بمثابة إثارة للقوى الأوروبية، لكن رغم ذلك وافق أميرالات البحر على محاربة الفساد الذي نشره قراصنة البندقية في الحوض الشرقي للمتوسط، وخرج الأسطول العثماني يوم 10 مارس 1570م، من مدينه اسطنبول وفي المقابل لما علم البنادقة بالأمر قاموا بإنشاء تحالف بين البندقية واسبانيا والبابا، وانضم إليهم فيليب الثاني[3]؛ لكن الوضع الأوروبي لم يكن مساندا لهذه الظروف بحكم اشتداد الثورة الموريسكية سنة 1568 م[4]، وقد تحرك الأسطول العثماني من ميناء نيقريبون بجزيرة رودس في أول جويلية 1570 م وبدأو الإنزال في خليج لماخول[5]، وفي المقابل تواعد الحلفاء المسيحيين الثلاث لإنقاذ قبرص واسترجاعها لكن الدولة العثمانية ضاعفت من قواتها وتوجهت لألبانيا ودالماشيا، وتوزع الأسطول وكانت تصله المؤونة الغذائية من جميع المراكز البحرية على شاطئ المورة وتمكن العثمانيون من الاستلاء على قلعه لافتاري ثم مدينه كيرنا وبعدها حاصروا مدينه لافكوشا التي سقطت في ابريل 1570م، وأخيرا توجهوا إلى أكبر قلعه بالجزيرة وهي مكوسه أو يطلق عليها فاما جوستا، وتعطل

---

[1] - عبد القادر فكاير، **دور الاسطول الجزائري في معركة ليبانتو**. في مجلة المواقف، ع9، الجزائر 2014م، ص 416.

[2] - محمود السيد الدغيم، **أضواء على البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة سليم الثاني**، في مجلة الحضارة الإسلامية وعالم البحار، منشورات اتحاد المؤرخين العرب 1994، ص ص 31، 32.

[3] - للاطلاع أكثر ينظر: محمد عبدو حتاملة، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فليب الثاني 1565/ 1584م، جامعة الأردن 1982، ص ص 11، 12.

[4] - محمد عبد الله عنان، **نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1966، ص 394.

[5] - باللغة العثمانية يعرف باسم ليمازون و ماغوسة، ينظر، يلماز اوزوتا، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر عدنان محمود سلمان ، مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبو 1988، ص 369.

بهم الأمر لأكثر من سنه لأنه لم يقضي عليها[1]، وقد كان الحاكم البندقي بها وحاصروها وأثناء ذلك جرت حادثه مهمة مع الوزير، وهذا الحاكم الذي يدعى "براغازينو" إذ قام هذا الأخير بالتسلل في جيش المسلمين، وقام بقتل جميع أسرى المسلمين ثم خرج في لباس أحمر وأراد الهروب، ولما علم بذلك الوزير الأول "مصطفى" أخرج الأسرى المسيحيين وقتلهم، وهذا ما جعله يلام على هذه الحادثة التي احتسبت عليه. رغم أن حاكم البندقية هو الذي أخطأ أولا، وعند استسلام أهالي البندقية طلب العفو من الجيش الانكشاري؛ لكن انتقاموا لذويهم فقاموا بمذبحه في المدينة[2].

وبعد 50 يوم من الحصار يستولى العثمانيون على نيقوسيا، ولما انتقل خبر استلامها إلى سائر مدن الجزيرة فضل أهلها الاستسلام، وبقيت قلعه فماغوستا صعبه على الفاتحين نظرا لوجود خمس جنرالات بنادقة وسبعة ألاف من جنود و 75 مدفعا، وقد حاصرها الأسطول العثماني بقياده "بياله باشا"[3].

دور البحرية الجزائرية في فتح قبرص:

تشير المصادر أن بيلرباي الجزائر "العلج علي" لم يتمكن من الوصول لانشغاله بمجابه القوات التي اعترضته فأرسل أحد قادته وهو "قار خوجه"، وسلمه الأعلام التي أخذها من فرسان مالطا فلما رآه العثمانيون زاد من معنوياتهم، وترك "ببالي باشا" قسما من الأسطول للمحافظة على السفن الراسية في الميناء وأقلع بالباقي إلى سواحل الشام لنقل العساكر الوافدة من حلب مددا للعثمانيين، وبعد تمام الفتح عاد لاسطنبول[4]، ومع حلول سنه 1571 تم الاستيلاء على جزيرة قبرص من طرف العثمانيين -ولا يزال أحفادهم مقيمين بالجزيرة-، وأقام السلطان بها حاميه العثمانية[5]، واستغرق الأسطول العثماني في فتح قبرص 13 شهرا وسميت عند الأتراك "يشيل اده " أي الجزيرة

---

[1] - روبير مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر بشير السباعي، ج1، ط1، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة 1993، ص 232.

[2] - محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 99.

[3] - يلماز اوزوتا، المرجع السابق، ص 370.

[4] - عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص 416.

[5] - خليل اينالجيك، **تاريخ الدولة العثمانية من النشور الى الانحدار**، تر محمد الارناؤوط، ط1، د.م.ا د.م.ا بيروت 2002، ص 68

الخضراء وغنموا منها 670 مدفعا، وبقي فيها فاتحها الوزير لالا مصطفى باشا مدة سنة واحدة، ثم غادرها بعد ذلك في 15 أفريل 1571م[1].

استعدادات الطرفين للمعركة:

تشكيل الحلف الصليبي المقدس:

بعد فتح جزيرة قبرص مباشرة بدأت التحضير لمعركة كبيرة مثلت حلقه جديدة من الصراع بين الإسلام و المسيحية، حيث استغاثت البندقية بالدول المسيحية الأخرى على الرغم من أنها لم تكن على وئام تام معها؛ إلا أنها لبت ندائها خوفا من امتداد سلطه العثمانيين إلى الدويلات الإيطالية[2].

إن هذا الحلف المقدس مثله البابا "بيوس الخامس"[3]، الذي كان يؤمن أن للمسيحية عدوان اثنان أحدهما المروق عن الدين، والثاني خطر العثمانيين المسلمين، وكان يرى أن الدول الأوروبية منفردة لا يمكنها القيام بأي حركة، وهكذا فقد وفق البابا خلال أسابيع أن يجعل جميع الأطراف تتفق على مبادئ واضحة وقاعدة بقاء مشتركة للعمل الأوروبي ضد العثمانيين[4]، ولمواجهه الخطر العثماني للمسلمين قام البابا بيوس بجمع الشمل للبلاد الأوروبية المختلفة برا وبحرا تحت راية البابوية، وقد كتب يقول:"... إن السلطة التركية قد تبسط تبسطا هائلا بسبب نذالتنا..."[5].

عند ذلك هب البابا وأعوانه لتدارك هذا الموقف بكل الوسائل الروحية والمادية فأمر بقرع الأجراس والنواقيس كل يوم ظهرا لاجتماع الأتقياء في الكنائس والتضرع إليه

---

[1] - يلماز اوزوتا، المرجع السابق، ص 371.

[2] - محمد يوسف، **أمير أمراء الجزائر علج علي باشا**، دار الأمل للنشر والتوزيع ، الجزائر 2009، ص 150.

[3] - وصلت البابوية في عهده إلى أعلى الدرجات تولاها عام 1563 كان جهده منقطع النظير في الزهد والتقشف فكان ينهض مع الفجر يمشي حافي القدمين ولا يستريح وقت الظهيرة ويعمل طول النهار وطرفا من الليل فقط أثرت حياته على من خلفه اهتم بجميع الأمور السياسية والثقافية والاجتماعية. ينظر، زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث القرن السادس عشر القرن الثامن عشر م، ج1 واحد، دار الفكر، ص 148.

[4] - أحمد سالم، **السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن السادس عشر**، د. م. ن. القاهرة 2011، ص147.

[5] - محمد علي الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، (د.ن)، (د.م.ن)، ص 463.

تعالى أن ينقذ أوروبا من خطر المسلمين وأرسل البابا سفرائه إلى كل مكان للتحريض على الحرب، وكللت مساعيه بالنجاح فتم عقد مصالحه ثلاثيه بين البندقية واسبانيا والبابا سنه 1571م، واندفعت شعوب البلدان الكاثوليكية المتحالفة بدعم الجهد الحربي وتطوع الأشراف والأمراء من كل أرجاء أوروبا[1].

من أجل تأليف عصبه مقدسة تتصدى لتقدم العثمانيين في أوروبا، وبقيت فرنسا خارج إطار هذه العصبة لرفض ملكها شارل التاسع عرض البابا بيوس للدخول في هذا الحلف بحجه وجود معاهدات بينه وبين الباب العالي، وامتنع الإمبراطور ماكسيمليان أيضا عن الدخول في الحلف حتى لا يثير عليه السلطان العثماني، ويبدو أن الظروف السياسية كانت تحث العصبة على العمل السريع؛ فالعثمانيون فتحوا جزيرة قبرص وغزت مراكبهم جزيرتي كريت وزانطه [2]، وفتحت جيوشهم مدينتي ديلسينو وانتيباري الواقعتين على البحر الادرياتيكي[3].

عقد الحلف الثلاثي المقدس بين جمهورية البندقية والبابا "بيوس الخامس"، وفليب الثاني ملك اسبانيا في 25ماي 1571م في كاتدرائية سان بيار القديس بطرس[4]، ويعتبر هذا الحلف المقدس كنتيجة حتمية للخوف والهلع الذي أثارته الانتصارات الكثيرة للدولة العثمانية[5] ، وتضمن هذا الحلف ضرورة القيام بهجوم بحري ضد العثمانيين من أجل إعادة إحياء روح الصليبية وشارك في الحلف بعض المدن الايطالية بدعوة من "بيوس الخامس"؛ خاصة إمارة توسكانيا وإمارة جنوة وبعض الايطاليين بينما حافظت فرنسا على موقفها بحكم علاقتها الحسنه مع السلطان العثماني؛ إضافة إلى أن ملك فرنسا شارل التاسع كان مشغولا بحروب داخل فرنسا فلم يكن قادرا على تقديم المساعدة لأي طرف[6].

---

[1] - بسام العسلي، **الجزائر والحملات الصليبيه 1547/ 1791م**، ط1، دار النفائس بيروت1980، ص35.

[2] - جزيرتان تقعان جنوب اليونان، ينظر:محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص256.

[3] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص237.

[4] - أحمد توفيق المدني، **حرب 300 سنه بين الجزائر واسبانيا 1492 1792** ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر د. ت، ص396.

[5] - محمد يوسف، المرجع السابق، ص 152.

[6] - نبيل رضوان عبد الحي، **جهود الدولة العثمانية لانقاذ أهل الاندلس واسترداده مطلع العصر الحديث**، أطروحة دكتوراه، جامعة ام القرى، مكة 1987، (غ.م)، ص280.

قام البابا بيوس الخامس بدور كبير من أجل تحالف مسيحي شامل حيث قام بإرسال الوفود إلى ملوك أوروبا وعلى رأسهم اسبانيا والبرتغال وفرنسا وبولندا و الى أمراء ايطاليا ودعاهم إلى ضرورة التحالف لمسانده البندقية مبينا لهم خطر العثمانيين إذا تمكنوا من السيطرة على قبرص ودعاهم إلى تشكيلي تحالف ضد الأتراك العثمانيين[1]، ومن بين الرسائل التي أرسلها البابا بيوس الخامس إلى ملك اسبانيا فيليب الثاني في مارس 1570 م :"...لا توجد في العالم المسيحي أي دوله مسيحيه يمكنها أن تقف لوحدها تجاه الدولة العثمانية وبناء على ذلك يجب على كافه الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغزو التركي..."[2].

مكونات الحلف المقدس:

حددت معاهده الحلف المقدس عدد القوات المشاركة في هذه المعركة، وتم تعيين القائد "دون خوان النمساوي" وهو الابن الغير الشرعي للإمبراطور "شارل الخامس" قائدا للحلف، فقد تشكلت القوات الصليبية من 290 سفينة 30 ألف جندي 16000 جداف 208 سفينة حربيه موزعه على الأتي: 114 سفينة بندقية، 70 اسبانية، 12 بابوية.6 مالطيه. 3 جنوية وكان قائد الأسطول البندقي الأميرال "Veniero" والأسطول البابوي الأمير ماركو انطونيو Marco Antonio ويقود الأسطول الاسباني "جيوفاني اندريا دوريا" Andrea Doria"Giovanni " إضافة إلى أميرالات مشهورين بينهم دوق بارما، وأميرال كاستيليا صهر ملك البرتغال وأميرال كبير مالطا[3]، و اجتمعت الأساطيل المتحالفة في مرفأ مسينا في سبتمبر 1571م؛ حيث بلغت بوارج هذا الأسطول الموحد 200 بارجة[4].

استعدادات الدولة العثمانية للمعركة:

كان الباب العالي على علم بكل خلفيات التحالف الصليبي بفضل جواسيسه، وكان الصدر الأعظم "صوقللي باشا" على علم بتفاصيل التحالف الصليبي، وقد كلف الديوان العثماني كل من القائدين الوزير الثاني "برتو باشا" و"مؤذن زاده علي باشا" بتولي مهمة

---

[1] - عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص417.

[2] - يلماز اوزوتا، المرجع السابق، ص 371.

[3] - يلماز اوزوتا، المرجع السابق، ص 371.

[4] - بسام العسلي، المرجع السابق، ص37.

قيادة الأسطول العثماني رغم أنهما لم يركبا السفن إلا حديثا حيث كانا جنرالين في القوات البرية، وعليه لا يملكان الخبرة البحرية اللازمة[1].

مكونات الأسطول العثماني والتحالف مع الايالات المركز والأطراف:

بلغت عدد القطاع الأسطول العثماني في الحوض المتوسط نحو 400 سفينة لكنها بحلول فصل الخريف توزعت إلى قواعد مختلفة، أما 184 القطع الرئيسية فهي تحت إمرة "برتو باشا ومؤذن زاده علي باشا"، التي استقرت في قاعدة أني بختي لقضاء فصل الشتاء، ولم يتمكن الجنرالين من السيطرة على الأسطول وضبطه وإصلاح بعض القطع التي أنهكت بسبب سيرها مده طويلة في البحر[2].

في ظل الوضعية المترهلة للأسطول العثماني أرسل السلطان إلى حكام الايالات العثمانية يدعوهم إلى إعداد قواتهم، ومن بينهم ايالة الجزائر التي كانت تمثل رأس الهرم بالنسبة للقوات العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط وهذا للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية في حروبها ضد العالم المسيحي، أضافه إلى المكان التي كانت تحظى بها الجزائر كقوة بارزه في الحوض الغربي للمتوسط حيث أرسل السلطان خطابا إلى بيلر باي الجزائر يطلب منه الانضمام إلى الأسطول العثماني جاء فيه:"... بعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق جل وعلا والتوسل والاستناد إلى آيات معجزات السرور الكائنات عليه وعلى اله أفضل الصلوات فقد تقرر في هذه السنة الخيرة غزو الكفار في من البر والبحر و الإغارة وإلحاق الخسارة بجزره المعادية وأسطوله - هزمه الله- وكذلك بقصد دفع ورفع مضرته وفساده ونظر لاعتماد الهمايوني على حسن فراسك وكياستك وشهامتك فإني أمرك ومن معك من السفن والغلياطات بكامل أسلحتها بالتوجه عاجلا لملاقاة المشار إليه الوزير "برتو باشا"[3].

ونظر لأهمية الأسطول الجزائري كقطعة هامة ضمن الأسطول العثماني أرسل السلطان العثماني خطابا أخرا إلى "العلج علي" يحثه على عدم التأخر بالالتحاق به دون أن يهمل شؤون البلاد ومما جاء في هذا الخطاب :"...حال وصول هذا الأمر فلا تتأخر وتعين من رجالك الأكفاء على الجزر والبقاع الواجب حفظها وحراستها من هذا الجانب من ولايتك وعليك بتجهيز السفن التي بحوزتك والحبال والحبالين والمحاربين بكامل

---

[1] - يلماز اوزوتا، المرجع السابق، ص 372.

[2] - نفسه، ص376.

[3] - محمد يوسف، المرجع السابق، ص 152.

زادهم ولتسرع بالإبحار ثم باشر بقلع وقمع قلاع وبقاع الكفار وعليك بدفع ورفع الضرر والفساد وصد الغارة والخسارة القادمة من بعض الأماكن..."، وفي ربيع سنه 1571 ميلادي خرج "العلج علي" من الجزائر على رأسي حوالي 50 سفينة للالتحاق بالأسطول العثماني، وفي طريقه هاجم عده مناطق مسيحيه وجزر مثل جزيرتين كاندي وسيريكو التابعتين للبندقيه، وعده مناطق في البحر الادرياتيكي، كما تتبع ورصد أخبار تحركات الأسطول المسيحي وإرسال التعاليم بذلك للأسطول العثماني"[1].

وبالتحاق أساطير الايالات العثمانية أصبح الأسطول يتشكل من الوزير الأول مارشال والوزير الثاني بورتو باشا وأربعة فريق أول بحري هم قائد القوات البحرية مؤذن زاد علي باشا والي الجزائر علج علي باشا والي طرابلس الغرب جعفر باشا و بربروس زاد حسن باشا الذي كلف بواجب المستشار لبورتو باشا إضافة إلى 15 لواء بحريا و 200 قائد سفينة قبطان[2].

سير المعركة حزم أوربي مقابل رعونة عثمانية:

بعد استعداد الطرفين للمعركة تجمعت قوات التحالف الصليبي في خليج لبانتي عند فم خليج كورنفوس وكان الأسطول العثماني قد عاد حديثا من قبرص كان هدف الحلف المقدس تدمير القوه العثمانية الإسلامية التي باتت تهدد البندقية بصوره خاصة والتي كانت تحتل عده مناطق وكريت وقبرص[3].

وفي مقابل هذا اندفعت اسبانيا إلى هذا الحلف على أمل التخلص من تهديد الأسطول الجزائري في الحوض الغربي للمتوسط[4]، وكان الأسطول العثماني لا يقل قوة عن الأسطول الصليبي المتحالف، الذي كان متفوقا في مدفعيته وتوجه "دون خوان النمساوي" إلى البحر الأدرياتيكي حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليجي كورنث بالقرب من ليبانتو، الذي أعطى اسما للمعركة، معتمدا على تفوقه في عدد السفن وخاصة سفن البندقية الستة العظيمة المعروفة باسم القالياس، وهي سفن تشارك لأول مرة في الحروب البحرية في مقدمتها، وكان لهذه السفن دور حاسم في الصراع لصالح

---

[1] - محمد يوسف، المرجع السابق، ص 152.

[2] - يلماز اوزوتا، المرجع السابق، ص 373.

[3] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص237.

[4] - كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار المعلم بيروت 1973، ص580.

المسيحيين إضافة للأسلحة القوية من ناريه ودروع، أما المسلمون لا يملكون إلا الأسلحة البسيطة من سهام ورماح وأقواس[1]، وقد وضع "دون خوان النمساوي" أسطوله على نسق واحد يقابل نسق الأسطول العثماني، الذي كان في كورتو ولما علم بقوه الأسطول المسيحي اتجه لكورفو مكث فيها 15 يوما، وغزاها وهنا قرر قائد الحملة مهاجمه العدو أين وصل إلى مرفأ ليبانت وانتظر الأوامر من الباب العالي[2].

وصلت الرسالة من الباب العالي بتاريخ 19 أوت 1571 م، وكانت متأخرة تشير بقضاء فصل الشتاء في بورتو لكن هذا صعب لأنهم غادروه منذ مده والأسطول المسيحي قريب[3]، وفي نفس السياق تشير الرسالة إلى الهجوم على الأسطول المسيحي في حاله الالتقاء، ومن ضمن ما جاء في الرسالة:"...إذا التقيتم بالأسطول المسيحي فعليك أنت و"العلج علي" بالاتفاق والتشاور ومهاجمته..." وهذا يبين بان الباب العالي لم يقدر خطورة الوضع ويتضح ذلك أيضا من خلال الرسالة الموجهة ومفادها:"... أذا جاءتك الأخبار من الولايات الغربية وعرفت منها أن وجودك هناك أمر ضروري فلا تتأخر لحظة في ذلك بموجب أوامري الشريفة، وهناك تكتمل تحضيراتك وتلتحق في الربيع المقبل من جديد بالأسطول الهمايوني..."[4].

وهنا يتبين ان الباب العالي لم يكن لديه أية فكره عن خطورة الموقف ودليل ذلك هو الطلب من العلج علي العودة إلى الجزائر لاستكمال التحضيرات إلى فصل الربيع ومن خلال هذا كله يتبين أن الأسطول العثماني كان في موقف حرج بحيث كان لا يمكنه التراجع والانسحاب من المناطق التي تمركز فيها ولا يمكنه أيضا الاشتباك مع الأسطول المسيحي نظرا للفارق الموجود في القوه.

هنا اجتمع المجلس الحربي العثماني وقد حاول علي باشا قائد الأسطول فرض رأيه على الجميع والمتمثل في رؤيته إلى الاشتباك مع التحالف المسيحي في حين كان موقف "العلج علي" و"برتو باشا" عكس ذلك تماما، حيث نوه العلج علي قائلا :"...إن قوتنا البحرية وضروري من استكمالها لأول الربيع القادم..."، وحذر علي باشا من خطورة

---

[1] - صالح حمير، **التحالف الاوربي ضد الجزائر 1541م وتأثيراته الاقليمية**، مذكرة ماجستير، جامعة باتنة 2006م، ص162

[2] - أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492- 1792م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر د.ت، ص 396.

[3] - محمود سيد الدغيم، المرجع السابق، ص480.

[4] - محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص ص161- 163

التوغل في عرض البحر لكن هذا الأخير كان مصمما على رأيه وأعطى أوامره للأسطول بالخروج[1].

اصطدم الأسطولان في 17 جمادى الأولى 979 هجري يوم الأحد 17 أكتوبر 1571 م في مضيق ليبانتو بالقرب من رأس الدم في أطراف هلومش تمكن الأسطول العثماني في بداية المعركة من التوغل بين سفن العدو ودارت معركة قاسيه أظهر فيها الفريقان بطولة وشجاعة كبيره في بداية المعركة كانت رياح النصر لصالح شراعات المسلمين، وتمكنوا من الاستيلاء على عده سفن من بينها السفينة التي تحمل علم البابا[2]، لكن الخطأ الذي ارتكبه "علي باشا" و"برتو باشا" بالخروج من وسط الأسطول العثماني بسفينتيهما ليظهروا للعدو مكانهما فكان هذا خطأ كبير، رغم تحذير العلج علي لهما من قوه الأسطول العثماني؛ حيث رفض هذا الأخير الهجوم في المضيق وضروره سحب قوات التحالف الأوروبي إلى عرض البحر حتى يتم كشف قوته، ومحاوله إضعافه لكن لم يستجب علي باشا إلى هذه النصائح المقدمة من العلج علي[3].

استمرت المعركة ثلاث ساعات انهزم الجيش الميمنة من الأسطول العثماني وكذلك وسطه في مواجهه الأسطول المسيحي المتكون من البنادق على الخصوص وقلبه الذي يقوده الدون خوان النمساوي وتحولت المعركة إلى مواجهه بين سفينة ضد سفينة، وفي هذه الأثناء كان العلج علي لا يزال يخوض القتال في حرب الأسطول الخاسرة في جناحه الأيمن، وظل يقاوم بمن معه حتى منتصف النهار، وبعدها تولى قياده الأسطول وشن هجوما مكثفا تمكن من خلاله قتل قبطان مالطا، واستولى على سفينة قائد القوة المالطية، وأخذ علمها، ثم قام بعد انفصاله عن الأعداء بإطفاء النار من بعض السفن العائدة للأعداء ،وضمها للسفن الجزائرية، وعلى إثرها انتهت المعركة بهزيمة المسلمين وكانت الخسائر كبيره للطرفين وخاصة للأسطول العثماني؛ حيث يذكر محمد فريد بك المحامي أن 130 سفينة عثمانية أحرقت وأغرقت 94 سفينة و 300 مدفع و 30 ألف أسير وقع في أيدي المسيحيين واستشهد خلال المعركة علي باشا قائد الأسطول[4].

---

[1] - محمد خير فارس، المرجع السابق، ص52.

[2] - احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 398.

[3] - محمود السيد الدغيم، المرجع السابق، ص 408.

[4] - محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ص 126- 127.

المواجهة من ليبانت إلى تونس:

إلحاق تونس بالدولة العثمانية:

بعد تحقيق التحالف المسيحي انتصاره الكبير على الأسطول العثماني في معركة ليبانت نطرح الأشكال التالي لماذا لم يستثمر الأوروبيون في هذا الانتصار ويقومون باقتلاع الوجود العثماني من البلاد المغاربية خاصة الجزائر وطرابلس الغرب؟

إن التغيرات التي حدثت في السياسة الاسبانية وذلك بانسحابها من الحلف المقدس بسبب إدراك بعض حلفائها أنه لا فائدة من استمرار الحرب ضد الدولة العثمانية وضرورة الرغبة في إعادة العلاقات السياسية وقام نائب البندقية في اسطنبول انطونيو باربارو بمقابلة الصدر الأعظم محمد صوقللو الذي خاطب نائب البندقية بالعبارة قائلا:"... انك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا وأن استيلائنا على قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئا أكثر من حلق لحانا وأن اللحية لا تنمو بسرعة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بها في الوجه لأول مرة... "[1].

وفي المقابل بقي الأمير خوان النمساوي يحاول استثمار النصر الذي أحرزته القوات الصليبية من أجل تحقيق حلمه، والمتمثل في إنشاء مملكه على أرض تونس حتى تصبح سد منيعا في وجه الشعوب الإسلامية، وقد لقيت فكره دون خوان دعما وتشجيعا من طرف الكنيسة البابوية بروما وفرسان مالطا[2] وبعد إصرار كبير وافق الملك فيليب ووقع على قبول الحملة لكن سرعان ما تم إلغاؤها، وفي سنة 1573م عاد وصادق على الحملة شرط أن يتم تحطيم القواعد العثمانية ثم الجلاء عن تونس فورا، وما شجعه في هذه الحملة لجوء السلطان الحفصي أبي عباس الثاني الذي حكم تونس ما بين 1535 /1572م[3]، الذي احتمى بالأسبان وهكذا تشكل حكما مشتركا اسبانيا حفصيا دام لعده أشهر إلى غاية قدوم الأسطول العثماني في سبتمبر 1574م[4].

---

[1] - عبد العزيز الشناوى، **الدولة العثمانية دولة إسلاميه مفترى عليها**، ج1، مكتبه الانجلو مصريه، القاهره1980، ص ص 677، 678.

[2] - عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص246.

[3] - محمد خير فارس، المرجع السابق، ص143.

[4] - محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال تع محمد الشاوش، ط3، محمد عجينه دار سراس للنشر تونس 1993، ص66.

خرج دون خوان النمساوي بأسطوله من جزيرة صقليه في شهر أكتوبر 1573 وكانت هذه السفن تحمل على متنها جيشا كبيرا يتشكل من سبعه وعشرين ألف و 500 رجل مشكل كالأتي 13,000 من الدويلات الايطالية 19,000 اسباني 5 ألاف ألماني و 500 فارس[1]، و نزل الجيش بحلق الوادي وقادم الملك الحفصي أبي العباس نحو الجيش والتقى بدون خوان وطلب منه مساعدته من اجل استرداد ملكه فاشترط دون خوان النمساوي أن يكون الحكم مناصفة بينه وبين الأسبان رفض مشاركه الصليبيين في حكمه وتنازل عن حقه في الملك لأخيه محمد ابن الحسن[2]، فقامت اسبانيا بشن حملة على تونس بقيادة "دون خوان دوتريش" "Don Juan Autriche" أخ ملك اسبانيا فليب الثاني سنة 980هـ/ 1573م، وأثناء احتلالهم لمدينة تونس وجدوا نصف سكانها قد غادروها إلى الضواحي المجاورة فعاث الأسبان فسادا ودخلوا جامع الزيتونة واتلفوا قسما كبيرا من المخطوطات لذا عندما انتصر سنان باشا على الأسبان في السنة الموالية اعتبر النصر مرحلة بعث من جديد نظرا لهول ما مارسه الأسبان[3]، وعليه فإن الأسطول الاسباني لم يجد أية معارضه بقياده "سانتاكروز"، فاستولى عليها بكل سهوله حاول الأسبان التوجه نحو مدينه القيروان لمطارده المسلمين؛ لكنهم رجعوا خائبين فانتقموا من أهالي الحمامات، وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال واستولوا على المدينة[4]، كما التجأ أهالي تونس نحو جبل الرصاص واختفوا به وتعرف بواقعه الدواميس[5]، وجزء منهم لجأ إلى الغابات والبوادي وفي المقابل استباح الأسبان مدينه تونس ومنازلها وخاصه جامع الزيتونه[6].

---

[1] - عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص245.

[2] - بسام العسلي، المرجع السابق، ص100.

[3] - أحمد عبد السلام ، **المؤرخون التونسيون في القرون 17و 18و 19م**، تر أحمد عبد السلام و عبد الرزاق الحليوي، ط1، دار بيت الحكمة، تونس 1993، ص 54.

[4] - الوزير السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تح محمد الحبيب الهيلة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، ص215.

[5] - ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص197.

[6] - محمد بن مخلوف، **شجره النور الزكيه في طبقات المالكيه**، ج2، المطبعه السلفيه، القاهره 1931، ص154.

رد الاعتبار في تونس:

إن الانتصار الذي حققه الأسبان ومن ورائهم التحالف الأوروبي في المعركة، واستثمار ذلك بإلحاق تونس التي كانت تمثل الحلقة الأضعف بالنسبة للايالات المغاربية في شمال إفريقيا؛ لذا كان لزاما على الباب العالي استرجاع تونس حتى تتمكن من فرد سيطرتها وقواتها في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتقارعه التحالف المسيحي من جهة أخرى فبدا السلطان سليم الثاني بالاستعداد لهذه المهمة الصعبة فقام بإرسال الفرمانات لكل الايالات العثمانية في شمال إفريقيا ونخص بها عياله الجزائر وطرابلس الغرب والى القيروان التي كانت بها حاميه عثمانيه من أجل الاستعداد لاسترجاع تونس[1]، فوجه الرسالة الأولى لحاكم تونس تعلمه أن الأسطول مجهز لضرب الأسبان ضد حلق الوادي وتطلب منه المساعدة بالرجال والعتاد والسلاح، كما وجه رسالة أخرى لأحمد عراب باشا أمير أمراء الجزائر من أجل إعلامه بالأمر وتعيين القائد رمضان مكانه نظرا لمهامه في تونس حتى يلتحق بالقائد العام بالأسطول العلج علي باشا، وتم توجيه رسالة أخرى إلى القائد رمضان باشا حاكم الجزائر تعلمه بتجهيز أسطول يتكون من 300 قطعة وتحديد وقت خروجه في شهر ابريل 1574 م ، و الرسالة رابعة إلى الأمراء والقضاة في سواحل البحر الأبيض المتوسط تأمرهم بمساعده مامي رايس المرسل للمنطقة من اجل شمل المتطوعين والراغبين في الجهاد وإلحاقهم بسنان باشا بترغيب واستماله المتطوعين في مناطقهم في الجهاد المقدس[2]، وتم توجيه رسالة أخيره إلى القائد رمضان أمير أمراء الجزائر يطلب منه إرسال 1590 فارس ومعهم 1000 انكشاري بكامل عددهم وعدتهم[3].

ومن خلال هذا أصبح الأسطول العثماني يتكون من 250 سفينه و 40 سفينه أخرى لنقل الجنود والأسلحة والذخيرة و40,000جندي، وانضمت إليه قوه من القيروان وطرابلس الغرب والجزائر وقد وصل مصطفى باشا حاكم طرابلس على رأس 4000 رجل وشيوخ جربه والقيروان على رأس قوات تتألف من 6000 فارس كما وصلت قوات من

---

[1] - عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا**، تر عبد السلام أدهم، المرجع السابق، ص246.

[2] - رحيمه بيشي، العلاقات السياسية التونسية الاسبانية في أواخر الدولة الحفصية (1494 /1574) م، رسالة ماجستير، تاريخ الحديث، جامعه غردايه2011، ص ص 169- 179.(غ.م)

[3] - عزيز سامح التر، المرجع السابق ، ص246.

عنابة وقسنطينة قوامها 2000 رجل وعدم رجال منطقه القبائل وأوكلت قياده الجيش لسنان باشا والأسطول للعلج علي، ثم خرج الأسطول يوم 15 ماي 1574 من المضايق، ونشر قلاعه في البحر المتوسط ثم ذهب لضفة كالابارا ثم لجوار مسينا وصادفوا سفن فأخذوها ووصلوا للساحل الإفريقي، وفي اليوم الثاني انزلوا الجنود بجوار حلق الوادي ووصلوا لتونس في 13 جويلية وقاموا بإنزال الجنود والمدافع في خليج قرطاجنه قبالة حلق الوادي، حيث كانت قوات حيدر باشا قائد القيروان، ومصطفى باشا قائد طرابلس وكذلك قوات أحمد عراب [1].

وفي الجهة ألمقابله فإن الدون خوان النمساوي لما علم بتوجه الأسطول العثماني نحو تونس أمر بإرسال قوات عسكرية إلى حلق الوادي، وتمت المراسلات بينه وبين الدون غرسيا دي توليدو نائب ملك نابولي؛ حيث تبادل الآراء حول ما يحدث، وكان الرأي المتفق عليه هو تحطيم حصني تونس وجزيره تشيكلي، وعين دي بورت وكاريو ومعه أربعة كتائب عسكريه من الأسبان ومعه خمسه من الايطاليين، وجعل قياده حصن الباستيون وجزيرة تشيكلي للدون دي زا موغرا، وباب البحر بقياده سربيلوني ومعه 2000 رجل من اسباني وإيطالي [2].

بوصول الأسطول العثماني إلى السواحل التونسية علم أهالي البلاد بذلك، وأيقنوا بالنصر وقررت القوات الانقسام بين حلق الوادي ومدينه تونس، وبدأت المعارك ابتداء من 17 جويلية،، وكلف بها العلج علي من طرف سنان باشا، الذي فرض حصارا على القلعه وساعده أحمد عراب، وبدأ القصف يوم 21 جويلية من جهة الساحل وتم إسقاط القلعة في 23 من شهر أوت، وأخذت الغنائم ثم توجه سنان باشا نحو الباسيون رفقه القوات الجزائرية وعدد من جنود القبائل وشددوا الحصار عليها، وفي يوم الاثنين 13 سبتمبر 1574 شن هجوما مكثفا وتمكنوا من الاستيلاء عليها[3]، وتمكنوا من القبض على القائد الاسباني بها والسلطان محمد الحفصي وأرسلا إلى اسطنبول ومنه تم إعلان سقوط الدولة الحفصية [4].

---

[1] - درويش الشافعي ، علاقات الايالات العثمانية في غرب المتوسط مع اسبانيا خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي، رسالة ماجستير تاريخ حديث، جامعه غرداية 201، ص 129.

[2] - عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص 250.

[3] - ابن ابي الدينار المصدر السابق، ص ص 181- 200.

[4] - أحمد ابن أبي الضياف ، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر تونس 1977، ص25.

أما بالنسبة لتونس عهد كل من مصطفى باشا وحيدر باشا بالهجوم عليها، وأمدوا بألف جندي ومدافع، وبعد حصار شديد اضطرت القوات الاسبانية للانسحاب بمعية السلطان محمد واللجوء لحصن الباستيون، الذي كان محصنا بالأخشاب والرمال إضافة للمدافع والطعام وما يزيد عن 7000 مقاتل، ثم دخلت القوات العثمانية لمدينه تونس دون مقاومه وسقطت تونس في يد العثمانيين ومن ثم تشكيل إمارة بها تابعه للدولة العثمانية، حيث تم تعيين حيدر باشا حاكما عليها من طرف سنان باشا، وكلفه بوضع نظام مشابه لنظام الجزائر وتهديم قلعتي حلق الوادي وحصن الباسيون حتى لا يهددهم الأسبان بهما[1].

خاتمة:

لم تكن هذه الخسارة بالنسبة للدولة العثمانية في معركة ليبانت 1571م ، بالمعنى المادي بقدر ما كانت خسارة معنوية زالت على أثرها أسطوره الأسطول الذي لا يهزم وأصبحت إمكانية هزيمة الأسطول العثماني حقيقة بالنسبة للتحالف المسيحي وبذلك زالت عقده التخوف من المسلمين ويمكن إجمال أسباب الهزيمة في المعركة إلى:

-عدم الأخذ بنصيحة العلج علي الذي كان على دراية بالقوات المتحالفة لذلك كان يفضل تحويل ميدان المعركة إلى عرض البحر وتفادي الأماكن الضيقة في المواجهة

-الانفراد في القرارات من طرف قاده الأسطول البحري العثماني وخاصة علي باشا الذي كان يحاول فرض رأيه.

-عدم جديه الباب العالي في التحضير لمواجهه التحالف الصليبي؛ رغم علمها بتفاصيل هذا التحالف، وعدم مواكبه الباب العالي للتطورات التقنية الحاصلة على مستوى تكوين وبناء الأساطيل الأوروبية، وبقيت محتفظة على الطابع التقليدي، وعدم إدخال تعديلات وتحديثات على الأسطول العثماني وخاصة بعد تخليها عن اليد العاملة الموريسكية.

- يعتبر العلج علي هو المستفيد الأكبر من خسارة معركة ليبانت نظرا للحظوة التي تمتع بها بعدما تمكن من حفظ ماء وجه الباب العالي.

[1] - سيد محمود، **تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار وفق المصادر العثمانية المعاصرة**، ط1، مكتبه الآداب القاهرة 2007 ،ص 30.

- أكدت هذه المعركة قوة البحرية الجزائرية، وتمرسها في الصراع مع القوى المسيحية، الذي شكلت له عقدة طيلة ثلاث قرون من الصراع، كما أكدت التبعية الفعلية والقانونية للباب العالي.

- تفضيل المصالح الفردية وإعادة العلاقة مع الباب العالي من طرف بعض القوى الأوربية، جعلها لا تستثمر في الانتصار في ليبانت؛ بل برز الخلاف بينها مما جعل الباب العالي يستفيد من هذا وإعادة هيبته الضائعة من خلال استعادة تونس التي مثلت الحلقة الأضعف في الصراع بين القوى الأوربية والعثمانية وخاصة الإسبانية، هذه الأخيرة التي خسرت موقعها في تونس بشكل نهائي.

ظاهرة القرصنة البحرية في الحوض الغربي للمتوسط بضفتيه (الأوروبية والمغاربية) في العصر الوسيط وانعكاساتها المختلفة (7_9هـ/ 13_15م)

الأستاذ: شريف عبد القادر
جـامعة الجـــزائر2/ الجزائر
cherifaek01@gmail.com

مقدمة:

اكتسب المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس دورا بارزا في تشكيل حضارة البحر المتوسط من خلال نشاطاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وخلال نهاية القرن 13م ومطلع القرن 14م شهدت المنطقة ضعف سياسي جعلها عرضة لهجمات الغرب الأوروبي فقد مثلت معركة العقاب 1212م انهزاما هيكليا للدولة الموحدية فقد كانت كارثة على الحضارة العربية والإسلامية حيث تم على إثرها نقل ميدان المواجهة الإسلامية المسيحية من جنوب أوروبا باتجاه منطقة شمال إفريقيا، وعلى إثر المعركة بدأت منطقة العدوتين تتجهان نحو التحرر من سلطة الموحدين، لتتفكك أجزاء الإمبراطورية في منتصف القرن13م إلى دويلات هشة وضعيفة هي الإمارة الحفصية وإمارة بني عبد الواد وإمارة بني مرين ومملكة بني الأحمر.

فشكل هذا الضعف السياسي خلال القرون الوسطى صحوة للقرصنة، فكان اقتناص السفن والسطو عليها من أهم العوامل التي أثرت على الملاحة في البحر المتوسط، وبطبيعة الحال انعكس هذا التأثير على العلاقات الاقتصادية والسياسية ولا سيما التجارية بين مختلف دول ومماليك البحر المتوسط، وكان لنشاط القرصنة الأثر السلبي على حرية التنقل في البحر المتوسط بما تثيره من رعب وخوف ولاحظنا بمرارة تقهقر الأساطيل الإسلامية في المنطقة خلال هذه الفترة و تخلف وضعف الدويلات المغاربية الواضح أمام الأساطيل الأوروبية ، بالرغم من الفترات المزدهرة في التاريخ الحفصي والزياني والمريني إلا أن القرصنة ظلت تضرب سواحلهم وسفنهم طوال هذه الفترة الزمنية.

ومن هذا المنطلق نطرح الإشكالية التالية:

ما العوامل التي ساهمت في انتشار ظاهرة القرصنة في الحوض الغربي للمتوسط ،وماهي انعكاساتها على الأوضاع المختلفة في هذه المنطقة بضفتيها؟ وفيما تمثلت الحلول من الطرفين الأوربي ودول بلاد المغارب؟

أولا- تعريف القرصنة

1: تعريف القرصنة لغة

القرصنة من القرص بالإصبعين، بابه نصر، و"قَرصْ" البراغيث لسعها و "القُرصُ" و "القُرصةُ" من الخبز و" قَرصَ" العجين من باب النصر قطعه "قُرصَةٌ"[1] والقرصان: هو لص البحر، وجمعه قراصنة[2].

وكلمة قرصان في الحقيقة من أصل إيطالي، وتعني قطاع الطرق البحرية وهي معربة من الكلمة الإيطالية "CORSAL" التي تعني هذا المعنى بالضبط، والعرب حرفوا الكاف الى قاف واللام إلى نون تسهيلا للنطق، جريا على أسلوب نطق الحروف العربية، ومع احتكاك سفنهم في العصور الوسطى بالقرصنة وكانوا يملؤون البحار ويتسيدونها آنذاك فشاعت الكلمة المحرفة ودخلت القاموس العربي من اوسع أبوابه، والقرصنة هي السطو على السفن[3]

القرصنة وهي لفظة معربة من اللاتينية التي نقلتها اليونانية ومعناها في أصلها منقولة عنه " لصوصية البحر، أو سرقة البحر" وفاعل القرصنة قرصان وهو سارق البحر وجمعه قراصنة[4]، ويعرفه " فيبستر" تعريفا دقيقا قائلا في حقه "هو ذلك الذي بواسطة العنف الشديد يسيطر في البحار على ممتلكات فرد اخر، ولص البحر خاصة ذلك الذي يجعل مهنته الاعتراض من اجل السرقة والنهب، إنه قاطع الطريق البحرية

---

[1]- محمود بن أبي بكر الرازي، **مختار الصحاح** ، ط4، طبعة الكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1418ه، ص251.

[2]- إبراهيم مصطفى، **المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية)**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، د.م، 2004م، ص726.

[3]- نفسه، ص726.

[4]- جبران مسعود، **الرائد الصغير(معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقا لحروفها الأولى)**، ط7، دار العلم للملايين، د.م، 1992م، ص1166م.

وهو أيضا لص الميناء"[1].

2: تعريف القرصنة اصطلاحا.

هي ما يقوم به الأفراد في البحر العالي من أعمال العنف الغير مشروعة الموجهة ضد الأشخاص أو الأموال المستهدفة لتحقيق منفعة خاصة للقائمين بها[2].

وعرفها اخرون: هي كل اعتداء مسلح يقع في عرض البحر بين مركب لحسابه الخاص، مستهدفا سلب أو نهب للسفن الأخرى أي كانت جنسيتها، أو خطف وسلب الأشخاص الموجودون عليها او الأمرين معا[3] .

وعرفها البعض الآخر: " هي خروج مكلف ذو شركة على المعصومين في البحر لأخذ مال أو الاعتداء والترويع لتحقيق غاية خاصة مع تعذر النجدة"[4].

وعرفها بعض الفقهاء بأنها: ما يقوم به الأفراد في البحر العالي من أعمال عنف غير مشروعة موجهة ضد الأشخاص أو الأموال والمستهدفة لزوما لتحقيق منفعة مادية للقائمين بها[5].

3: الفرق بين القرصنة والجهاد البحري.

استعمل لفظ الجهاد البحري لدلالة على مفهوم الحروب التي تقع في البحر وتكون بذلك استمرارية بعمليات الجهاد التي انطلقت مع بداية العالم القديم برا بينما تطلب قطع البحر للوصول إلى مناطق أخرى، مما جعل هذه الحركة تدخل في إطار عام تجلت فصوله في مواصلة عمليات الجهاد لتبليغ رسالة الإسلام[6].

يرى توفيق المدني أن كلمة الجهاد البحري أو النشاط البحري كانت تشكل البعد

---

[1]- حسن أميلي، **الجهاد البحري بمصب ابي الرقراق خلال القرن 17م**، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2006م، ص 53.

[2]- محمد سامي عبد الحميد، **القانون الولي العام**، دار المطبوعات الجامعية، منشاة المعارف، الاسكندرية، مصر، 2004، ص 554.

[3]- محمد بشير الشافعي، **القانون الدولي العام في السلم والحرب**، منشاة العارف، الاسكندرية، 1974م، ص208.

[4]- علي بن عبد الله الملحم، **القرصنة البحرية على السفن**، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المملكة العربية السعودية، د.س، ص34.

[5]- محمد سامي عبد الحميد، المرجع السابق، ص 340.

[6] - الطاهر قدوري، **مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي**، مجلة العصور الجديدة، العدد 2،مج10 جامعة وهران 1، الجزائر2020م، ص132.

المفاهيمي والخلفية المهنية لربان السفينة أثناء تأدية مهامه، فيعتبر نفسه يمارس نشاطا مقدسا، أو عملا عسكريا مهنيا مفوضا من قبل الدولة الإسلامية ويخضع لنظام وترخيص وحماية وله عائدات للدولة وموجه ضد دول ورعايا معنيين، وليست لصوصية مستباحة ويستدل في هذا بما جاء في دائرة المعارف الفرنسية: "كانت الحكومات فيما سلف تسلم أوراق رسمية للقراصنة فتكسب بذلك صبغة مشروعة تميزهم عن لصوص البحر وتجعلهم شبه جنود متطوعين أحرار يعملون فوق البحر، ومعلوم أن لصوص البحر يباشرون مهنتهم باستمرار اما القراصنة لا يعملون إلا مدة الحروب فحسب[1]، إذ هو يرى أنها حرب اقتصادية بين دول متعادية.

بينما يرى "برنو" إن الجهاد البحري مرادف لمصطلح القرصنة[2]، ونفس شيء ذهب إليه "عبد الله العروي" إذ اعتبر الجهاد البحري عملية تقابلها القرصنة عند الأوروبيين[3].

كما طرحت هذه العملية على فقهاء المغرب الاسلامي فعالجوها في مجموعة من النوازل، لكن الغالب على أجوبتهم هو معالجة موضوع افتداء السلع والأفراد الذين وقعوا في الأسر من قبل العدو.

إن التمايز بين مفهومي لصوصية البحر والقرصنة يبدو جليا لدى العديد من المؤرخين اذ أدرجوا هذه الالفاظ (forban, flibustier, pirate)في مفهوم اللصوصية باعتبار المتصفين بها يشكلون أصناف متشابها من اللصوص وقطع الطرق الذين يجوبون البحار لحسابهم الخاص، ولا يعترفون بأي سلطة أو سيادة ولا هدف لهم إلا تحقيق أكبر عدد من العمليات واجتناء أكثر قدر من الغنائم وبالتالي فإن كل السفن عرضة لهجماتهم بدون استثناء، وكل الشواطئ هدف لغاراتهم الخاطفة[4].

وبناءا على ما سبق يتضح لنا أن القرصنة البحرية تختلف على الجهاد البحري في البحر فالقرصنة عمل غير مشروع لا أساس له، لأن القرصان يبحر لحسابه الخاص وبدون إذن من السلطات في الدولة، فهو قاطع طريق وعمله عمل فردي او عمل جماعة

---

[1]- أحمد توفيق المدني، **حرب ثلاثة مائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م،
ص ص 71، 72.

[2]-L. Brunot, **Nots Lexicologiques sur le vocabulaire maritimes de rabat salé**, art zihad, Paris, 1920, p27.

[3]-عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م، ص226.

[4] - حسن أميلي، المرجع السابق، ص50.

قليلة، أما الغزي في البحر أي المجاهد في العالم الاسلامي فهو كالجندي المنظم يعمل تحت رقابة وإشراف سلطة الدولة، بالتالي يخضع في ذات الوقت لحمايتها ويكلف بالهجوم على السفن تابعة لدول معينة دون اخرى عاملا بالاتفاقيات المبرمة، فضلا عن أنه يتقاضى مبلغا معينا من المال من رحلاته.

ثانيا: تاريخ القرصنة في البحر المتوسط :

أشرقت شمس القراصنة منذ قديم الأزل ويمكن أن نقول أنها ظهرت مع ظهور الملاحة البحرية في العالم القديم، اشتغل بها الفينيقيون[1] أقدم وأفضل من ركب البحر، ثم جاء بعدهم الإغريق[2] فدخلت القرصنة حياة بعض القبائل الإغريقية الصغيرة، بل أنهم عدوها حرفة رفيعة المنزلة وبمرور الزمن وصلت القرصنة للبحر المتوسط حتى أصبحت تشكل فيه تهديدا على

معظم دول العالم آنذاك كالإمبراطورية الرومانية[3] العظيمة[4]، غذا يمكننا القول أن القرصنة البحرية من أقدم الجرائم وترجع جذورها إلى الوقت الذي تمكن فيه الإنسان من ركوب البحر حيث كانت موضوعا للعديد من النقوش في النصب والمعابد، وعلى مر العصور ظهرت القرصنة وانتشرت لأسباب عدة وأصبحت لافتة للنظر في مناطق كثيرة من العالم[5]، واستمرت القرصنة بعد الميلاد في البحر المتوسط رغم الحملات الرومانية لمحاربة القراصنة، وفي هذه الفترة وجد اول تعريف للقرصنة البحرية من المؤرخ الروماني "بلو تارش" حيث وصف القراصنة بأنهم أولئك الذين

---

[1] - **الفينيقيين:** باليونانية وتعني البلد الأرجواني، كانت حضارة سامية شرق البحر الأبيض وغرب الهلال الخصيب قبل 2500 ق م، انظر: محمد الصغير غانم، **التوسع الفينيقي في غرب قرطاجة**، 12، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1979م، ص18.

[2] - **الإغريق:**هم اليونانيون ويطلق عليهم أحيانا الهيلينيون أمة سكنت اليونان وقبرص وألبانيا وإيطاليا وتركيا ومصر، كان ظهورهم بشكل موجات هجرة متتابعة وكانوا عبارة عن خليط من الأجناس، انظر: علي عكاشة، **اليونان والرومان**، ط1، دار الأمل للنشر، اليرموك، 1991م، ص142.

[3] - **الرومان:** هم سكان شبه الجزيرة الإيطالية في البحر الأبيض المتوسط، تعددت شعوبها ولهجاتها، أسسوا إمبراطورية عظيمة في روما، أنظر: علي عكاشة، المرجع السابق، ص 149.

[4] -باتسيك ماخوفسكي، **تاريخ القرصنة في العالم**، تر: أنور محمد إبراهيم، منتدبات سور الأوزبكية، القاهرة، 2008م، ص87.

[5] - راضية عيسات، **القرصنة البحرية وانعكاساتها على الأمن البحري**، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر في القانون، جامعة مولود معمري، الجزائر، د.ت، ص10.

يهاجمون دون وضع قانوني ليس فقط السفن ولكن ايضا المدن البحرية[1].

كانت شمس العصور الوسطى تأذن بالمغيب على حوض البحر المتوسط الذي كان بمثابة البؤرة التقليدية للنهب البحري حيث ظهر على شواطئه مركز قوة للقراصنة، اقترن اسمه في التاريخ بالبربر، تولوا على مدى ثلاثة قرون تمزيق خطوط التجارة والملاحة في هذا البحر، بدءا من عام 1440م أخذت دولة الحفصين الإقطاعية الضخمة في التفكك ليحل مكانها عدد من الدويلات الصغيرة، استولت على معظم الموانئ الكبرى في شمال افريقيا مثل طرابلس وتونس والجزائر، وسرعان ما استولى المغامرون الذي يمارسون النهب البحري منذ زمن بعيد على تلك الموانئ التي كانت تتمتع بثراء هائل منذ زمن غابر[2]، كما استولى الإسبان على معظم سواحل إفريقيا الشمالية وطردوا القراصنة الأوروبيين منها، وفي القرن 15 م لجأ آخر حكام دولة الحفصين لإجراء معاهدة مع اثنين من القراصنة القادمين من جزيرة "مبتيلين" ألا وهما الإخوة بربروس، وقد تكفل القراصنة البربر بجزيرة "جربة" فحولوها إلى قلعة حصينة وقاعدة لحملات النهب والقرصنة[3]، وهذا عائد للصراع الطائفي بين دول أوروبا المسيحية والضفة الافريقية المسلمة وكان هذا السبب في ظهور أول نشاط بحري للإخوة"بربروس" في شمال إفريقي".

ثالثا: عوامل وأسباب ظهور القرصنة البحرية:

تعد أعمال العنف البحري من أهم، و أخطر المشكلات التي تهدد سلامة الملاحة البحرية، وهذه المشكلة ترجع إلى عدة أسباب، و عوامل دفعتا القراصنة إلى ارتكاب هذه الجريمة، و هذه الأسباب تتعدد و منها.[4]

الأسباب اقتصادية:

الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها بعض الدول الساحلية بالحوض الغربي[5]، تدفع القراصنة إلى ارتكاب أعمال السلب و النهب باستخدام القوة والعنف وهو

---

[1]- إبراهيم خليل الجبوري، **القرصنة البحرية في الساحل الصومالي**، باب المندب، دار شتات لنشر البرمجيات، مصر، 2011م، ص27.

[2] - باتسيك ماخوفسكي، المرجع السابق، ص87.

[3] - باتسيك ماخوفسكي، المرجع نفسه، ص87.

[4] - محمد سليمة، **القرصنة البحرية**، مكتبة القانون والاقتصاد، الرياض، د.س، ص 89.

[5] -راضية عيسات، المرجع السابق، ص16.

وهو الهدف الذي يدفع القراصنة للقيام بهذه الأعمال منذ القدم، و يتباين حجم ما يتم نهبه من نهب متعلقات شخصية أو أموال يحملها طاقم السفينة، إلى سلب البضائع من السفن أو حمولتها كاملة و في مرحلة أشد خطورة تنهب سفينة مع حمولتها[1].

الأسباب المادية أو الانتقام:

يعتبر الطمع من أخطر أسباب القرصنة البحرية، و ذلك لأنه ينبئ عن خطورة إجرامية لدى المرتكب لهذا الفعل، حيث يهدف غالبا القراصنة للحصول على المال سواء بسرقته أو أخذه عنوة [2]،وترتكب جريمة القرصنة البحرية استجابة لنوازع الحقد فقد يتجاوز الرغبة في الحصول على مكسب مادي إلى الإلحاق الأذى بطاقم السفينة أو مالكها.[3]

الأسباب التجارية:

يرى "ماس لا تري "أن ازدياد حركة القرصنة في الحوض الغربي يعود إلى التوسع الهائل للتجارة البحرية التي واكبت الحروب الصليبية و ساعدت على انتشار أعمال القرصنة البحرية [4]، أي أن ازدهار حركة النقل البحري و نقل الأموال و البضائع كان سبب رئيسي في انتشار القرصنة البحرية في المنطقة[5]

تطور صناعة السفن:

كما يعد التطور في صناعة السفن أحد الاسباب و من عوامل القرصنة البحرية[6]، تواجدت صناعة السفن بعدة مدن ساحلية مثل سبته وطنجة وسلا، وقد اهتم بها سلاطين المغرب الأقصى نظرا لقربهم من العودة الأندلسية وموقفهم من حركة الاسترداد وما جلبه لهم من مصادمات مع الدول النصرانية، تطلب جلب المؤن والجند إلى هناك وحماية السواحل المغربية من الغارات الإسبانية والبرتغالية [7].

---

[1] - علي بن عبد الله الملحم، **القرصنة البحرية على السفن**،مقدمة لنيل شهادة ماجستير، جامعة نايف، المملكة السعودية، د س ،ص 81.

[2] - محمد سليمة، المرجع السابق، ص 89.

[3] - علي بن عبد الله ملحم، المرجع السابق، ص 81.

[4] - محمود هدية، المرجع السابق، ص18.

[5] - راضية عيسات، المرجع السابق، ص 16.

[6] - محمد سليمة، المرجع السابق، ص 93.

[7] - علي الجزنائي، **جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991م، ص27.

الموقع الاستراتيجي:

كما تعد الأهمية الإستراتيجية للمنطقة البحرية من أسباب القرصنة البحرية، فيتمركز القراصنة في مناطق تمتاز بأنها ممرات بحرية ضيقة، مما يؤدي إلى بطء السرعة في هذه الممرات فتكون هذه السفن صيدا سهلا للقرصنة[1]

الأسباب الدينية:

كما أن الأسباب الدينية كانت أحد العوامل التي أدت للقرصنة البحرية [2] فما كان المسلمون ليغامروا في البحر إلا في ظل هدف واضح المعالم ومغزى أساسيا بالمجابهة الإسلامية المسيحية التقليدية كغطاء شرعي لنشاطهم البحري الملاحي، وهو ما يضفي عليه بعدا مقدسا لدى القوات الإسلامية العاملة في البحر المتوسط[3].

وقد أرجع توفيق المدني السبب الرئيسي للقرصنة هو حالة الخطر الدائمة في البحر المتوسط التي كان يعيشها المسلمون على أيادي البحارة المسيحيين [4]، حيث اعتبر الملوك الأوربيين المحاربون المسلمين بمثابة قراصنة وكانوا يمنحون للقراصنة المالطيين التراخيص بمهاجمة السفن التي تنتمي إلى الدول الإسلامية[5].

كما أجج الزحف المسيحي على ما تبقى من ممالك الأندلس وما واكبه من تعسف و تهجير للمسلمين إلى مناطق شمال إفريقيا، الشعور الديني ضد المسيحية جمعاء الشيء الذي جعل رجال الجهاد البحري يرتقونا به [6]

رابعا: نماذج عن القرصنة بين المسلمين والنصارى في المتوسط:

إن المسلمين عموما قد تعرضت سفنهم إلى عملية النهب التي مارسها البحارة من مختلف المدن الأوروبية إلا أنهم كانوا يفضلون الطريق البحري، ويرسم لنا البادسي صورة واضحة عن حالة الفزع والقلق التي كان يعيشها سكان الساحل الريفي من جراء تردد السفن الأوروبية على بلدهم فقد أذاقوهم سوء العذاب ولم ينفع سكان الساحل الريفي سوى الاستنجاد بالأولياء الذين بفضل بركاتهم حميت السواحل ولم يستطع

---

[1] - محمد سليمة، المرجع نفسه، ص 93.

[2] - محمد سليمة، المرجع السابق، ص90.

[3] حسين أميلي، المرجع نفسه، ص59-

[4] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص72.

[5] - محمد سليمة، المرجع نفسه، ص90.

[6] - حسين أميلي، المرجع نفسه، ص 60.

النصارى الاقتراب من بعض النقط المائية وبعض الربط الساحلية، والمتعقب لإبن الرشد و الونشريسي خير دليل على ما تعرضت له المراكب المغربية من هجومات السفن النصرانية[1].

تطلعنا الأحداث أنه في سنة (1224م-620هـ) ساق تاجر جنوي مركبا محمل بالسلع ساهم فيها أحد أمراء تونس من ميناء تونس في اتجاه إسبانيا إلا أن تاجر الجنوي عمل لتحويل اتجاه الرحلة إلى مرسيليا حيث تم الاتفاق على التخلص من المسلمين والسيطرة على السفينة الشيء الذي أثار التوتر بين تونس وجنوة[2]. كما تروي رسالة "بيزا بسوط"أنه في شهر ربيع الأول سنة 1304م-704هـ وصلت قطعتان بحريتان إلى بحر افريقية من برشلونة كان قد عمرهما قرصان يدعى "جاقمة بورصة"فأخذتا طريدة للمسلمين بالقرب من طرابلس وأرسل جميع ما فيها إلى صقلية حيث بيع بيها بمال هزيل[3].

وفي سنة 671هـ قام الجنويون في ميرقة بتحطيم سفينة كان عليها أحد الفاسيين[4] كما أغار قرصان يدعى "الكسيس " كان قد خرج من سرقوسة بصقلية في ذلك الوقت على مدينة" بونة" وأخذ من مرساها سفينتين محملتين بالعود ثم أخذ من البر رأسين من البقر وراعيهما، ولعل هذه الحادثة تؤكد أن أعمال القرصنة كانت تجري بعلم من ملك أراغونة وبإرادته وخدمة لأهدافه، إذ خرج في شهر صفر 704هـ/ 1304م رسول لصاحب " قطلونية" التابع لملك أراغونة هو "جيمس برت القطلوني"في مهمة رسمية، فمر بجزيرة" قوصرة" ثم بدأ له هو الآخر ممارسة القرصنة فاتجه من قوصرة إلى نواحي طرابلس حيث هاجم جفنا[5] من المسلمين فيه أكسية وسلع بمال كبير ورجع بها إلى قوصرة فباع ما أخذه فيها بقدر خمسين ألفا[6]، وقد ازدادت غارات القراصنة على

---

[1] - طاهر قدوري، المرجع السابق، ص184.

[2] - طاهر قدوري، المرجع نفسه، ص149.

[3] - حسين ممدوح، المرجع السابق، ص491.

[4] - نفسه، ص149.

[5] - **الجفن:**والجمع أجفان أو جفان وهو من سفن الغزو والحرب واستعمل في أعمال الجهاد البحري واستعملها القراصنة بكثرة لما تتمتع به من سرعة، أنظر: محمود هدية، **قراصنة غرب البحر المتوسط**، المرجع السابق، ص102.

[6] - حسين ممدوح، المرجع السابق، ص491.

شواطئ الغرب الإسلامي وخاصة المدن والمراكز التجارية، ففي شهر شوال عام 702هـ-1301م أغارت ثلاث سفن تابعة للقراصنة الكتالونيين على مرسى تونس، واستولوا على مركب تابع لتجار من بيزا، محمل بالصوف قيمته ثلاثون ألف دينارا[1]، وجاء في كتاب سحنون: "قال سحنون في مراكب الإسلام لقوا مراكب العدو في البحر فقتلوهم، ثم طلب الروم الامان، فأمنوهم واستأسروا، فجاؤوا بهم إلى أرض الإسلام، فإن أمنوهم...فالشرط لازم"، ومن خلال فتوى سحنون استنتجنا أنه كان يوجد وأناس محترفون بالغزو وهم رجال من أهل علم وفصل[2].

أما ميشال أماري": يذكر في مصنفه، أن عمليات القرصنة بلغت ذروتها القصوى مع بداية القرن 14 هـ وذلك خلال الفترة الوسيطية من خلال الرسائل التي درسها في كتابه بين ملوك الغرب الإسلامي "بنو مرين، بنو عبد الواد و الحفصيون وبنو الأحمر"، وملوك أراغون "خايمي" و "بيدرو الرابع"، حيث دعوا فيها الى تكثيف الجهود للحد من القرصنة ووضع عقوبات صارمة تجاه المتعاطلين لها في رسالة تم تاريخها في 10 رجب 739هـ، بعث بها "عبد الله بن الوليد بن الأحمر" لبيدرو الرابع"، يخبره فيها حول ما تعرضت له سفينته في المرية وغرقها بسبب رعايا الاراغون الذين اغرقوا السفينة واسروا المسلمين الذين كانوا على متنها وسيطروا على بضاعتهم وسلعهم. إلا ان الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل تكررت العملية عدة مرات مع رعايا بني نصر عندما كان تجار من مالقة قد أوسقوا من أنفة ولكن سرعان ما اعترضتهم سفن برشلونة لكنهم سرعان ما استولوا عليهم واخذوا كل ما كان الجفن[3].

كما كانت الموانئ الشرقية تتعرض للقرصنة اللاتينية على كل من موانئ جيجل وقلعة خطاب وسكيكدة وبجاية، ولا يسلك هذا الطريق إلا الأقوياء ممن لا يخشى ركوب البحر، وكانوا عرضة لأخطار القرصنة، حيث أغار الروم على قصر الطوب أثناء وجود "محمد بن سحنون" هناك، بينما "بيدرو الثاني" ملك أراغونة فقام بحملة بحرية للسيطرة على القل ومرسى الخرز في ربيع الأول 681هـ-1282م واحتلها مدة شهرين ثم رحل لصقلية ثم أعاد المحاولة الاميرال "روجي دي لوريا" وابن أخيه "يوحنا"، على مرسى

[1] - محمود هدية، **النسيج**، المرجع السابق، ص19.

[2] - طاهر قدوري، المرجع السابق، ص150.

[3] - علي عشي، المرجع السابق، ص 448.

خرز 686هـ-1288م وخربها وهدم أسوارها، وكرروا العمل سنة 689هـ وحاصروا بونة وأسروا أهلها حتى طردهم حفصين[1].

وفي عهد "بيدرو" اشتكى المرنيون على عهد "عبد الله فارس بن أبي الحسين المريني"[2] من توالي عمليات القرصنة الأراغونية إذ توالت على رعايا الدولة المرينية والدولتان في فترة صلح ثابت باقي على عقده وصحيح عهده[3]، كان لنشاط أراغون العسكري في إفريقيا منحنى عهد "بيدرو الثالث" وجها آخر لا يقل عن توجيه الحملات إليها بل هو مكمل وهو استخدام القرصنة[4].

يذكر أنه في شهر شوال 704هـ-1304م وصل إلى إفريقيا رجل يدعى "عبد الله الجزي" كان أسيرا في برشلونة وأطلق سراحه، فذكر أن هنالك مراكب عديدة قد أعدت وقتئذ في مملكة اراغونة لممارسة القرصنة ضد إفريقيا،إثنين منها في بلنسية وأربعة في طركون وثلاثة في طرطوسة وثلاثة في بنشكلة وثلاث من لقنت وأربعة من قطليون وكان من أشهر قواد هذه القطع "انكرا ود فنيليه" و "فرانده" و"سليت"[5]، إلا أن الأراغونين ركزوا على المغرب الأدنى والأوسط فقد تعرضت مناطق مرسى الخزر وبونة وسوسة والمهدية لغارات السلب والنهب[6]، فنشط القراصنة الأراغونين منذ بداية القرن 14م ونهاية القرن 13م أي مطلع عهد الاضطراب والفوضى في إفريقيا بمهاجمة شواطئ تلك البلاد ينهبون ويقتلون ويأسرون ويدمرون وقد ازدادت حدة منذ احتلال "دي لوريا" لجزيرة جربة التي أصبحت وكرا لهؤلاء القراصنة[7].

وفي شوال سنة 702هـ-1302م هجمت ثلاث قطع بحرية "غراب" و"شيطيان"

---

[1] - طاهر قدوري، المرجع السابق، ص150.

[2] - **عبد الله فارس بن أبي الحسين المريني**: 1297م-1351م ملك مريني حكم لمدة 20 سنة كان أكبر حاكم من سلالة بني مرين سنا استرجع جبل طارق من القشتاليين دخل تلمسان وجعلها تابعة للدولة المرينية وفي مرحلة لاحقة ضم إفريقية ودخل تونس عاصمة الحفصين سنة 748هـ،أنظر: أحمد بن خالد الأنصاري،**الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، المغرب، 2012م، ص 123.

[3] - حسين ممدوح، المرجع السابق، ص484.

[4] - نفسه، ص 491.

[5] - علي عشي، المرجع السابق، ص 480.

[6] - حسين ممدوح، المرجع السابق، ص485.

[7] -نفسه، ص 485.

للقراصنة الكتلانيين على مرسى مدينة تونس فاخذوا طريدة،لأهل مدينة بيزا كانت محملة بالصوف وقيمتها جميعا ثلاثين ألفا دينار وشيطي للجونيين يحمل سلعا للتجار المسلمين من بونة بقيمة ألف الدينار وسلوره أخرى لأهل بيزا[1]، كما تضرر بنو عبد الواد من عمليات القرصنة الكتلانية وهو ما تخبر به الرسالة المؤرخة ب 4 ربيع الثاني 761هـ التي توضح عمليات السطو التي تعرضت لها سفينة التجار الأندلسيين المشحونة بالزرع كانت متجهة نحو بلاد المسلمين[2].

يذكر أنه قام الميرو قيونسنة 707هـ-1307م بالاستلاء على جفن بوني صغير قيمة سلعه 5 ألف دينار[3]،كما تعرضت إمارة الحفصيين للعديد من هجمات الكتلانيين برغم من علاقة السلم والتجارة التي كانت تربطهما، فغالبا ما كانت تنتهك هذه المعاهدات[4]، كما بعث سنة 761هـ-1360م السلطان الزياني "أبو حمو" رسالة إلى الملك أراغون يشير فيها إلى التسهيلات المقدمة إلى رعاياه من تجار لشراء ما شاءوا، إلا أن مرسى وهران الكبير تعرض لقرصنة الكتلانيين فاخذوا منه جفنا موسوقا بزرع، وتكررت عمليات القرصنة على مرسى هنين ووهران ومستغانم سنة 763هـ-1361م[5].

ورغم المعاهدات التي تحاول حماية المتعاهدين التجار ورعاياهم إلا أن هناك تجاوزات منها الأمر الذي أصدره "الملك شارل" سنة 676هـ-1277م بمنع قراصنة مرسيليا ونيس (منطقة البروفانس) من الهجوم على رعايا الحفصيين لكن رغم ذلك استمرت القرصنة من طرفين[6].

كما نقل إلينا العبدري هذا الجو المشحون القائم على الغدر والقرصنة عند مروره بمدينة بونة سنة 725هـ-1324م، وصادف وقت مروره زورقا للنصارى "لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حاصروا البلد حتي قطعوا عنه الدخول والخروج و أسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد، وتركناهم ناظرين في فدائهم"[7]، وأورد ابن

---

[1] - حسين ممدوح، المرجع السابق ، ص 499.

[2] - طاهر قدوري، المرجع السابق، ص 150.

[3] - ابن خلدون، **العبر**،ج6، المصدر السابق، ص 482.

[4] - طاهر قدوري، المرجع نفسه، ص 150.

[5] - علي عشي, المرجع السابق، ص 482.

[6] - روبار برنشفيك، المرجع السابق، ص ص 96،99 .

[7] - العبدري، المصدر السابق، ص104.

بطوطة معلومات عن نشاط القرصنة في البحر المتوسط فيذكر أن السفينة التي كانت تنقله في أثناء عودته من الأراضي المقدسة إلى جربه قد استولى عليها العدو الصليبي، قبل أن تصل إلى تونس فيقول: "فركبت البحر في قرقوره لبعض التونسيين صغيرة، وذلك في صفر 750هـ-1349م وسرت حتى نزلت بجربة، وسافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدو عليه"[1].

تجدر الإشارة أن العمليات لم تكن موجه ضد المسلمين فقط وإنما ضد النصارى فيما بينهم ففي سنة 562هـ هاجمت سفن بيزية سفنا جنوية محملة بالسلع كانت قد وصلت من الغرب الإسلامي، واشتركت سفن بيزية وبندقية سنة 611هـ/1215م في عمليات سطو على سفن جنوية بعد عودتها من تونس وقام الجنويون بعدة عمليات ضد السفن البيزية كما هو الشأن بالنسبة إلى سنة 673هـ عندما هاجم bissa "Spinola" سفينة بيزية أبان عودتها من بلاد المغرب، المرجح أن الهدف هو تحقيق الأرباح حتى لو كانت على حساب تجار من ديانة واحدة ومن بلدة واحدة[2]

أما في الجانب الأخر فغالبا ما تتطرق الكتابات الأوروبية إلى حملات البحرية التي تعرضت لها أراضيهم على أنها جزء من عملية القرصنة واسعة نظمتها دار الإسلام من بلاد الشام أو الغرب الإسلامي ضد العدو المسيحي في صقلية والأراضي البيزنطية وسواحل الجنوبية وشبه جزيرة الإيبيرية[3]، فإن المدن التي لها تقاليد بحرية كانت تربطها علاقات تجارية مع مدن أو دول أخرى هي التي كانت تنطلق منها حملات القرصنة ولعل هذا ما حاول "بيكار"أن يدافع عليه، ويرى أن دور الصناعة والقواعد البحرية كسبتة ونكور والجزائر مزغنة وبجاية وصفاقس وقابس والمهدية وتونس وطرابلس كانت مدن يتجمع فيها القراصنة لتنطلق منها حملاتهم، ومن أهم المدن التي مارست هذا النشاط بجاية التي كانت تقوم بتنظيم عمليات السطو في أراضي الروم وسبي أهاليها وعرضهم للبيع في حومة المذرح[4].

---

[1] - أبو عبد الله ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائبالأسفار**، تحقيق عبد المنعم العريان،ط1،ج4، دار أحياء العلم، بيروت،1987، ص 184.

[2] - طاهر قدوري، المرجع السابق، ص 150.

[3] - نفسه، ص 148.

[4] - نفسه، ص 152.

فيقول ابن خلدون عن البجائيين: "شرع في ذلك اهل بجاية منذ 30 سنة فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول، ويتخيرون له الأبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة، فيختطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيطفرون بها غالبا، ويعودون بالغناهم والسبى والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكادفشق ذلك على أمم الإفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفرنجة فصم عن سماعهم"[1].

واعتبر"فاليرين"أن القرصنة البجائية بلغت ذروتها نهاية الربع الأخير من القرن 14م-8هـ[2]، وبدأت عمليات القرصنة في سواحل المغرب الأوسط تظهر اتجاه جزر الحوض الغربي ككورسيكا وسردينيا، لتعرف في الفترة الوسيطية نشاطا كبيرا، تجسد في تنظيمها بصورة محكمة، بل وحتىإشراف الدولة المباشرة التي قننته وضبطت نشاطه اعتمادا على الأحكام الفقهية والنصوص الشرعية، فكانت غالبا ما تخضع لقوانين الحرب[3] لتبقَ عملية القرصنة تتأرجح بين الحرب والغزو بين الجهاد البحري واللصوصية والتي يصعب تمييز بينها[4].

وتشير المصادر أن أول نشاط قرصني في المغرب كان بمدينة مرسى الخزر التي كانت تنشئ السفن والمراكب الحربية التي يغزى بها لبلاد الروم، وسارت مدينة بونة على نهج مرسى الخزر في ممارستها للقرصنة وأثرت على تجارتها وعلى الخطوط البحرية القصيرة، الرابطة بين المدينة وكورسيكا وصقلية والمدن الإيطالية[5].

كما برزت قصبة باديس التي كانت دار الصناعة تشرف على إنشاء زوارق والسفن الشراعية التي كان سكان المدينة يرسلونها نحو بلاد النصارى فتلحق بهم أضررا بالغة،

---

[1] - ابن خلدون، **العبر**،ج1، المصدر السابق، ص 563.

[2] -فاليرين دومينيك ، المرجع السابق، ص 563.

[3] - أبو محمد القيرواني، **النوادر و الزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**،ج3، تح محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1999م،ص ص 133،130.

[4] - أبي عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**،ج2، مكتبة المثنى، بغداد، د.س، ص 55.

[5] - نفسه،ج2، ص 234.

وفي الجنوب الشرقي الأندلسي برز هذا النشاط وازدهرفي قادس وجزيرة الخضراء ومرية، أما ضفة فبرزت في صقلية التي كانت محطة ضرورية للقوافل البحرية المتجهة سواء نحو الشرق أو الغرب[1].

خاتمة:

نستنتج من خلال النماذج المعروضة أن القرصنة كانت متبادلة بين الضفتين، فكثيرا ما تعرضت سواحل المغرب وسفنهم لهجمات القراصنة المسيحين كجنوة والأراغون وصقلية والبندقية وقشتاله وغيره، وفي نفس الوقت امتهنت بعض المدن المغاربية القرصنة كبجاية ووهران وسبة وهنين وبالتالي نخلص للقول أن القرصنة كانت شرا ولعنة على الضفتين، أصابت العدو والصديق فبرغم من العلاقات التجارية والسياسية للمنطقتين إلا أنه لم يقدر صفو القرصنة المتوالي على سواحل الحوض الغربي المتوسط.

كما جاءت الاتفاقيات والمعاهدات كرد فعل على انتشار ظاهرة القرصنة بالضفتين، فلجأت الدول المغاربية وكذا الأوروبية لعقد العديد من الاتفاقيات للحد من نشاط القرصنة ووضع عدة بنود تنص على محاربتها وكذا تعاون المشترك ضد القراصنة.

ويمكننا القول أن عمليات القرصنة لم تؤثر في العلاقات السياسية و الدبلوماسية بين الدول المغاربية والمماليك الأوروبية، ولم يكن لها تأثير كبير على النشاط التجاري بين الضفتين، فبرغم من تبادل الرسائل التي تشجب وتستنكر عمليات القرصنة التي كانت تتعرض لها السفن التجارية فإن دول الحوض المتوسط لم تذخر جهدا للحد من هذا النشاط الذي أنهك وأضعف قوتها العسكرية، فبالرغم من توتر العلاقات بين بعض الدول إلا أنها في كثير من الأحيان وحدت جهودها للوقوف ضد عدو واحد (القراصنة).

[1] - طاهر قدوري، المرجع السابق، ص 152.

محاكم التفتيش: صورة للصراع المسيحي الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط

د. عبد النور غرينة جامعة عباس لغرور خنشلة
malikakellil@gmail.com
د. مليكــة قليل، جـامعة عبـاس لغـرور خنشلة
abdennour.gherina@univ-khenchela.dz

مقدمة:

شكل البحر الأبيض المتوسط نطاقا مهما للصراع الدائم بين الإسلام والمسيحية عبر العصور، وذلك لما تكتسيه هذه المنطقة من أبعاد استراتيجية وتاريخية معتبرة، وتجلى هذا الصراع في المواجهات المتكررة بين المسلمين والمسيحيين، ولعل أبرز صور تلك المواجهة تمثلت في ملاحقات وجرائم محاكم التفتيش الإسبانية في حق الموريسكيين ولاسيما بعد سقوط غرناطة، آخر المعاقل الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية.

إذ أن تلك القرون انتهت بنكسة كبيرة للمسلمين تبعتها عمليات ترحيل قسرية دامت إلى مطلع القرن السابع عشر ميلادي،وهذا ما تطرحه هذه الورقة البحثية بالتركيز على إشكالية البغض المسيحي للمسلمين المتبقين بالأندلس، والذي تجسد في ممارسات قمعية رهيبة طبقتها محاكم التفتيش، وتبعتها تحرشات عسكرية مسيحية وصلت إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.

1- سقوط غرناطة ومصير العرب المسلمين بعد 1492:

بعد سقوط غرناطة بتاريخ 2 جانفي 1492م انتهى الوجود العربي في الأندلس، وبدأت حملة نكراء لحمل الناس على التنصر، وأمر ملك اسبانيا أسقف غرناطة بأن يفعل ما يشاء، فبادر الأسقف باحتلال المساجد ومصادرة أوقافها وأمر بتحويل المسجد الجامع في غرناطة إلى كنيسة، ولما ثار المسلمون قمعت ثورتهم بوحشية وتم إعدام 200 من علماء الدين الإسلامي.[1]

[1] حمدي عبده سلامة موسى، نحو وعي بالتاريخ وحتى لا ننسى وحتى نعتبر، محاكم التفتيش الكنسية بالأندلس، ط 1، ديسمبر 2014، مطابع الشرطة، مكتبة المهتدين، ص ص 151 - 153.

إن المتأمل لشروط معاهدة تسليم غرناطة يدرك فعلا أن المورسكيين كانوا يحرصون على حماية موروثهم الثقافي وهويتهم الحضارية وتقاليدهم الاجتماعية وممارساتهم الدينية بكل عناية، إذ لم يضيعوا صغيرة ولا كبيرة إلا وأشاروا إليها، منعا للتلاعب الذي قد يحدث وتخوفا من أضرار التراجع عن الوعود التي شملتها المعاهدة، وذلك حرصا على تنظيم أمور حياتهم الجديدة.[1]

يبدو أن الصراع القائم بين المسيحية والإسلام خلق نوعا من عدم التجانس أو التعايش بين الطائفتين لاسيما في هذا المنعرج التاريخي الخطير، وفي هذا السياق يذكر عبد الله حمادي قائلا:" أنه فوق أرض شبه جزيرة إيبيريا التي برهنت قبل الموعد على أنها حققت مثل هذا التقارب والتعايش السلمي الذي تحول إلى فرضية مستحيلة بعد ما يقرب من ثمانية قرون من ممارسته على أرضية الواقع".[2]

والحق أن الوجود الإسلامي في الأندلس ظل لقرون عديدة رمزا للحضارة والإبداع والإنتاج الأدبي والفكري والتسامح الديني، والدليل على ذلك أن المسيحيين عاشوا طيلة تلك الفترة ينعمون بالأمن والتملك والممارسة الطبيعية لكل عاداتهم الاجتماعية والثقافية والدينية، دون أن يلحق بهم المسلمون أي ضرر، ومع ذلك فإن اطلاعنا على بعض النماذج من المصادر التاريخية التي توثق لتلك الحقبة يجعلنا نقف على بعض الأحكام القاسية الصادرة في حق المسلمين، ومثال ذلك ما ذكره خينيس بيريث دي إيتا: "لقد انتهت الحروب الدامية والطويلة التي خاضتها مملكتا قشتالة وليون المسيحيتان ضد المسلمين الذين احتلوا اسبانيا، منذ عهد الأمير بيلايو وحتى مجيء الملك فرناندو الخامس والملكة ايسابيل طيب الله ثراهما، حيث استمر هذا الاحتلال ثمانية قرون"، كما أنه ورغم التعاطف النسبي الذي أبداه بيريث دي إيتا في الجزء الأول من كتابه، نراه هنا يتخلى عن حياده ويلصق بالمسلمين أرذل الأوصاف.[3]

---

[1] عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ط 1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، 1988، ص ص 11- 12.

2 عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس 1492 – 1616 م ، ط 1، دار الامعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011، ص ص 8- 9.

[3] خينيس بيريث دي إيتا،، الحرب ضد المورسكيين الجزء الثاني من الحروب الأهلية في غرناطة، ترجمة: عائشة محمود سويلم، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، 2009، المركز القومي للترجمة، ص 33.

وقد تجلى الحقد الصليبي في إنشاء محاكم التفتيش التي اضطلعت بتصفية آخر من حمل راية الإسلام، والتي أذاقت المسلمين أشد ألوان القهر والتعسف والعدوان التي لم يسبق لها نظير في التاريخ، ولا يمكننا تجاوز هذه الجزئية، لأنها ترصد لنا طبيعة الصراع والأحقاد الدفينة التي غذتها الكنيسة، أولم يكن ضحاياها هم المسيحيون البروتيستانت فما بالك بالمسلمين؟

2- الموريسكيون في مواجهة محاكم التفتيش:

ظل المسيحيون يبذلون بإصرار محاولات جادة لتنصير المسلمين المتبقين بالأندلس، إذ أنه بعد سقوط غرناطة – آخر المعاقل الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية- أدخل ملوك الكاثوليك تشريعا يقضي بتحويل المسلمين في غرناطة عن دينهم قسرا إلى المسيحية، وإلا كان مآلهم النفي، ورغم أن الأغلبية العظمى منهم اختارت التحول عن دينها الإسلامي قهرا – مع أن أغلبهم كان متمسكا بدينه الإسلامي تحت ستار التقية- ، إلا أن بعض الوثائق المتوفرة تثبت بحق أنه بعد أكثر من نصف قرن من الزمن واصل المسلمون المحافظة على لغتهم وثقافتهم وممارسات دينهم.

في الواقع كان الهدف المنشود هو استئصال نطاق ممتد من الثقافة والهوية المحلية، والمقصود بذلك هو حظر ثقافة موروثة بأكملها وليس الدين ذاته فحسب[1]، وحتى وإن كان الصراع في البداية دينيا بالأساس فإنه أضحى صراعا عنصريا بعد أربعة قرون.

وكرد عنيف على تلك الجهود أظهر المورسكيون تشبثا وتمسكا عميقين بمبادئهم الدينية الإسلامية وممارساتهم الثقافية والسياسية، وهذا ضمن الإطار العام الذي يتجلى في الاعتزاز بالموروث الحضاري العربي الإسلامي، حتى ولو أخذنا في الحسبان الضعف العام وهشاشة الممارسات الدينية التي بقيت بحوزة المورسكيين (المسيحيين الجدد).

أصبح التعايش صعبا بل مستحيلا لاسيما حينما أضحت المجموعتين المسلمة والمسيحية متجاورتين في مجال جغرافي واحد في العديد من المدن والبلدات المسيحية وتحديدا في قشتالة وبلنسية وغرناطة...، إذ أن التهم المتبادلة بينهما كثيرا ما تفضي إلى

---

1 محاكم التفتيش، تحقيق لثلاثة وعشرين ملفا لقضايا ضد المسلمين في الأندلس، المجلد الأول، تحقيق: سلطان بن محمد القاسمي، الطبعة الأولى، 2020، المجلس الوطني للإعلام، الإمارات العربية المتحدة، ص 7.

اقتياد المورسكيين إلى محاكم التفتيش، وغالبا ما كانت التهم مرتبطة بالممارسات الدينية اليومية لأولئك المدجنين (المورسكيين).

كانت سجون محاكم التفتيش مليئة بالمتهمين البائسين الذين لم يرتكبوا إلا أخطاء بسيطة، كعدم اتباع الأناجيل الأربعة، واعتقاد البعض بوجوب العودة إلى حياة المسيح الأولى، مما يؤدي إلى بتر الأعضاء الأربعة السفلى والعليا، أو الحرق أو التقطيع وهم أحياء ...[1]

وعلى سبيل المثال لا الحصر كانت محاكم التفتيش تمارس ثلاثة أنواع من التعذيب، أولها كان التعذيب بالماء، بحيث يوثق السجين على سلم مائل، على أن يكون الرأس في مستوى أدنى من الرجلين، ويرغم على ترك فمه مفتوحا بوضع قطعة قماش عليه، ثم يرغم على تجرع الماء وكانت تستعمل لهذا الغرض جرة تسع أكثر من لتر ماء، وخلال جلسة واحدة كان بوسع السجين أن يتجرع ثماني جرار.

هناك شكل آخر لا يقل قهرا عما سبق، ويكمن في تعليق المتهم على بكرة بواسطة حبل يوثق معصميه، ثم تعلق أثقال على رجليه ويرفع جسده ببطء ثم يترك ليسقط بعنف، أما الشكل الثالث فكان معروفا بالمنصة، إذ كان السجين يوثق من يديه ورجليه بحبال كانت تفتل شيئا فشيئا بواسطة عتلة آلية[2]، كما أن المتهمين كانوا يرمون في سجون ضيقة مظلمة قليلة التهوية، مصفدين في الأغلال، يذوقون شتى أنواع البرد والعطش والجوع والآلام النفسية.

أما القتل فكان يتم بأشنع الطرق وكان الحرق أكثرها، أو التقطيع والجر، أو سحق العظام وإدخال الأسياخ وسلخ الجلود وفسخ الفك وتمزيق الأطراف و...، وبلغت قسوة زبانية محاكم التفتيش أنهم كانوا يحاكمون الموتى بنبش قبورهم وإخراج جثثهم ومحاكمتها.[3]

على مدى التاريخ الطويل الذي مكثه المورسكيون في إسبانيا بعد انتهاء الحكم الإسلامي فيها، ظل الملوك والأباطرة ورجال الدين يواصلون بإصرار كبير إصدار التشريعات التي لم تكن في الحقيقة إلا ظلما وعدوانا على المسلمين، والتي لم تزدهم في

---

1 بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الإسبانية 1480- 1516م، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ص 60.

2 جوزيف بيريز، التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، ترجمة: مصطفى أمادي، مراجعة: زينب بنياية، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2012، ص ص 188- 190.

3 وائل عياش العراقي، عودة الحملات الصليبية ومحاكم التفتيش، دط، ص 44.

النهاية إلا إصرارا على الصمود والوفاء لشريعتهم الإسلامية، وبدل أن تحببهم في النصرانية فإنها على خلاف ذلك تماما جعلتهم يفكرون بصرامة في الفرار نحو شمال إفريقيا، ويمكننا أن نستدل مثلا ببعض تلك التشريعات القاسية التي تجسد نجاح نظام عدم التسامح، فهذه وثيقة ملكية أصدرها الإمبراطور بتاريخ 4 أفريل 1525 أعلن من خلالها أن المعمودية المفروضة على المسلمين صحيحة وتم تثبيت المسيحيين من مسلمي بلنسية دون التوبة على الذين اعتبروا مارقين منهم مع ضرورة تعميد أبنائهم، وتخصيص المساجد التي أقيم فيها القربان المقدس للعبادة الكاثوليكية، وفي 14 ماي أخطر المسلمون بضرورة المثول في أجل ثلاثين يوما للتمتع بالعفو الملكي، وإلا سيعاقبون بالموت ومصادرة الثروات، ومع ذلك فإنه بتاريخ 13 سبتمبر صدرت وثيقة ملكية ترغم كافة مسلمي بلنسية على التنصر، وأخبر مندوبو محاكم التفتيش سائر القرى بأنهم يمهلون أجل 10 أيام فقط لأجل التشاور، وفي حالة عدم الخضوع فإنهم يقعون تحت طائلة الموت أو العبودية ومصادرة الأملاك.

لم يكن هذا القرار إلا حافزا آخر على التفكير في الهروب النهائي ولهذا قام المسلمون ببيع أملاكهم وأثاثهم بأبخس الأثمان، إلا أن قرارا صدر بتاريخ 21 أكتوبر منع عليهم البيع، وكانت النكسة مصادفة ليوم 16 نوفمبر حينما ألغى الملك بصفة نهائية الديانة الإسلامية، وأمر بتجريد المسلمين من ثرواتهم وأسلحتهم وإلا التعرض للجلد والعبودية، وحدد أجل ثلاثة أيام لإغلاق المساجد ومن ثم حرم المسلمون من ممارسة أي من شعائرهم الدينية القديمة لا في السر ولا في العلن، وأن يحملوا فوق قبعاتهم علامة الهلال الأزرق، وأن يلزموا بحضور كافة الاحتفالات الدينية والاستماع للخطب الدينية المسيحية في دوائر قساوستهم[1]، وعليهم بعدم الاشتغال في أيام الآحاد وكل مخالفة تترتب عنها عقوبة خاصة مع العبودية، ماعدا العمل يوم الأحد الذي يعاقب وحده بالغرامة.[2]

مع كل هذا التشدد مع المورسكيين إلا أنه أصدر بشكل رسمي ونهائي يوم 25 نوفمبر قرار يقضي بطرد جميع المسلمين رجالا ونساء وأطفالا غير المعمدين من مملكة

---

[1] يوسف كاظم جغيل الشمري ومحمد عبد الله المعموري، " المورسكيون في بلنسية (دراسة في أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية 1525- 1609)"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 5، العدد 1، ص 181.

[2] خوسي مونيوث إي غفيريا، تاريخ ثورة المورسكيين وطردهم من إسبانيا وعواقبه على سائر أقاليم المملكة، ترجمة: عبد العزيز السعود، ط 1، مطبعة ليتوغراف، طنجة، 2010، ص ص 83- 84.

بلنسية مع نهاية ديسمبر ومن كافة أنحاء إسبانيا في أواخر جانفي من العام الموالي 1526م، وإلا وقعوا تحت طائلة العبودية، وأجبروا على ركوب السفن بالضبط من مرفأ لاكرونيا، والواقع أن الغرض المتوخى من فرض هذا الإجراء بصرامته غير المعقولة وبتفاصيل تنفيذه هو ألا يظلوا في ثغور إفريقيا وأن يستهلكوا في الطريق الطويل المال الذي يحملونه إذا لم يتمكنوا من الاتصال مع أية حركة، حتى يعطوا الفرصة كي يذبحوهم في قشتالة.[1]

كان المورسكيون يشكلون دعامة قوية جدا للاقتصاد الإسباني، وقد تجاوزت إسهاماتهم الحضارية كل آفاق أوروبا، ومع ذلك ظل المتعصبون من رجال الدين والملوك المسيحيين ينظرون إليهم بعين الريبة والشك، ولهذا كانت المناقشات تفضي دائما إلى محاولة إيجاد السبل الناجعة للقضاء النهائي على كل أثر للإسلام والمسلمين في تلك الأقاليم[2] وبالفعل فإن قرار الطرد النهائي والشامل كان قد دخل حيز التنفيذ منذ 4 أفريل 1609م في عهد الملك فيليب الثالث، وقد عبر كبار الشعراء الذين تصدروا الساحة الأدبية خلال القرنين 16 و 17م عن ذلك الترحيل المأساوي، ولاسيما في بعض المناطق التي عرفت شراسة في الإبادة وحدة في نوعية المقاومة، ومثال ذلك منطقة بلنسية لما تنطوي عليه من عمق التجذر لطائفة المورسكيين في أرجائها الفلاحية الخصبة.[3]

ربما يفيدنا بشكل كبير أن نعود إلى ما أورده بيدرو دي فالنسيا (Pedro de Valencia)، الذي يقدم لنا مغزى عاما عن طبيعة التهم التي يوجهها المسيحيون

---

[1] خوسي مونيوث إي غفيريا، ص 85.

2 هناك ثلاث ملاحم شعرية معاصرة لتلك الأحداث خلدت مجريات الترحيل الإجباري بطابعه المأساوي ، وهي:

ملحمة " طرد مسلمي إسبانيا من قبل جلالة الملك دون فيليب الثالث 1610 للشاعر الإسباني قاسبار أقيلار 1561- 1623م"

و " تجمع المدار من أجل طرد المورسكيين من الممالك الإسبانية 1580- 1612 م" من نظم الشاعر الإسباني خوان مندي ثدي باسكونثيلوس، و" طرد المورسكيين من الجبال ومن مويلا كورتين من طرف سيميون ثاباتا البلنسي 1635 م" للشاعر بيثنتي بيريث دي كويا، أنظر: عبد الله حمادي، المورسكيون ومحاكم التفتيش الاسبانية في الأندلس 1492- 1616م، ص ص 54- 55.

3 أنطونيو دومينغيث أورتيث وبرنارد فانسون، ترجمة: محمد بنياية، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، ط1، 2013، تاريخ المورسكيين.. حياة ومأساة أقلية، ص ص 302- 303.

للمورسكيين، إذ ذكر قائلا: "هؤلاء المورسكيون لا يحاولون ولا يريدون أن يظهروا كمسيحيين، بل يتعمدون – عن اعتزاز- أن يفعلوا كل شيء يميزهم ويبعدهم عن قدامى المسيحيين: في اللغة وفي الملبس وفي المأكل وفي الزواج وفي الهروب من الكنائس..وعلى الرغم من أن اسم "مسيحي قديم" كان يعد شرفا عظيما في إسبانيا، إلا أنهم لم يخفوا أنفسهم ويظهروا على أنهم مسيحيون. هذا معناه أنهم يعتقدون أن الأصلح هو أن يكونوا مسلمين..لا يريدون شرفا إلا مع شعبهم وأمتهم وينالون ذلك إذا ما أظهروا إسلامهم ويفقدونه إذا فعلوا العكس.." وهذا يعني أساسا أنهم لا يريدون أن يصبحوا مسيحيين، وأنهم كانوا يستميتون في الابتعاد عن قدامى المسيحيين ويفعلون ما بوسعهم حتى يتميزوا ويبتعدوا عنهم، والواقع أن هذه الخاصية يشترك فيها كل المورسكيين المتواجدين بتلك الفضاءات مع بعض الفوارق المتعلقة فقط بمدى معرفة الشريعة الإسلامية والتمكن من ممارسة الواجبات الدينية، ولهذا كان أكثر المورسكيين جهلا بتعاليم دينهم هم الأشد عرضة لمراقبة وقمع وشك وتنكيل مستمر من طرف محاكم التفتيش الإسبانية.[1]

من أبرز النقاط التي ينبغي التركيز عليها هي استمرار المواجهة والصراع الإسلامي المسيحي في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وحتى وإن اكتست طابعا مغايرا لما شهدته الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، فإن تلك التحرشات العسكرية التي كانت مناطق الشمال الإفريقي مسرحا لها تدل على ذلك البغض المسيحي في صور وتجليات جديدة منذ مطلع القرن 16 م.

3- الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية مظهر آخر للصراع المسيحي الإسلامي:

عجل سقوط غرناطة سنة 1492م بانطلاق الحملات الإسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار، بعد أن ظلت إلى ذلك الوقت منشغلة بالمعركة حول شبه الجزيرة الإيبيرية، وعلى أساس أن منطقة الشمال الإفريقي هي الأقرب إلى هذا المجال فإنها مثلت الاختيار المنطقي الأول لاسترجاع الثروات الإسبانية، وزيادة على ذلك فإن هجرة المورسكيين خلقت تأزما سمح بتعليل التدخل الإسباني.

1 مارثيديس غارثيا- أرينال، محاكم التفتيش والمورسكيون، ترجمة: خالد عباس، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة،2004، ص 123.

يمكننا القول أيضا بأن مخاوف إسبانيا اشتدت بعد ثورة المسلمين – القصيرة الأمد- في الجبال المحيطة بغرناطة سنة 1501م، ويضاف إلى ذلك اكتشاف المؤامرة المنسوبة إلى المورسكيين في إشبيلية، والتي كانت أسسها حسب الاعتقاد السائد آنذاك هي الاتصال بالسلطان العثماني وبقية حكام الشمال الإفريقي قصد التحضير لغزو إسلامي، ولهذا انطلقت الأرمادا الإسبانية بسرعة منذ 1501م لتسبق كل تلك الاحتمالات.[1]

تعود قضية المواجهة بين المسلمين والمسيحيين من أجل السيادة على البحر الأبيض المتوسط إلى زمن قديم، ودون أدنى شك ربما كانت مرتبطة بزمن الحروب الصليبية، وهذا ما أكدته كتابات عبد الرحمن بن خلدون (كتاب العبر).

والواقع أن هذه المواجهة[2] اتخذت العديد من المبررات منذ القرن 15م والتي يمكن إبرازها في النقاط التالية:

– رغبة الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط في حيازة نصيب من السيطرة على خطوط الملاحة البحرية أو احتلال المواقع البرية الرئيسة المطلة عليه، وذلك للاعتبارات الاستراتيجية العسكرية، لاسيما وأنه يقع موقعا وسطا بين القارات الثلاث وينفتح على المحيط الأطلسي في جهته الغربية.

– رغبة إسبانيا في الهيمنة على بلاد المغرب الإسلامي الواقعة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، للتمكن من فرض هيمنتها على جزئه الغربي والتحكم في مدخله المتصل بالمحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق خاصة وأن الإبحار فيه بات ضرورة اقتصادية تستدعي تلك الهيمنة.

– إشراف المغرب الإسلامي على واجهتين بحريتين، الأولى على البحر الأبيض المتوسط والثانية على المحيط الأطلسي، وذلك ما حفز كلا من إسبانيا والبرتغال على احتلال المدن الساحلية الرئيسة، لجعلها قواعد بحرية تعتمد عليها سفنهم عند الاتجاه إلى أمريكا وإلى الهند والصين المشهورتان بإنتاج التوابل والحرير.

---

1 وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص ص 34- 35.

2 أصبحت هذه المواجهة تعرف بالقرصنة وينبغي أن نشير هنا إلى أنها كلمة دخيلة على العربية، إذ لا تحتوي هذه اللغة على مرادف لها، وإنما أدخلت في القرن الخامس عشر إلى العربية من عبارة كورسة (Corsa) الإيطالية ومعناها الجري.

- إصرار الكنيسة ورجال الدين المسيحيين على التحول من النظام الدفاعي إلى العمل الهجومي، وذلك بنقل الحرب بعد سقوط غرناطة إلى مجال الدولة الزيانية التي كانت - في نظرهم- طرفا في تقديم العون للأندلسيين ومصدرا للتحريض، وبالتالي كان من الضروري ملاحقتهم إلى سواحلهم.

- محاولة استباق التصدي للتوسع العثماني الذي بدأ يظهر في الاتجاه نحو الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.[1]

تم الاحتلال الإسباني لبعض السواحل الجزائرية في زمن منيت فيه البلاد بالضعف العام وخاصة ذلك الضعف العسكري الكبير، بالقياس إلى ما حققته أوروبا في عصر نهضتها، وفي هذا الشأن يذكر المؤرخ فرناند بروديل أن ملامح الضعف العسكري لمسلمي شمال إفريقيا بالمقارنة مع الإسبان تتمثل في دونيتهم العسكرية المتميزة التي توضحها القراءة السريعة لوثائق القرن السادس عشر، ويواصل قائلا أنهم:"كانوا يحاربون مثل رفقاء سيدي عقبة، أسلحتهم المفضلة هي الخنجر، السيف، الحربة، الحجارة والرماح، ولا يجيدون بناء الحصون ولا اقتحامها"، ويخلص قائلا أن استخفاف المغاربة بالأسلحة الحديثة جعلهم أعداء قليلي الخطورة، ولهذا فإن الإسبان عند غزوهم لسواحل المغرب لم يتعرضوا إلا لكوارث نقص المؤونة ومفاجآت الجبال والليل والفوضى التي تعقب الغزوات الناجحة.[2]

دفع التعصب الديني وتحريض رجال الكنيسة والملوك النصارى بالمطامع الاستعمارية إلى أبعد نطاق، فكانت أولى المجالات التي استهدفها الغزو الإسباني متمثلة في المدن والممالك الإسلامية بالشمال الإفريقي.

استهل الاسبان احتلال السواحل المغربية منذ مطلع القرن 16م بدء بغزو المرسى الكبير يوم 13 سبتمبر 1505م، وذلك لاعتبارات اقتصادية وتجارية عديدة، فقد كان ميناء مهما إذ ذكر الحسن الوزان قائلا: "بأنه يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية، في مأمن من كل عاصفة وإعصار".[3]

---

1 عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/ 1505- 1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2012، ص ص 33- 37.

[2] صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514- 1830)، دار هومة، الجزائر، 2004، ص 26.

[3] نفسه، ص 27.

بعد ذلك احتل الإسبان وهران بتاريخ 18 ماي 1509، ووجهوا بذلك ضربة قاسية لمملكة بني زيان بخسارة مدينة تجارية هامة وتأليب قبيلة بني عامر الكبيرة ضد الزيانيين، واتخاذ وهران قاعدة لانطلاق الاسبان لاحتلال مواقع أخرى على سواحل المغرب، إذ انهم بعد سنة واحدة احتلوا مدن بجاية، عنابة وطرابلس.

وفضلا عن ذلك توسع نفوذ الاسبان ليشمل كل المدن الساحلية الجزائرية تقريبا من تنس إلى مدينة الجزائر، ثم سارت دلس وشرشال على نفس الدرب، وفي 26 ماي وقعت مستغانم مع الإسبان معاهدة نصت بصفة خاصة على أن أهل مستغانم ومزغران يلتزمون بدفع الضرائب والمكوس التي كانوا يدفعونها لتلمسان إلى الإسبان مع جملة امتيازات أخرى، بل أنه حتى تلمسان التحقت بهذه المدن وعقد ملكها تحالفا مع الإسبان سنة 1511م أصبحت بموجبه تحت الحماية الإسبانية.[1]

4- انضمام الجزائر للدولة العثمانية ومواجهة المد المسيحي في شمال إفريقيا:

شكلت الجزائر منذ مطلع القرن السادس عشر رمز مهابة دولية وقوة مسيطرة على مجال البحر الأبيض المتوسط، ويحق لنا أن نقر بذلك بالاعتماد على مصدرين مهمين يكشفان عن دور الجزائر العثمانية في مواجهة المد المسيحي في عرض البحر الأبيض المتوسط وهما وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب مرمول كربخال، وذلك على الرغم من اختلاف ديانة ولغة كل منهما.[2]

كانت المواجهات الأولى بين إسبانيا والجزائر قد فرضت تدخل العثمانيين لإنقاذ الثغور المحتلة، ونجدة المورسكيين الذين تعرضوا للقهر بعد سقوط غرناطة، وحينذاك بذل رياس البحر جهودا مضنية لإنقاذ المسلمين المتخلفين بالأندلس، وتشهد الوثائق المعاصرة على تلك الأحداث، فقد تمكن خير الدين بربروس من تسخير ستة وثلاثين سفينة تمكن من خلالها من إنقاذ ما يقارب سبعين ألفا من المورسكيين على سبع مرات.[3] وقد سجل التاريخ جهودا مشرفة لأخيه عروج وللعلج علي والرايس حميدو أيضا.

---

[1] صالح عباد، المرجع السابق، ص ص 27- 35، انظر أيضا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ط1، دار البصائر، 2007، ص ص 70- 81.

2 حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، عين مليلة، ص 22.

3 جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500- 1830)، منشورات وزارة المجاهدين، 2009، ص 53.

شن المسيحيون منذ مطلع القرن 16م حملات صليبية شرسة على العالم الإسلامي متخذين من البحر الأبيض المتوسط قاعدة لانطلاقهم، ويمكننا أن نعود مثلا إلى وصف إفريقيا في الحديث عن الحملات الإسبانية على جزيرة جربة حيث ورد أنه - حسب الرواية المسيحية- أن الكونت بيير نافارو بعد أن استولى على طرابلس في 18 ربيع الثاني 916هـ / 25 جويلية 1510م قرر مهاجمة جزيرة جربة فنزل بها فجر يوم الجمعة 25 جمادى الأولى 916 هـ/ 30 أوت 1510م ومعه من المقاتلين 12000 جاؤوا من طرابلس و 3000 جاؤوا من بجاية، وفيهم ولدان لدوق الألب لقي أحدهما مصرعه هناك وهو الدوق غارسيا دي طليطلة، وكانت خسائر المسيحيين 1500 مقاتل منهم 1000 ماتوا بالعطش أو الحر و 500 قتلوا أو أسروا والتحق الباقون بالأسطول ليلا ورجعوا في صباح الغد إلى طرابلس.[1]

والحقيقة أن السمة الغالبة التي هيمنت على السياسة الخارجية لإسبانيا هي المواجهة الشرسة بين الهابسبورغيين والأتراك العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط، والواقع أنه منذ منتصف القرن السادس عشر بدأت المواجهة تميل لصالح الدولة العثمانية، إذ أنه في عام 1551م تمكنت حملة عسكرية تركية من طرد فرسان مالطا من طرابلس وبعدها بأربعة أعوام استولى صالح رايس بايلرباي الجزائر على الجيب الاسباني المهم في بجاية، أما عام 1558 فيصادف نهب الأسطول التركي لجزر البليار وأسر 4000 نصراني، وفي نفس السنة شنت اسبانيا هجوما على الحامية التركية في مستغانم من قاعدتها في وهران انتهى بهزيمة كارثية وأسر 12000 جندي، بينما حمل عام 1559م الكارثة الأسوأ وذلك حينما احتل أسطول اسباني- إيطالي مكون من مائتي سفينة حصن جربة[2] وذلك للأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة، إذ أن الهدف الأساسي تمثل في محاولة

1 الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج1، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص 95.

2 حظيت جزيرة جربة بمكانة هامة، وهذا ما جعلها عرضة للعديد من الاعتداءات النصرانية المتكررة، إذ أورد الحسن الوزان في وصفه لإفريقيا عبارات تدل على ذلك بقوله: " وأرسل فارديناند ملك إسبانيا في عهدنا هذا أسطولا عظيما إلى جربة بقيادة دوق قلب الذي لم تكن له خبرة بالجزيرة، فأنزل جنوده على بعد بضعة أميال من الشاطئ، فدافع المسلمون عن الجزيرة بكل شجاعة وأرغموا الإسبانيين على التقهقر، فتضرر هؤلاء كثيرا من القيظ والعطش، لأنهم لم يجدوا ماء يشربونه...ووجدوا أنفسهم منهوكين مهددين بخطر جعلهم يقصدون سفنهم بغير نظام وقد ركب الفرسان المسلمون ظهورهم،

عرقلة نشاطات أمير البحر درغوث وإيجاد منصة لإعادة غزو طرابلس، ومع ذلك فإنه في الربيع الموالي حاصر أسطول تركي بقيادة أمير البحر بيال باشا Piyale Pasha الأسطول النصراني الراسي وأغرق أو أسر 60 سفينة، وقد انتهت حملة جربة باستعادة الأتراك للجزيرة وعاد بيال باشا مظفرا إلى القسطنطينية[1] ومعه آلاف الأسرى.[2]

ظل الصراع المسيحي الإسلامي متأججا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، والحقيقة أن سلسلة الهزائم التي ألحقها العثمانيون بإسبانيا جعلتها فعليا تحت رحمة السلطان سليمان القانوني، وشكلت على مدار السنوات الخمس اللاحقة هلعا كبيرا للملك النصراني فيليب وبلاطه من احتمالية وقوع غزو عثماني شامل، خاصة في ظل التقارب العثماني الفرنسي[3]، لكن على الأرض لم يقع ذلك الهجوم، وصادف عام 1565م أن وجه العثمانيون ضربة أخرى كبرى حين شن السلطان سليمان حملة على فرسان القديس يوحنا في مالطا، وبذلك أظهر العثمانيون قوتهم مجددا في غرب البحر الأبيض المتوسط[4]، ومع ذلك فإن تمكن إسبانيا من تعويض سفنها المدمرة ونجدة فيليب لحلفائه المحاصرين[5] كلف الأسطول العثماني خسائر كبرى جعلت الانسحاب العثماني من مالطا مذلا.

فقتل معظمهم أو أسر ولم ينج منهم ويلتحق بصيقلية مع الأسطول إلا القليل "، أنظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 95.

1 نجد ذلك مذكورا عند مرمول كربخال في قوله: " غداة ذلك اليوم استسلم النصارى كلهم للباشا فأسرهم وحطم جميع التحصينات، باستثناء البرج وأشرف على ترتيبات إقامة درغوث وجنوده بالجزيرة ثم أبحر إلى اسطامبول معرجا على طرابلس التي لقي فيها استقبالا رائعا فعرض على أهلها من كان في موكبه من أبرز الأسرى مثل دون ألفارو، دون سانشي، دون برانغيل وجماعة هامة من نبلاء فرنسا وإيطاليا ومن لف لفهم."، انظر: مرمول كربخال، ص 119.

2 ماثيو كار، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، ترجمة: مصطفى قاسم، مراجعة: أحمد خريس، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، 2013، ص ص 253- 255.

3 في ذلك الحين كانت اسبانيا تسعى بشكل مسعور إلى إعادة بناء أسطولها المدمر بإعانات من البابوية.

4 ماثيو كار، المصدر السابق، ص ص 254- 255.

5 ذكر مرمول كربخال أن كتائب فرسان مالطا كانت في مقدمة الجيش، يقودهم ضابط سام بدرجة لواء ومعهم بعض قطع المدفعية ويأتي من خلفهم الجنود الألمان، تتبعهم فرقتان فرنسيتان كانتا في خدمة ملك إسبانيا، ومن ورائهما كانت الوحدات الإيطالية بمدافعها، بينما كان الإسبان يشكلون الكتائب الخلفية ببنادقها ومدافعها، وكان يتقدم هذا الجيش كله فرق يقودها على اليمين الضابط

لقد كان ذلك هزيمة نكراء للقوات العثمانية العسكرية وانتصارا لفرسان القديس يوحنا، وهو الأمر الذي جعل عبارة الحصار الكبير مرادفة لحصار مالطا، لأنه كان انتصارا لـ 600 – 700 فارس و8000- 9000 جندي على قوة محاصرة كان عددها يتراوح بين 30000 و 40000 رجل، ولا عجب بعد ذلك أن يعتبر دولا فاليت عظيم مالطا بطلا في العالم المسيحي كله، كما أن العثمانيين يمكن أن يعتبروا موت درغوث أحد مآسي هذا النزاع، وكان موته بذلك نسفا خطيرا يعادل آلاف الجنود الأتراك الذين قتلوا أثناء حصارهم لأسوار حصنين مالطيين.[1]

توفي السلطان سليمان في السنة الموالية ولكن الصراع على سيادة البحر الأبيض المتوسط ظل قائما، وهذه المرة بقيادة وريثه الأقل اقتدارا سليم الثاني، في هذا السياق كتب المؤرخ البلنسي مارتن دي بسيانا Viciana Martin de في عام 1564م قائلا: "على الأرض يسود السلام وفي البحر حرب دائمة".

ربما ينبغي أن ننوه هنا بأن الصراع المسيحي الإسلامي لم تكن تتزعمه القوتان العثمانية والإسبانية فحسب، إذ كانت السفن والبلدات الساحلية الإسبانية عرضة في غالب الأحيان لغارات البحارة من شمال إفريقيا الذين كانوا يعملون وكلاء أو نوابا للسلطان العثماني، أو لدى بعض الحكام المسلمين المحليين الذين يخصصون لهم جزء من أرباحهم، كما عمل البعض الآخر لمصلحتهم الخاصة منطلقين في ذلك من بعض الموانئ المستقلة كتونس وطرابلس والجزائر، وعلى إثر ذلك نمت بعض تلك الموانئ لتصبح مراكز تجارية مزدهرة تقوم اقتصاداتها على بيع وتجارة العبيد وافتداء الأسرى النصارى زيادة على انتعاش الزراعة والتجارة.[2]

برونا وعلى اليسار الدون لويس أزوريو"، انظر: مرمول كربخال، إفريقيا، ج3، ترجمة: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1988- 1989، ص 117.

1 جون ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500- 1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 81.

[2] كانت هذه الهجمات جزئيا شكلا من أشكال الحرب غير النظامية، إلا أنها كانت مدفوعة في أكثر الأحيان بدافع الحاجة إلى القوة البشرية، لأن كلا من المسلمين والنصارى كانوا بحاجة إلى مجدفين لأساطيلهم.

كانت إحدى أهم تلك الموانئ وأكثرها نجاحا وأسوئها سمعة من منظور أوروبا النصرانية هي الجزائر[1] التي حكمها الأخوان بربروس باسم السلطان العثماني، مما جعلها قوة بحرية دولية، والحقيقة أن قوة البحرية الجزائرية في العهد العثماني ارتبطت بعدة أسباب أهمها:

- موقع الجزائر وطبيعة سواحلها المفتوحة على أوروبا والمتحكمة في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

- التنافس الأوروبي بين فرنسا واسبانيا وهولندا وانجلترا على اكتساب المستعمرات والسيطرة على التجارة العالمية خلال القرنين 17 و 18م.

- التسامح الذي حظي به البحارة الأوروبيون الراغبون في العمل بالبحرية الجزائرية (الاعلاج) مما ساعدهم على تبوء مكانة سامية بعد اعتناقهم للإسلام وارتباطهم بالجزائر.

-الإيمان بواجب الدفاع عن حرمة الإسلام والمسلمين خاصة بعد انهيار الحكم الإسلامي بالأندلس وغزو الإسبان للسواحل الجزائرية.

-اعتماد البحارة على أسلوب الغارات المفاجئة واستعمال بنادق البارود، والمدافع الخفيفة والسفن المستديرة القادرة على الإبحار في أعالي البحار، بالإضافة إلى أصناف عديدة من السفن المهمة.

-مهارة البحارة الجزائريين وكفاءاتهم العالية من أمثال: الأخوين بربروس، درغوث باشا وصالح رايس، وإيدن رايس وأرناؤوط مامي، وعلج علي وعلي بتشين وحسن فينيزيانو، وميزومورتو وعلي البوزيعي والرايس حميدو والرايس مراد الأرناؤوطي وبكير باشا والرايس عمر والرايس محمد والرايس مصطفى والحاج موسى والحاج مبارك..[2]

---

[1] ينبغي أن نشير هنا إلى أن ما تعتبره أوروبا النصرانية قرصنة جزائرية نعتبره نحن جهادا بحريا، وقد شكلوا ببراعتهم وتفوقهم رعبا وهلعا شديدا لكل مدن الساحل الجنوبي لأوروبا، فضلا عن أساطيلهم وسفنهم، ويمكننا أن نستدل هنا بما أورده أحد النبلاء الفرنسيين سنة 1619م حينما ذكر قائلا: "إنها رعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا، وصاحبة الأمر في الجزر"، أنظر: ماثيو كار، المصدر السابق، الهامش 1، ص 257.

[2] ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص ص 190- 191.

وهكذا ما إن حل منتصف القرن السادس عشر حتى صار السوط المسلط على العالم النصراني مجتمعا كونيا مختلطا من اليهود والمورسكيين والنصارى الذين اعتنقوا الإسلام والمغامرين الأجانب من كافة المجال الأوروبي بل حتى من الأمريكيتين.[1]

ينبغي أن نذكر القارئ هنا بأن الصراع المسيحي الإسلامي في عرض البحر الأبيض المتوسط تحول منذ معركة ليبانتو الشهيرة سنة 1571م من صراع بين دولتين إلى صراع بين عالمين، عالم إسلامي تقوده الدولة العثمانية وعالم مسيحي تقوده إسبانيا النصرانية ولنا أن نتساءل هنا أيضا عن وجهة العالم الإسلامي في هذه المرحلة؟ وعن أبعاد الصراع الإسلامي المسيحي في حوض البحر الأبيض المتوسط في ظل سيادة النفوذ العثماني والتكالب النصراني على العالم الإسلامي؟

خاتمة:

نستشف من هذه الورقة البحثية أن الصراع المسيحي الإسلامي تجسد في محاولة السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وتطور من صراع إسباني- مغاربي إلى صراع بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، خاصة بعد تصفية الإسلام في الغرب المسيحي، وأن التحرشات النصرانية توجهت صوب الشمال الإفريقي لكسر الاحتكار والسيطرة على الثغور الاستراتيجية، أما الجهاد البحري الذي ظلت تقوده الجزائر في البحر المتوسط، فهو من منظور العالم الغربي لا يعدو أن يكون غير قرصنة ولصوصية، اتفقت الدول الأوروبية في معاهدات متكررة للحد منها، متخذة مبررا دوليا وقتئذ، ولم يهدأ لهم بال حتى بعد تصفية آخر ممتلكات الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان.

[1] ماثيو كار، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، ص ص 256- 257.

دور الجزائر في مواجهة المد الصليبي الأوربي في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين 16 و17م

-مقاربة سياسية عسكرية-

د. فاروق جياب

University Center of Barika, Algeria

farouk.djiab@cu-barika.dz

مقدمة:

شهدت الفترة التاريخية الممتدة ما بين القرنين16و17م تحولات جذرية في الخريطة الدولية إذ انقسم العالم نتيجتها إلى معسكرين، أحدهما غربي مسيحي بقيادة الإمبراطورية الإسبانية والتي قامت على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية الأندلسية، ململمة معها شتات الدويلات الأوربية الخارجة من ظلام العصور الوسطى، وكان الغطاء السياسي الضخم للمعسكر الغربي المسيحي يتمثل في إعادة إحياء أمجاد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أما في الضفة الشرقية فقد برزت الدولة العثمانية كمركز للخلافة الإسلامية، وحامية للعالم الإسلامي من الغزو الصليبي، بل توغلت في عمق أوربا الشرقية حيث دقت أسوار فيينا سنة 1529م.

أما في حوض البحر الأبيض المتوسط فقد برزت الجزائر كواجهة دفاعية أمامية تحمي الجناح الغربي للخلافة، ولكن منذ نهاية القرن 16م ومطلع القرن 17م تغير مجرى التاريخ ببروز دول قومية أوربية على ساحة الصراع العسكري والسياسي في حوض البحر الأبيض المتوسط (هولندا، إنجلترا، فرنسا...)، فالدول العلمانية الجديدة لم تعد تحارب أو تنازع من أجل الدين المسيحي، بل من اجل النفوذ الاقتصادي والقومي والاستراتيجي، في حوض المتوسط.

ومن خلال هذا البحث سنعالج إشكالية الدور الجزائر السياسي والعسكري في مواجهة المد الصليبي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين 16 و17م، وذلك من خلال إبراز الأهمية الاستراتيجية للواجهة البحرية المتوسطية ودورها في الصراع العسكري والسياسي للعالمين الغربي المسيحي والشرقي الإسلامي، والذي هو في الأصل صراع حضاري، وتحقيق الوحدة الصليبية في إسبانيا واستراتيجيتها المنتهجة للهيمنة على المتوسط انطلاقا من السواحل الجزائرية، وفي إطار الفعل ورد الفعل سنتطرق

بالتحليل والمناقشة إلى عوامل ظهور الجزائر كقوة إقليمة متحالفة مع الدولة العثمانية مطلع القرن 16م، ودورها في مواجهة المشاريع الصليبية في حوض المتوسط، مع التعريج على أسباب تباين السياسات الخارجية للحلفين، وبروز النزعة الذاتية في الحكم لدى الولاة المحليين بالجزائر منذ طلع القرن 17م.

أولا- البعد الاستراتيجي لحوض البحر الأبيض المتوسط في الصراع الصليبي الإسلامي خلال القرنين 16 و17م:

كان حوض البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارة العالمية منذ المستوطنات الأولى التي أقيمت في عام 9000 قبل الميلاد في أريحا، وأشتق اسم البحر المتوسط من كلمتين لاتينيتين هما: (Médius) أي المتوسط و (Terra) أي الأرض، أي البحر الذي يتوسط الأراضي، وأطلقت عليه العديد من التسميات: (بحرنا) بالنسبة للرومان، والبحر الأبيض بالنسبة للأتراك، والبحر الكبير بالنسبة لليهود، والبحر المتوسط بالنسبة للألمان، والبحر الأخضر الكبير بالنسبة للمصريين.[1]

مثل حوض البحر الأبيض المتوسط قطبا جامعا لعدد لامتناهي من القوميات واللغات والثقافات المطلة على ضفتيه الشمالية والجنوبية، وحلقة ربط بين قارات العالم القديم، كما شكل عصب التجارة العالمية منذ العصور القديمة، فهو بذلك أكثر من مجرد مسافة مائية، فقد شهد صعود الحضارات الإنسانية العالمية (الآشوريون، البابليون، الفينيقيون، الفراعنة، الرومان، النوميدين، الوندال، الفرنجة، والفتوحات الإسلامية)، كما شهد انتشار الديانات الكبرى، ويمكن القول أن بداية الصراع بين الشرق والغرب في المجال البحري المتوسطي تعود إلى الصراع بين الفينيقيين والإغريق بسبب احتكار الفينيقيين للتجارة البحرية، فهم أول من ركبوا أمواج المتوسط واكتشفوا أغواره وأسراره، وبعد انهيار قرطاجة سنة 146 ق م، سيطر الرومان سيطرة كاملة على هذا البحر لعدة قرون.[2]

---

[1] - محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، دار المعارف، القاهرة، 1959م، ص 19.

[2] - مريم رزاق بعرة، أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية وانبعاث النشاط البحري الجزائري في العصر الحديث، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج 1، ج 3، 2015، ص ص 152، 153.

ومع مطلع القرن 16م سجل الحضور العثماني وجوده في هذه الواجهة البحرية الاستراتيجية، وأثر بشكل جذري على سير الأحداث التي كانت تشهدها منطقة الغرب الإسلامي، حيث ثبت وجوده عبر عدة محطات رئيسية انطلاقا من جزيرة مالطة ورودس وجربة وتونس، وكانت هذه الحركة كرد فعل على الزحف الميسيحي نحو الغرب الإسلامي مدفوعا بالحنين إلى إحياء أمجاد الإمبراطورية الرومانية، والكنيسة الكاثوليكية، ويمكن أن نلخص أهم دوافع التوجه البحري العثماني نحو غرب المتوسط في النقاط الآتية الذكر:

- الرد على الزحف المسيحي الذي تصاعد بعد الاتفاق الاسباني البرتغالي "تور ديسيلاس" في جوان 1494م، وإثبات الوجود الحضاري الإسلامي في المشرق والمغرب، وإنهاء الزحف الصليبي الغربي.[1]

- إعطاء نفس جديد لحركة المقاومة في الغرب الإسلامي، والتي انطلقت للرد على الهجمات المسيحية منذ مطلع القرن 16 م، بدعم من الكينسة وعلى رأسها البابا "بيوس الخامس" الذي حشد كل الدعم السياسي والمادي للبحارة والقراصنة الأوربيين في إطار حروب الاسترداد التي قادتها الدولة المسيحية ضد الإسلام والمسلمين في جميع بقاع المعمورة، وذلك ردا على احتلالهم للأندلس لما يقارب 800 سنة[2]

- مواجهة التحالفات الإقليمية المعادية للوجود العثماني، ونجدة مسلمي الأندلس الذين تعرضوا إلى أبشع أنواع الاستبداد والتصفية من طرف محاكم التفتيش، بل تم ملاحقتهم حتى في سواحل الغرب الأسلامي، فتحرك الاسطول العثماني، تحت راية الخلافة العثمانية، ومسؤوليتها في الذود عن الإسلام والمسلمين، وخلال الفترة الزمنية الممتدة مابين 1528-1584م، شن البحارة الجزائريون 33 غارة بحرية ناجحة على السواحل الاسبانية تم من خلالها نقل 70 ألف مسلم أندلسي إلى الجزائر. [3]

- المحافظة على واقع وحدود الحضارتين، وشغل القوات الاسبانية عن الانطلاق للضفة الشرقية للمتوسط، وقد كان لهذه الاستراتيجية نتائج هامة كان من أبرزها ضهور الجزائر كجبهة دفاعية أمامية للدولة العثمانية تتمتع بكيان خاص وبإمكانات

---

[1] - زهراء النظام، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2003، ص ص 57، 58.

[2] - مريم رزاق بعرة، المرجع السابق، ص 157.

[3] - نصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص ص 44،45.

إدارية وسياسية وعسكرية، لم تتمتع بها الإيالات المجاورة لها، ولا حتى الولايات العثمانية في المشرق العربي وفي منطقة البقان، فكانت الجزائر الأكبر والأقوى في المنطقة فلقبت بجزائر المغازي، والمجاهدة، والمحروسة. [1]

- الهيمنة على الموانئ والممرات البحرية الاستراتيجية المنتشرة عبر ضفاف البحر الأبيض المتوسط، فالمسيطر على البحر وممراته دائما ما يكون هو المتحكم في الثروات التي تمر عبره، وهذا ما أدركه الأتراك العثمانيون منذ مطلع القرن 16م.[2]

ثانيا- تحقيق الوحدة السياسية في إسبانيا، وانتهاج سياسة الاحتواء كمرحلة أولى للتوسع في الحوض الغربي للبحر المتوسط:

كان الزواج السياسي الذي جمع بين فرديناند وإيزابيلا سنة 1469م، يمثل اتحادا بين مملكتين من الممالك الإيبيرية الثلاث تحت سلطة تكاد تكون مشتركة وهما مملكتي قشتالة أراغون، أما مملكة أرغون وعلى رأسها الملك فيرديناند فقد صوبت اهتمامها صوب جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى الجزر الإيطالية، وكانت محكومة من قبل دبلوماسيين وسياسيين ذوي توجه تجاري، بينما كانت مملكة قشتالة والتي يسيطر عليها نبلاء عسكريون نظرة سياسية أكثر عدوانية وتعصبا للصليبية، ولم تكد تسقط غرناطة آخر الممالك الإسلامية في الاندلس حتى مد رجال قشتالة عيونهم عبر مضيق جبل طارق إلى ميادين جديدة للتوسع الصليبي المقدس، وذلك بهدف السيطرة على حوض البحر المتوسط باعتباره واجهة بحرية استراتيجية تمثل عصب التجارة البحرية في العالم، وكذلك استعادة نفوذ الكينسة في الضفة الجنوبية لحوض المتوسط، وقد أرسلت إيزابيلا جاسوسا ليتعرف على ما يجري في الضفة الأخرى، فكان موجز تقريره كالتالي: (إن كل البلاد في حالة يبدوا أن الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة).[3]

لقد اتسمت سياسة الملوك الكاثوليك في المرحلة الأولى من احتلالهم لغرناطة بنوع من اللين والتسامح حيث ساد الاحترام للثقافة الإسلامية، خاصة خلال السنوات العشر الأولى حيث تمتع المورسكيون بحرية نسبية في ممارسة شعائرهم الدينية، ولكن مع

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، أضواء تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005م، ص 482.

[2] - فرناند بروديل، البحر المتوسط المجال والتاريخ، تر: عمر سالم، منشورات وزارة اليقافة تونس، 1990، ص 125.

[3] - جون وولف، الجزائر وأوربا (1500-1830)، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 24.

مطلع القرن 16م تغيرت سياسة التسامح واستشرى استبداد الكنيسة الكاثوليكية، وكانت نتيجة هذه السياسة هو تهجير الآلاف من المورسكيين نحو المشرق والمغرب العربيين، أين باشروا هناك دعوتهم للجهاد ضد الممالك الاسبانية الصليبية، وعاودا وشنوا العديد من الهجمات على السواحل الإسبانية.[1]

ولم يقتصر مشروع الهيمنة والتنصير على شبه الجزيرة الإيبيرية فقط بل امتد إلى شمال افريقيا، فقد تركت الملكة إيزابيلا بعد وفاتها (سنة 1504) وصية ملحة لخليفتها بتوسيع السيطرة القشتالية حتى تشمل جميع مناطق شمال إفريقيا، من مضيق جبل طارق الى طرابلس ، ولكن موت زوج ابنتها فيليب (سنة 1506) وجنون ابنتها "جوهانا"، والخلاف بين فيرديناند وحكومة الوصاية على عرش قشتالة منع من الحركة السريعة نحو شما إفريقيا، كما أن توحيد المملكتين الاسبانيتين قد أصيب بخطر جديد وهو أن فيرديناند قد يلد وريثا لعرش أراغون لا علاقة له بقشتالة. [2]

لم يكن هذا المشكل العائلي هو وحده الذي أخر مشروع احتلال شمال افريقيا، ففي سنة 1492 قامت حملة بقيادة كريستوفر كلومبس باكتشاف العالم الجديد الذي اجتذب منذ أوائل القرن السادس عشر النبلاء والجنود القشتاليين الباحثين عن الثروة والسلطة عبر الاطلنطى، وبذلك امتص العالم الجديد المغامرين الذين كان من الممكن أن يحتلوا شمال افريقيا، ومن جهة أخرى فقد كان اهتمام فيرديناند والجزء الهام من أهل أراغون أكثر بإيطاليا وبالنزاع الذي كان يتطور هناك بين الدول الأروبية من أية مغامرة للاحتلال .[3]

في هذه الظروف كان على الملك فيرديناند ومجلسه الاستشاري إيجاد حل للحد من الغارات التي كان يشنها الموريسكيون على السواحل الاسبانية انطلاقا من شمال إفريقيا، حيث ألحقت أضرارا جسيمة بالتجارة الاسبانية وبأسطولها البحري، وفي نفس الوقت لم تتوفر لديهم الثروة والقوة البشرية اللازمة للقيام بحملة عسكرية شاملة على شمال إفريقيا، وأفضل وصف للسياسة التي اتبعوها هي « الاحتواء » بدل الاحتلال، وذلك أن فيردينا قد حاول منع غارات المسلمين بالسيطرة على الموانئ الاستراتيجية التي

---

[1] - جون وولف، المصدر السابق، ص ص 24، 25.

[2] - المصدر نفسه، ص 25.

[3] - المصدر نفسه، ص 25.

تنطلق منها غراتهم البحرية، وفي نفس الوقت انتهج سياسة المهادنة من خلال التخفيف من وطأة محاكم التفتيش على الموريسكيين.[1]

ثالثا- الاحتلال الاسباني لسواحل الجزائر 1505-1511م، وتطويق الغزوات البحرية المضادة:

في سنة 1494 عقدت البرتغال وإسبانيا اتفاقية لتقسيم مناطق النفوذ بينهما، وقد عرفت هذه الاتفاقية بـ: اتفاقية توردي سلا "Tordesillas" في تموز 1494م، وأتبعت باتفاقية أخرى لتقسيم مناطق النفوذ في شمال إفريقيا سنة 1509 عرفت بمعاهدة "فيلا فرنكا"، تم بمقتضاها توجيه التوسع الاسباني نحو الشرق (الجزائر، تونس، طرابلس) ، بينما وجهت البرتغال أنظارها نحو المغرب الأقصى، وقد بارك البابا الكسندر بورجيا "ALEXANDDRE VI BORGIA"مشروع التوسع الصليبي في شمال إفريقيا وسخر له كل الإمكانيات البشرية والمادية، فجمع القساوسة والرهبان كنوز الكنائس الثمينة، معطيا بذلك الصبغة الدينية للحملات الاستعمارية لمدن الساحل الشمال إفريقي.[2]

وكانت البداية باحتلال ميناء المرسى الكبير في 11 سبتمبر 1505 نظرا للأهمية الاقتصادية الخاصة لهذا الميناء وقربه من عاصمة الغرب الجزائري مدينة وهران حيث لا يفصل بينهما سوى 08 كيلو مترات، وكذا لقربه من إسبانيا و لذلك جعلت إسبانيا هذا الميناء من الاولويات في حملتها التوسعية، وفي 20 أوت سنة 1508 عين الملك الاسباني فيرديناند الكاردينال خيمينيس قائدا عاما على الحملة الموجهة لاحتلال مدينة وهران إحدى أكبر المدن الواقعة غرب الجزائر، وثاني أهم ميناء ومنفذ تجاري بعد المرسى الكبير، انطلقت الحملة الإسبانية يون 07 ماي 1509 من ميناء قرطاجنة الاسباني على رأس 33 باخرة حربية و 51 زورقا كان على متنها 15000 جندي إسباني، ونزلت على البر ، كما التحقت بها الحامية الاسبانية التي كانت مرابطة في المرسى الكبير، ودخلوا في اشتباكات شرسة مع المسلمين في على مشارف مدينة وهران.[3]

---

[1] - جون وولف، المصدر السابق، ص 26.

[2] - محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1515-1543)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص ص 99، 100.

[3] - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492- 1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 100، 102.

إلا أنه في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها توصل حاكم مدينة المرسى الكبير إلى شراء ذمة يهود الاندلس اللاجئين إلى وهران، وكان أحد اليهود يدعى "شطورة" الذي كان يعمل قابضا للضرائب بالمدينة، واتفقا على أن يقوم اليهودي المذكور وأعوانه بفتح أحد أبواب المدينة المحاصرة للجنود الإسبان، وذلك ما حصل فعلا حيث تدفق الجنود الاسبان يحرقون ويقتلون كل من يقف أمامهم، واستمرت المعركة في المدينة لمدة خمسة أيام إلى ان انتهت باستشهاد حوالي 4000 جزائري، وأسر أكثر من 8000 أخذو جميعا إلى إسبانيا، وقدرت غنائم الاسبان بأكثر من 28 مليون دينار ذهبي.[1]

كان لسقوط مدينة وهران أثر عميق في مسار الصراع الصليبي الاسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث تمكن الاسبان من التوغل في الداخل بالتحالف مع مجموعة من القبائل التي كانت تمدهم بالأخبار وتدلهم على الطرق السهلة والمختصرة، كما دفع سقوط وهران الملك الزياني أبا حمو الثالث إلى إعلان تبعيته للإسبان، ودفع جزية سنوية لهم قدرت ب 12000 دوقة ذهبية، وتزويدهم بالخيل والمواشي، كما كانت مدينة وهران نقطة لتوسيع النفوذ الاسباني في الغرب الجزائري حيث سارعت مدن أخرى على إعلان تبعيتها للإسبان خوفا من بطشهم مثل دلس ومستغانم وشرشال، ونضرا للأهمية لاستراتيجية لمدينة وهران راح الاسبان يقومون بتحصينها تحصينا محكما مكنها من بالثبات أمام جميع محاولات تحريرها، إلى أن تمكن باشا الجزائر عثمان باشا الكبير من تحريرها سنة وطرد الاسبان منها سنة 1792م. [2]

صوب الاسبان أنضارهم في مرحلة موالية نحو مدينة بجاية هذه المدينة التي كانت تلفظ انفاسها الأخيرة، في ضل الصراع الذي كان جاريا بين الامير عبد الرحمن الحفصي وأخيه عبد الله على العرش، كانت بجاية محورا رئيسيا بالنسبة للحملة التوسعية الاسبانية فكانت تمثل قاعدة للانطلاق نحو عنابة والقل ثم تونس، بالتالي التحكم في مضيق صقلية، وقطع الطريق على العثمانيين للوصول نحو الحوض الغربي للمتوسط، وصل الأسطول الاسباني إلى بجاية يوم 05 جانفي 1510، مكونا من 20 سفينة تحمل 10000 مقاتل، وراح سكان بجاية يقودون المقاومة متحصنين بالمرتفعات ولكن كان الفارق كبيرا بين المدفعيتين الجزائرية والاسبانية، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الإسبان من الانزال في البر وقسم جيشهم إلى فرقتين، الفرقة الأولى اقتحمت المدينة عبر

[1] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 112.

[2] - المرجع نفسه، ص ص 112، 113.

المدخل السفلي، بينما الفرقة الثانية تسلقت مرتفعات المحيطة بالمدينة، وعندما دخل الاسبان المدينة أعملوا السيف وأسرفوا في القتل وانجلت المعركة عن مقتل 4100 قتيل، كما نقول كنوز المدينة ونفائسها إلى إسبانيا في 30 سفينة، بينما تراجع المقاومون نحو المناطق الداخلية وأعلنوا بيعتهم للأمير أبا بكر الذي كان يحكم قسنطينة.[1]

أما مدينة الجزائر فكانت تابعة من الناحية النظرية إلى مملكة بجاية، يتولى إدارتها الشيخ سالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة، وبعد سقوط بجاية خشي أهلها أن يصيبهم ما أصاب أهالي بجاية ووهران، فتوجه وفد من مدينة الجزائر يرأسه الشيخ سالم التومي للاجتماع بقائد الحملة الاسبانية "بيدرو نفارو" واتفق الطرفان على عقد السلام مقابل إطلاق الجزائريين لكل المسيحيين الأسرى، والتعهد بعدم التعرض للسفن الاسبانية، وأن يدفع الجزائريون نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه لملك بجاية، كما يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للإسبان أين تم بناء القلعة البحرية الاسبانية في الجزيرة المحاذية لمدينة الجزائر والتي صارت تعرف منذ ذلك الوقت بحصن الصخرة، أو حصن البينيون، وفي سنة 1511م سافر وفد من الجزائريين إلى إسبانيا من اجل ترسيم الاتفاق.[2]

وقد سار أهالي مدينة مستغانم على نفس نهج سكان مدينة الجزائر، حيث عرضوا تبعيتهم للإسبان، مقابل التزامات مالية وأدبية متفق عليها بين الطرفين، وكان من أهمها دفع الرسوم والإتاوات التي كانوا يدفعونها من قبل لملك تلمسان، إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين، كما يحق للإسبان احتلال حصون مدينة مستغانم في حالة السلم والحرب دون أي اعتراض من الأهالي، كما يلتزم الاهالي بتموين الحاميات الاسبانية في وهران والمرسى الكبير، بحاجياتهم من المواشي والحيوانات والمحاصيل الزراعية، كما تخضع الحركة التجارية البحرية لرقابة الحاكم الاسباني، ولم تأت سنة 1512 حتى كانت معظم مدن الساحل الجزائري قد وقعت تحت الاحتلال إما عن طريق استعمال القوة العسكرية، أو عن طريق إعلان الخضوع والتبعية للإسبان.[3]

---

[1] - محد دراج، المرجع السابق، ص ص 111 – 113.

[2] - محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، ج01، الجزائر، 1985، ص ص 32، 33.

[3] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 146.

رابعا- انضواء الجزائر تحت راية الدولة العثمانية 1519م، الخيار الوحيد لمواجهة المشروع الهيمنة الصليبية في حوض المتوسط:

ارتبط الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط بقضية المسلمين في الأندلس، وذلك استجابة لاستنجاد أهالي الأندلس بالسلطان العثماني بايزيد الثاني ومطالبتهم بحمايتهم مما يتعرضون له من قهر وإرهاب مسيحي بعد سقوط غرناطة، وكرد فعل من السلطان أرسل البحار كمال راييس على رأس أسطول كبير إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486، فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية وجنوب فرنسا، وسردينيا، وكورسيكا ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا، ثم كرر كمال رئيس الإغارة على سواحل إسبانيا في 1510 منطلقا من السواحل المغربية. [1]

وبعد استقرار الأخوين خير الدين وعروج في جربة، شرعا بحلول ربيع 1512 في شن غارات كبيرة على مختلف السواحل والموانئ الأوربية الغربية وجزرها، مثل سردينيا، ونابولي، بالإضافة إلى تعرضهما للسفن الأوربية التي كانت تجوب البحر المتوسط محملة بالبضائع أو الجنود، فغنما من ذلك غنائم هائلة قدما بها إلى جزيرة جربة حيث قاما ببيعها، ودفع الخمس إلى السلطان، وتصدقا على الفقراء من الأهالي وذاع صيتهما في كل سواحل غرب البحر المتوسط، كانت البداية الفعلية للوجود العثماني في الجزائر تعود إلى سنة 1514م، عندما تمكن عروج من تحرير قلعة جيجل متخذا منها قاعدة لمواجهة التوسع الاسباني في المدن الساحلية الجزائرية، وخلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين 1514 و1518م خاض الإخوة بربروس صراعا مريرا مع الحاميات الاسبانية المتحصنة في المدن الساحلية الجزائرية وكان من أبرزها الحاميات الاسبانية في بجاية وحصن البينيون على ساحل مدينة الجزائر العاصمة، ومستغانم والمرسى الكبير ووهران، كما وصل عروج إلى تلمسان وتمكن من عزل السلطان الزياني أبي حمو الثالث الموالي للإسبان، وتنصيب ابن أخيه أبي زيان المسعود، ولكن التدخل الاسباني لنصرة أبي حمو الثالث أدى إلى اختلال موازين المعركة واستشهاد عروج سنة 1518م.[2]

أمام هذا الوضع أدرك خير الدين أن الحل الوحيد لمواجهة التصعيد الاسباني هو إعلان الولاء للسطان العثماني، بصفته الطرف الوحيد القادر على مده بالسلاح

---

[1] - محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 176، 178.

[2] - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، بيروت، 1980، ص ص 3-7، أحمد توفيق المدني، ص 165، محمد العربي الزبيري 34،35.

والرجال، خاصة أم خذلان السلطان الحفصي[1]، ومن خلال التدقيق في طبيعة الصراع القائم في الحوض الغربي للمتوسط يمكن أن نستنتج أهم أسباب طلب إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

- عدم وجود قوة إقليمية في منطقة الصراع (شمال إفريقيا) يمكن التحالف معها، أو حتى الانضمام إليها لمواجهة الخطر الإسباني.

- إدراك خير الدين لمحدودية قدراته العسكرية بالمقارنة مع الإمكانيات الهائلة التي يملكها الإسبان، والتي جعلت منهم دولة قادرة على خوض العديد من الحروب في إسبانيا وشمال إفريقيا ضد المسلمين، وفي أوربا ضد البروتستانت، وضد ملك فرنسا منافس شرلكان على زعامة أوربا، فضلا عن تقديمه مختلف أشكال الدعم للنمسا لكي تتمكن من التصدي الحملات العثمانيين في شرق أورب.

- إن معرفة خير الدين الموازين القوى في الصراع الإسلامي -المسيحي جعلته يرجح ضم جهده إلى أقوى دولة إسلامية في ذلك العصر، أي الدولة العثمانية، فهي وحدها التي كانت مؤهلة لقبول ضم الجزائر إلى ممتلكاتها، وبالتالي: حمايتها بدعمها بالمال والعتاد والرجال. [2]

خامسا- بداية الهزائم البحرية والبرية للتحالفات الصليبية، والسيطرة الرسمية للتحالف العثماني الجزائري على البحر المتوسط 1538م:

أدرك البابا بول الثالث أن السبيل الوحيد لمواجهة القوة البحرية الجزائرية العثمانية المتصاعدة في حوض البحر الأبيض المتوسط لن تكون إلا من خلال توحيد القوى الصليبية الأوربية، وكللت جهوده بعقد هدنة مدتها عشر سنوات بين ملك فرنسا فرنسوا، وبين الامبراطور الاسباني شرلكان، كما انضمت البندقية إلى هذه المعاهدة، ثم تبع ذلك عقد تحالف صليبي سنة 1538 ضم معظم الدول الأوربية الكبيرة في ذلك العصر مثل إسبانيا، وألمانيا، والبرتغال، والبندقية، بالإضافة إلى الممالك الصغيرة كجنوة، ومالطا، وفلورنسا، وقد تم هذا الحلف برعاية البابا، وزعامة شارلكان.[3]

كان هدف شرلكان من هذا التحالف، الاستفادة من هذا الأسطول للقضاء على القاعدة العثمانية في الجزائر، بينما كانت البندقية تهدف إلى استعادة الجزر التي

---

[1] - محمد دراج، المرجع السابق، ص 222.

[2] - المرجع نفسه، ص ص 233-235.

[3] - محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 300، 301.

استولى عليها العثمانيون في بحر إيجة، وهكذا فقد شهدت سنة 1538 احتشاد أكبر أسطول أوربي في عرض البحر المتوسط، واسندت قيادة الحملة إلى البحار الجنوي أندري دوريا، حيث وضع تحت تصرفه أسطولا مكونا من أكثر من 600 قطعة بحرية، تحمل على متنها 60000 مقاتل من جنسيات وأعراق مختلفة، هذا التفوق في العدة والعتاد أكسب الصليبيين ثقة تامة في كسب المعركة دون عناء يذكر.[1]

أما الأسطول العثماني فقد كان مكونا من 122 قطعة بحرية، تقل 20.000 جنديا، وتولى خير الدين القيادة الرئيسية للأسطول يساعده في ذلك أمهر البحارة العثمانيين الذين لعبوا دورا كبيرا في تثبيت الوجود العثماني في البحر المتوسط وشمال إفريقيا، أمثال: صالح رئيس، وتورغوت رئيس، وسيد علي المرادي رئيس .بالإضافة إلى ذلك أن الأسطول العثماني كان متجانسا من حيث الهدف والغاية التي يرمي إلى تحقيقها من هذه المعركة. كما كانت معظم قطعه الحربية تتكون من سفن صغيرة خفيفة تسهل عليها القيام بالمناورة والالتفاف حول سفن العدو الضخمة المثقلة بالجنود والمعدات. وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه السفن الصليبية الثقيلة تدور بتثاقل، كانت القوارب العثمانية تقوم بعمليات التفاف سريعة خلفها لتوجه إليها قذائف مدافعها بسهولة.

ومن الناحية التقنية كان الأتراك يستخدمون مدافعا تعتبر أكثر تطورا من تلك التي يستعملها الأوربيون، والتي كان البحار التركي الشهير كمال رئيس قد قام بتطويرها قبل نصف قرن من تاريخ هذه المعركة، حيث كان الأتراك يملكون المدافع البعيدة المدى، بينما لم يكن الأوربيون يستعملون سوى المدافع القصيرة المدى، وهكذا فعندما كان الأتراك يقصفون السفن الأوربية من مسافات بعيدة، كانت القذائف الأوربية تتساقط في مياه البحر دون أن تبلغ هدفها، لكونها لم تستطع الوصول إلى السفن العثمانية، كما ساعدت الرياح التي كانت تهب في الاتجاه المعاكس لأسطول الصليبيين الثقيل الحركة، في حسم المعركة لصالح المسلمين، فبعد قرب مرحلة الالتحام بين الأسطولين وجه خير الدين باشا أوامره للأسطول العثماني بالالتفاف حول أسطول التحالف الصليبي، ثم الإطباق على العدو بواسطة الجناحين أين تم توجيه قصف عنيف بالمدفعية.[2]

---

[1] - المرجع نفسه، ص ص 301.

[2] - محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 302، 303.

وقد أدى هذا الاشتباك إلى إغراق عدد كبير من سفن التحالف الصليبي، وأمام حالة الاضطراب والفوضى بين الصليبيين اضطر أندري دوريا بعد حلول الظلام إلى توجيه تعليمات بالانسحاب السريع، مسجلا بذلك أكبر هزيمة بحرية في العصر الحديث رغم الفارق الكبير في العدة والعتاد بين الطرفين المتحاربين. لقد خسر الصليبيون خلال هذه المعركة 123 سفينة حربية، كما أستولى العثمانيون على 36 سفينة، بالإضافة إلى 3000 أسير، وبنهاية المعركة انطلقت مرحلة تاريخية جديدة فرض فيها الحلف الجزائري العثماني واقعا سياسيا وعسكريا جديدا في حوض البحر الأبيض المتوسط. [1]

خيمت هزيمة معركة بروزا سنة 1538م، بظلالها على الامبراطور الاسباني شارلكان الذي اعتبرها نكسة لشرف الإمبراطورية الاسبانية العظمى، خاصة في ضل عجزه عن صد غارات الأسطول البحري الجزائري وعملياته العسكرية على السواحل الأوربية في إيطاليا وسردينيا وجزر الباليار، حتى صار شرلكان نفسه يجد صعوبة في التنقل من برشلونة إلى نابولي، وأمام استمالة الاسبان للنظام السياسي في تلمسان، وتمكنهم من إخضاع الدولة الحفصية لسلطانهم، وجه الامبراطور الاسباني شارلكان أنظاره نحو إسقاط مدينة الجزائر وذلك نظرا إلى مجموعة من المعطيات:

- كانت مدينة الجزائر تمثل قاعدة للغزو البحري، والعقبة الوحيدة أمام المشروع الاسباني للهيمنة السياسية والعسكرية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وبالتالي فإن إخضاعها سيؤدي حتما إلى تأمين الحزام البحري الذي يربط شطري الإمبراطورية الإسبانية في المتوسط.

- فرض حصار محكم على أي كيان عسكري أو سياسي في حوض المتوسط أو الضفاف المطلة عليه، في حال عدم التماشي مع التحالفات السياسة والعسكرية الاسبانية.

- تخفيف الضغط العثماني على إمبراطوريتي النمسا وألمانيا، وذلك بفتح جبهة جديدة في الجزائر، حيث ستكون الدولة العثمانية مضطرة إلى إرسال قواتها هناك.

- استغلال فرصة وجود خير الدين باشا في استانبول وانشغاله بقيادة الأسطول العثماني، وما ترتب عليه من فراغ في قيادة البحرية الجزائرية، حيث أكدت تقارير

[1] - المرجع نفسه، ص ص 300، 306.

الجواسيس الإسبان أن القوات المحلية بقيادة حسن آغا ة غير قادرة عن الدفاع على المدينة. [1]

بعد أن أنهى الأسطول الإسباني استعداداته انطلق من ميناء قرطاجنة Carthegeneفي 15 أكتوبر 1541م، فمر على وهران حيث تزود من هناك بقوات إضافية ثم تابع سيره إلى الجزائر التي وصلها في 19 أكتوبر، فرسا الأسطول الإسباني مقابل ميناء الجزائر، وفي هذه الأثناء قاد حسن آغا دورا كبيرا في تنظيم وإدارة صفوف المقاومة حيث حشد إلى جانبه صفوف العلماء والأعيان والقادة، ثم أمر بنصب المدافع على أسوار المدينة وقطع أشجار البساتين كلها في محيط مدينة الجزائر كي لا يتستر بها النصارى اثناء القتال، كما فتح خزائن السلاح ووزعه على أهالي المدينة مع ما يحتاجون غليه من بارود ورصاص، كما أشرك سكان الريف المحيطين بمدينة الجزائر في المعركة. [2]

وانطلاقا من يوم 23 أكتوبر انطلقت الاشتباكات بداية من منطقة الحامة التي أنزل بها الاسبان ، كما شنت القوات المرابطة حول أسوار مدينة الجزائر تحت جنح الظلام هجمات مباغتة على أطراف الجيش الاسباني كبدت فيها العدو خسائر معتبرة، واستمرت الاشتباكات العنيفة طيلة 3 أيام وبحلول يوم 25 أكتوبر بدأت الامطار بالهطول واشتدت الرياح فقطعت حبال السفن الاسبانية وارتطمت بالصخور فلم تمضي سوى ساعات قليلة حتى تحطمت حوالي 140 سفينة اسبانية، أما الجيش المحاصر لمدينة الجزائر فكان وضعه أكثر سوءا فاقتلعت خيامهم واضطرب نظامهم، كانت هذه الفرصة العاصفة تمثل فرصة مواتية لأهل مدينة الجزائر فخرجوا في هجوم شامل وقتلوا من الاسبان أكثر 4000 جندي. [3]

ومع حلول صبيحة 26 أكتوبر تحولت خطة شارلكان من الهجوم إلى البحث عن سبيل لخلاص جنوده الذين علقوا في الوحل وأنهكم التعب والجوع، فعبر واد الحراش في ضل ملاحقة وضربات الأهالي الذي الحقوا خسائر فادحة بمؤخرة الجيش الاسباني، والتحق برأس "ماتيفو" قبالة سواحل مدينة الجزائر يوم 29 أكتوبر، وحاول التراجع نحو بجاية أين توجد الحامية الاسبانية هناك لإعادة تنظيم صفوف الجيش الاسباني

---

[1] - محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 306، 307.

[2] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص 281، 282.

[3] - المرجع نفسه، ص 283.

ولكن بعد وصوله هناك يوم 04 نوفمبر 1541م وجدها محاصرة والجوع يفتك بمن فيها من الجنود، فاضطر إلى التراجع نحو اسبانيا يجر اذيال الخيبة والهزيمة ووصل إلى ميناء قرطاجنة في 02 ديسمبر 1541م، كان لفشل حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541 نتائج عسكرية وسياسية كبيرة، أثرت بشكل جذري على المخططات الاسبانية في شمال إفريقيا وحوض المتوسط، كما مثلت بداية لمرحلة جديدة من الوجود العثماني في المنطقة[1] ويمكن أن نلخص أهمها فيما يلي:

- توالي انتصارات الاسطول البحري الجزائري في شمال إفريقيا، فقد تم القضاء على دولة بني زيان سنة 1555م، وضمت تلمسان إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي.

- أجبر الاسبان على الانسحاب من طرابلس الغرب سنة 1552م، وميناء تونس سنة 1553م، وبجاية سنة 1555م، ليطردوا من تونس نهائيا سنة 1569م.

- زادت هيبة الجزائر في نفوس الأوربيين، وتسابقت الامبراطوريات الاوربية الكبرى لعقد معاهدات الحماية والصلح، ويذكر صاحب كتاب تاريخ باشوات وعلماء الجزائر "وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حيلها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار ولم يبقى لهم عدو يخافون منه..."

- كان ما حدث في الجزائر يمثل أعظم هزيمة للإمبراطور شارلكان منذ جلوسه على العرس، فاهتزت مكانته في أوربا ولم يبقى له حليف سوى هنري الثالث ملك إنجلترا.

- راقبت الامبراطورية الفرنسية صراع غريمتها إسبانيا مع الجزائر بحذر شديد، فكان فرانسوا يدرك جيدا أن الجزائر تمثل العقبة الوحيدة أمام إسبانيا للهيمنة على حوض البحر الابيض المتوسط والدول والامبراطوريات المطلة عليه بما فيها فرنسا، وبعد هزيمة الاسبان سارع فرانسوا الأول إلى عقد معاهدات الصداقة والتبادل التجاري مع السلطان سليمان القانوني.[2]

سادسا- تضارب المصالح بين الباب العالي والجزائر وتراجع دورها الريادي في حوض المتوسط نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م.

كانت البحرية الجزائرية تؤلف ابتداء من عهد خير الدين بن يعقوب جزءا هاما جدا من البحرية العثمانية ، فقد كان الرياس الجزائريون يلتحقون بأسطول الدولة كلما أزمع السلطان خوض غمار حرب بحرية لينزلوا، بالتنسيق معه خسائر كبيرة بالأمم

[1] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 290.

[2] - محمد دراج، المرجع السابق ص ص 319، 322.

المسيحية المعادية، ولما كانت سفنهم الحربية مجهزة تجهيزا جيدا بالرجال والمدفعية، فقد رحبت الدولة بادئ الأمر بمساعدتهم القيمة، غير أن نزعتهم الاستقلالية وقلة الانصياع إلى الأوامر ما لبثت أن استثارت غضب الباب العالي عليهم ، خاصة وأنهم كانوا أيام السلام يورطون الباب العالي في مشكلات دبلوماسية متواصلة، إذ ارتبط عدد من الدول الأوربية مع الباب العالي بمعاهدات وامتيازات، وأصدر هذا الأخير بموجبها أوامر صريحة إلى قباطنة الإيالات الغربية بعدم التعرض لسفن تلك الدول . إلتزم الجزائريون بهذه الأوامر من باب التبعية للدولة العثمانية مدة من الزمن غير أنهم لم يستطيعوا غض النظر أبديا عن تعديات اعتبروها خروقا واضحة ضد إيالة الجزائر من جانب بعض الدول مثل فرنسا وإنجلترا.[1]

وفي المقابل تجدر بنا الإشارة إلى أن الأخبار التي كانت ترد الجزائر عن اضطراب الأوضاع في الوطن الأم، وصور الانحطاط والفساد المتفشي كان لها بلا أدنى شك تأثيرا كبيرا على درجة تقبل أوامر الديوان الهمايوني، مما كان يضعف في الكثير من الأحيان موقف الوالي المعين من طرف الديوان المذكور، وخاصة أن سلاطين هذه المرحلة لم يكن أغلبهم على مستوى يؤهلهم للحكم إلا بواسطة الصدور العظام، الذين كان بعضهم مثالا للفساد، حيث كرسوا ظاهرة بيع المناصب، مثل مناصب ولاة الجزائر الذين لم يكونوا يحضون بالشرعية خلال هذه المرحلة الزمنية، كما تحالفوا مع قادة الجيش الانكشاري الذين حادوا عن مهامهم الأساسية وأصبحوا يتدخلون في شؤن الإدارة والحكم، ضف إلى ذلك تدخل الحريم السلطاني في شؤون الدولة فكن يتدخلن في تعيين كبار الموظفين، وفي عزلهم أو حتى قتلهم، كما يتدخلن في شؤون الحرب مثل السلطانة صفية والدة السلطان محمد الثالث (1595-1603)، وعلى النحو ذاته قامت السلطانة كوسم زوجة السلطان محمد الأول بتسيير السياسة العليا للدولة في عهد ابنها مراد الرابع (1623-1640م). [2]

كما كان لنشاط القرصنة المسيحية المتزايد ضد السفن والسواحل الجزائرية منذ مطلع القرن السابع عشر بالغ الأثر في توتر العلاقات الخارجية للإيالة، ومن جراء ذلك

---

[1] - أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، دار البصائر للنش روالتوزيع، الجزائر، 2011، ص ص 60، 61.

[2] - عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج 1ن المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1984م، ص 360.

صار الجزائريون يحتجزون جميع المراكب المشتبه بنقلها البضائع للدول المعادية، في حين كانوا يستولون على تلك التي يثبت ضلوعها في عمليات التهريب أو القرصنة أو الجوسسة قرب السواحل، وعمدت الدول التي طالتها غارات الأسطول الجزائري إلى تقديم شكاوى إلى السلطان العثماني لإجبار واليه على احترام سفنها ودفع تعويضات عن الخسائر والأضرار التي لحقت بهم، وكانت الأوامر التي تتلقاها السلطة الحاكمة في الجزائر بهذا الشأن لا تلقى آذانا صاغية في الكثير من الأحيان. [1]

ويرجع السبب في ذلك إلى أن تلك الأوامر كانت، حسب وجهة نظر أعضاء الديوان، تتجاهل أو تنافي المصلحة العليا للبلاد لاسيما أن النشاط البحري كان يشكل أحد أهم الموارد المالية بالنسبة للدولة، لذلك لم يتمكن الولاة في الغالب من فرض إرادة السلطان على طائفة الرياس و الديوان، مثلما حدث في مايو 1582، عندما قدم رمضان باشا واليا على الجزائر للمرة الثانية ومعه أمر سلطاني بأن يعيد سفينتين فرنسيتين أسرهما مراد رايس الأرناؤوطي، وبمجرد ما علمت طائفة الرياس بنية رمضان معاقبة الرايس المذكور الذي كان مبجلا فيها حتى ثارت ثائرتها عليه ولم يستطع الوالي مواجهة الوضع، فهرب إلى إحدى دوره الريفية ولم يغادرها.[2]

وخلال سنة 1938م استدعى الباب العالي رياس الجزائر وتونس لاعتراض السفن الأوربية التي كانت تشتغل بقرصنة أو تهريب القمح انطلاقا من الجزر الإغريقية، وقد لبت النداء ثمان سفن جزائرية بقيادة علي بتشين، لكن اثناء رسوهم بميناء فالونة هاجمهم أسطول البندقية على حين غرة فتكبد الجزائريون في هذه الحملة خسائر جسام، حيث فقدوا جميع سفنهم ومئات من القتلى، ولدى سماع السلطان بالنكبة التي حلت بالجزائريين ، أمر بحجز ممتلكات رعايا البندقية وسجن سفيرها كما توعد بالثأر، ووعد البعثة الجزائرية التي قدمت إلى الآستانة خصيصا بخمس وعشرين سفينة كتعويض، إلا أن البنادقة قدموا للسلطان ومقربيه مائتي ألف سكة ذهبية والكثير من الهدايا، فتصالح إثر ذلك الطرفان في حين تم تجاهل تعويض الطرف الجزائري المتضرر، نتيجة لذلك تأكد الرياس أنهم وحدهم من دفع الثمن غاليا، قطعوا وعدا على أنفسهم بعدم القيام بمثل ذلك دون عوض مالي مناسب ومسبق، ولذلك أحجم الرياس

[1] - أمين محرز، المرجع السابق، ص 61.

[2] - المرجع نفسه، ص 61.

عن المشاركة في الحملة التي كان السلطان يزمع القيام بها ضد جزيرة مالطة في 1644م.[1]

كان لواقعة "فالونة" الأثر البارز في إضعاف العلاقة بين الديوان الهمايوني والسلطات الجزائرية، ضف إلى ذلك غلبة صفة الخمول والضعف على أغلب سلاطين هذه المرحلة، حيث أهملوا حضور الديوان وقيادة الجيوش، وفضلوا عوض ذلك البقاء في السراي حيث كان لحريم القصر تأثيرهن القوي عليهم. إن غياب نظرة سياسية وعسكرية شاملة تدرك حقيقة العلاقات في حوض المتوسط وتحفظ ثغور الدولة العثمانية في هذه الواجهة البحرية الاستراتيجية، وانتهاج سياسة المركزية المطلقة في الإدارة والحكم، كانت من أبرز أسباب بروز ملاح النزعة نحو الحكم الذاتي في لإيالة الجزائرية والتبعية الإسمية فقط للباب العالي.[2]

تعددت الأمثلة وتباينت حول أسباب توتر التحالف العثماني الجزائري، وتباين سياسة كل منهما تجاه القوى الصليبية المنتشرة عبر حوض المتوسط، وكذلك لجوء الممالك والإمارات الأوربية إلى إحداث الوقيعة بين الطرفين، وهذا ما كان له تأثيرا مباشرا على الدور الريادي للجزائر في المنطقة خلال المرحلة الزمنية المذكورة، ونظرا لطول الفترة الزمنية المعنية بالدراسة وكثافة أحداثها التي لا يمكن التطرق إليها بالتفصيل في هذا المقال المقتضب، نجمل أبرز أسباب التراجع في المحاور التالية:

- تصاعدت الغارات البحرية لجمهورية البندقية والتي عملت على توحيد قوى الإمبراطوريات المسيحية من اجل مساعدتها على الاحتفاظ بمركزها في الشرق، وكانت القوات البابوية وفرسان مالطة يمدونها بكل الدعم الممكن، كما تدخلت فرنسا (حليفة الباب العالي) لمساعدتها عن طريق امدادها بالسلاح سرا، وبالمعلومات عن تحركات العثمانيين والأسطول الجزائري.[3]

- بروز الإمارة العلوية الناشئة بقيادة السطان الشريف العلوي وإبنه محمد، حيث قام هذا الأخير انطلاقا من تافيلات في الجنوب بالتوسع في الشمال الشرقي حتى وادي ملوية، ثم عبر سنة 1653م بقوات باتجاه وجدة التي كانت تابعة حين ذاك للجزائر، بل تعاداها وهاجم أحواز مدينة تلمسان، وفي ربيع عام 1654م، غزا مجددا الغرب

---

[1] - أمين محرز، المرجع السابق، ص ص 62، 63.

[2] - عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، 361.

[3] - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس، بيروت، 1988، ص ص 475، 476.

الجزائري ونهب كل ما صادفه في طريقه إلى أن بلغ عين ماضي والأغواط، لقد أحدثت هذه الغزوة اضطرابا خطيرا بين أهالي تلمسان والغرب الجزائري، حيث امتنعت القبائل عن دفع الضرائب وأعلنت عصيانها بعد نهب مواشيها وأملاكها خلال هذه الحملة.[1]

- توالي الأوبئة والأمراض الفتاكة على الجزائر وكان من أبرزها، وباء الطاعون الذين انتشر في مدينة الجزائر وضواحيها سنة 1654م، وذهب ضحيته ما يقارب ثلث سكان المدينة، كما شهدت سنة 1663م موجة أخرى من وباء فتاك اسمه "الحبوبة القوية" أهلك أكثر من 60000 من سكان مدينة الجزائر، وعدد أكبر بكثير في ضواحيها، هذا ما أدى إلى شلل شبه تام في الحياة الاقتصادية.[2]

- تراجع عائدات الجهاد البحري خاصة بعد الخسائر المعتبرة للأسطول الجزائري في معركة " كريت" سنة 1647م، أو تلك الناتجة عن القرصنة المضادة تجاه السواحل الجزائرية وأسطولها البحري في المتوسط، وهذا أدى إلى تفاقم الأزمة المالية في الجزائر ويدفع بالجيش الإنكشاري إلى التمرد ونشر الفوضى.[3]

- توالي الثورات المحلية وبالخصوص في الشرق الجزائري، والتي كانت في أغلبها كرد فعل على السياسة الضريبية المجحفة من طرف الأتراك، خاصة في ظل سنوات الأوبئة والجفاف والمجاعة، ونذكر من بين أبرزها ثورة قبيلتي الحنانشة والدواودة سنة 1666م في قسنطينة، وثورة تلمسان الكبرى سنة 1669م.[4]

خاتمة:

تبلورت دراستنا حول إشكالية محورية في تاريخ الجزائر الحديث، من حيث ظهورها كقوة إقليمية فاعلة في حوض البحر الأبيض المتوسط، كان لها دورا سياسيا وعسكريا حاسما في موجهة المد الصليبي الأوربي في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين 16 و17م، كما تناولت بالتحليل والمناقشة أسباب النهضة والقوة وبدايات التراجع والأفول في سياقها العام تحت لواء وراية الدولة العثمانية وسياقها الخاص في ظل وجود الجزائر ككيان شبه مستقل مثل جبهة دفاعية أمامية في حوض المتوسط عن

---

[1] - أمين محرز، المرجع السابق، ص ص 68، 69.

[2] - أبو العباس أحمد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 7، تحقيق: جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص ص 24، 26.

[3] - أمين محرز، المرجع السابق، ص 64.

[4] - أمين محرز، المرجع السابق، ص ص 129، 130.

العالم الشرقي الإسلامي، ومما سبق يمكن تلخيص النتائج المتوصل إليها في المحاور التالية:

- لقد كانت تتعايش في الجزائر عدة دويلات وإمارات، متناحرة ومتنافرة فيما بينها غلب عليها الضعف والعجز عن رد هجمات المعسكر المسيحي وعلى رأسه الامبراطورية الاسبانية المسيحية التي لم تكتف بإخراج العرب والمسلمين من الأندلس، بل طاردتهم في غرب البحر الأبيض واحتلت أجزاء من المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا، تمهيدا لإلحاق المنطقة كلها بالمعسكر الغربي المسيحي الذي تتزعمه إسبانيا.

- برز دور الدولة العثمانية في ذلك الظرف الحرج من الصراع الحضاري، من خلال إنقاذ المغرب العربي من الوقوع في دائرة الهيمنة الصليبية، والاتخاذ من الجزائر كقاعدة أساسية لحماية الغرب الإسلامي ومواجهة المشروع الصليبي.

- عرفت العلاقات بين الجزائر والباب العالي نوعا من الفتور مع نهاية القرن 16 ومطلع القرن 17م، وذلك نظرا لتباين السياسات والمصالح الخارجية للطرفين، فقد غلب على سياسة الباب العالي طابع السطحية، من خلال إبرام معاهدات الصداقة والامتيازات مع القوى الصليبية في حوض المتوسط، بينما قادة الجهاد البحري في الجزائر كانوا رجال ميدان وعلى دراية واسعة بالأهداف من وراء هذه الاتفاقيات، ومن ابرزها تطويق الجزائر، وإعادة ترتيب صفوف القوى الصليبية في المنطقة عن طريق توجهها إلى عقد تحالفات عسكرية وسياسية ضد الجزائر وكيان الدولة العثمانية بصفة عامة.

- عرفت القارة الأوربية مطلع القرن 17 مجموعة من التغيرات الجذرية، فإذا بالقوى الامبراطورية التقليدية يدب فيها الضعف والاضمحلال، وإذا بدول أخرى تبرز على الساحة هي هولاندا وإنكلترا وفرنسا، وإذا الصراع يتوسع ويتعقد إذ يخرج عن كونه صراعا بين الحضارتين المذكورتين فقط بل انضافت إليه عناصر جديدة هي القوميات والمصالح الاقتصادية. فالدول العلمانية الجديدة لم تعد تحارب أو تنازع من أجل الدين المسيحي أو تحت راية الدين كما كان الحال في الماضي، ولكن من أجل النفوذ الاقتصادي والقومي والاستراتيجي، مستندة في ذلك على عوامل جديدة هي العلم وظهور الطبقة الوسطى "البرجوازية" التي أخذت تصارع هي بدورها لتحل محل الطبقة الإقطاعية في النفوذ.

- كانت الدول الأوروبية تعرف حالة من التطور، من دول صليبة إلى دول علمانية، ومن دول إقطاعية إلى دول قومية، ومن دول متخلفة إلى دول مصنعة وعلمية، بينما

الوضع الحضاري في الجزائر كان يعرف حالة من الجمود والتمسك بالنظم الإدارية والعسكرية والسياسية التقليدية، فلم تتخذ بالنظم العلمانية القومية الأوربية، ولم تطور نموذجا حضاريا جديدا مستمدا من الإسلام والعلم، فكانت النتيجة هي استمرار التدهور والتراجع تحت ضغط الدول الكبرى حتى انتهى بها الأمر إلى أن سقطت في يد الحملة الاستعمارية الفرنسية سنة 1830.

جدلية تجاذب الأعمال القرصانية بين ضفتي البحر المتوسط خلال العهد العثماني
- دراسة في الأبعاد الدينية والتاريخية للقرصنة المتوسطية-

د. سمير مشوشة.
جامعة عبد الحميد مهري –قسنطينة 2-
samirmechoucha@gmail.com

مقدمة:

تعتبر مختلف الأعمال القرصانية -وعلى مر الحقب التاريخية- من أهم أساليب اقتناص السفن والسطو عليها، كما تعتبر أيضا من أبرز العوامل التي أثّرت على الحركية التجارية في البحر الأبيض المتوسط منذ عصور قديمة، الشيء الذي انعكس سلبا على جوانب أخرى كالجانب السياسي والاقتصادي وأدى إلى قطيعة تاريخية ودينية بين ضفتي البحر المتوسط. فلهذا لمجال البحري ضفتان: الضفة الجنوبية ونعني بها شمال إفريقيا وغرب آسيا، والضفة الشمالية وتشمل أجزاءًا كبيرة من أوروبا، وقد كانت الطبيعة حاضرة على مدى زمني طويل لإحداث هذه الازدواجية بين عالمين مختلفين يتواجهان على أصعدة عدة كالجغرافيا، التاريخ، أنماط الحياة اليومية والصراع من أجل السيطرة عليه.

ويؤكد لنا المؤرخ بروديل في مؤلفه أن : " ...البحر قبل أي شيء هو "مساحة نقل": الباخرة، الطريق البحرية، المرفأ، والمركب التجاري...هي كلها في خدمة المدن والدول المتوسطية واقتصاداتها وتبادلاتها وثرواتها. لكن البحر، قبل أن يصير واسطة أو صلة، كان عائقا بوجه الملاحة التي كانت حذرة ولا تبحر بواخرها إلا بمحاذاة السواحل بين نقاط مرئية في وضح النهار..."[1]، ولعل ما يقصده بروديل في قوله هذا أن البحر المتوسط بصفة عامة هو مجال للصراع منذ القدم خاصة بين مختلف الحضارات المتعاقبة عليه، وإن ظهور الملاحة البحرية في هذا العالم وتطور المبادلات التجارية عبره كانت

([1]) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإيجاز: مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص 35.

إحدى أهم الأسباب إلى ظهور ما يسمى بـ " القرصنة المتوسطية" والتي أفضت بعدئذ إلى ما يسمى بالصراع العمودي بين المسيحية الحاقدة ممثلة في أوروبا والإسلام ممثلة في الدولة العثمانية وأدى كل هذا إلى قطيعة تاريخية بين ضفتي هذا البحر.

وقد اعتبر النشاط البحري في العالم المتوسطي إحدى الإشكاليات التاريخية المِفْصلية بين أمم أوروبا وبلاد المغارب بصفة خاصة، فمخاطر البحر المتوسط مرتبطة إما بالكوارث الطبيعية (الأعاصير، الضباب، التيارات البحرية...إلخ)، والأخرى مرتبطة بالجهاد البحري-القرصنة البحرية والتي هي من فعل الإنسان الذي مارسها منذ عصور قديمة. ومنه تأتي هذه الورقة البحثية والتي سنحاول فيها الخوض في جدلية الأعمال القرصانية المتبادلة بين دول الضفة المتوسطية الشمالية ودول بلاد المغارب خلال العهد العثماني من منظور تاريخي وديني وكل هذا بهدف الوصول إلى محاولة لفك الارتباط بين مصطلحي الجهاد البحري والقرصنة البحرية، ومن خلاله يمكننا طرح التساؤلات الآتية:

- هل يمكننا كمؤرخين وخاصة خلال العهد العثماني فك الإرتباط الوثيق بين مصطلحي الجهاد البحري والقرصنة البحرية تاريخيا؟

- كيف صورت لنا مختلف الدراسات التاريخية جدلية تجاذب الأعمال القرصانية بين ضفتي العالم المتوسطي خلال العهد العثماني؟

- كيف يمكننا تشخيص مختلف الأبعاد الدينية للقرصنة المتوسطية؟

هي جملة تساؤلات مطروحة سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية التعمق أكثر لإحاطتها من جوانب تاريخية ودينية معتمدا في ذلك على المنهج التاريخي التحليلي والوصفي وحتى الإحصائي.

1- تاريخية الأعمال القرصانية في العالم المتوسطي:

شكل تطور الملاحة البحرية والعمليات التجارية في البحر المتوسط المقدمة الحتمية لظهور القرصنة، فبسقوط الإمبراطورية الرومانية انهارت معها التجارة البحرية، وهو ما أدى إلى تراجع كبير للقرصنة، لكنها عاودت الظهور لفترة قصيرة وذلك بالموازاة مع انتعاش التجارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشيء الذي أدى إلى عودة

النهب البحري[1]، فكانت التجارة تسير جنبا إلى جنب مع القرصنة بالنسبة لأغلب الدول الأوروبية والواقعة على شاطئ البحر المتوسط[2].

بدأت عملية القرصنة في البحر المتوسط وعلى سواحل المغرب الأوسط بالخصوص، تظهر إلى الواجهة مع نهاية القرن 2هـ/8م، أي خلال الفترة الأغلبية خاصة في السواحل الشرقية للمغرب الأوسط، وزادت نشاطا خلال الفترة الفاطمية خلال القرن 3هـ/9م تجاه جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط ككورسيكا وسردينيا، لتعرف في منتصف الفترة الوسيطية نشاطا كبيرا تجسد في تنظيمها بصورة محكمة وأصبحت بإشراف مباشر للدولة[3].

وقد "ظهرت النصوص الأولى المتعلقة بالقرصنة في سنة 694هـ/1288م حينما أمر ملك أراغون قراصنته بأداء يمين احترامهم لمواطنيهم، واحترام اتفاقيات ومعاهدات السلم المبرمة مع الدول الأخرى، وسنَّ أيضا ضرورة وضع مغانمهم تحت مراقبته القانونية بإحضارها إلى الموانئ التابعة لدولته"[4]. "ومع مطلع القرن 08هـ/14م كان المسيحيون قادة "قراصنة" المتوسط، حيث تعاملوا مع العديد من العبيد والسلع المحجوزة. وأدى ظهور الأساطيل التجارية الكبرى إلى إعاقة هذه المهنة، وبعدها بقليل أصبحنا نسمع أقل عن "القراصنة الأوروبيين"، وأكثر عن "القراصنة المغاربة"، فالسكان المستقرون على سواحل خليج قادس كانوا ذا نزعة "قرصانية"، وكانت مدينة المهدية أو إفريقيا ملجأ "للقراصنة"[5].

([1]) ماخوفسكي ياتسيك، تاريخ القرصنة في العالم، تر: أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2008، ص 41.

([2]) عبد القادر حليمي، دراسة في جغرافية المدن، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص 146.

([3]) علي عشي، التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (2-10هـ/8-16م)، أطروحة دكتوراه، إشراف مسعود مزهودي، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة باتنة 1، 2016-2017، ص 475.

([4]) حسن أميلي، الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن السابع عشر الميلادي، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2006، ص 56.

([5]) بلقاسم قرباش، الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة دكتوراه، إشراف بوغفالة ودان، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2015-2016، ص 52.

وحسب عديد المصادر الوسيطية، فإن أول نشاط قرصاني في المغرب الأوسط كان بمدينة الخرز[1] والتي كانت تُصنع بها السفن والمراكب الحربية لغزو بلاد الروم[2]. وقد كان سكان بجاية أكثر الفئات الاجتماعية بالمغرب الأوسط التي مارست الغزو البحري في البحر المتوسط ضد سواحل أوروبا، وهو ما يؤكده لنا "ابن خلدون" بقوله: "...وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة، فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول، ويتخيرون له الأبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا، ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى..."[3].

2- جدليات تجاذب الأعمال القرصانية بين ضفتي البحر المتوسط:

يقول "ابن خلدون" عن التجاذب البحري المتوسطي بين المسلمين والمسيحيين: "...وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه، من سواحل الفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لايعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذ البحر عدة وعددا، واختلفت في طرقه سلما وحربا، فلم تسبح فيه للنصرانية فيه ألواح..."، ويضيف مستطردا في تراجع القوى البحرية الإسلامية المغاربية بقوله: "...وتراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية..."[4]، فكانت موانئ وسواحل المغرب الأوسط أكثر المناطق عرضة للغارات البحرية الأوروبية خاصة موانئ بجاية وجيجل، وعن ذلك يقول الغبريني: "...فركبت البحر بجملتي، وتعذر علينا الهواء فأصْبحتْ في المرسى أجفان غزوانية

([1]) مرسى الخرز(أي القالة): "مدينة في جزيرة على البحر يُدخل إليها من موضع واحد ومنها يرتفع المرجان لا معدن له غيرها ولا يخرج إلا من بحرها"، أنظر، شمس الدين أبو عبد الله المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مطبعة ليدن، دار صادر، القاهرة، 1991، ص 239.

([2]) عشي، مرجع سابق، ص 475.

([3]) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ط1، ضبط المتن والحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص 578.

([4]) نفسه، ج2، ص 30، 33.

للنصارى فهبطنا إلى البر خفية..."[1]، ولكن مع نهاية القرن 9هـ/15م تراجعت الأعمال القرصانية المغاربية دون أن تختفي، وفتحت مجال التفوق للجنويين والبندقيين والكطلانيين[2].

وقد عرفت أوروبا -كطرف فاعل في معادلة الصراع العمودي بين المسيحية والإسلام- مجالا واسعا للمسيحية المزيفة والمتعصبة ووجهت مبادئها الأولية إلى المسلمين بالبحر المتوسط، وقصد تجسيدها ميدانيا نصب ملك فرنسا "شارل الخامس" مجموعة من الفرنسيين المتعصبين للديانة المسيحية وهم فرسان "سان جاك" الذين عُرِفوا فيما بعد بفرسان مالطا، وأمرهم بتتبع المسلمين أينما وُجدوا في البر والبحر وبيعهم للأوروبيين[3]، ولعل محنة الموريسكيين وملاحقتهم حتى في بلاد المغارب بعد تهجيرهم القصري من الأندلس لدليل واضح على الأعمال العدائية التي تعرضت لها المنطقة المغاربية خلال بدايات العهد العثماني[4].

ومن جانب آخر، بيَّنت عديد الكتابات التاريخية أن جزيرة مالطا بالبحر المتوسط كانت أرض جرداء لا تكفي منتوجاتها أغلب سكانها، والذين أخذ عددهم يتضاعف خاصة بعد قدوم المتطوعين المسيحيين إليها لتدعيم فرسان القديس يوحنا[5]، وما كان

([1]) أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، ط2، ش.و.ن.ت، 1981، ص 118.

([2]) دومينيك فاليرين، بجاية ميناء مغاربي (1067هـ/1510م)، ج1، تر: علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014، ص 563.

([3]) حليمي، مرجع سابق، ص-ص 290-291.

([4]) محمد أمين، الإختراق التجاري الفرنسي للجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830م)، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2016، ص 14.

([5]) فرسان القديس يوحنا: بدأت كمؤسسة ومنظمة خيرية دينية في مدينة القدس، كان لها قبل الحروب الصليبية مأوى لمساعدة المحتاجين خصوصا الحجاج المسيحيون الذين يزورون فلسطين، وعندما نشبت الحروب الصليبية حُولَت هذه الهيئة إلى منظمة عسكرية تُعنى بالأخص بمعالجة الجرحى في المعارك الحربية، وبعد انتصار "صلاح الدين الأيوبي" على الصليبيين طرد فرسان القديس يوحنا من القدس إلى عكة بفلسطين حتى سنة 697هـ/1291م، وطُردوا منها أيضا فنقلوا مركزهم إلى جزيرة رودس اليونانية، وأسسوا خلالها مملكة مسيحية برعاية بابوية، ومارسوا عديد الغارات على المسلمين بالمتوسط وخاصة الأساطيل العثمانية واستمروا في نشاطاتهم البحرية إلى غاية سنة 1204هـ/1798م بعد احتلال انجلترا لجزيرة مالطا، راجع، عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، 1952، ص-ص 75-76.

يقوم به هؤلاء الفرسان كمحاولة لتغطية العجز الاقتصادي لسكان الجزيرة هو القيام بأعمال القرصنة البحرية ضد السواحل والمراكب الإسلامية وخاصة المغاربية، فكانوا يلجؤون في الغالب إلى حجز مختلف السفن "ويفرغون حمولاتها لملء مطاميرهم الخاوية، ولا يُفرقون في ذلك بين مسلم ومسيحي"، فمالطا اشتهرت بهذه الفئة القرصانية والتي ظلت معادية لأغلب الأساطيل التجارية في البحر المتوسط[1].

و"فرض التطور السياسي على الدولة العثمانية الطامحة للتوسع نحو الغرب أوروبيا وإفريقيا تشجيع النشاط البحري الإسلامي رسميا وشعبيا خاصة ووحدة الهدف الرامي إلى إلحاق الضرر بالقوات المسيحية في غرب المتوسط عامة، وقد انطلق ذلك مع بروز نجم الأخوين بربروس: عروج وخيرالدين، انطلاقا من قاعدة الجزائر" بعد إلحاقها بها سنة 925هـ/1519م، "ومن بعدهما طائفة الرياس المغاوير التي ينعتها "كوادرو" بـ "المجموعة الرائعة من القراصنة الممتازين في العالم"[2]، فخلال القرن 10هـ/16م تحول البحر الأبيض المتوسط إلى حلبة للصراع المستعر بين دول أوروبا المسيحية والدولة العثمانية المسلمة، وقد تسنى للقراصنة من الطرفين المشاركة في هذا التجاذب بدور لا يمكن إغفاله[3].

ويفيدنا الباحث "أحمد قاسم" نقلا عن إحدى فتاوى "ابن عظوم"[4]، أن مفرد القرصنة كان متداولا في العصور الحديثة خلال الصراع البحري المتوسطي بين المسيحيين الأوروبيين والمسلمين المغاربة، وأكد لنا أنه كان على الألسن بكثرة، وقد

([1]) محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، في الفترة مابين 1792 و 1830، ط2، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص-ص 134-135.

([2]) أميلي، مرجع سابق، ص-ص 60-61.

([3]) ماخوفسكي، مرجع سابق، ص 88.

([4]) ابن عظوم: هو أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد، ينتمي إلى بطن مراد بن بني هلال، اشتهرت عائلته بالعلم، وقدمت للقيروان خصوصا ولتونس عموما طبقات من العلماء والفقهاء، تولوا المناصب الشرعية، كان له نشاط علمي كثيف، فوضع برنامج "الشوارد" وذكر أنه أنهاه في 20 مارس 1576م، ونال به شهرة علمية واسعة، أنظر، أحمد قاسم، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574-1600م)، تقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2004، ص 35، 39.

استعملها حتى أبناء القرن السادس عشر، كما ورد هذا المصطلح في احدى هذه الوثائق بقوله: "سافر للقرصنة ثم دفع عليه عدو الدين وأخذه مع من كان معه بالسفينة"[1].

فعندما يكون البحر الأبيض المتوسط آمنا بعض الشيء من القراصنة ولصوص البحر "نجد السواحل عامرة بالسكان، أما إذا سدر القراصنة في غيهم فإن السواحل تخلو من القاطنين، حيث يتراجعون إلى الداخل في ظل زيادة عمليات القرصنة، وتعتبر السواحل أماكن طبيعية لسكنى القرصنة، خاصة إذا كانت ذات طبيعة قاحلة وصخرية"، وهذا ما نلحظه في عديد المدن التي أنشأت بعيدا عن السواحل بالرغم من إمكانية إنشائها بالقرب من البحر، وقد أثارت القرصنة في سواحل الحوض المتوسطي الرعب بين سكان سواحله فعندما تنشط القرصنة ينعدم الأمان بين سكان السواحل[2] ومن جانب آخر نجد أن أغلب السفن التجارية الأوروبية أو المغاربية - وهروبا من مضايقات وتحرشات قراصنة البحر المتوسط- اعتمدت نظام "المساحلة" (Cabotage) والذي يقوم على الاحتماء بالسواحل والموانئ القريبة من الطرق التجارية المتوسطية[3].

كما فرضت المخاطر المهددة لحركية السفن التجارية في البحر المتوسط خلق آلية خدماتية لتشجيع هذا النشاط تمثلت في نظام "التأمينات البحرية" (Assurances Maritimes) والتي اعتمدها أرباب السفن والتجار المتوسطيين لحماية مصالحهم من سلع وبضائع وتنقل الأشخاص، وقد كانت فرنسا السبَّاقة إلى ذلك خلال القرن 11هـ/17م بعد تأسيسها لنظام تأميني سنتي(1032هـ/1626م-1037هـ/1631م)واعتمدت فيه على آلية الدفع بالأقساط لتأمين الرحلات البحرية واختلف قيمها المالية كلما ارتبطت بالبعد الجغرافي[4].

([1]) قاسم، مرجع سابق، ص 316.

([2]) عبد الرحمن بشير،" القرصنة غربي المتوسط القرن 2-5هـ/8-11م "، *حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية*، الحولية الثانية والثلاثون، الرسالة رقم 357، الكويت، جوان 2012، ص-ص 28-29.

([3]) أمين، مرجع سابق، ص 14.

([4]) حول تفاصيل "التأمينات البحرية" في البحر المتوسط، راجع، نفسه، ص 189، 192.

3- المنظور التاريخي والديني للجهاد البحري والقرصنة البحرية! في الفترة العثمانية:

اعتبر النشاط البحري في العالم المتوسطي إحدى الإشكاليات التاريخية المِفْصلية بين أمم أوروبا وبلاد المغارب بصفة خاصة وبين العالمين المسيحي والإسلامي بصفة عامة، فمخاطر البحر المتوسط مرتبطة إما بالكوارث الطبيعية (الأعاصير، الضباب، التيارات البحرية...إلخ)، والأخرى مرتبطة بالجهاد البحري-القرصنة البحرية والتي هي من فعل الإنسان الذي مارسها منذ عصور قديمة بالبحر المتوسط.

فمواجهة المخاطر والتغلب عليها أساسه التجربة وتوفر التقنيات الملاحية ومعرفة مختلف المسالك والطرق البحرية ويضاف إليها تطور السفن، وأما الجهاد البحري-القرصنة البحرية فالتغلب عليها يكون عبر أخذ الحيطة والإستعداد العسكري أو الدبلوماسية في المواجهة البحرية، لكن ذلك لم يمنع من وقوع أعمال الجهاد البحري-القرصنة البحرية متوسطيا، وعن مدلولات هذين المفردين في كتابات بعض المؤرخين والدارسين الغربيين الأوروبيين، فقد حاولوا التفريق بين القرصنة (Piraterie) وهي في نظرهم "شكلا من اللصوصية البحرية"[1] و"Course" ويرون بأنها "قرصنة مقننة لصالح الدولة"، في حين أن المؤرخين العرب القدامى والمحدثين اعتبروا هذا النشاط "جهادا بحريا"[2].

وقد حظي موضوع الجهاد البحري باهتمام بعض المؤرخين المسلمين عموما، والمغاربة على وجه الخصوص، "وبروزه غريبا عن وسط اعتاد الإنكباب على الأحداث البرية على كافة المستويات، مُعْرِضًا بالتالي عن كل ما له صلة بالمجال البحري نتيجة

([1]) اللصوصية البحرية (Brigandage Piraterie): هي عدوان بحري تقوم به عناصر بحارة مغامرون يعملون لحسابهم الخاص من دون أن يكون لهم تصريح أو تأييد من جهة معينة، وهم ينشطون في كل الظروف حتى في فترات الاتفاقيات والمعاهدات، راجع، رشيد باقة، نشاط جنوة الصليبي والتجاري في سواحل بلاد المغرب من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف بوبة مجاني، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2007-2008، ص 175.

([2]) محمد الشريف،" الإنسان والمجال البحري" ، السلسة الأولى (أ)، أعمال المؤتمرات عن الولايات العربية خلال العهد العثماني رقم 12، *البحرية والطرق التجارية العثمانية*، إعداد وتقديم: عبد الجليل التميمي، ط1، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 2000، ص-ص 104-105.

إنسياقه نحو الإمتدادات القارية، بشكل جعل الإنسان المغربي ينجذب نحو الداخل ويحقق اكتفاءه الاقتصادي حتى خلال فترات الخصاص الحرجة باستفادته من الوحدة الدينية التي عمت منطقة شمال إفريقيا، مما فرض على البحر أن يأخذ شكل الحدود الفعلية الطبيعية للعنصر الإسلامي، بينما عرفت أوروبا عكس هذه الخاصية حيث التكتلات الإثنية والتحالفات السياسية قد فرضت نوعا من التركز السياسي للسلط المسيطرة"، فكل هذا في ظل فقدان أوروبا مكانتها المتوسطية لصالح العثمانيين[1].

ويَستمد مصطلح الجهاد البحري مقوماته الشرعية وأسس نظرياته من الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة "بحر"، وأيضا من الأحاديث النبوية الشريفة التي نصت صراحة على فضيلة ومكانة الجهاد البحري ضمن باب الجهاد الذي يعتبر ركن من أركان الإسلام الأساسية، ويستمد مقوماته كذلك من وصايا الصحابة والخلفاء الراشدين ومن فتاوى واجتهادات الفقهاء والأئمة[2].

وإن أول ما يتبادر في ذهن المتأمل والدارس لمصطلح الجهاد البحري هو الصبغة الدينية والشرعية التي يحملها، ويعبر عنها "ب. وولف" بقوله: "لقد كان الأمر بالنسبة للطرفين المسيحي والإسلامي، أمر جهاد وحرب مقدسة"[3]، وتؤيده في هذا الطرح المؤرخة "كورين شوفالييه" بقولها: "كانت القرصنة بالنسبة للمسلمين قبل كل شيء شكلا من أشكال الجهاد البحري، ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين"[4]، لكن لـ"بروديل" رأي مخالف لذلك بقوله: "...إن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كلها دون أن تعرف دينا أو وطنا. فهي مهنة للعيش تتوسل الدين كذريعة حملها المؤرخون على محمل الجد فأتت استنتاجاتهم متسرعة..."[5]، وعليه فإن أغلب النشاطات البحرية كانت تحمل طابع الحرب المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين،

([1]) أميلي، مرجع سابق، ص 50.

([2]) إبراهيم سعيود، الأسرى المغاربة في "ايطاليا" خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، إشراف عائشة غطاس، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2009-2010، ص 106.

([3]) جون .ب وولف، الجزائر وأوروبا (1500-1830)، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار رائد، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 239.

([4]) كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541)، تر: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص-ص 49-50.

([5]) بروديل، مرجع سابق، ص 152.

ولكن المظهر الديني بدأ يَضعُف ويفسح المجال أمام الطابع الاقتصادي[1]. ونستند في ضبط هذا المعنى إلى الحديث الذي ورد في سنن ابن ماجة: "حدثنا هشام بن عمار حدثنا بقية عن معاوية بن يحي، عن ليث بن أبي سليم عن يحي بن عباد عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: "غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر والذي يسدر في البحر كالمتشحط في دمه في سبيل الله سبحانه"[2].

ومن جانب آخر، ارتبط الإخوة بربروس بالجهاد البحري-والذي اعتبره الأوروبيون قرصنة ولصوصية- وتميزوا "بجوهر التصوف والزهد المبني على جهاد النفس كعمل فردي"، وخلال سنوات ظهورهم مغاربيا، إنتشرت الزوايا ودور العبادة بشكل كبير والتي كانت تأوي البحارة وجنود البحرية الجزائرية، ولهذا من الإعتبار امكانية انتماء المجاهد البحري إلى طريقة أو مدرسة دينية، فعديد الانتصارات التي حققها البحارة الجزائريون ماهي إلا انعكاسات الصفات الحميدة في جانبها الديني[3].

فخيرالدين بربروس كان رجل دين متصوف وكان يقوم بعديد الزيارات لرجال التصوف والزوايا المغاربية مثل" زاوية جربة" والتي كان يخلو بنفسه بها، ولا يتركها إلا للمشاركة في الجهاد البحري ضد الأساطيل الأوروبية المتوسيطة خلال فصلي الربيع والصيف، ففي سنة 901هـ/1495م زار رفقة أخيه"عروج" سيدي "محمد التواتي" ببجاية أين مكثا سنتين للتدبر والتفكير، كما زار "خيرالدين" أيضا سيدي "أحمد بن يوسف الملياني" بضواحي وهران قبل سقوطها في يد الإسبان وأقام معه علاقة حسنة، كما نجد أن الأخوين بربروس أقام علاقات مع عديد المتصوفين في بلاد الأندلس منهم

([1]) حنيفي هلايلي، مسعودة بوجلال، " قضايا البحر الأبيض المتوسط بين الجهاد والصليبية من خلال كتابات فرناند بروديل "، *مجلة الحوار المتوسطي*، منشورات مخبر البحوث والدراسات الإستشراقية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، العددين 15-16، مارس 2017، ص 564، 582.

([2]) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج2، ط2، دار الدعوة ودار سحنون، اسطنبول، 1992، ص، 928 . (المتشحط: هو المتمرغ المضطرب)، راجع أيضا، محمد الغزالي، فقه السيرة، "خرج أحاديث الكتاب محدث الديار الشامية العلامة محمد ناصر الدين الألباني"، ط6، دار الكتب الحديثة، مصر، ديسمبر 1965، ص 226، (وقال عنه الشيخ ناصرالدين الألباني: حديث صحيح).

([3]) عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني (1520-1830م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016، ص 79.

"سيدي أحمد الكبير" المتوفي سنة 946هـ/1540م، حيث كانوا يزودونهم بمعلومات تخص تحركات الأسطول الإسباني في المتوسط[1].

كل هذه القرائن توضح لنا أن الجهاد البحري صُنف ضمن الأعمال الجهادية التي ينال منها المسلم جزاءا عظيما، ونستند في ذلك على النص الذي خاطب به "خيرالدين بربروس" الإسبان المسيحيين الذين حاصروا مدينة الجزائر بقوله: "إن جماعتنا الذين ماتوا في حربكم أحياء يُرزقون عند الله قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، فهم ينقلبون في قصور وأثمار وينعمون بحور عين، ولهم الدرجات العلى لكونهم باعوا أنفسهم إلى الله، ونحن راغبون في جهادكم، فإما الظفر بكم أو نحصل ما حصل إخواننا من كرامة الله سبحانه ورضوانه، فأجهدوا علينا جهدكم"[2]، ولهذا تعددت تسميات الجهاد البحري بين دار السلم ودار الحرب، وأطلقت النصوص العربية الإسلامية على ممارسي هذا العمل اسم "غزاة البحر"[3]، وهو اصطلاح لا يعني دائما الجانب السلبي من النشاط البحري[4].

وصفوة القول من كل هذا أن من "مظاهر الانحرافات والتشويه التي لحقت بتاريخنا الإسلامي والتي تتطلب المراجعة وتصحيح الجانب المتعلق بالجهاد البحري في الغرب الإسلامي والذي يحتل مكانة ملحوظة في الكتابات الأوروبية، وخصوصا منها تلك التي تناولت أو عالجت أو اهتمت بالمغرب الإسلامي والأندلس وعلاقتهما بالغرب المسيحي"[5] خلال العهد العثماني فكثيرة هي المفاهيم والصيغ والتصورات والمصطلحات التي أطلقت على الجهاد البحري والمجاهدين البحريين، مما جعل بعض المؤرخين في الغرب الإسلامي ينساقون وراء التصورات والمصطلحات المستعملة في المصادر والمراجع الغربية عن القرصنة ونهب السفن التجارية، ومن هذا التصنيف جاء الجهاد البحري في الكتابات الإسلامية بمفاهيم، وفي الكتابات المسيحية والغربية بمفاهيم مضادة أو

([1]) صحراوي، مرجع سابق،، ص 81، 83.

([2]) مجهول، غزوات عروج وخيرالدين، تح: نورالدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص 35.

([3]) عشي، مرجع سابق، ص 473.

([4]) عبد العزيز بنعبد الله، سلا أولى حاضرتي أبي الرقراق، ط2، منشورات الخزانة العلمية، سلا، 1989، ص 33.

([5]) سعيود، مرجع سابق، ص 105.

معاكسة أو متناقضة حسب الجهات التي صدرت عنها والأزمنة التي كتبت فيها، والعقلية التي أوحت بكتابتها[1].

والقرصنة البحرية نوعان: القرصنة الخاصة أو الحرة وهي التي يُعبر عنها بالفعل الإنجليزي (Pirate) أما الإسم فهو (Piracy) والكلمة مشتقة من الإسم اللاتيني (Pirata) ويعني: قرصان، وقد ظل هذا الإسم ملتصقا بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة طيلة العصور الوسطى والحديثة ليدل على السلب والأسر من أي سفن تصادف القرصان، وتصفها المصادر العربية بلصوص البحر والقُطاع، أما النوع الثاني فهو: القرصنة الرسمية(Corsair) باللغة الإنجليزية، و(Corsaire) بالفرنسية، وينسب قدماء المؤرخين هذا اللفظ إلى اسم جزيرة كورسيكا (Corse)، لأن سكانها اشتهروا بالإستيلاء على ممتلكات غيرهم، ويرى آخرون أن أصل الكلمة تعود إلى الكلمة الإسبانية (Corsrio) وتعني كل عمل خاص يضُر بسفن العدو التجارية مع تغاض واضح من السلطات، ومهما اختلفت القرصنة بين الرسمية والحرة فالهدف والنتيجة واحدة، ويبقى فقط أن نشير إلى أن مصطلح القرصنة الخاصة (Pirate) يعود في أصله إلى شرقي البحر المتوسط، وأما مصطلح القرصنة الرسمية (Corsair) فيعود إلى غربه[2].

والقرصنة البحرية عمل قديم قِدم الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، وفي مفهومها العام نجد أنها الإعتداء على السفن المخالفة بغية الإستيلاء عليها وعلى محتوياتها من سلع وأشخاص يُحَولُون للسَّبْي، وقد تقوم بها دولة أو أشخاص إما لحسابهم الخاص أو مكلفون من جهة رسمية[3]. وهو أحد النتائج السلبية التي ظهرت بعد الصراع بين الإسلام والمسيحية في البحر المتوسط، وقد مارس الأوروبيون هذه المهنة منذ قرون فظهر القراصنة: المالطيين، الإسبان، الفرنسيين، التوسكانيين، الإنجليز...وغيرهم، وتأثرت كثيرا منطقة بلاد المغارب من هذه الظاهرة[4]. وهي أيضا "الإستيلاء على ما يحوزه الطرف

([1]) نفسه.

([2]) بشير، مرجع سابق، ص-ص 19-20.

([3]) عشي، مرجع سابق، ص 472.

([4]) Boubaker Sadek, La Régence de Tunis aux XVII siècle, ses relations comerciales avec les Ports de l'Europe méditerranéenne, Marseille et Livourne, Publication de la R.H.M et C.E.R.O.M.A, Zaghouan, Tunis, 1987, p 43.

الآخر من بضاعة تجارية وأموال منقولة ورجال عاديين أو سياسيين وحتى عسكريين ونساء وأطفال، وتملُّكها دون أي رادع في ذلك"[1].

وعُرِّفت القرصنة البحرية كذلك بأنها سلب أو عنف مرتكب مع شهر السلاح ضد السفينة أو طاقمها أو مسافريها أو حمولتها من قبل طاقم السفينة أو طاقم سفينة أخرى، وتماثل جريمة القرصنة البحرية التصرفات التالية: عصيان مع الإستيلاء على السفينة، تسليم السفينة للعدو، ملاحة بدون صفة على سفينة مجهزة بأسلحة حربية، أعمال عدوانية تحت راية علم مزور[2]. بينما يرى المؤرخ "بروديل" أن القرصنة حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفينة حربية لها قوانينها وأنظمتها وعاداتها، فهي ليست عملا خاصا بل هي عمل دولة مرتبط بنشاطها الاقتصادي، حيث أن هذا النشاط البحري غير مرتبط بأشخاص ولا جنسيات محددة، فهو نشاط ممارس من طرف أشخاص ذو ديانات وأصول متعددة[3].

4- محاولة فك الإرتباط بين الجهاد البحري والقرصنة البحرية:

شكَّل العالم المتوسطي مجالا لصراعات مستمرة بين كيانات متجاورة ومتحاربة، وتبرير اللصوصية البحرية يعني ترتيبها ضمن فئة قريبة منها، غير أنها موصوفة بالنبل

([1]) عبد الجليل التميمي، " أسس العثمنة الإدارية بالإيالات المغاربية (1565-1591م)"، السلسلة الأولى (أ)، أعمال المؤتمرات عن الولايات العربية خلال العهد العثماني رقم 12، *البحرية والطرق التجارية العثمانية*، إعداد وتقديم: عبد الجليل التميمي، ط1، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان، تونس، 2000، ص-ص 199-200.

([2]) جيرار كورنو، معجم المصطلحات القانونية، تعريب: منصور القاضي، ج2، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص 1273. ويُعرفها محمد ماكامان أيضا على أنها: "عمل عدواني بحري من قبل سفن مسلحة على مراكب بحرية مدنية، فتستولي على السلع وتستعبد المسافرين أو تتاجر فيهم بالمساومة في فدائه، ويشترك في هذه العمليات لصوص البحر (Pirates) الذين يعملون لحسابهم الخاص مع القراصنة المُرخصِ لهم من طرف حكومتهم باصطياد مراكب خصمهم"، أنظر، محمد ماكامان، الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة الموافق للقرنين السابع عشر والثامن عشر، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، مطبعة الأمنية، الرباط، 2014، ص-ص 354-355.

([3]) Fernane Braudel, La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'époque de Philip II, T2, 9eme édition, édition Armond Colin, Paris, 1990, p-p 619-620.

وهي القرصنة، لكن ثمة فارق له أهميته وهو أن القرصنة لصوصية عتيقة ترسخت في مجالها بعرفها ومستوياتها وحواراتها المتكررة[1].

ولقد كانت إيالة الجزائر من أهم الدول التي قامت ونشأت على القرصنة خلال العهد العثماني، كما صُنفت وأُعتبرت أقوى الدول التي تعاطت هذا النشاط، غير أن الواقع في حوض البحر المتوسط كان عكس ذلك، ففي الجهة الشمالية منه "كان هناك أكثر من جزائر مسيحية كمالطة، بيزا وليفورن"[2]، وعليه فإن القرصنة لم تكن حكرا على الجزائر والدولة العثمانية فحسب، بل كانت كل الأمم المتوسطية تقريبا ممارسة لها[3].

فتناولت العديد من الدراسات التاريخية الأوروبية مسألة القرصنة البحرية وربطوها بمصطلح اللصوصية، وما ميزها هو جعلها كعنوان لأعمال البحرية والبحارة الجزائريين خلال العهد العثماني، وجاءت هذه الأوصاف كأحد الأساليب الذي اعتمدته الكنيسة البابوية لتغطية أعمال الحروب الصليبية في العصور الوسطى، فالجزائر احدى دول بلاد المغارب وقد كان لها نفوذ متوسطي جعلها توصف في عديد كتابات الأوروبيين المعاصرين للفترة العثمانية أو الحاليين بأنها "وكر للصوصية البحرية والقرصنة"، لكن ما مارسته الجزائر كأي دولة بحرية في الشرق والغرب من القرصنة كان في إطار الشرعية الدولية التي حددتها مختلف القوانين البحرية التي كانت خلال العهد العثماني وخاصة المعاهدات والإتفاقيات[4].

وإن الصراع المسيحي–الإسلامي كان العنصر المميز في علاقات دول المغرب ودول أوروبا، فالقرصنة في هذا المجال البحري كانت تشرف عليها الدولة عن كثب وتضبطه بقوانين وأعراف معلومة، وهو ما ميز أعمال ونشاطات بحارة بلاد المغارب، لكن الملاحظ هو خوصصة القرصنة البحرية في عديد الفترات من قبل الدولة الجزائرية، عكس البحريات الأوروبية التي كانت تابعة مباشرة للدولة. وفي هذا الشأن "طغى النشاط

([1]) هلايلي، بوجلال، مرجع سابق، ص-ص 570-571.

([2]) بروديل، مرجع سابق، ص 151، راجع أيضا، إبراهيم سعيود، " القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة، القرصنة الإيطالية نموذجا "، *مجلة الواحات للبحوث والدراسات*، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، العدد 11، 2011، ص 145، 162.

([3]) بروديل، مرجع سابق، ص 152.

([4]) جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص-ص 295-296.

القرصاني الأوروبي في المتوسط خلال حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية، وتكبدت الجزائر من جراء ذلك صعوبات ومشاق باضطرارها بحكم المعاهدات التي أبرمتها مع الدول الأوروبية باستقبال قراصنتها في موانئها وتحمل المشاكل والصعوبات الناجمة عن ذلك في مثل هذه الظروف". وقد ارتبط النشاط القرصاني بالبحر المتوسط بـ "الجزية الإلزامية" أو ما يسمى بـ "الإتاوات البحرية" والتي هي "عبارة عن تعهد من طرف هذه الدول (الأوروبية) ببيع كمية من الأسلحة والمعدات العسكرية سنويا أو على فترات للجزائر، وإن هذا التعهد حوَّلته دعاية الدول الأوروبية المتوسطية التي لا تزال متمسكة بالحضر البابوي الذي يقضي بعدم بيع الأسلحة والعتاد العسكري للدولة الإسلامية إلى جزية"[1].

فأصبح تصاعد عمليات القرصنة ملحوظا في الجزء الغربي للمتوسط، خاصة بعد طرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس سنة 929هـ/1523م[2]، ومن ثم استقرارهم بجزيرة مالطا، وجعْلِها مركزا لعملياتهم ضد التجارة الإسلامية وخاصة المغاربية[3]، ومن جانب آخر فإن التوسع العثماني غرب المتوسط اعتمد بشكل كبير على سواحل شمال إفريقيا، وبدعم قواعدها هناك للهجوم على السواحل الخاضعة للنفوذ الإسباني، وأصبحت القرصنة خلال القرن 10هـ/16م تُدعم وتُثار من قِبل المدن التي ترغب في أن تصبح مدنا تجارية مركزية، إضافة إلى تطوير نفسها لتكون مراكز حقيقية للنشاط الماركنتيلي[4].

([1]) قنان، مرجع سابق، ص 295، 298.

([2]) حول تفاصيل فتح جزيرة رودس من طرف العثمانيين أنظر، خلف بن دبلان بن خضر الوذيناني، الفتح العثماني لجزيرة رودس (929هـ/1523م)، سلسلة بحوث الدارسات الإسلامية، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، 1997.

([3]) Mohamed Amine, Le Commerce extérieur d'Alger à la veille de 1830, essai d'histoire économique et sociale, édition Barzakh, Alger, 2016, p-p 119-120.

([4]) قرباش، الأسرى، مرجع سابق، ص 54. والماركنتيلية: تنسب إلى أصل الكلمة مركنتي الإيطالية: أي تاجر، وهي نظام ونشاط اقتصادي وتيار فكري ظهرت بوادره في القرن 9هـ/15م واستمر حتى القرن 12هـ/18م يقوم على تعزيز ثروة الدولة من ملكيتها من الذهب والفضة، وتوجيه اقتصاد الدولة بخلق صناعات محلية لضمان مواجهة المنافسة الخارجية، للمزيد عن هذا الفكر الاقتصادي، أنظر، حازم الببلاوي، دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي، ط1، دار الشروق، بيروت، 1995، ص-ص 35-36.

وقد كان في الجانب المغاربي في غرب المتوسط دويلة صغيرة تسمى "إمارة بورقراق" بمدينة سلا المغربية[1]، "وكان في داخل حدود هذه الإمارة تشكيلة متنافرة من المتمردين والمنشقين جاؤوا من شمال أوروبا وقراصنة دوليون يعملون في إطار تحالف مع "الهورناشيروس" (Hornachos) والأندلسيين، وهما مجموعتان من المغاربة المنفيين الذين تم نفيهم بالقوة من بلادهم بجنوب إسبانيا. وكانت سلا وفقا لما ذكره أحد الملاحظين ملاذا للأوغاد، وكرا للصوص، وعاء للقرصنة، وملتقى للمنشقين وحصنا كئيبا للأسرى المسيحيين المساكين"[2]، فسلا المغربية كانت أهم مقر متوسطي للقراصنة المغاربة وكان بها مجلسا يُسيّر هذه الإمارة يتكون من 14 قرصانا بحريا ومن أبرزهم "مراد رايس"[3].

وقد اتخذت إسبانيا المسيحية حجة انطلاق أعمال عدوانية من سواحل الجزائر للقيام بهجمات تحرشية على أغلب سواحلها وتم احتلال جلها فيقول " آبي بورجس" عن ذلك: "إن العالم المسيحي يدعم فكرة تدمير وكر الفساد، أين يحلق يوميا لصوص القرصنة يدمرون السواحل الإسبانية، البروفانس وإيطاليا ويحملون الرجال والأطفال لبيعهم في الأسواق الإفريقية"[4]. وقد ورد في رسالة مؤرخة في 12 نوفمبر 1529م من نائب مملكة بلنسية إلى إمبرطور إسبانيا: " لقد أعلمت جلالتكم عن طريق البريد عن الحالة التي تعيش فيها المملكة، خصوصا بسبب المحن التي تصيبها من جراء العمليات والتخريبات وأعمال النهب، التي يقوم بها الأتراك أعداء عقيدتنا الكاثوليكية...إنهم أخذوا

([1]) حول تفاصيل أكثر عن قراصنة سلا المغربية راجع، عز المغرب معنينو، مدينة سلا ما بين نهاية القرصنة وبداية الحماية: من القصف إلى الاحتلال 1851-1912م، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد المجيد القدوري، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2004، أنظر أيضا،

- Leila Maziane, Salé et ses corsaires (1666-1727), doctorat Sous la direction: André Zysberg, Univesité de Caen, 1999.

([2]) عبد اللطيف بالطيب، أمير البحر مراد رايس الأصغر الجزائري، من الجزائر إلى إيرلندا، (رد على كتاب "القرية المسروقة بالتيمور وقرصان البرابرة")، دار النعمان للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص-ص 51-52.

([3]) نفسه، ص 53.

([4]) Bargés Abbe (J-J) , complétement de l'Histoire des Beni Zeiyan, Ernest Loroux Libraire-éditeur, Paris, 1837, p 405.

سكان القرى التابعة لبارونة برسنت(Barcent) وسيد هذه القرية وكل الموريسكيين القاطنيين بمورلة في مقاطعة أوليقا"[1].

وبهذا " نتجت فكرة تجهيز سفن القرصنة في الجزائر عن الرغبة في الإنتقام وكان لا بد أن تتسم مثل هذه الإستعدادات بالعنف والضراوة ضد الإسبانيين الذين تشكو منهم هذه الشعوب أكثر من أي أمة أجنبية أخرى، وفيما بعد سوف تستعمل هذه السفن في تصفية النزاعات الدينية"[2].

ولقد اندرجت نشاطات البحرية الجزائرية في البحر المتوسط ضمن معادلة البقاء والإستمرارية الدولية، وما ميز إيالة الجزائر بعد 986هـ/1580م أن قرصنتها البحرية أصبحت حركة منظمة عن باقي الإيالات المغاربية، ففي حوض المتوسط أصبحت "كل الدول تمارس القرصنة ضد أعدائها وكانت بعض الدول وبعض المدن المسيحية والإسلامية جعلت من اختصاصها ممارسة القرصنة بشكل دائم، وتميزت الجزائر مثل مالطا بأنها جعلت من القرصنة محور نشاطها البحري"[3].

وإن تسليط الكتابات الغربية (رحالة، قناصلة، أسرى، تجار ورجال دين...وغيرهم) جل أقلامها وملاحظاتها على أن ما يقوم به الأسطول الجزائري في البحر المتوسط هو نشاط شاذ وغير شرعي وتحاربه أغلب الأعراف الدولية، فهذه نظرة أحادية سببها تغذية جل تقارير القناصلة ورجال الدين القائمين على عمليات إفتداء الأسرى المسحيين، ووصل ببعضهم إلى وصفها بعش ووكر اللصوصية البحرية[4].

وإن الموازنة البسيطة بين ممارسة الأوروبيين والجزائريين للقرصنة في البحر المتوسط ستجعلنا نقتنع بأن كُتَّاب أوروبا حول القرصنة الجزائرية وقولهم بأنها منافية للإنسانية ومخالفة للعدالة الاجتماعية، هو رأي غير موضوعي ويميل بعض الشيء إلى التعصب والتشدد التاريخي[5]، فممارسة البحارة الجزائريين للقرصنة كانت تتماشى مع

([1]) المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة، الأساطير، الواقع)، ج2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص 89.

([2]) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريف وتحقيق: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 2006، ص 79.

([3]) مروش، مرجع سابق، ج1، ص 70.

([4]) أمين، مرجع سابق، ص-ص 43-44.

([5]) أشار الباحث "محمد أمين" إلى الرصيد الأرشيفي الذي تركه "ألبير دوفولكس" كمحاولة منه للتعريف بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في إيالة الجزائر خلال القرن 12هـ/18م، فقام بوصف حالة

الظروف التاريخية والقوانين الاجتماعية والاقتصادية السائدة في ذلك الوقت، واتخدت أوروبا من القرصنة حرفة لجمع رؤوس الأموال من الشعوب المغلوبة ثم إنفاقها في تطوير اقتصادها الصناعي والزراعي، وعندما انطلقت صناعتها أخذت تقلل شيئا فشيئا من القرصنة ومن تجارة العبيد، وتتوجه إلى الصناعة والتجارة أو الكسب الإنساني، وبالمقابل نجد أن البحارة الجزائريون ظلوا يوجهون اقتصاد الدولة نحو البحر وجعلوها تعتمد اعتمادا كبيرا على الموارد البحرية من غنائم القرصنة، وأهملوا بذلك الصناعة وعزفوا عن التجارة ما عدى تجارة الأسرى المسيحيين، "واعتنوا بالقرصنة التي ظلت أطيب حرفهم وظل الرياس أساس موردهم والمسيحية ظلت ألد أعدائهم"[1]، "وكان لحكام الدول الأوروبية اليد الطويلة في مساعدة وتشجيع القرصنة الأوروبية، ومدينة الجزائر سلكت هذا السبيل في عهد الأتراك وهي مضطرة لمجاراة حياة العصور الوسطى"[2].

وما ميز هذا النشاط البحري هو المعاملة بالمثل، ففي إحدى المراسلات المؤرخة في أوت 1687م بين الداي "حاجي حسين ميزومورتو" (1089-1094هـ)/(1683-1688م) والدوق "دومارتمارت"، أنه رغم اتفاقيات الصداقة والسلم بين الجزائر وفرنسا إلا أن بعض سفن رياس البحر الفرنسيين مارست اللصوصية البحرية على سفن جزائرية ويقول فيها: "...سيدي المحترم، إن مثل هذه الاتهامات الخاصة باللصوصية كانت تطلق علينا قديما، وهاهي اليوم والحمد لله قد أصبحت من نصيبكم متنقلة منا إليكم، افعلوا إذن ما تشاءون إلا ذلك العمل الذي يجعلكم تستسلمون فيما بعد..."[3].

الفرنسيين المقيمين وقال بأنهم " الشجعان الذين تحملوا مهام رسمية أو اشتغلوا بالتجارة في بلد متوحش حيث كانت حياتهم وحريتهم وأمتعتهم عرضة للتطرف والعنف واللصوصية والإستبداد"، وهذا الوصف هي احدى حالات العصبية واللاموضوعية، وما يمكننا الإجابة عليه هو التساؤل الآتي: كيف لأشخاص واجهوا ظروف قاسية بالإيالة ومازالوا يتوافدون تباعا في قوافل للممارسة مهامهم كممثلين سياسيين لفرنسا أو التجار لممارسة تجارتهم بالجزائر؟"، راجع، أمين، مرجع سابق، ص-ص 201-202.

([1]) حليمي، مرجع سابق، ص 176.

([2]) حليمي، مرجع سابق، ص 39.

([3]) أوجان بلانتيت، مراسلات دايات الجزائر إلى ملوك ووزراء فرنسا (1579-1700م)، ترجمة وتحقيق: سلاطنية بن داود، قوشام حفيظة، ط1، ج2، دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 18، 20.

وعن القرصنة المتوسطية أيضا، أشار الرحالة "هنري دونان"[1] في احدى مؤلفاته التاريخية إلى رأي ونظرة موضوعية ومتوازنة وذا قيمة تاريخية -حسب اعتقادي- بقوله: "إن تونس بصفة عامة لم تكن تمارس القرصنة مثل الجزائر وإذا كان لها بعد مدة بعض القراصنة فذلك للدفاع الشرعي ضد المسيحيين الذي كانوا أشد بربرية في ذلك العهد من الأفارقة، بما أن القرصنة كانت أيضا مهنة لدى القبرصيين والكتلان وسكان البندقية وصقلية وبترا (يقصد بيزا) وجنوة"[2].

وعلى العموم، فإن القرصنة في المتوسط سواء المغاربية أو الأوروبية ضربت مصالح الطرفين نظرا للخسائر المادية والبشرية، وفقدان الأمن في البحر المتوسط بالنسبة لممارسة أعمالهم التجارية المشروعة[3].

ولهذا فإنه من الصعب التمييز بين الجهاد البحري والقرصنة البحرية، فهذا النشاط البحري كان مُمارسا من طرف تجاه الآخر، ولكن قرصنة الأوروبيين أكبر وأكثر وهذا باعتراف "دوماس لاتري" بقوله: "إنه إذا ما حاولنا البحث عمن مارس القرصنة أكثر من الآخر، الجانب الإسلامي أم الجانب المسيحي، فإنه يتبين عند إحصاء العمليات التي كان البحر الأبيض المتوسط مسرحا لها ما بين القرنين 5 -10هـ/11-16م فإن مسؤولية الجانب المسيحي في هذا المضمار أكبر بكثير من مسؤولية الطرف الإسلامي"[4].

ولهذا لا يمكن في حال من الأحوال تحميل الجزائر مسؤولية القرصنة المتوسطية في ظل أوضاع هذا المجال البحري، ولا يمكننا أن نحكم بأنها ليست طرفا فاعلا في تطورها[5]، لذلك وجب أخذ الحيطة والحذر عند دراسة القرصنة البحرية كعمل

([1]) هنري دونان: رحالة سويسري استقر بتونس سنة 1264هـ/1858م وله مؤلفات عديدة أهمها " مذكرات عن الإيالة التونسية"، مؤسس الصليب الأحمر الدولي، عرف بمواقفه الإنسانية العديدة.

([2]) هنري دونان، الإيالة التونسية سنة 1858م، ترجمة وتعريب: محمد فريد الشريف، المطبعة العصرية، تونس، 2012، ص-ص 16-17.

([3]) مريم محمد عبد الله جبوده، التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس خلال العهدين الموحدي والحفصي، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف سامية مصطفى مسعد، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، القاهرة، 2008، ص 62.

([4]) De Mas Latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiénnes au Moyen Age, Librairie Firmin-Didot, Paris, 1886, p 408, 411.

([5]) أرزقي شويتام، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي، الفترة العثمانية (1519-1830م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010، ص 74، 85.

لصوصي أو دفاعي، فاللصوصية هي عصابة مسلحة تسير في البحار لمنفعتها الخاصة دون ترخيص من حكومتها، أما القرصان فهو جندي البحر المكلف دائما بالجري وراء سفن الدول المعتدية في أوقات الحرب خاصة، فليس لصا ولا خارجا عن القانون، ومراكبه هي سفن حربية نظامية[1]. "ولهذا سعت أغلب المصادر الأوروبية إلى تضخيم حجم "القرصنة البربرية"، والنتائج المترتبة عنها بشكل يصعب تصديقه، وعليه يجب الابتعاد عن الإدعاءات الأوروبية التي ترى في النشاط البحري للدولة العثمانية والإيالة الجزائرية ودول شمال إفريقيا عملا لصوصيا[2].

خاتمة:

من خلال ما سبق التطرق إليه في هذه الورقة البحثية نخلص إلى أن حركة الجهاد البحري الإسلامي في الحوض المتوسطي ومنذ القرن 10ه/16م اعتبرت حلقة من سلسلة حركات الجهاد ضد الصليبيين خاصة خلال بدايات التواجد العثماني، فأينما وُجِد الإعتداء الصليبي كانت القوى الإسلامية تهب لرد الإعتداء خاصة عبر البحر المتوسط. واتسمت أغلب الحملات الإسبانية بالأخص في الشمال الإفريقي "بالسمة الصليبية"، ولم يكن الغرض منها التوسع الإقليمي وامتداد النفوذ السياسي فحسب، وإنما كان الغرض منها موجها إلى التبشير لدين المسيح ومحاولة نشر ديانته في البلدان التي يضع الإسبان عليها أيديهم، ولم تكن لهم سياسة معينة في البلدان التي يحتلونها عدا سياسة نشر الدين المسيحي ومحاربة الأديان الأخرى بجميع الوسائل، اعتقادا منهم أن في ذلك ما يُوطِّد دعائم ملكهم ويبعدهم عن التعرض للثورات والإنقلابات.

وبالمقابل لذلك، كان العثمانيون يوسعون ممتلكاتهم ويتقدمون في أوروبا -بعد فتحهم للقسطنطينية سنة 859ه/1453م- بخطوات ثابتة وكانوا يسيطرون على الحوض الشرقي من البحر المتوسط، واتبعوا سياسة نشر الدين الإسلامي في أوروبا لتوطيد نفوذهم السياسي وسلطتهم الزمنية، وأصبحوا يسيطرون على مناطق حيوية تسمح لهم بتوجيه ضرباتهم ضد الإمبراطوريات المسيحية إذْ سقطت بلغراد في أيديهم سنة927ه/1521م ثم رودس سنة 1523م.

([1]) بومدين دباب، الأسرى والسجون في مدينة الجزائر العثمانية (1519-1830م)، رسالة ماجيستر في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف حنيفي هلايلي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2007-2008، ص 61.

([2]) هلايلي، بوجلال، مرجع سابق، ص 574.

ولهذا فامتداد الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي في العصور الوسطى، أدى إلى ظهور حركات جهادية بحرية مغاربية لصد مختلف التحرشات التي تعرضت لها سواحلها، وأصبحت أغلب دول بلاد المغارب بداية العهد العثماني وحدات وكيانات سياسية قائمة على قواعد القرصنة، وتحولت أغلب مدنها (تونس، الجزائر، سلا...وغيرها) إلى مراكز جهادية ورباطات بحرية.

وقد لعب الجهاد البحري في بلاد المغارب دورا هاما في وقف المد والزحف المسيحي، خاصة بعد عمليات التهجير التي تعرض لها أهل الأندلس المسلمين، وأصبح بمثابة رد فعل مشروع، وكان للدولة العثمانية -بعد تثبيت وجودها ونفوذها في الحوض الغربي للمتوسط- مُهِمَّةَ رَفْعِ لواء الجهاد الإسلامي بالإيالات المغاربية ضد الصليبيين الأوربيين، وقد اعْتَبَر "خيرالدين بربروس" أن النشاط البحري حربا مقدسة ضد المسيحيين لتحرير العديد من القواعد الإسلامية في بلاد المغرب من الإحتلال الإسباني، ويرى "بروديل" في ذلك أن تطور الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية خاصة خلال القرن 10ه/16م بمثابة مأساة حقيقية للحوض المتوسطي، باعتبارهما أهم أسباب المواجهات التي عرفتها البلدان المحيطة بهذا الحوض.

ثيمة القرصنة في الحوض الغربي للمتوسط بين الاسطوغرافيا المسيحية والإسلامية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادي

د. عمار عطية، جامعة عمار ثليجي الأغواط، جامعة غرداية/ الجزائر
attia.omar@univ-ghardaia.dz

الباحث: سعيد رقاب.
طالب دكتوراه، جامعة عمار ثليجي الأغواط/ الجزائر
sai.reggab@lagh-univ.dz

المقدمة:

إن حصيلة التفاعلات السياسية والاقتصادية على مستوى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في الفترة الحديثة كانت نتاج تغير في موازين القوى بظهور الإمبراطورية العثمانية وتوسعاتها وامتدادها من الشرق إلى الغرب تقابلها القوى الأوربية المتصاعدة خاصة إسبانيا وامتداد نشاطها البحري إلى الضفة الجنوبية من المتوسط خاصة بعد سقوط غرناطة الإسلامية 1492م، مما أجج الوضع وزاد في حدة النشاط البحري في شكل صراع نلمس تمثلاته وأهم مظاهره في كتابات الأوربيين من جهة والمسلمين ن جهة أخرى حيث تأخذ بالقارئ أن ينحى منحى التعدد في الرؤى من حوله بازدواجيتها في طرح العديد القضايا أهمها القرصنة البحرية، والأسرى وهذا يستجدي بالمؤرخين الوقوف النزيه أمام الحقيقة التاريخية والالتزام بالموضوعية تاركا المجال للقارئ ان يتمعن ويلمس الجدية في التعامل مع المصادر نحاول في هذه الورقة البحثية الإجابة عن الإشكالات المطروحة وعرض لتجاذبات الطرح الاسطوغرافي بين الكتابات الأوربية والإسلامية التي تناولت النشاط البحري ومدلوله القرصني، من خلال التعرض لنشاط القرصنة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وانعكاساتها وربطها بمختلف التفاعلات وانعكاساتها على الصراع بين القوى المسيحية في الضفة الشمالية للحوض الغربي للمتوسط، والقوى الإسلامية المتمثلة في الإيالات المغاربية خاصة إيالة الجزائر ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادي.

واعتمدنا في ذلك على المنهج التاريخي التحليلي الوصفي، بعرض مقتطفات لجملة من الأحداث التاريخية المتعلقة بالموضوع في تلك الفترة، إضافة إلى المنهج المقارن، وذلك من أجل مقاربة ما أنتجته الاسطوغرافيا الغربية.

القرصنة بين المفهوم المسيحي والمفهوم الإسلامي:

ترجع أصول كلمة القرصنة الى الكلمة الإيطاليCorsa، وتدل على التنافس البحري والاعتداء على السفن، ومنها اشتقت كلمة قرصان، ومع بداية القرن السادس عشر تعممت كلمة" Corsaire"[1]في البلاد الأوروبية . أما بالنسبة للمصادر الإسلامية التي تناولت نشاط البحرية الاسلامية، فقد استعملوا معنى "غزاة البحر"، وهو معنى لا يحمل دائما الجانب السلبي[2]،ويرى البعض الآخر أنها عملية نهب بعيدا عن سلطة الدولة لكن في الأصل في نشاط مرتبط بالدولة، وغير ذلك فهو لصوصية[3].

ولكي نجد تفسيرا لنشاط القرصة كظاهرة علنية مارستها دول الحوض الغربي للمتوسط خاصة يجب أن نعطي توضيحا فيما يخص القرصنة كنشاط لصوصي يعمل لصالح فئة معينة، وبين نشاط يدخل تحت غطاء قانوني فهي تدخل بيد أنه يمكننا أن نضعها في اطار الصراع الأزلي بين الصليب والهلال وبذلك يمكن برمجة مفهوم القرصنة في هذا الاطار كرد فعل للطرفين إذانا باستمرار العداء السافر من الطرف المسيحي أو ما يعرف بالحقد الصليبي الذي تباركه الكنيسة.

حاولت الاسطوغرافيا الاستعمارية إلصاق القرصنة بالمسلمين عموما وبشمال إفريقيا خصوصا إذ تصورها على أنها الوكر الذي تنطلق منها السفن للقرصنة[4]، وقد ذهب جل مؤرخي الغرب الى وسم النشاط البحري المغاربي في حوض البحر المتوسط بالقرصنة اذ اعتبرها حربا غير معلنة بديلا للمعارك المباشرة، ونحا بعض الكتاب المسلمين في هذا السياق منحاهم.

وفي بلاد المغارب حاول البعض وضع هذا المصطلح بهذا اللفظ تحت المجهر وذلك ضمن إطاره التاريخي الصحيح بأنه جهاد بحري ضد المسحيين لاسترداد الأندلس[5].

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله، سلا أولى حاضرتي ابي الرقراق، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، ط2، سلا، 1989، ص 33.

[2] علي محمود فهمي، التنظيم البحري الاسلامي في شرق المتوسط من القرن7 حتى القرن 10م، تجمة قاسم عبده قاسم، دار الوحدة بيروت، 1980، ص 127.

[3] عبد الناصر جبار، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب المتوسط في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، 14-1 للميلاد رسالة ماجستير في الاداب قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1990، ص 101.

[4] قدوري عبد الحميد، سفراء مغاربة في اروبا 1610، 1929،الرباط،1995،الطبعة الأولى، ص 51

[5] -Pierre Grand champ: Auteure De Consulat De France A Tunis (1577 – 1881), Imprim- erie, J, Aloccio, Tunis 1943, p239

مفهوم قرصنة الدولة:

إذا تتبعنا سير مختلف الأحداث السياسية والاقتصادية في المتوسط قد تم بناؤها على أساس القرصنة نظرا للتحولات العميقة في موازين القوى، فراح كل طرف يبحث عن مرتكزات البقاء واثبات الوجود، ومن ثمه السيطرة على المنطقة بالأخص في المجال التجاري يدخل مفهوم القرصنة في هذه الفترة على أنها عمل مشروع تقوم به هيئات قانونية استمدت شرعيتها من السلطة المستفيدة من نشاط القرصنة بصفة مباشرة

كانت الحروب البحرية ذات طابع رسمي تتسم بهجوم اساطيل دولة على اساطيل دولة اخرى وهذا في حالة الخلاف، اما غير الرسمية فهي تلك العمليات العسكرية والتي تقوم بها ميليشيات بحرية من اجل الاستحواذ على سفن أو حمولات لغنائم بحرية أو استرقاق لأشخاص للاتجار بهم

وعن إنجازات البحارة المغاربة ابتداء من القرن السادس عشر ما كان له أهمية قصوى في إنشاء قاعدة للقرصنة في الجزائر العاصمة في أيام بربروسا كان اختيار ميناء استراتيجي لممارسة التجارة مع بلاد الشام والتي تطورت في نهاية القرن .كان على جميع الشحنات أن تمر عبر مضيق ملقة، الى وقت استيلاء البريطانيين على جبل طارق، كان الأسبان هم الأعداء الرئيسيون للأيالات العثمانية .لكن البحرية الإسبانية تراجعت وركزت اهتمامها بشكل متزايد على مستعمراتها في الأمريكتين، مما أدى إلى أن الفرنسيين أصبحوا الضحايا الرئيسيين للجزائريين والتونسيين حتى ظهور الإنجليز والهولنديين في تلك البحار في بداية القرن السابع عشر[1].

وتذكر المصادر الغربية بأن الجزائر العاصمة كانت في الأساس مدينة قرصنة، ازدهرت على الأسرى الذين تم أسرهم "لحساب" وبيع الغنائم من كل نوع التي يتم ضبطها في أعالي البحار، يبين هذا المفهوم القوة للناحية الفعلية لنشاط القرصنة وتعاطي القرصنة تحت رعاية السلطة الحاكمة[2]،

رغم وجود الحرية المطلقة للقباطنة في تسليح سفنهم وممارسة القرصنة،إلا أنهم كانوا يطلبون إذنا من الداي الذي لا يرفضه أبدا، بل يخضعون أحيانا لأوامره بإرسالهم الى البحر والقيام بعملية القرصنة، كما كان يأمرهم بالانضمام الى قوات أسطول السلطان، وللقبطان المسؤولية الكاملة عن وضع سفينته وتجهيزها من اجل المشاركة في

---

[1]- Lloyd, Christopher, English corsairs on the Barbary coast, Collins, London, 1981, P23.

[2]- Ibid, P23.

الغنائم التي قد يتم العودة بها، وكان عدد السفن المسلحة عادة ما يفوق العشرين سفينة ولا يقل عن ذلك، وعند الحصول على الغنائم تستقبل الدولة الثمن منها ثم يتم تقسيم الباقي بمقدار النصف[1].

كانت عبارة القرصنة تستعمل في الوثائق الرسمية لشمال افريقيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر بمعنى حرب بحرية منظمة و شرعية، أي نفس الحرب التي كانت تمارسها البلدان الأوروبية وتطلق عليها اسم " كورس " Course مميزة إياها عن لصوصية البحر Piraterie، ولم تتخذ القرصنة معناها السلبي الا في القرن التاسع عشر لما تخلت أوروبا نهائيا عن هذا النشاط وصار التغيير على بلدان شمال إفريقيا التي كانت تروم غزوه[(2)]

القرصنة في الفضاء المتوسطي:

بعيدا عن البر هناك في البحر المتوسط كانت تدار أعتى المعارك تنبىء عن صراع قديم تجدد في العصر الحديث أفرزته القوى المتصاعدة متمثلة في الخلافة العثمانية التي زحفت من الشرق وامتدت الى بلاد المغارب مما اعطى السيطرة البحرية المغاربية الشبه كاملة على الحوض الغربي للمتوسط بالتالي رسمت العلائق بين ضفتي المتوسط على نحو ميزه النشاط القرصنى ونتائجه المؤثرة على أعلى مستويات العلاقات الدولية خاصة السياسية والدبلوماسية وحتى الاقتصادية.

وبذلك فقد شهد الحوض الغربي للبحر المتوسط حربا ضروس وصراعا مريرا بين الممالك المسيحية، والايالات المغاربية العثمانية طيلة الفترة الحديثة، وكانت القرصنة والأسرى والغنائم إحدى مظاهرها الكبرى، تخللها المعاهدات والامتيازات والعلاقات الدبلوماسية في حالة السلم، إلا ان نشاط القرصنة كانت محور التفاعل بين هذه الأمم، فحدد مصائرها في الكثير من المرات حين أذعنت الدول الأوربية وألزمت بدفع الأتوات مقابل أمن سفنها.

---

[1] طوماسشو، رحلة إلى إيالة الجزائر، تر: لخضر بوطبة، دار الباحث، الجزائر، 2022، ص ص118-119.

[2]. محمد الهادي الشريف، ما يجب ان تعرفه عن تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ الى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش ط3،ص74

ويعود سبب الأسر الجزائري للأوربيين الى ردة فعل مباشرة لاسترقاق هؤلاء للمسلمين [1]،كما كان وقوع الأسرى الأوربيين نتيجة للحملات بين المسيحيين والمسلمين بشمال إفريقيا مثل حملة مستغانم التي وقع فيها الكثير من الأسرى رفقة قائدهم **الكونت دالكوديت**، وأيضا كان يتم القبض عليهم في عرض البحر الأبيض المتوسط أو بالقرب من شبه الجزيرة الايبيرية[2] وكذلك سواحل **جنوة،مالطا، نابولي** وغيرها [3].

النزعة الدينية الصليبية:

إن المتتبع لمختلف القضايا التي عالجتها الكتابات التاريخية الأوربية يجدها لا تخلو من نزعتها الدينية الصليبية، فهي الواجب المقدس في نظرهم، ويشير مولاي بلحميسي أن لهذا التحيز الأعمى ما يفسره، فالصراع الديني قائم ورجال الكنيسة يملون ما يريدون ومصادر المؤرخين رهبان غلاة أو أسرى حرب في حاجة الى شهرة أو ضباط يحلمون بترقية أو قناصل عرفوا بالطش. وهكذا أطلق العنان للأقلام حتى تستطيع أوربا أن تجند طاقاها بعد أن ملأ الرعب قلبها وتنقض عل زعيمة المقاومة الإسلامية في الحوض الغربي من الأبيض المتوسط وكان المؤرخون ينظرون الى إيالة الجزائر وكأنها منبع الأخطار ومصدر كل شر وموطن الأمراض[4].

فبعد سقوط غرناطة عام 1492، أصبحت ويلات القراصنة أكثر خطورة. استقر عدد كبير من العائلات المغربية من إسبانيا في شمال إفريقيا ؛ لقد كانوا غاضبين للغاية من مطالبهم لعدم السعي وراء كل فرصة للانتقام، ولأنهم يعرفون جيدًا سواحل بلدهم الأصلي، فقد وقع غضبهم بشكل طبيعي على الإسبان القريبين من البحر الأبيض المتوسط. لكن لم يقتصر الأمر على هؤلاء وحدهم، فقد كان التجار الإنجليز من أشد المعاناة ؛ في الواقع، أعلن المور عن أنفسهم علانية بأعداء العالم المسيحي المشترك[5].

---

[1]- يحي بوعزيز، الموجزفي تاريخ الجزائر،الجزائر الحديثة، د،م،ج،الجزائر 2009،ج2،ص185.

[2] -Rudy Chaulet,Olega (2014) , Le Rachat de Cachat de Captifs au xvl e siecle ,le cas de la redemptiom de cisnerras 1560 , 1567 cahiers de la medeterranee,N87,P05

[3]- يحي بوعزيز،المرجع السابق،ص185.

4 مولاي بلحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، مج3، ع2، 1جوان 1988، جامعة الجزائر 2، ص 103.

[5]Lieut.-Colonel E. L. Playfaik, The Scourge Of Christendom Annals Of British Relations With Algiers Prior To The French Conquest, London, 1884, P1.

ويبدأ تاريخ الجزائر كدولة قرصنةفي عهد خير الدين. عاما بعد عام أصبحت أعمال النهب التي يقوم بها القراصنة البربريون أكثر جرأة. لم يتمكنوا من إعالة أنفسهم دون التجول في البحر بحثًا عن النهب، وهو ما فعلوه، دون أدنى خوف أو تخوف، حتى شواطئ إنجلترا. وفي أوقات أخرى، كانوا يحملون المنشقين معهم كمرشدين، ونزلوا عن عمد على سواحل وجزر البحر الأبيض المتوسط، ونهبوا البلدات والقرى والمزارع، ونقلوا سكانها إلى أكثر الأسر بؤسًا. بهذه الطريقة دمروا تمامًا كورسيكا وسردينيا وصقلية وأجزاء كثيرة من ساحل إيطاليا وإسبانيا وجزر البليار. لقد انتحلوا لأنفسهم بالحق في شن حرب على كل دولة في أوروبا لم تشتر صبرهم من خلال الجزية أو المعاهدات الخاصة، ورفضوا تمامًا أن يكونوا على علاقة ودية مع أكثر من واحد أو اثنتين في وقت واحد، بحيث قد يكون حرا في نهب المسجل. لقد فرضوا أكثر الشروط والقيود إذلالا في الأمور المتعلقة بالشؤون الداخلية للقوى المسيحية، على وجه الخصوص[1]

ويظهر لنا مشهد العلاقات الدبلوماسية في البحر الأبيض المتوسط من خلال نقطة التحول الرئيسية في القرن السادس عشر بعد توسع الإمبراطورية العثمانية إلى وضع ممالكشمال إفريقيا ماعدا المغرب تحت وصاية البا ب العالي. لذلك فضلت قوى أوروبا الغربية إقامة علاقا ت دبلوماسية مع اسطنبول،بما في ذلكتسوية المسائل التجارية والعسكرية مع إيالات الجزائر وتونس وطرابلس. وهكذا منح السلطان العثماني "الامتيازات"، التيتُفهم على أنها مجموعة من الحقوق الممنوحة لمواطني القوى الأوروبية، والتي حسمت على وجه الخصوص مسألة الاتفاقيات الاقتصادية وشروط وجود التجار المسيحيين في مدن وموانئ الإمبراطورية. ومع ذلك،بدا أن البا ب العالي يكافح لفرضبنود معينة من الامتيازات على المناطق المغاربية، لاسيما فيما يتعلق بالقرصنة وافتداء الأسرى. منذبداية القرن السابع عشر، حيث أقامت فرنسا والمدن الايطالية وإنجلترا، بالإضافة إلى التنازلات الممنوحة من الدولة العثمانية، علاقا ت مباشرة مع الايالات العثمانية في المغرب العربي وبدأ ت ف ي إبرامسلسلة من معا هدا ت السلام والتجارة المنفصلين. مع قوىشمال إفريقيا. ليمنع العدد الكبير من هذه المعا هدا ت الت يتم

[1]Ibid, P4.

التصديق عليهابين الدول الأوروبية ودول المغرب العرب ي، خاصة خلال النصف الثان ي من القرن السابع عشر[1]

مصادر الاسطوغرافيا الغربية:

درجت الكتابات الأوربية على تشويه الحقائق وأبانت عن براعتها في رسم الترجيديا والدراما لسلب العقول قبل كسب القلوب بتغليط الرأي العام بأن القرصنة تمارس من طرف واحد وهم البربريسك لصوص البحر الخارجون عن القانون، وذلك من خلال ما أورده الرحالة والتجار ورجال الدين والقناصل والأسرى ومبعثوا الدول الأوربية والجواسيس ابتداءا من هايدو**D.Haedo**وانتهاء بشالر**W.Shler** مرورا بالأب بيار دان **P.Dan**، ودابير**Dapper**،ودافتي **Davity**،دراندا**D'Aranda**،سيور دولاكرو ا**S.delacroi**، سانسون**Sanson**، دابفيل **D'Appeviele**،فاي**Fay**غاسبار**Gaspart**، دانكور**Danccour** شاو **Shau**، بايصول **Peysonnel**، فانتور دو بارادي**F.de Paradis**، وبوتان **Boutin**، وتافيل**Thainville** وغيرهم وصولا بالنتيجة إلى الكتابة المعاصرة للمؤرخين الأوربيين خاصة الفرنسيين وأساليبهم الممنهجة في تشكيل قضية القرصنة على نسق نظرة السابقين أمثال كريستيان كورتوا، وجورج ايفير، وجزافي ياكونو، وشارل تيار، وبيليفر، جون كلود فاتان، بروديل وغيرهم وهكذا نجد وإن تعددت الفئات ومشاربها الفكرية فنظرتها وصياغتها منحازة تكفلها العاطفة الدينية المتأججة إذانا باستمرار الحقد الصليبي وحربه المعلنة على الاسلام والمسلمين.

وفي هذا الصدد يؤكد ناصر الدين سعيدوني على أن الشيء الملاحظ، هو أن هاته المصادر، مع أهميتها ومعاصرتها للأحداث إلا أنه لاعتبارات ظرفية وموضوعية لا يمكننا من تجديد نظرتنا للعهد العثماني وإعادة صياغة أحداثه بمنظور مبتكر وتصور موضوعي، بل تؤدي بنا في غالب الأحيان إلى إعادة صياغة الأحداث من خلال نظرة سطحية قد لا تتاثى والواقع التاريخي في حد ذاته[2]

القناصل:

1-Guillaume Calafat, Les Interprètes De La Diplomatie En Méditerranée. Traiter A Alger (1670-1680), Jocelyne Dakhlia; Wolfgang Kaiser. Les Musulmans Dans L'histoire De L'europe : Tome 2, Passages Et Contacts En Méditerranée, Albin Michel, , P372.

[2] ناصر الدين سعيدوني، مكانة مصادر الأرشيف الجزائري في إعادة كتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، مج3، ع2، 1جوان 1988، جامعة الجزائر2، ص 112.

كثيرا ما يتعين على القنصل نقل الصورة النمطية للبلاد التي يمارس فيها عمله كقنصل لبلاده، فيعمد أوضاعها الجالية والتقصي عن أحوالها بمعاينتها وحل مشاكلها، كان لنشاط البحري الجزائري سمعة سيئة مع المؤرخين الأوروبيين القلائل الذين درسوا هذه المسألة .في عام 1884، كان السير لامبرتبلايفير، قنصلًا في الجزائر العاصمة، كتب كتابًا بعنوان "بلاء العالم المسيحي"، والذي يلخص وجهة النظر التقليدية للقرون الثلاثة السابقة .استولى القراصنة البربريون على السفن المسيحية واستعبدوا بحارتها .كان الأتراك يحكمون مناطق الساحل البربري .كان رد فعل العالم المسيحي وفقًا لذلك.كما ذكر القنصل الأمريكي" **كاثكارت**" أن هناك نقص شروط الصّحة والنظافة انتشار العنف داخل السجون "[1].

الأسرى الأوربيين:

ركزت كتابات الغربيين على موضوع الأسرى واعطتها حجما قياسيا وكونت لها صورة أصبحت هي السائدة عند عرض تمثلات القرصنة وأصبحت العبودية المسيحية في الدول البربرية من أعمق الاهتمامات .عندما كانت تلك نشاط القرصنة في أوجها خلال القرن السابع عشر، حيث كان هناك من 20.000 إلى 30.000 أسير في وقت واحدالجزائر وحدها، تمثل كل أمة في أوروبا، وكل رتبة في المجتمع، من نائب الملك إلى البحار العادي، رجال من أرفع مكانة في الكنيسة، من أدباء، وعلماء، وقد كان محكوم عليهم أن يقضوا حياتهم في الأسر .لم يعد الغالبية أبدًا إلى موطنهم الأصلي، وقليلون نسبيًا تركوا لنا سردًا تفصيليًا لمعاناتهم، أو سجلًا للأحداث الدرامية التي تمر كل يوم من حولهم[2].

كما كان الأسرى أنفسهم دور في نقل صورة عن حياتهم التي عايشوها في الأسر وربما بالغوا في ذلك أمثال فرانسيس نايت وماريا مارتين وديبغو هايدو والاب بيار دان وميغال دي سرفنتيسوأوكاليوتوماس شو وغيرهم كثير

حيث أشار **قوديفروي"GODEFROY"**يتعرض الأسرى لأبشع صور العقاب وسوء المعاملة التي لم تكن معروفة تقريبا في كل البلدان الأخرى "، ومن الأسرىأيضا " **باناتي"**

---

[1] . جيمس لندر، كاثكارت، مذكرات اسير الداي كاثكارت قنصل امريكا في المغرب، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي، ديوأن المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982،ص 56،60 .

[2]Op.cit, P8.

حيث ادعى هذا الأخير بأن الأسرى يعيشون حياة مأساوية وأنهم محرومون من اللباس والغذاء [1].

مذكرات الرهبان:

كان لرجال الدين نصيب لا يستهان به في الاسطوغرافيا الغربية وتعتبر كتاباتهم احدى القنوات الخطيرة المسربة للأحداث مع تضخيمها، وتشويه سمعة الاخر بما لا اساس له من الصحة ومن الأمثلة على ما ذكرهقساوسة الفداء في العمل الدعائي والجوسسةبأساليب واليات مختلفة يمكن استخلاص ذلك باستقراء العديد من الكتابات الدعائية ومقارنتها بكتابات أخرى معاصرة لها وقد يظهر ذلك جليا عند الاستعانة في عملنا النقدي بقراءات وتحاليل لبعض الكتاب والمؤرخين .

لقد عمل القساوسة على إثارة الرأي العام حول قضية تحرير الأسرى وذلك من خلال النشاط الدعائي والذي تمثل في الكتابات والتقارير العدائية ضد الجزائر عبر مجالات مختلفة واصفين معاناة الأسرى، إذ قدموا صورة سوداء عن حياتهم، زيادة على ذلك تحاملت كتابات المفتدين بالطعن في الرموز الثابتة للمجتمع الجزائري كالعادات والتقاليد وحتى الدين الإسلامي [2]

كما كانوا يحثون الكنيسة لجمع المال لافتداء الأسرى الأوربيين بنداء الأمة المسيحية تستغيث في ديار الغربة، وانطلاقا من عناوين كتبهم ومؤلفاتهم تصف سكان شمال إفريقيا بالبربر التي رسخت في المخيال الغربي على أن معنى البربريسك مرادف للهمجية والوحشية وممارسة اللصوصية، ووصفت الجزائر العاصمة بجحر اللصوص، وعش الصعاليك وجحيم النصارى، وجمهورية قطاع الطرق[3]

وهكذا نجد أن الرهبان والقساوسة لهم الحظ الأوفر في الدعاية والجوسسة نتيجة تعاملهم مع مختلف فئات الحكام بالجزائر خلال حرب العثمانيين حيث تم التعرف على نقاط القوة والضعف داخل الايالة وارفعوها بالتقارير أرسلت الى بلدانهم

---

[1] - PANANTI, Relation d'un séjour à Alger, contenant des observation sur l'état actuel de cette régenc.

[2]. دبداب بومدين، المهام السرية لمفتدي الأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية،مج 9،عدد1،جوأن 2018، ص42

[3] مولاي بلحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، مج3، ع2، 1جوان 1988، جامعة الجزائر 2، ص 102.

الأصلية تثير الحقد الصليبي المسيحي ضد مسلمي الضفة الجنوبية بالمتوسط اذ نصبو أنفسهم منظرين للحملات الأوربية الحربية ضد الجزائر.

كتابات المؤرخين:

تعتبر مهنة المؤرخ محددة وهي إعادة بناء الحقيقة التاريخية، لكن الحقيقة عند هؤلاء تعدو غير ذلك فنجدها قد جانبت الموضوعية وساهمت في فتح فجوة عميقة بين من يريد إعادة صياغة الحقيقة التاريخية وفق ما يمليه المنهج العلمي من موضوعية وأمانة علمية والتجرد من الذاتية، وبين من يريد خدمة إيديولوجية معينة، وبذلك تفسر الأحداث وفق هذه الايديولوجية

معظمهم للتأريخ لهذه الفترة ركزوا على ما يسمى باللصوصية والاعتداء من جانب واحد

القرصنة وانعكاساتها على الصراع في المتوسط:

لإعطاء نظرة شمولية للقضية المطروحة وإزاحة ما يسمى اللغط الذي يخدم إيديولوجية لصالح جهة معينة، فالقرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط تختلف اختلافا تاما عن القرصنة في المحيط الأطلسي، فالأولى لها قواعدها وأعرافها وتقاليدها، حيث كثير ما يعقبها مفاوضات بين الدول والمدن التي تحدث بينها أعمال القرصنة، بل تعداه إلى تبادل القناصل، مع تدخل مختلف الهيئات[1]

وعلى رأي بروديل المخالف فيما يخص القول أن القرصنة مرتبطة أساسا بالعامل الديني (المسيحية والإسلام)، ويظهر هذا في قوله : " إن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كلها دون أن تعرف دينا أو وطنا، فهي مهنة للعيش تتوسل الدين كذريعة حملها المؤرخون على محمل الجد فأتت استنتاجاتهم متسرعة."[2]

ما يميز الاسطوغرافيا الغربية هي معالجة مسألة القرصنة للإيالات المغاربية على انها لصوصية خارجة عن القانون ويجب ردعها ووضع حد لها، ومن جهة أخرى نجدها تسعى لتوظيف ابعاد النسق التاريخي لخدمة مصالحها التي تتوافق مع سياستها إزاء خصومها الأقوياء خاصة أن الجزائر شكلت ضغطا رهيبا على الدول الأوربية التي حاولت

---

[1] فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي،ط1، تعريب مروان ابي سمرا، دار المنتخب العربي، 1993، ص ص 150-152.

[2] - نفسه، ص152.

بشتى الطرق للحد من هذا النشاط المتنامي خاصة بداية القرن الثامن عشر، وبذلك تتكون الصورة النمطية للحوض الغربي للمتوسط.

والآليات المنتهجة لا يمكن حصرها في مجال واحد ونظرا لأن العملية معقدة فقد احتملت وجهات نظر متعددة وبذلك تعود مسألة التنظير للقوانين البحرية وفق ما يخدم مصالح هذه الدول دون مراعاة الطرف الآخر الذي يتشارك المنطقة الاقليمية للبحر المتوسط وهنا يمكن القول ان الدول الغربية اصطنعت هالة كبيرة أصبحت كمغالطة تاريخية تعتمد عليها هذه الدول لتجد ما ترتكز عليه في تحقيق مآربها، وبذلك فهي بعيد كل البعد عن الموضوعية في تناول مثل هكذا قضايا وبخاصة وصف النشاط العثماني في الحوض الغربي للمتوسط باللصوصية ووصفوا إيالة الجزائر بأنها وكر اللصوص.

اسطوغرافيا القرصنة في خدمة الايديولوجية الغربية:

المخيال الأوربي الذي عبر عنه أحد نبلائها الفرنسي السيد دغرامي عندما كان في مهمة رسمية الى القسطنطينية بما يميز مدينة الجزائر المحروسة ودورها في تاريخ البحر الأبيض المتوسط حيث يقول:" **مدينة الجزائر ذلك السوط المسلط على العالم المسيحي إنها رعب أوربا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر**" [1].

وقد وصفها التاجر الانجليزي وليم دافيس بقوله: " **المدينة القوية الرائعة**"، فهذا الحكم يستجدي منا الوقوف على النظرة المخيفة لهؤلاء الذين يقفون على أعتاب مدينة الجزائر وينحون إجلالا لرهبتها رغم كل ما يقولنه أو ما يفعلونه ضدها، ومن خلال هذا نستعرض مظاهر الاسطوغرافيا الغربية في ما يلي:

المظهر الديني:

تؤسس ظاهرة القرصنة المتوسطية للصراع المسيحي الاسلامي، فعلى اثر بسقوط رودوس 1522م ازدهرت القرصنة الاسلامية انطلاقا من شمال افريقيا، وعليه نمت بسرعة بعد السيطرة العثمانية على المتوسط سنة 1538م، أما بعد الانتصار الأوربي المسيحي على العثمانيين في معركة ليبانت 1571م، زاد التفوق المسيحي والسيرة بد من سنة 1580م مما سمح بزيادة النشاط القرصني المسيحي ومع بداية القرن السابع عشر ومع تقدم التقنيات الجزائرة اتجهت انظارها الى الأطلسي، بينما كانت السيطرة واتفوق

[1]- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص14.

للماطيين في الحوض الشرقي للمتوسط[1]وهذا ما عبر عنه جون وولف عن ذلك بقوله: " لقد كان الأمر بالنسبة للطرفين المسيحي والإسلامي أمر جهاد وحرب مقدسة[2]"، وهذا ما أكده أيضا كورين شوفالييه بقوله: " بالنسبة الى المسلمين فإن القرصنة قبل شيء هي شكل من الجهاد في البحر ولو أا تتخذ أحيانا طابع الحروب الصلبية من جانب المسيحيين وتعتبر خاصة مشروعا يهدم مداخله وعائداته فقط"[3].

المظهر الاقتصادي:

اصطبغت ظاهرة القرصنة المتوسطية بصبغة الحرب المقدسة عند المسيحيين والمسلمين على حد سواء، ولكن سرعان ما بدأتالصبغة الدينيةتخفت فاتحة المجال للطابع الاقتصادي، ولم تكن القرصنة نشاطا فرديا، بل نشاط شبكات جماعية منظمة من طرف الدول، وهي بمثابة حرب معلنة ضد المدن والقرى لاقتناص الأسرى وقطعان الماشية والثروات لتعتاش منها كل من الدول والمدن، فمدينة الجزائر شهدت نشاطا لهذه الشبكات حيث أصبحت مركزا مهما تقصده السفن المسيحية لتشتري منها الأسرى ومختلف السلع، وفي الجهة المقابلة كانت مالطا مركزا للقرصنة وشبكاتها حيث ازدهرت تجارتها[4].

يشير بروديل أن من أسباب إزدهار الأعمال القرصنية المتوسطية هي الوفرة الإقتصادية المتوسطية[5]هناك تصور بأن أعمال القرصنة مرتبط بالاقتصاد من أمثال دي غرامونDe Grammont وبيار بوبي P.Boyerوأندري نوشي A.Noshi ويأخذون بهذا التصور ويجعلونه سببا في تقهقر الاقتصاد الجزائري في نهاية القرن السابع عشر مرده الى تراجع الجهاد البحري، بالإضافة الى شن الحملات الأوربية لشل هذا النشاط[6]، وفي هذا الصدد يؤكد نبيل مطر أن القرصنة

---

[1]فرنان بروديل، المرجع السابق، ص 152.

--[2]جون .وولف، الجزائر و أوربا (1500- 1830)، تر: أبو القاسم سعد الله،عالم المعرفة، الجزائر، ص239.

[3] -كورين شوفاليه، الثلاثون سنة لقيام دولة الجزائر 1541/1510،تر جمال حمادنة،ديوان المطبوعات الجامعية،تلمسان، 2007، ص49.

[4]فرنان بروديل، المرجع السابق، ص 152.

[5] - نفسه، ص 153.

[6]حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ص 72.

المظهر الأدبي والروائي:

أصبحت كتابات الأسرى مادة دسمة تستلهم الأدباء والروائيين والمسرحيين ساهمت أيضا وبشكل كبير في ترسيخ تلك التصورات التي نسجت من وحي الخيال وصارت مصدر رزق يتكسبون منه على حساب تشوبه رجال البحرية الاسلامية، لتنشأ الاجيال على فكر ينمي بدوره الحقد الصليبي في وجدانهم.

الخاتمة:

ومن خلال هذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج الهامة فيما يلي:

يعد مصطلح القرصنة البحرية في العصر الحديث من أهم المصطلحات ذات الاستعمال الواسع، مما يجعله مصطلح متداخل ويحتمل وجهات نظر متعددة لاختلاف المصالح والايديولجيات

أصبحت القرصنة نقطة تقاطع لمختلف كتابات الأوربيين من القناصل والتجار والرهبان والرحالة وغيرهم، حيث سوقوا نظرياتهم لما يخد مصالح بلدانهم فجاءت كتاباتهم مليئة بالاتهامات الباطلة، بل أكثر من ذلك فقد دعوات تحريضية بتوجه حملات تأديبيةللاياياالات المغاربية.

الحقد الصلبي الظاهر علنا بتأجيج الكنيسة، ومباركتها لأعمال القرصنة الأوربية ضد السفن المغاربية، خاصة كتابات الرهبان والقساوسة التي صورت حياة المسحيين بأنها تراجيديا مأسوية يمارسها حكام البلاد المغاربية بلا رحمة ولاشفقة .

تحامل سافر روجته كتابات الأوربيين حول نشاط البحرية المغاربية وإدراجها في حقل الخارجين عن القانون، واصفين مراكز الجهاد في الضفة الجنوبية للمتوسط بأنها وكر للصوص وجحيم النصارى.

إن تقارير الأسرى المسيحيون حملت الكثير من اللامصداقية كونها كانت عبارة عن ملاحظات ولهذا كثير منها حمل التضخيم في طياتها خدمة للكنيسة الأوربية والسلطة المركزية من اجل الإسراع في التحرير وكسب تعاطف الجماهير الأوربية والتفكير جديا في القضاء على قوة الجزائر الدولية .

ما ميز الأسطوغرافيا الغربية أنها اتصفت بالذاتية وعملت على ابراز رسالة أوربا الحضارية وعقدة التفوق الأوربي على الآخرين وبذلك كانت بعيدة عن الموضوعية والأمانة العلمية في تقديرها للأحداث وتقديم تفسيرات وتحليلات لمختلف الأحداث بحسب ما يخدم المصالح الامبريالية الأوربية ومشاريعها الاستعمارية.

توصيات الملتقى:

- الإعداد لاستصدار خاص في شكل كتاب جماعي لبعض المقالات المنتخبة على أسس علمية وموضوعية ومنهجية.

- ترجمة الأعمال والكتابات الخاصة بتاريخ البحر الأبيض المتوسط خلال العصرين الوسيط والحديث.

- فتح المجال واسعا أما المتخصصين لدراسة الحيثيات والمنطلقات للإحاطة بالتاريخ السياسي والعسكري لحوض البحر الأبيض المتوسط، لمعالجة مختلف الجوانب التاريخية

- عقد ندوات وأيام دراسية مكثفة يمكن الأساتذة والباحثين تبادل الخبرات في مثل هذه المواضيع الاستراتيجية طلبا للانفتاح الفكري باعتبار أن نشاط البحرية الجزائرية في إطار الجهاد البحري ضد العدوان الصليبي الأوربي خاصة إسبانيا.

- استكمال هذا المسعى بطبعة جديدة لمؤتمر دولي حول المجال المتوسطي والقضايا الدولية سنة 2001.

وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ